

كارستن نيبور

رحلة إلى مصر

١٧٦١ - ١٧٦٢



ترجمة : دكتور مصطفى ماهر

الإعداد الفني : حلمي مراد

إهـــــداء2005

أ.د./ محمد عثمان نجاتي

القاهرة

كارستن نيبور

رحلة إلى بلاد العرب وماحولها

١٧٦١ - ١٧٦٧

الجزء الأول

رحلة إلى مصر

١٧٦١ - ١٧٦٢

ترجمها عن الأصل الألماني
وعلق عليها وقدم لها

دكتور مصطفى ماهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

هذا الرحالة .. وهذه الرحلة

ربما كان من المفيد قبل أن نتعرض للحديث عن « كارستن نيبور » ورحلته التى قام بها فى القرن الثامن عشر (١٧٦١ ـ ١٧٦٧) ، أن نعود الى الوراء الى أبعد ما نستطيع ، ونحاول القاء شيء من الضوء على أجيال الرحالة الألمان السابقين عليه،والأسباب التى دفعتهم الى الخروج من ديارهم والسير الى بلاد المشرق والتجول فى ربوعها .. حتى نهيىء لموضوع بحثنا الخلفية المنطقية . ولعلنا نشير بعد ذلك الى دراسات تتناول تطور الرحلات بعد كارستن نيبور ، حتى يعود اليها من يريد استكمال الموضوع من كل نواحيه .

من أسفار الحجاج ، الى رحلات العلماء

وأغلب الظن أن رجال الدين كانوا أسبق أهل الغرب فى العصر الوسيط الى تسجيل رحلاتهم،وان كان الأقرب الى البداهة أن نفترض أن الملاحين والمحاربين كانوا أسبق الناس الى الخروج من أوطانهم ، وان التجار وحملة السفارات قد ينافسونهم فى هذا السبق . ولكن الخروج من الديار ، وجوب البقاع القريبة والبعيدة ، لا يعنى بالضرورة تسجيلها .

وأقدم رحلة قام بها رجل من رجال العصر الوسيط الى فلسطين ومصر وغيرها ، ثم دونها ، هى فيما أعرف رحلة المطران أركولفوس[1] Arculfus فى عام ٦٩٧ • وكانت أوروبا فى ذلك العصر مؤتلفة أكثرها فى دولة الفرنجة الكبيرة ، لم تتحدد فيها ألمانيا وفرنسا وغيرها من البلدان بحدود واضحة ، وكانت أقرب اللغات الى قلم الكاتب هى اللغة اللاتينية •

وهكذا كتب أركولفوس رحلته باللاتينية • كذلك فعل الراهب « برنارد » عندما دون رحلته التى ساقته فى عام ٨٧٠ الى البلاد المقدسة ، « وفيلليبرانت الأولدنبورجى » الذى نزل فلسطين فى عام ١٢١١ • وقد جمع الباحثان « روريشت » و « مايسنر » أخبار هذه الرحلات التى قام بها حجاج بيت المقدس من رجال الدين ومن غير رجال الدين ، ونشراها فى كتاب قيم ظهر فى مدينة (انسبروك) بالنمسا فى عام ١٩٠٠ •

وكانت كتب رحلات هذه المرحلة مقتضبة ، تلتصق بالكتاب المقدس أشد الالتصاق ، حتى ليظن القارىء وهو يطالعها أن أصحابها لم يروا شيئا من هذه البلاد التى نزلوها ، وأنهم اكتفوا باستخراج المعلومات الجغرافية الواردة فى الكتاب المقدس بعهديه ، وضمها معا • فهم يتحدثون عن الأنهار الأربعة التى تنبع من الجنة ، ويتحدثون عن البحر الأحمر الذى عبره موسى بقومه ، وعن الجبل الذى تلقى فيه موسى التوراة ، وما الى ذلك • ثم تطورت كتب الرحلات واتسعت وامتلأت بالملاحظات[2] الكثيرة ووصف البلاد والعباد •• ومن أمثلة هذه الرحلات المدونة : رحلة « فون برايدنباخ » B. von Breidenbach « وفابرى » F. Fabri. فى

(1) Beschreibung der Reise, die der franzoesische Bischof Arculfus im Jahre 697 nach Palaestina, Aegypten, Konstantinopel usw. gemacht hat und die von Adaman schriftlich festgehalten wurde

2) Hans-Rudolf Singer, Deutsche Forschungsreisende in arabischen Laendern S.219, in : Araber und Deutsche, Tuebingen 1974

انظر أيضا « ألمانيا والعالم العربى » ترجمة مصطفى ماهر ، بيروت ١٩٧٤ الأصل المعنون « رحالة بحاثة ألمان فى البلاد العربية » ص ٢٧٧ ــ وهو الترجمة العربية للبحث الألمانى •

عام ١٤٨٣ ، ورحلة « أرنولد فون هارف » Ritter Arnold von Harff التى بدأها فى عام ١٤٩٦ وختمها فى عام ١٤٩٩ ، وحل خلالهـا فى مصر واثيوبيا واليمن وغيرها من البلاد الشرقيـة ، ووصف الكثير من أحوال مصر فى أيام السلطان المملوكى قايتباى .

ونحن نقرأ رحلة « فون هارف » فنجـد فيها الجديد ، وتبين أن أهداف أولئك الرحالة قد تغيرت ، فلم يعد الحج الى بيت المقدس هو وحده الذى يجتذبهم ، بل أصبح السعى الى العلم والمعرفة ، والحرص على الأخبار العجيبة والمغامرات المسلية يشد الكثيرين منهم [1]. فقدشهدت العلاقات بين الشرق والغرب ابان الدولة العربية فى الأندلس والحروب الصليبية تحولا كبيرا ، وسمع أهل الغرب الكثير من أخبار الشرق العجيب القوى الغنى ، وأصبح كتاب الرحلات مطالبين بالافاضة والاسهاب لارضاء نهم القراء الى التفصيلات ، التى ما لبثت مقاييس العلم بمعناه الحديث أن حكمتها وضبطتها . وتقوم رحلة ليونهارد راوڤولف[2] الذى توفى فى عام ١٥٩٦ شاهدا على هذا الاتجاه الجديد[3] .

والحق اننا نلاحظ عندما نقرأ رحلة « ليونهارد راوڤولف » ان عصر النهضة قد غير أفكار حملة الثقافة فى ألمانيا ، وأن التقصى العلمى الدقيق

---

(1) Arnold von Harff:Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff von Coeln durch Italien, Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien,Palaestina, dieTuerkei, Frankreich und Spanien, wie er sie in den Jahren 1496 bis 1499 vollendet beschrieben durch Zeichnungen erlaeutert hat. Nach den aeltesten Handschriften und mit deren 47 Bildern in Holzschnitten herausgegeben von Dr. E. Groote. Koeln 1860.

(2) Leonhard Rauwolf : Beschreibung der Reyss Leonhardi Rauwolffen, der Artzney Doctoren und bestellte Medici zu Augsburg... in das Morgenland. Frankfurt a. M. 1582

وله طبعات متعددة ظهرت فى القرن السادس عشر ، وطبعة جديدة ظهرت فى جراتس عام ١٩٧١ مصورة عن طبعة عام ١٥٨٣ .

(٣) تجد معلومات جيدة عن الرحلات المبكرة ورحلات الاستكشاف فى الكتابين التاليين :

R. Roehricht und H. Meissner, Deutsche Pilgerreisen nach dem Heiligen Lande, Innsbruck 1900.

W. Barthold, Die geographische und historische Erforschung des Orients, Leipzig, 1913, S. 23.

للأشياء بدأ يأخذ مكانه فى كتب الرحلات التى انتحت المنحى العلمى ، وأصبحت تسعى الى تصحيح الخرائط الجغرافية ، والحصول على معلومات ميدانية تفيد فى شرح الكتاب المقدس ، وفى تطوير المعرفة التاريخية المعتمدة على كتب قدماء اليونان واللاتين ، وجمع المعلومات العملية التى تفيد التجار ، وتفيد الساسة فى بداية عصور الاستعمار الحديث • ويتحدث «هانس رودولف زينجر» عن رحلة راوفولف فيقول: «نزل ليونهارد راوفولف فى سبتمبر من عام ١٥٧٣ طرابلس بلبنان ، وظل حتى عام ١٥٧٦ يجوب سوريا ومنطقة نهر الفرات وكردستان ، وكان فى هذا الوقت المبكر حريصا على الأسلوب العلمى فى ملاحظاته التي دونها ، ومجموعاته التى جمعها • وأقام فى حلب عاما كاملا مكنه من الابصار بأمور هامة فى العصر الأول للسيطرة التركية • كان عليه أن ينزل أمام باب المدينة من فوق حصانه ، فلم يكن مسموحا للمسيحيين بالدخول وهم على ظهور الجياد • وذهب الى فندق الفرنسيين المقيمين هناك والذى اعتاد الألمان النزول به ، ووجد بعض الألمان المقيمين هناك ووجد لهم قنصلا يحمى تجارتهم • ووصف بيوت المدينة بأسقفها المسطحة وأبوابها المنخفضة التى يضطر الانسان الى الانحناء اذا أراد الدخول منها • وذكر أن مدينة (حلب) تخلو تماما من المبانى المنيفة والأثرية ، وأن تلك صفة تشاركها فيها كثرة المدن السورية • ولم يذكر من بين البساتين القليلة والأماكن الترفيهية خارج المدينة سوى كشك للسلطان الأعظم كان يقيم فيه عندما يخوض غمار الحرب ضد صوفية الفرس ، ويعقد فيه مجالس شوراه • ووصف العادات والتقاليد ، وصور الحياة العامة والخاصة للترك فى حلب ، ووصف حكومة الباشا ، وتحدث عن تغيير الباشاوات وحياة الترف التى تتصل فى بلاطهم وحريمهم ، وما يحتاجون اليه من أجلها من أموال كثيرة يحصلونها بالقهر والاكراه ، ولا يستطيعون مهما أخذوا أنفسهم بالتقتير أن يجمعوا منها ثروة يورثونها أولادهم ، لأنهم عبيد السلطان ، فاذا مات الباشا آلت أملاكه الى السلطان ، كما يؤول الارث الى الوريث ، ويرى راوفولف هذا كله سببا لفساد الأمور فى البلاد التى لا يقوم فيها مبنى كبير ، ولا

تزدهر ثقافة ، ولا يبتنى قصر ، ولا تنشط صناعة أو حرفة . ولكنه يذكر مع ذلك أن التجارة نشيطة ، والحركة متصلة لأن السلطان الأعظم نفسه يحمى التجارة من نزوات الباشاوات ، فموارد الجمارك والعطايا تأتلف عند الحكومة الى مبالغ كبيرة لا يحب السلطان تضييعها ، وهو لهذا يحمى التجار الأجانب وقنصلياتهم بفرمانات خاصة من تحرش الأهالى والموظفين بهم . ويذكر أن القوافل كانت تأتى الى هناك من فارس وأرمنيا ومصر والهند ، وأن كل أمة لها خان خاص بها تقيم فيه وتتجر فى بضائعها . ويذكر من بين البضائع خاصة المنسوجات القطنية الموصلية (الموسلين) ، والمنسوجات الحريرية والسجاجيد العجمية ، والبادزهر والمن والتوابل الهندية بأنواعها كلها ، والخزف الصينى والراوند والمسك واللؤلؤ والأحجار الكريمة مثل السيلان والياقوت وياقوت البلشان والعقيق والماس ، ويصف ما رآه فى متجر كبير من أقمشة نفيسة وتافت وحرير وفراء ، ويحدثنا عن الحلاقين والجراحين . أما صناع الأسلحة والعربات فقد بحث عنهم فلم يعثر لهم على أثر [1] .

خرجت الرحلات اذن عن النطاق الضيق الذى كانت محصورة فيه أيام كانت سجلا لانطباعات الحجاج ، واتجهت هذا الاتجاه العلمى الذى رأيناه والذى أخذ يشتد ويتنوع بمرور الزمن ، ثم اتجهت كذلك وفى الوقت نفسه الى الامتاع على طريقة الروايات الأدبية المسلية المليئة بالمغامرات . وتعتبر رحلة « يوهان ڤيلد Johann Wild » الذى وقع فى الأسر فى أثناء الحروب مع تركيا ، وبيع كما يباع العبيد وجىء به الى الشرق فى عام ١٦٠٤ ، نموذجا ممتازا لهذا النوع من كتب الرحلات[2] . فيوهان ڤيلد رجل بسيط لا يطمح الى اثراء العلوم بشىء ، بل يحكى قصة حياته المليئة بالمغامرات ، ولعله يخفى بعض الحقائق التى لا تعجبه ، ولعله يضيف من عندياته بعض الاضافات ، ولكن كتابه فى مجموعه صادق وممتع . وقد راج الكتاب فى

(١) ألمانيا والعالم العربى ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(2) Johann Wild, Reysbeschreibung eines Gefangenen Christen Anno 1604 Nuernberg 613. Neuauflage Stuttgart 1964.

زمانه رواجا شديدا وتعددت طبعاته • فهو يتحدث مثلا عن العقوبات التى توقع على شارب الخمر ومرتكب الزنا فيقول : « •• ثم قبضوا على رجل تركى خرج على الأمر ، وشرب حتى فقد صوابه ، فاقتادوه الى الباشا الذى أمر بجلده مائة جلدة على رجليه ، ووضعه على حمار ، بحيث يجبر على النظر الى الوراء ، والامساك بذيل الحمار ، ولف مصارين خراف عفنة حول رقبته ، ووضع كرشة نتنة مليئة بالروث على رأسه ، والدوران به على هذا النحو فى جنبات المدينة بصحبة مماليك السباهى • وبالفعل نفذت العقوبة كما أمر الباشا • وكان الصبية والغلمان يرمونه فى الطريق بالقاذورات ويسخرون منه ، وظل على هذه الحال حتى أخلوا سبيله • وهكذا كان عبرة للعرب والترك وتحذيرا لهم من أن من يفعل فعلته سيلقى ما لقى •• وفى مساء اليوم نفسه اقتادوا امرأة على ظهر حمار الى النيل وأغرقوها لأنها فعلت الفاحشة دون علم زوجها • فوضعوها فى زورق سار بها الى عرض النيل ، وعلقوا آنية كبيرة مملؤة بالماء فى رقبتها ، وألقوا بها فى الماء » (١) •

ويمكن القول ان أنواع الرحلات وهى : الرحلة العلمية ــ الرحلة المسلية ــ الرحلة الدينية ــ الرحلة السياسية ، أصبحت واضحة المعالم ، وان كل نوع منها سار فى طريق التطور ، فمنها ما انكمش مثل الرحلة الدينية ، ومنها ما عظم شأنه مثل الرحلة العلمية التى تسعى الى كشف جغرافى أو جيولوجى أو أثرى •

وتعتبر رحلة كارستن نيبور (١٧٣٣ ــ ١٨١٥) حلقة هامة فى سلسلة الرحلات العلمية(٢) . وقد تولدت فكرة هذه الرحلة العلمية عندما أخذ الأستاذ « يوهان داڤيد ميشائيليس » (١٧١٧ ــ ١٧٩١) يطبق فى شرح

---

(١) رحلة يوهان فيلد

(٢) عن الرحلات بعد كارستن نيبور ، انظر مقال هانس رودولف زينجر « رحالة ألمان فى البلاد العربية » ، ألمانيا والعالم العربى ، ص ٢٧٧ وما بعدها • كذلك ارجع الى كتاب « ف • بارتولد » الذى أشرنا اليه من قبل •

الكتاب المقدس منهجا قائما على الرجوع فى تفسير الكلمات والعبارات المختلفة الى الواقع الملموس ، ووجد أن من الضرورى أن يذهب واحد من علماء اللغات السامية الى البلاد العربية بالذات سعيا وراء المدلولات الواقعية لبعض نصوص الكتاب المقدس الغامضة . كان ميشائيليس استاذاً فى جامعة جوتنجن بألمانيا ،وكان على علاقة بالبلاط الملكى الدنمركى ، فرفع الفكرة الى هذا البلاط فى عام١٧٥٦ ، فتحمس لها وزير الخارجية « جراف برنستورف » Graf Bernstorff وطلب من الأستاذ ميشائيليس أن يأتيه بمرشح يصلح للمهمة ، على أن يتولى البلاط الدنمركى الانفاق على رحلته الى البلاد العربية . وبدلا من أن يرشح ميشائيلس المستشرق العظيم « يوهان ياكوب رايسكه » (١٧١٦ — ١٧٧٤) الذى كان زميلا له فى الدراسة ، والذى كان فى ذلك الوقت يبحث عن عمل لائق فى ميدان تخصصه ولا يخفى عن المقربين اليه ما وصل اليه من فقر وفاقة ، اختار تلميذا له ضيق الأفق قليل الكفاءة ، هو فون هافن . وأدرك الوزير بسعة أفقه أن ارسال شخص واحد لهذه المهمة أمر غير سليم ، وقرر أن تسافر بعثة علمية تضم الى جانب المتخصص فى اللغات ، متخصصا فى الجغرافيا ، ومتخصصا فى العلوم الطبيعية ، ومتخصصا فى الطب ، ورساما . وهكذا دار البحث عن أعضاء آخرين ، وشاءت المصادفات أن يقع الاختيار على كارستن نيبور .

كارستن نيبور



Carsten Niebuhr
im 76ten Lebensjahre.

كارستن نيبور في السادسة والسبعين من عمره
(صورة مأخوذة من المجلد الثالث للرحلة)

والحقيقة أن قصة حياة كارستن نيبور من القصص الطريفة ، فقد ولد فى ١٧ مــارس من عــام ١٧٣٣ فى (لودينجفورت) قرب ميناء (كوكسهافن) بناحية فريسلاند ، فى أقصى شمال ألمــانيا ، لأب يعمل بالزراعة ويمتلك شيئا من الأرض دون أن يكون الفقير المدقع أو الغنى الموسر . ولمــا لم يكن من المألوف فى ذلك الزمان أن يرسل الفلاحون أبناءهم الى المدارس ، فلنا أن نستنتج أن كارستن نيبور كان ذا موهبة فائقة للمألوف دفعت أباه الى ارساله الى المدرسة اللاتينية . ثم انقطع الصبى عن المدرسة لوفاة أبيه ، ولم يجد مجالا لممارسة الزراعة لأن الأرض لم تكن من نصيبه فى الارث ، فلم يرث الا قدرا من المال السائل . وهنا فكر فى أن يتعلم الموسيقى وأن يحترف العزف على الأرغن فى الكنيسة ، وظل نحو عام كامل يتعلم ويتدرب على آلات موسيقية مختلفة . ثم ضمه خاله اليه وشغله معه فى فلاحة الأرض . ولكنه ظل على حبه للعلم ، يتحين فرصة للأخذ بقسط وافر منه . وحدث أن قام نزاع فى القرية بين بعض أصحاب الأرض على حدود ممتلــكاتهم ، ولم يكن بالقرية متخصص فى المساحة قادر على حسم هذا النزاع ، واضطر أصحاب الحل والعقد الى الاستعانة بمساح من قرية مجاورة . وهنا وجد كارستن نيبور ضالته ، فقرر أن يتعلم المساحة حتى يكون لقريته مساحها وتكون له حرفة أخرى غير الفلاحة .

وذهب ابن الثانية والعشرين الى (هامبورج) ليتعلم الهنــدسة فى جامعتها ، وكان عليه أن يعد نفسه لمستوى التعليم الجامعى ، فتلقى دروسا خاصة وأكب على الدرس والتمرين فى ظروف معيشية قاسية جدا حتى تمكن من متابعة محاضرات الأستاذ بوش . ثم انتقل للدراسة فى جامعة جوتينجن على أمل العمل فى سلاح المهندسين التابع لحكومة هانوفر. ومن المؤكد أنه لفت أنظار أســاتذته وزملائه بمــا اتصف به من ذكاء

ومثابرة وما تحلى به من خلق قويم • وفى صيف ١٧٥٧ وقع الاختيار على نيبور للاشتراك فى البعثة المسافرة للبلاد العربية ، ووافق البلاط الدنمركى على منحه راتبا شهريا والسماح له بفترة للاستعداد يتعلم فيها الفلك والرسم ورسم الخرائط •

وأكب كارستن نيبور على المهمة ، ولم يكتف بتعلم هذه المواد ، بل أعد نفسه بدراسة مستفيضة للمصادر التاريخية والرحلات السابقة ، ودرس شيئا من الميكانيكا ، ومن الحرف اليدوية ، وبذل جهدا كبيرا فى دراسة اللغة العربية على يد ميشائيليس الذى كانت معرفته باللغة العربية محدودة جدا على الرغم من كتاب النحو الذى ألفه ، وبذل جهدا أكبر فى دراسة الفلك على يد الأستاذ يوهان توبياس ماير Johann Tobias Mayer الذى أعانه على اعداد الآلات اللازمة للرحلة الوشيكة • وسافر الى كوبنهاجن فى ٢٩ سبتمبر ١٧٦٠ وقابل الوزير « الجراف فون برنستورف » الذى أعجب به اعجابا كبيرا ، وبما اتصف به من خصال أصيلة قوامها الصدق والأمانة والحرص على الواجب والتفانى فى العمل ، ودهش الوزير عندما وجد أن كارستن نيبور قد اشترى الآلات التى سيحتاج اليها فى مهمته من الراتب الذى خصص له ، واعتبر ذلك التصرف علامة على الاستقامة فعهد اليه بأمانة صندوق البعثة • وكان البلاط الدنمركى قد منح لقب الأستاذية لفون هافن ، وعرض على كارستن نيبور منحه اللقب نفسه ، فاستكثره على نفسه ، واكتفى برتبة ملازم مهندس •

واجتمعت البعثة فى كوبنهاجن ، ثم انطلقت لأداء مهمتها فى ٧ يناير ١٧٦١ • وتنقل كارستن نيبور مع رفاقه أولا ، ثم وحده بعد وفاتهم ، من القسطنطينية الى مصر الى اليمن والهند وفارس والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين ، وعاد عن طريق القسطنطينية مخترقا أوروبا الشرقية الى ألمانيا حيث مر بجوتينجن ، وببلدته التى وجد فيها أطيان خاله قد آلت اليه بعد وفاته • وذهب الى كوبنهاجن فى نوفمبر من عام ١٧٦٧ ولقى استقبالا عظيما من رجال البلاط والعلماء • وقدم تقريرا عن نفقات الرحلة (التى لم تتجاوز ٢١ ألف تالر) ، ثم شرع فى الاعداد لنشر النتائج التى توصل اليها وأخبار الرحلة بصفة عامة • ولم يكن نقل المعلومات الكثيرة التى

ضمنها كراساته ويومياته بالشيء الهين لأنه لم يكن صاحب قلم مدرب ولم يكن قد قرأ من الكتب الأدبية الا الشيء القليل •

واذا كان قد لقي التعضيد من لدن « الجراف فون برنستورف » الذي أعطاه منحة لتسهيل طبع باكورة مؤلفاته ، فقد تغيرت الأحوال في الدنمرك وسقط هذا الوزير الصديق • وأيا كان الأمر فقد أخرج كارستن نيبور كتابه « وصف البلاد العربية » Beschreibung Von Arabien في عام ١٧٧٢ وتألم للنقد المغرض الذي نشره البعض في مجلة تظهر في مدينة (ليمجو) • ونشر نيبور في العام نفسه ترجمة فرنسية للكتاب[1] •

والتقى نيبور في كوبنهاجن بسفير باشا طرابلس (ليبيا) واسمه عبد الرحمن أغا ، واتصلت بينهما علاقة ودية حتى ان نيبور فكر في القيام برحلة أخرى الى قلب القارة الافريقية ، ولم يرده عنها الا زواجه في صيف عام ١٧٧٣ وقد رزق بابن وبنت ، وكان ابنه هو بارتولد جيورج نيبور Barthold Georg Niebuhr (١٧٧٦ — ١٨٣١) الذي عرف فيما بعد أستاذا للتاريخ الروماني ، وسفيرا في الفاتيكان وصاحب فضل على نظام المصارف في بروسيا •

وفي عام ١٧٧٤ نشر كارستن نيبور المجلد الأول من رحلته • ثم نشر على نفقته أعمال رفيقه في البعثة الأستاذ فورسكال • وفي عام ١٧٧٨ نشر المجلد الثاني من الرحلة • ولم يستطع اخراج المجلد الثالث من الرحلة في حياته ، وظلت المخطوطة حتى نشرها بعد وفاته « جلوير وأولسهاوزن » في عام ١٨٣٧ •

كانت الظروف قد تغيرت في كوبنهاجن بعد وفاة الجراف فون برنستورف ، ولكن كارستن نيبور عاش عيشة راضية بعض الوقت ، الى أن فكر الجنرال هوت في ارساله للاشتراك في مسح الأماكن الوعرة بالنرويج ، فطلب اعفاءه من الخدمة العسكرية ونقله الى العمل المدني ، فنقل رئيسا لمكتب توثيق بلدة ميلدورف التي لا تبعد كثيرا عن مسقط

(1) Description de l'Arabie, Copenhague 1733. Nouvelle Edition, Tome 1-2, Paris 1779.

برأسه لودينجفورت . وانتقل بالفعل الى هنـاك وظل فى ميلدورف حتى مات فى ٢٦ ابريل من عام ١٨١٥ وقد تجاوز الثانية والثمانين .

شخصية نيبور

وقد تغير أسلوب حياته منذ أن حل ميلدورف تغيرا كبيرا ، فقد انصرف تدريجيا عن متابعة الدراسات التى تخصص فيها ، وعكف على تصريف أمور الوظيفة على خير وجه . وابتنى لأسرته بيتـا كبيرا وزرع حوله حديقة وارفة . ولكن الأحـداث المنغصة توالت عليه وأفسـدت مزاجه ، فقد خسر مالا كثيرا فى موجة أسهم الشركات الأسيوية التى راج آنذاك أنها ستحقق أرباحا هائلة . ثم مرضت زوجته بالربو لأنها لم تعتد الجو فى هذه المنطقة من أوروبا ، واستبد بها الحزن لتحولها من المدينة الكبيرة ذات البلاط الملكى البراق الى البلدة الصغيرة فى أعمـاق الريف . ثم أصيب هو فى عام ١٧٩٢ بمرض فى الصدر أوشك به على الهلاك ، ولم تتحسن حاله الا ببطء شديد ، ثم أصيب بنتوء تحت عينه ظل يؤلمـه أربعة أعوام حتى تمكن الأطباء من اقتلاعه ، وما كان ذلك فى الزمان القـديم بالشيء الهين . وخطر بباله وهو فى سن السـادسة والستين أن يشترى أرضا بورا يقوم باصلاحها . وعكف على هذا العمل بالتخطيط والتنفيذ والمباشرة سنوات عديدة تحسنت فيها صحته وحالته المعنوية بدرجة كبيرة ، وان لم ينجح اقتصاديا ، فقد تطلب العمل نشاطا جسمانيا وفكريا متجددا أعاد للرجل حيويته ، حتى ان ابنه يحكى عنه انه كان يستطيع أن يعبر الترعة التى يبلغ عرضها ثلاثة أمتار بقفزة واحدة يستعين فيها بعصا خاصة .

ولكن فترة التحسن التى نعم بها لم تدم طويلا فقد عادت المصائب تتوالى عليـه من جـديد . ففى عام ١٧٩٥ احترق بيت صـديق له فى كوبنهاجن واحترقت فيه لوحات النحاس التى أعـدها للجزء الثالث من الرحلة ، وكذلك لوحات الجزئين المنشورين ! وكانت النتيجة انه انصرف عن اخراج الجزء الثالث . وكان كارستن نيبور قد عاد من رحلته بمرض فى عينيه اعتراهما نتيجة العمل الشاق فى نقل رسوم پرسيپوليس من ناحية،

وتتيجة للنظر فى الشمس أثناء الرصد مرة دون استخدام زجاجة معتمة • وقد ازداد ضعف ابصاره شيئا فشيئا حتى استحال الى عمى كامل • وكانت تعتريه من حين لآخر ــ نتيجة لبداتته وارتفاع ضغط دمه ، وربما لأسباب مرضية أخرى ــ حالات من النزيف الشديد ينساب الدم خلالها من أنفه وربما من فمه أيضا • وفى عام ١٨٠٧ ماتت زوجته بعد أن عانت الكثير من الربو وماء فى الرئة •

وتولت ابنته وصديقه جلوير تصريف أعمال الوظيفة ، وحرص جلوير علاوة على ذلك على خدمة كارستن نيبور خدمات انسانية خاصة بعد أن صعبت عليه الحركة ، وأصيب بالشلل ، فكان يقرأ له ، ويناقشه ، ويحركه على كرسيه المتنقل • ويقولون انه قبيل وفاته كان راضى النفس ، حاضر الفكر ، ممتثلا للقدر •

وقد سجل ابنه الأستاذ بارتولت جيورج نيبور (١) بقلمه تاريخ حياة أبيه ، وشيئا من ذكرياته عنه ، جاء بها : « ولا زلت أذكر كل الذكرى الكثير من حكاياته عن العالم وعن الشرق • كان يحكيها لى وأنا بعد صبى فيجلسنى قبل النوم على حجره ويرويها لى كما تروى القصص • فارتسمت فى ذهنى منذ هذا الوقت المبكر ــ بألوان ناصعة ــ سيرة النبى محمد والخلفاء الراشدين وبخاصة عمر وعلى اللذين كان يجلهما أعمق اجلال ، وأخبار الغزوات الأولى وانتشار الاسلام،وعظمة أبطال الدين الجديد .. »(٢) •• « وبقدر ما كان يحب العرب حبا شديدا ، ويجد فى عرب المدينة وبغداد وقرطبة فى أيام الخلفاء رجالا من النوع الذى يهواه قلبه ، كان يكره الأتراك المتعجرفين المستبدين برؤوسهم ، المسيطرين سيطرة الطغاة على أحبابه العرب ، ويتمنى من كل قلبه أن يطردوا من البلاد المباركة التى حولوها الى صحراء جرداء » (٣) •

---

(1) Barthold Georg Niebuhr : Carsten Niebuhrs Leben, erschienen in : [Niebuhrs Briefe und Schriften , Berlin O.J., Herausgeber Dr. Ludwig Lorenz.

(٢) انظر ص ٢٦٢ من الكتاب المذكور

(٣) ص ٢٦٤

كذلك وصف الابن أباه فقال[1] : « كان متوسط القامة ، أو دون ذلك قليلا ، وكان قوى البنيان صلب البدن ، ظل الى الأربعين من عمره نحيفا ، ثم امتلأ وأصبح بدينا ... وكانت هيئته وحركاته ، ورأسه القوى ، ورقبته المتينة ، تجعل له منظرا شرقيا تماما • وكان من يراه من الخلف وقد لبس الملابس الشرقية واسترسل فى الحديث وأخذ يلوح بيديه ، يحكم بأنه لو كان واقفا بين العرب لما استطاع أحد أن يفرقه عنهم • وكثيرا ما خطر ذلك ببالى عندما كنت أرى بعض العرب القادمين من شمال افريقيا يسيرون فى الشوارع •

وكان بسيطا فى طعامه الى أقصى حد ، اعتاد ذلك منذ صباه المبكر ، فلم يكن يشرب فى القرية سوى الماء واللبن ، ثم اتبع المدنية وحملها الينا فكان يشرب النبيذ ، ولكنه كان مقلا فى الشرب الى أقصى الحدود • ولم يكن يحب ألوانا من الطعام سوى تلك التى يتناولها الفلاحون •

والحق أنه كان فلاحا وأنه ظل فلاحا أصيلا طوال حياته ، بكل ما فى الفلاح من فضائل وعيوب صغيرة • ولم يكن ينكر أنه عنيد ، فلم يكن صرفه عن فكرة فكرها الا أمرا صعبا شديد الصعوبة ، فهو يعود دائما الى حيث بدأ • وكان دائم التمسك بالأحكام المسبقة سواء كانت فى صالح الناس أو فى غير صالحهم • ولكن هذا العناد كان يمنحه القوة على تأدية واجبه طوال فترة كبيرة من حياته •

وكان فى أخلاقه بريئا تماما من كل العيوب ، نقيا غاية النقاء ، صلبا غاية الصلابة ، وكان شديد التواضع والأثرة فى كل حال وفى كل آن •

وكان فكره يتجه كله الى المعاينة والمشاهدة ، وينفر من التجريد والتأمل ، وكان يصر على أن يلمس الأشياء لمسا • وكان فى كل ما يكتب متمسكا بالحقيقة الى أقصى درجات التمسك ، وكانت أحب العبارات الى نفسه العبارة السهلة كل السهولة •

مهمة البعثة

ظهر فى عام ١٩٥٦ كتاب بعنوان « الرحلة الى البلاد العربية • تاريخ البعثة الملكية الدنمركية الى اليمن بين عام ١٧٦١ وعام ١٧٦٧ :

(١) ص ٢٧٧ •



لوحة رقم(١)

Reise nach Arabien. Die Geschichte der Koeniglich Daenischen Jemen-Expedition 1761 - 1767, Hamburg, 1956
يقلم الباحث «توركيلد هانزن» Thorkild Hansen الذى استخدم الكثير من الوثائق المحفوظة فى دار المحفوظات الدنمركية ، وكشف النقاب عن الكثير من غوامض هذه الرحلة الفريدة . وقد تحدث عن مهمة الرحلة فقال ان نيبور تلقى فى ديسمبر من عام ١٧٦٠ بيانا مكتوبا يشتمل على ٤٣ بندا محددا ترسم خط سير البعثة ومهامها . ومما جاء فى هذا البيان :
« تذهب البعثة الى البلاد العربية السعيدة (اليمن) وتقوم هناك بأكبر قدر ممكن من البحوث . وتسلك البعثة الى (مخا) باليمن خط سير يمر بالقسطنطينية فالاسكندرية والقاهرة خلال مصر الى سيناء ، ثم تجتاز البحر الأحمر . وتقيم البعثة فى البلاد العربية السعيدة عامين أو ثلاثة أعوام اذا دعت الضرورة . وتتلخص مهمتها الأولى فى تعلم اللغة العربية على خير نحو ممكن ، والجوب فى قلب البلاد وسواحلها ، وعلى كل عضو أن يسجل يومياته ، وأن يرسل من سجل اليوميات نسخة الى الوطن كلما سنحت لذلك فرصة . وقد وضع تحت تصرف البعثة مبلغ ٢٠٠٠ تالر لشراء مخطوطات بأسعار مناسبة . وينبغى على أعضاء البعثة أن يجتهدوا فى الاجابة على الأسئلة التى وضعها الأستاذ ميشائيليس والتى يثيرها العلماء الأوروبيين الآخرون . وعلى الأعضاء أن يرصدوا خطوط الطول والعرض لتكون أساسا لرسم خريطة للمنطقة التى يجوبونها ، وأن يتبينوا الاختلافات بين موسم الجفاف وموسم المطر ، وأن يتنبهوا الى آثار العصور البائدة ، وعدد السكان ودرجة خصوبة الأرض . وعليها بصفة خاصة أن تلاحظ المد والجزر فى البحر الأحمر ، والعلاقة بين المواليد والوفيات ، وأثر تعدد الزوجات على زيادة العنصر البشرى أو نقصانه ، والعلاقات بين الجنسين ، وعدد النساء فى المدن وفى الريف . وينبغى على الدكتور كرامر أن يبحث فى الأمراض الخاصة بكل منطقة . وعلى الأستاذ فون هافن أن يلاحظ عادات وتقاليد الناس فى كل بلد ، وبخاصة تلك التى تلقى ضوءا على الكتاب المقدس والشريعة اليهودية . وعلى الأستاذ فورسكال أن يجمع عينات

حيوانية ونباتية . وأن يقوم الرسام باورينفايند بمعاونة أعضاء البعثة جميعا عندما يطلبون اليه ذلك . وعلى البعثة أن تسلك فى طريق العودة طريق البر ، عبر حلب وازمير » .

أعضاء البعثة

نبتت فكرة البعثة أولا من مجال الدراسات اللغوية المرتبطة بتفسير الكتاب المقدس،ووقع اختيار الأستاذ ميشائيليس على فون هافن لهذه المهمة اللغوية الاستشراقية ، وكان المفروض أن يكون هو صاحب الكلمة الأولى فيها ، ولكن كفاءته كانت محدودة فبرز دور كارستن نيبور بروزا أهله له جهده الهائل وتفانيه وحسن خلقه ، وأخيرا بقاؤه على قيد الحياة بعد موت الجميع . والعضو الثالث هو الأستاذ فورسكال ، والرابع هو الطبيب كرامر ، والخامس هو الرسام باورينفايند . وسافر مع البعثة خادم سويدى الأصل اسمه برجرن .

ولد فريدريك كرستنيان فون هافن Frederik Christian von Haven فى عام ١٧٢٧ فى جزيرة فين الدنمركية ، ودرس اللاهوت ثم فقه اللغة وحصل على درجة الماجستير فيه فى عام ١٧٥٠ ، ثم اهتم باللغات الشرقية خاصة وانتقل الى جوتينجن لدراستها على يد الأستاذ ميشائيليس ، ربما فى عام ١٧٥٦ ، وقامت بينهما علاقات طيبة جعلت الأستاذ ميشائيليس يختاره عضوا فى البعثة ، ويبعث به الى روما ليتعلم على أيدى المارونيين ويتدرب على انتساخ المخطوطات الشرقية . وحصل فون هافن قبيل سفره على لقب أستاذ بجامعة كوبنهاجن.وبدأت الرحلة ، وسرعان ما تكشفت حقيقته وتبين انه لا يعرف من اللغة العربية الا الشيء القليل ، وانه لم يكن يفهم حتى « السلام عليكم » عندما نزل مصر ، وانه خامل لين لا يحتمل المشاق والصعاب ولا يسجل فى يومياته الا القليل التافه .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان فون هافن كثير الشجار مع الأستاذ فورسكال ، وتطور النزاع بينهما الى تهديد بالقتل . واكتشف نيبور فى القسطنطينية أن فون هافن اشترى كمية كبيرة من الزرنيخ فخشى أن يستخدمها فى قتل زميله فورسكال ، وأرسل عن طريق السفير الدنمركى

الى البلاط فى كوبنهاجن يطلب اخراج فون هافن من البعثة حتى لا تحدث كارثة . وظل نيبور ينتظر الرد،واضطر لهذا الى أن يمد اقامته فى مصر نحو عام حتى يقرر البلاط الدنمركى شيئاً•وكان القرار هو رفض اخراج فون هافن من البعثة • ومات فون هافن فى أواخر مايو من عام ١٧٦٣ فى (مخا) وعلق نيبور على وفاته بقوله ان الموت اختطف عضو البعثة الذى كان حريا بالناس أن ينتظروا منه بحق أهم الاكتشافات فى مجال الاستشراق • ولعلنا نستشف من هذا التعليق أن نيبور كان ينتظر اليوم الذى يعود فيه فون هافن الى الوطن ويكتشف العلماء أنه لم يؤد واجبه •

أما « پيتر فورسكال » السويدى Peter Forskal فقد ولد فى عام ١٧٣٢ فى (هيلزينجفورس) لأب يعمل راعياً بروتستنتيا • وبدأ فى وقت مبكر يتعلم اللاتينية واليونانية والفلسفة واللاهوت على أبيه ، ثم أخذ علم النبات على الأستاذ كارل فون لينيـــه ، والتحق فى عام ١٧٥٣ بجامعة جوتينجن حيث اســتمع الى محاضرات فى الفلســفة واللاهوت والاستشراق واتصل بالأستاذ ميشائيليس • وتحول پيتر فورسكال عن هدفه الأول الذى كان يصور له أن يصبح راعيا بروتستنتيا كوالده ، وأتم دراسة الفلسفة برسالة عن فلسفة ڤولف • واختاره ميشائيليس فى عام ١٧٥٩ عضوا فى البعثة ، وكان تخصصه فيها العلوم الطبيعية ، وحصــل قبيل سفره على لقب أستاذ بالجامعة • وكان فورسكال عالمـا واســع المعرفة ، نشيطا دؤوبا دقيقا ، ولكنه كان سريع الغضب ، عنيدا ، لا يتورع عن الشجار • ومن هنا ثارت بينه وبين الدنمركى فون هافن المنــازعات العنيفة التى أشرنا اليها من قبل • وكان دوره فى أعمال البعثة ممتازا • وظل يشارك نيبور فى كل المهام حتى مات فى اليمن فى يريم فى ١١ يولية من عام ١٧٦٣ أى بعد فون هافن بنحو ستة أسابيع • وعبر نيبور عن حزنه عليه بعبارات كلها مدح فى العالم الجليل الذى كان أعلم أعضــاء البعثة باللغة العربية ، ممتازا فى معاملة العرب والتفاهم معهم ، متفــانيا فى أعمال البعثة وكأنما ولد ليـكون رحالة بحاثة فى أصعب الظروف ، واسع النشاط فى ميادين تخصصه وهى علم النبات وعلم الحيوان والكيمياء

والجيولوجيا ، مشاركا فى ميادين أخرى مثل تلك التى تتصل باللغة والدين والاقتصاد • ووضع فى أثناء الرحلة عددا من الدراسات منها دراسه عن نباتات الاسكندرية والقاهرة ، ودراسة عن خصوبة تربة مصر • وأرسل فورسكال الى كوبنهاجن مجموعة من العينات النبـاتية تضم ١٦٠٠ من النباتات • كذلك أعد ١٢ صندوقا مليئة بالعينات الحيوانيه وصـل منها الى كوبنهاجن عشرة صناديق ، بعد رحلة بحرية وبرية طويلة من (مخا) الى الهند والصين ، ولا يزال بعص محتويات هذه الصناديق فى متاحف الدنمرك الى يومنا هذا ، وبخاصة أنواع من الحشرات والمرجان والصدف • وقد اهتم كارستن نيبور باخراج أعمال زميله فى الرحلة وأنفق على ذلك من ماله الخاص • ونذكر منها :

1) Descriptiones animalium, avium, amphibiorum, piscium, insectorum, vermium, quae in itinere Orientali observavit Petrus Forskal. Post mortem auctoris edidit C. Niebuhr. Adjuncta est Materia Medica Kahirina atque tabula Maris Rubri geographica, Hauniae, 1775.

2) Flora Aegyptiaco-arabica. Sive DescripitonesPlantarum, quas per Aegyptum inferiorem et arabiam felicem, detexit, illustravit Petrus Forskal. Post mortem auctoris edidit Carsten Niebuhr. Hauniae, 1775

3) Icones rerum naturalium, quas in itinere Orientali depingi curavit Petrus Forskal. Post mortem auctoris ad regis mandatum aeri incisas edidit Carsten Niebuhr, Hauniae, 1776.

أما يوميات بيتر فورسكال فلم تنشر الا فى عام ١٩٥٠ بعد أن عثر عليها الباحث هـ • شوك فى مقتنيات مكتبة جامعة كيل • وقد ظهرت فى القرن الحالى عدة دراسات عن فورسكال واكتشافاته ، فقد سبق الى وصف عدد من الكائنات لم يكن العلم يعرف عنها شـيئا من قبل ، منها على سبيل المثال المرجان بانواعه المختلفة •

وأما الطبيب الدكتور كريستيان كارل كرامر Christian Carl Cramer من مواليد كوبنهاجن عام ١٧٣٢ ، وكان قد أتم دراسة الطب بجـامعة كوبنهاجن قبل بدء الرحلة بأسبوع واحد • وقد تبين فى أثناء الرحلة أن اختيار هذا الرجل لم يكن موفقا ، فقد فشل فى كافة المهام التى وكلت

اليه . وكان هذا على الأقل هو رأى كارستن نيبور ، نقله عنه ابنه . ولم يعش الدكتور كرامر بعد فون هافن وفورسكال الا شهورا معدودة ومات فى فبراير ١٧٦٤ فى بومباى بعد أن شهد وفاة الرسام باروينفايند والخادم برجرن بجزيرة سقطرة .

ورافق البعثة الرسام الألمانى جيورج ڤيلهلم باورينفايند G.W.Baurenfiend وكان ابن رسام معروف من أهالى نورنبرج هو ميشائل باورينفايند . وكان جيورج ڤيلهلم باورينفايند قد سافر الى كوبنهاجن فى وقت مبكر، ولفت الأنظار اليه بلوحات جيدة أتته بالميدالية الذهبية للأكاديمية الدنمركية . ولم يكن اختياره للبعثة موفقا تماما ، على الرغم من اللوحات التى رسمها فى أثنائها ، لأنه كان رجلا جاهلا ، محدود الأفق ، مسرفا فى شرب الخمر ، ولم يقلل كارستن نيبور من شأن مهارته الفنية ، ولكنه ذكر أن اسرافه فى الشراب هو الذى قضى عليه . وقد مات هو والخادم السويدى برجرن فى عام ١٧٦٣ قبل أن تصل البعثة الى بومباى .

ويمكن القول أن كارستن نيبور تحمل بعد وفاة فورسكال بمهام البعثة كلها ، وانه بعد وفاة الدكتور كرامر فى فبراير عام ١٧٦٤ كان آخر الخمسة ، ولكنه لم يشأ العودة وقرر الاستمرار فى البعثة الى نهايتها * .

سجل الرحلة بمجلداته الثلاثة

يبلغ عدد صفحات المجلد الأول من الرحلة ٥٠٥ صفحة ترجمنا منها ٢٦٤ صفحة ، ونقلنا الفهرس كاملا حتى يعرف القارىء محتويات المجلد الأول كاملة ، سواء منها ما ترجمناه وما لم نترجمه بعد . والقسم الذى ترجمناه هو الجزء الأول من الرحلة منذ قيام البعثة من كوبنهاجن حتى خروجها من مياه مصر . ويتضح من الفهرس أن الرحلة وصلت الى اليمن وقامت هناك ببحوث كثيرة ، ورسمت خريطة ممتازة لأجزاء كبيرة من اليمن ، ونبهت العلماء الى النقوش الحميرية ، وكانت فى مجموعها كما

(*) قدم ديتمار هينتسه للطبعة المصورة من رحلة نيبور بدراسة افدنا منها كثيرا :
Dietmar Henze : Carsten Niebuhr und sein Beitrag zur Erforschung des Orients, Vorwort zum Nachdruck von Niebuhrs ,Reisebeschreibung Graz, 1968.

قال ديتلف نيلسن « فاتحة البحث وراء الآثار العربية الجنوبية » . وجدير بالذكر أن المجلد الأول يضم فى ختــامه جداول وملاحظات عن الأحوال الجوية ودرجة الحرارة فى مصر ، وهى أشياء لها أهميتها بالنسبة للباحثين فى هذه الموضوعات .

ويبلغ عدد صفحات المجلد الثانى ٤٧٩ صفحة (بالاضافة الى ٥٢ لوحة) تتناول الموضوعات التالية :

رحلة الهند :

ملاحظات على بومبــاى وســورات تدور حول نشــاط الشركة الانجليزية لتجارة شرق آسيا ، وطبقات السكان من أوروبيين وهندوكيين وعبدة النار ومسلمين .

رحلة بلاد فارس :

الرحلة من بومباى الى مسقط وأبو شهر ، وملاحظات على أبو شهر وشيراز وبيرسيبوليس مع اهتمام خاص بالآثار الفارسية القديمة .

رحلة العراق :

وصف البصرة وبغداد ومشهد عــلى ومشهد الحســين وكربلاء ــ القبائل العربية فى العراق : السنيين والشيعة ــ تفصيلات وافية عن بغداد والتجارة فى العراق ونظام الحــكم والتــاريخ ــ ملاحظات على الأكراد ــ الرحلــة الى كركوك والموصل ــ بحث عن مدينــة نينوى القديمة .

رحلة سوريا :

تاريخ البلاد ــ تكوين السكان ــ السنيين ، الدروز ، المسيحيين ، اليهــود ــ جغرافية المنطقة ــ جبل لبنــان ــ كسروان ــ بيروت ــ طرابلس .

أما اللوحات فتضم العديد من الخرائط وخرائط المــدن والآثار المكتوبة والآثار المعمارية والفنية ومناظر تمثل أنشطة الناس وما الى ذلك .

ويتكون الجزء الثالث الذى قلنا من قبل انه صدر فى عام ١٨٣٧ أى بعد وفاة المؤلف ، من قسمين : القسم الأول يتكون من ٢٣٨ صفحــة

عبارة عن بقية رحلة كارستن نيبور . والقسم الثانى يتكون من ١٦٨ صفحة عبارة عن مقالات وأجزاء تكميلية • ويتناول القسم الأول :

الرحلة من حلب الى قبرص :

ويبدأ بملاحظات وافية عن حلب وما حولها ، وينتقل الى قبرص حيث يتناولها بالدراسة المنصبة على أحوالها الحاضرة خاصة •

الرحلة من قبرص الى فلسطين :

يافا ــ الرملة ــ القدس ــ وصف للأماكن المقدس ــ عكا ــ صور ــ صيدا ــ دمشق مع وصف للبقاع ــ طرابلس واللاذقية •

الرحلة الى تركيا :

وصف قونية ومواضع كثيرة فى الأناضــول ــ القسطنطينية ــ ثم يأتى الفصل الختامى وهو :

رحلة العودة :

خلال بلغاريا ووالخيا وملداقيا وبولونيا وألمانيا الى الدنمرك ، مع ملاحظات تشمل نحو ٥٠ صفحة من هذه المناطق •

ويضم النصف الثانى الذى يعتبر من قبيل الملاحق فصلا مطولا عن نتائج الأرصاد الفلكية التى أجراها كارستن نيبور فى أثناء رحلته وبخاصة فى المناطق العربية ، وفصلا عن پيرسيپوليس ، وعن بعض الطوائف الدينية فى الشام وعن موقع المعبد فى القدس ، وعن تحديد أماكن وردت فى بعض المؤلفات التاريخية القديمة ، وفصلا عن أخبار الحبشة كما سمعها فى بلاد الشرق • وهذه الفصول عبارة عن مقالات أو دراسات كتبها كارستن نيبور وأرسلها الى بعض العلماء أو الى بعض المجلات العلمية •

ملاحظات على رحلة كارستن نيبور

من الممكن أن يتساءل الانسان عن الأسباب الخفية التى يمكن أن تكمن وراء هذه الرحلة ، وينبغى على الانسان فى هــذه الحالة أن يتلمس طريقه بحذر وأن يعتمد على وثائق وشــواهد • ومن الممكن أن نأخــذ الرحلة فى الثوب الذى تلوح لنا فيه وأن ندرسها فى اطاره • واذا كانت

أوروبا قد بدأت منذ عصر النهضة تصحح الكثير من المعلومات المتناقلة وتتبع فى ذلك الأساليب العلمية التى تتحرى الدقة وتبتعد عن الأحكام المسبقة ، فقد كان علم الجغرافيا فى مقدمة العلوم التى تناولها التطوير • واذا نحن نظرنا الى الخريطة الأساسية التى رسمها سترابون (فى مطلع التاريخ الميلادى) ثم الى خريطة بطليموس (١٤٠ بعد الميلاد تقريبا) التى اعتمد عليها العصر الوسيط ـ والمعروف أن هارون الرشيد أمر بترجمة أعمال بطليموس الى العربية ـ وجدنا أن قسما منها يقوم على العلم والمعرفة وهو القسم الذى يحيط بالبحر المتوسط،وأن القسم المتبقى، وهو الأكبر ، يمتلىء ببحار وقارات وأقاليم كلها من صنع الظن والتخمين• وليس من شك فى أن العرب كان لهم دور كبير فى تطوير هذا العلم الذى تلقوه عن بطليموس ، وكان ما قدموه من وصف مكتوب أكثر مما قدموه فى ميدان الخرائط[1] • وكان من الضرورى علميا أن تستكمل نواحى النقص ، وأن تحل الدقة والمشاهدة محل الظن والتخمين • ومن هنا كان ما قام به كارستن نيبور من أرصاد ، ومارسمه من خرائط شيئا له أهميته ، خاصة اذا ذكرنا أن هذه المنطقة من العالم لم يكن بها فى ذلك العصر من له القدرة على القيام بهذه المهام • ونحن نقرأ فى المجلد الأول عن تخلف الملاحين الأتراك عن زمانهم ، فلم يكن لهم خبرة باستخدام المعينات القياسية وأساليب الرصد الفلكى ، ونقرأ عن الملاحين العرب والأجانب القائمين على السفن المسافرة فى البحر الأحمر وعن تخلفهم فى هذا الفن • ثم نقرأ عن الربابنة الانجليز الذين حصلوا على خرائط كارستن نيبور وأفادوا منها كل الفائدة •

واذا لم يكن كارستن نيبور قد استطاع أن يقدم خريطة كاملة لمصر فقد خلف لنا على الأقل خريطة جزئية لمنطقة الدلتا الهامة ولمنطقة تمتد من القاهرة شرقا الى داخل سيناء ، وخرائط متعددة لعدد من المدن المصرية منها القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية ، وصورا عامة لعدد من البلاد

(١) محمد عوض ابراهيم ، قصص جوب الاقطار وكشفها ، القاهرة ب ت ، ص ١٩ • ـ محمد محمود الصياد ، اثر العرب والاسلام فى النهضة الأوروبية ٣٢٥ ، وحسين فوزى ، نفس المرجع ، ص ٣٣١ وما بعدها •

المصرية الهامة آنذاك ، مما يوفر للباحث امكانات المقارنة وتتبع نماء هذه المناطق • وقد تبع كارستن نيبور جغرافيون ورحالة كثيرون أضافوا تفصيلات كثيرة هامة ، منهم أعضاء البعثة التى صاحبت الحملة الفرنسية ، ومنهم بوركهارت (١٧٨٤ — ١٨١٧) الذى رسم خريطة للنيل تشمل الدلتا والصعيد والنوبة[١] •

ونحن نلاحظ أثناء قراءة الرحلة أن كارستن نيبور استعد لها علميا استعدادا وافيا فقرأ سترابون وبطليموس وأبا الفدا والأدريسى ورحلات من سبقه من الألمان والفرنسيين والايطاليين والانجليز ، وفهم دوره فى اطار تصحيح ما يحتاج الى التصحيح واثبات ما لا يتطرق اليه الشك • (وسنورد فى الملاحظات بآخر الكتاب قائمة بهذه الرحلات) •

وهو لا يكتفى بوصف الأرض والتضاريس بل يهتم اهتماما كبيرا بتسجيل ما يرى وما يسمع من أحوال الناس وأعمالهم ومساكنهم ونظام الحكم عندهم وأساليبهم فى اللهو والتسلية • وهو عادل فى حكمه ، يلوم المتعجلين الذين اذا وجدوا لصا ظنوا الناس جميعا لصوصا ، واذا قابلوا رجلا متزوجا بامرأتين أذاعوا أن تعدد الزوجات منتشر فى البلاد الاسلامية انتشارا واسعا • وهو متفتح الذهن يجد أشياء متقدمة فى مصر يود أن تتعلمها أوروبا : منها مثلا نظام الحكم (الديوان) الذى يجد فيه سمات الجمهورية والنيابية ، ومنها صناعة تفريخ الفراريج التى كانت واسعة الانتشار فى مصر والتى لم تكن أوروبا قد عرفتها بعد ، وصناعة النشادر وما الى ذلك • ثم هو يرى جوانب التخلف، فيتحدث عنها أحيانا ، فهو لا يجد عند المصريين صحفا ، ويجدهم يخطئون فى بناء السفن وفى تركيب السكان (الدفة) ، ويلوم أصحاب الحل والعقد على تفرقتهم بين المسلمين وغير المسلمين ، هؤلاء يركبون الخيول وأولئك لا يركبون الا الحمير ، ولا يجوز لهم البقاء فوقها اذا مر بعض الوجهاء !

وهو لا يميل الى الانتقاص من قدر العربان واعتبارهم من مثيرى

---

(١) رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مقدمة تحليلية نقدية بقلم محمد محمود الصياد ، القاهرة ب • ت •

الشعب ، بل يرى لهم تحضرا جميلا فى حياتهم الاجتماعية ، ويرى لهم فى سيناء زراعة وعمارة وتجارة ، ويفهم أن الفقراء منهم لا يستطيعون منع أنفسهم عن نهب الطعام اذا أتيحت لهم فرصة سهلة • ومن الواضح أنه كان مهتما بالأشياء المتصلة باليهود والمسيحيين فى هـذه البلاد المتصـلة بالكتاب المقدس اتصالا وثيقا ، ولكنه يعتمد فى بعض ما يسوقه من حديث على خادمه اليونانى وطباخه اليهودى •

واهتمامه بالهيروغليفيات اهتمام لافت للنظر ، فهو يؤمن بأن هذه الكتابة تسجل تاريخا عظيما يتمنى أن نستجلى مكنونه ، وهو لا يقف عند التمنى بل يكاد يؤكد أن علماء أوروبا المثابرين سيتمكنون من قراءة هذه النقوش الغريبة ، ويساعدهم على ذلك فينقل اليهم صورا مطابقة للأصل تماما حتى يعتمدوا عليها ، ويقدم محاولة أولى مبدئية تتمثل فى لوحة تضم جميع الهيروغليفيات المتكررة التى يمكن اعتبارها بمثابة حروف !

* * *

وانى اذ أقدم الى القارىء العربى هذا الجزء الأول المختص بمصر أرجو أن يجد فيه نفعا ، وأن تتاح لى فرصة تقـديم بقية الكتاب على أجزاء متتابعة انشاء الله •

وقد تحريت الدقة فى الترجمـة ، وتركت ما أورده كارستن نيبور بحروف عربية على حاله ، وأضفت الى الكتاب فى آخره تعليقات تعين على مزيد من الفهم خاصة وأن النص مضى عليه أكثر من قرنين من الزمان •

والله ولى التوفيق •••

دكتور مصطفى ماهر

استخدمنا فى الترجمة الطبعة المصورة عن الطبعة الأصلية :

Carsten Niebuhr: Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Laendern, Bd. 1/2, Kopenhagen 1774/78, Bd. 3, Hamburg 1837 (Nachdruck Graz 1968).

وافدنا من الطبعة الموجزة التى صدرت فى عام ١٩٧٣ فى توبينجن :

Carsten Niebuhr: Entdeckungen im hrient, Reise nach Arabien und anderen Laendern 1761 - 1767, herausgegeben von Robert und Evamaria Gruen, Horst Erdmann Verlag, 1973.

Carsten Niebuhrs

Reisebeschreibung

nach

Arabien und andern umliegenden Ländern.



Erster Band.



Kopenhagen,

Gedruckt in der Hofbuchdruckerey bey Nicolaus Möller,

1774.

غلاف الطبعة الأولى من الكتاب ، الصادرة عام ١٧٧٤

الجزء الأول

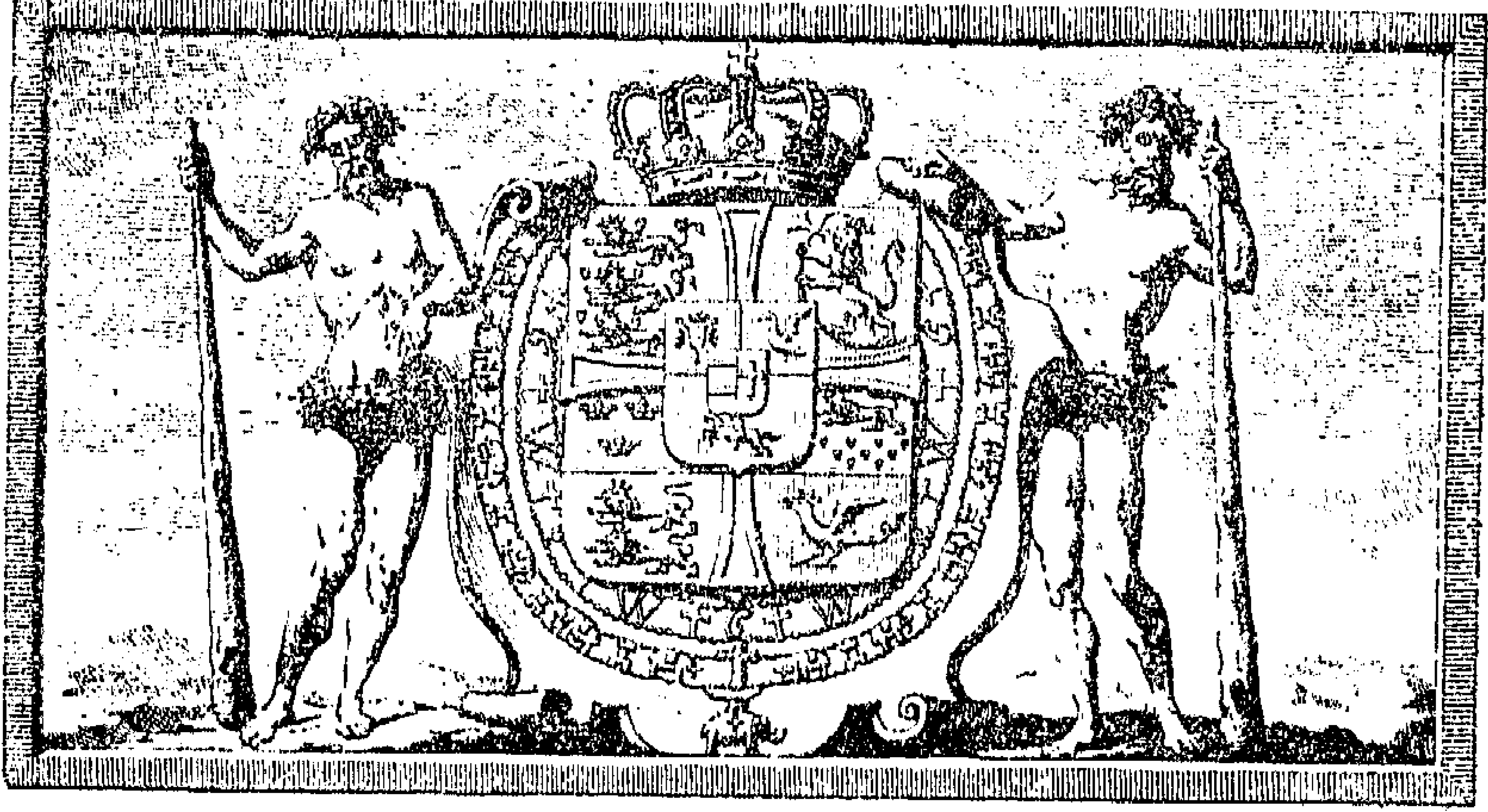
رحلة إلى مصر

١٧٦١ - ١٧٦٢م

إلى

صاحب السمو الملكي

الأمير فريدريش ولي العهد



سيدى صاحب المنة العظمى

صاحب السمو الملكى ولى العهد

أقدم بكل خضوع وخشوع الى سموكم الملكى وصف الرحلة الى بلاد العرب السعيدة ، تلك الرحلة التى جرت بأمر من طيب الذكر والدكم •

ليس فى مقدور الرحالة أن يجمع دائما كل الملاحظات ، وأن يسجل كل الأخبار التى يتمنى المتمنون أن يوافيهم بها • ولهذا أسمح لنفسى فى أدب بالغ ، بأن آمل فى ألا يرمينى صاحب السمو بالاهمال ، اذا لم يجد سموه فى كتابى من الأشياء الجديدة والعجيبة ما يتناسب مع ما كانت الأموال التى أنفقها العاهلان العظيمان ـــ الملك فريدريش الخامس والملك كريستان ـــ على الرحلة توحى بالتوصل اليه •

ولما كانت المهمة التى وكلت الى هى ، فى المقام الأول ، وصف جغرافية المنطقة ، فقد ركزت اهتمامى الأول عليها . ولسوف أعتبر نفسى سعيدا غاية السعادة اذا حظى عملى المتواضع فى هذه الناحية بالاستحسان السامى من سموكم الملكى .

ويتضمن هذا المجلد من الكتاب مذكراتى عن الرحلة من كوبنهاجن الى بومباى، أما وصف الرحلة من الهند الى مسقط وپرسيپوليس والبصرة، عبر تركيا كلها الى بولونيا ، فسأقدمه بكل خضوع وخشوع فى أقرب وقت ممكن فى مجلد ثان .

وسأظل ما حييت ، وعن احترام عميق ، المخلص

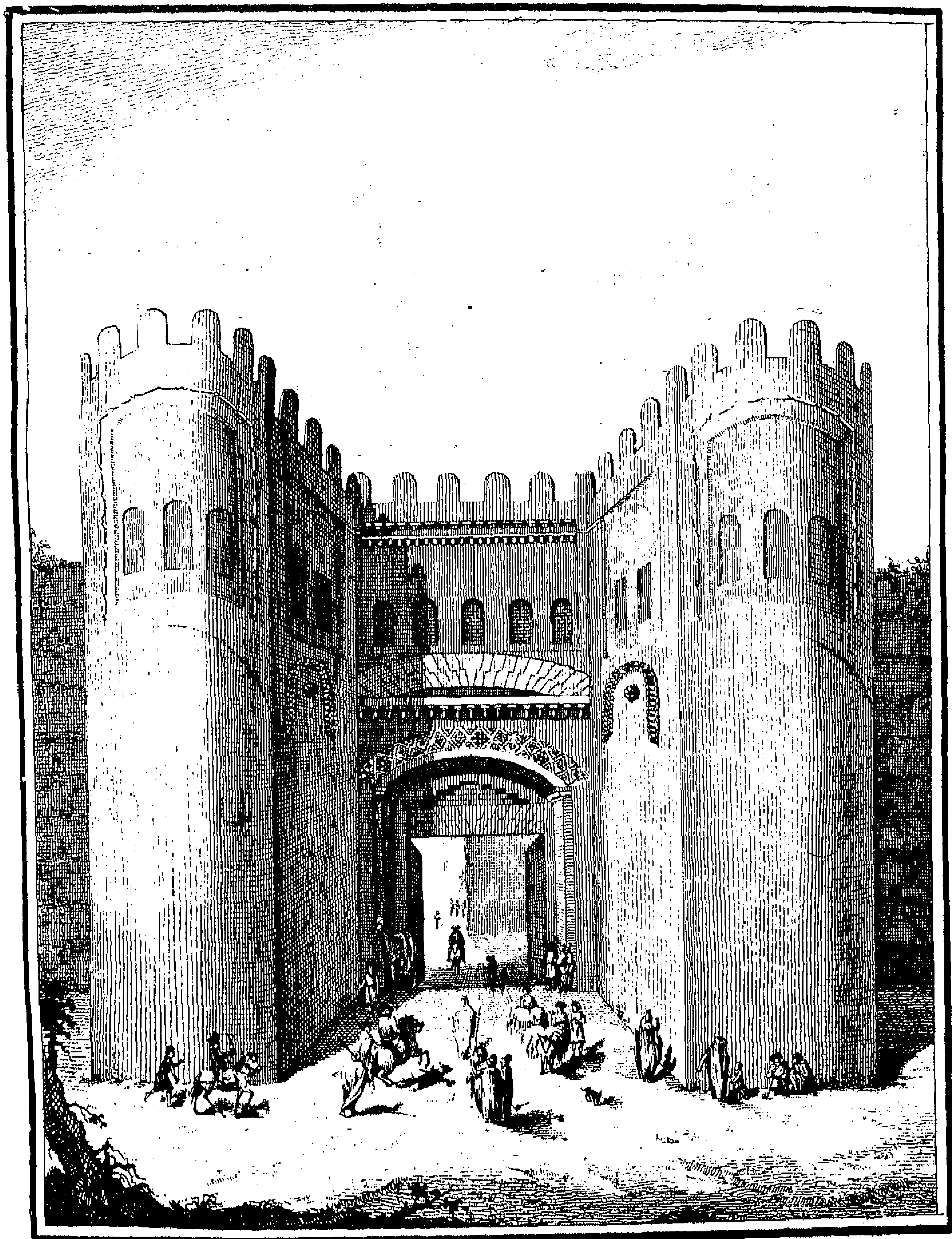
لسموكم الملكى ..

فى خشوع وخضوع وفائق الاخلاص والطاعة

ك . نيبور

كوبنهاجن

٤ مارس ١٧٧٤



لوحة رقم (٢)

محتويات المجلد الأول

الرحلة من كوبنهاجن الى القسطنطينية .
ملاحظات على القسطنطينية
الرحلة من القسطنطينية الى الاسكندرية
ملاحظات على الاسكندرية .
الرحلة من الاسكندرية الى القاهرة .
الرحلة الى دمياط والعودة الى القاهرة .
ملاحظات على خريطة الرحلة بين رشيد والقاهرة ودمياط .
تحديد موقع بعض المدن القديمة فى مصر .
وصف مدن القاهرة ، بولاق ، مصر القديمة ، الجيزة .
السكان ، نظام الحكم ، التجارة فى مدينة القاهرة .
الآلات المائية ، والطواحين ومعاصر الزيت وأفران النشادر وأفران تفريخ الكتاكيت فى مصر .
أزياء الشرقيين .
ألعاب وتسالى الشرقيين فى ساعات الفراغ .
الآثار فى مصر .
الرحلة من القاهرة الى السويس والى جبل سيناء .
الرحلة من السويس الى جدة [1] .
ملاحظات على جدة .
الرحلة من جدة الى اللحية .

---

(١) ترجمنا حتى منتصف هذا الفصل (المترجم) .

الرحلة من اللحية الى بيت الفقيه •
الرحلة من بيت الفقيه الى غلافقه والحديدة ، وزبيد وتهيته وقحمة والهدية وجبال البن •
الرحلة من بيت الفقيه الى العدين وجبلة وتعز وحيس •
الرحلة من بيت الفقيه الى مخا •
الرحلة من مخا الى تعز •
الرحلة من تعز الى صنعاء •
الرحلة من صنعاء الى مخا •
الرحلة من مخا الى بومباى •
رحلات أحد الهولنديين عبر طرق مختلفة فى اليمن •
أرصاد جوية مسجلة فى القسطنطينية والقاهرة وبلاد العرب وبومباى •

لوحات

١ ـ منظر الشاطىء عند جبل طارق والشاطىء عند سبته •
٢ ـ منظر مدينة مارسيليا •
٣ ـ خرائط للقسطنطينية وغلاطة وأسكدار •
٤ ـ نقوش هيروغليفية على مسلة فى القسطنطينية •
٥ ـ مقاييس بعض المسلات والأهرامات فى مصر •
٦ ـ منظر مدينة رشيد •
٧ ـ خريطة مدينة دمياط •
٨ ـ منظر مدينة دمياط •
٩ ـ برج عند مصب النيل •
١٠ ـ فرعا النيل من القاهرة الى البحر المتوسط •
١١ ـ بعض الآثار المصرية •
١٢ ـ خرائط مدن القاهرة ، مصر العتيقة ، بولاق ، الجيزة •
١٣ ـ منظر باب الفتوح ، أحد أبواب القاهرة •
١٤ ـ مكان تجمع الحجاج قبل سفرهم الى مكة •

١٥ — آلات مائية مختلفة فى مصر .
١٦ — قطاع عرضى وطولى فى طاحونة يديرها حصان .
١٧ — شكل فرن نشادر وآلات مختلفة أخرى .
١٨ — شكل فرن لتفريخ الكتاكيت .
١٩ — ٢٠ — ٢١ — ٢٢ — ٢٣ — أشكال مختلفة من أغطية الرأس الشرقية
٢٤ — ثياب نساء اليونان فى الاسكندرية .
٢٥ — ألعاب مختلفة يتسلى بها الشرقيون .
٢٦ — آلات موسيقية مختلفة عند الشرقيين .
٢٧ — الراقصات فى القاهرة .
٢٨ — موكب عرس فى القاهرة .
٢٩ — العربان فى مصر .
٣٠ — نقوش هيروغليفية على تابوت من الجرانيت عند قلعة الكبش .
٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٣٤ — ٣٥ — نقوش هيروغليفيـة على تابوت من الجرانيت الأسود عند بولاق .
٣٦ — نقوش هيروغليفية على مسلة مكسورة .
٣٧ — ٣٨ — نقوش هيروغليفية على أوان صغيرة من المرمر .
٣٩ — نقوش هيروغليفية ورموز على تابوت مومياء .
٤٠ — نقوش هيروغليفية مرسومة على الخشب والحجر .
٤١ — علامات وأشكال مختلفة من الكتابة الهيروغليفية .
٤٢ — بعض التماثيل المصرية .
٤٣ — مشاهد فى الصحراء على الطريق الى جبل سيناء .
٤٤ — موقع الدير على جبل سيناء — مدافن على الجبل فى سيناء .
٤٥ — ٤٦ — نقوش هيروغليفية على قبريات فى الصحراء .
٤٧ — ٤٨ — مشهدان يبينان الدير على جبل سيناء .
٤٩ — ٥٠ — نقوش على الطريق من السويس الى جبل سيناء .
٥١ — منظر مدينتى السويس والطور .

٥٢ ــ منطقة الطور [1] .

٥٣ ــ منظر مدينة ينبع ــ منظر مدينة جدة .

٥٤ ــ شكل يبين حاجا تركيا .

٥٥ ــ خريطة مدينة جدة .

٥٦ ــ شكل يبين سماكا فى جدة .

٥٧ ــ امرأة من جدة .

٥٨ ــ موقع مدينة ينبع وموقع مدينة القنفذة .

٥٩ ــ شكل يبين امرأة عربية من تهامة .

٦٠ ــ خريطة مدينة اللحية .

٦١ ــ منظر مدينة اللحية ومنظر مدينة بيت الفقيه .

٦٢ ــ خريطة مدينة بيت الفقيه والمنطقة المحيطة بها .

٦٣ ــ منظر عند قرية بلجوسة على جبل البن .

٦٤ ــ امرأة عربية فوق جبل البن .

٦٥ ــ منظر الهدية .

٦٦ ــ خريطة مدينة تعز .

٦٧ ــ منظر مدينة تعز .

٦٨ ــ منظر قلعة يريم وبيت فى بير الأسب .

٦٩ ــ المثول بين يدى الامام فى صنعاء .

٧٠ ــ خريطة مدينة صنعاء .

٧١ ــ ثياب وجهاء العرب فى اليمن .

٧٢ ــ موقع مدينة ومرفأ مخا

خريطة رحلة اليمن .

---

(١) آخر اللوحات فى الجزء الذى ترجمناه (المترجم) .

مقدمة المؤلف

عرف سكان اقليم اليمن ـ أى سكان الجزء الجنوبى من البلاد العربية الذى اعتاد الأوروبيون على تسميته ببلاد العرب السعيدة ـ سبيلهم الى الحضارة منذ أقدم العصور وأصابوا شهرة كبيرة لما دأبوا عليه من تجارة مع الخارج . ولا يزال العلماء الى يومنا هذا ينظرون الى هذا البلد نظرتهم الى واحد من أعجب بلاد الدنيا وأغربها ، يستحق لأكثر من سبب أن يعرفه الناس معرفة أدق وأشمل .

ولقد انتفع العلماء من قبل باللغة العربية انتفاعا كبيرا فى تفسير بعض المواضع الهامة فى الكتاب المقدس . الا أن اللغة العربية ، مثلها مثل كل اللغات ذات الانتشار الواسع ، كثيرة اللهجات ، والعلماء الأوروبيون يجهلون اللهجة اليمنية جهلا تاما .

وليس من شك فى أن بلاد العرب تتيح لعلماء الطبيعة مادة وفيرة لاكتشافات هامة ، وتتيح للمشتغلين بتفسير الكتاب المقدس نفعا لا مراء فيه اذ يعينهم تسجيل الأسماء العربية المألوفة للنباتات والأحجار وما اليها على تفسير بعض الأسماء الواردة فى الكتاب المقدس . وكذلك المعارف الجغرافية يمكنها أن تثرى بالكثير اذا سافرت بعثة كشفية الى هذه المنطقة.

وليست الفائدة التى ترجع علينا من معرفة الوصف الحالى لبلاد العرب السعيدة قاصرة على المؤلفات العربية التاريخية والجغرافية القديمة ، فالكتاب المقدس نفسه يذكر بلاداً عربية مختلفة .

لهذه الأسباب وغيرها تاقت نفوس محبى العلوم والفنون منذ وقت طويل الى سفر بعثه علمية الى بلاد العرب السعيدة • وكان ملك الدنمرك الذى لا يقف عند حد بعث العلوم والفنون فى مملكته ، بل يتعطف على العلماء الأجانب بالتشجيع حتى يحققوا الاكتشافات الهامة ، هو الذى استجاب لهذه الرغبة ، فخرجت الرحلة التى أصفها فى هذا الكتاب بأمره وبأمواله •

ولقد طلع مستشار البلاط ميشائيليس Michaelis [1] على القراء فى مقدمة مسائله بخبر مفصل عن أصل رحلتنا هذه ، وتناولته أنا أيضا بالتنويه فى مقدمة وصفى لبلاد العرب • وسأعود هنا الى الحديث عن بعض جوانبه ، فلعل من القراء من ليس لديه الكتابان المذكوران •

ومن حق نية الملك الدنمركى أن نمتدحها أعظم الامتداح على الرغم من أن الرحلة لم تنته الى النهاية السعيدة التى كان يتمناها ويرجوها • وقد حمل الملك فريدريش الخامس المرحوم الجراف فون بيرنستورف Graf von Bernstorff تكليفا الى مستشار البلاط ميشائيليس — الذى اتصلت بينه وبين الجراف رسائل حول ارسال بعثة كشفية الى بلاد العرب — بأن يبحث عن رجال ذوى نشاط فى فقه اللغات وعلم الطبيعة والرياضيات • واقترح السيد ميشائيليس أن يقوم بهذه الرحلة الأستاذ فريدريش كريستيان فون هافن Friedrich Christian von Haven من أبناء الدنمارك ، وكان فى ذلك الوقت يعمل فى جوتينجن ويخص اللغات الشرقية بالاهتمام • فأرسله الملك الى روما ليأخذ على العلماء المارونيين الموجودين هناك اللغة العربية الحديثة • ولقد كانت هذه الخطوة ضرورية لأن المتضلعين فى اللغة العربية فى أوروبا عن درس فى الكتب دون ما سواها ، كانوا هم أنفسهم غير قادرين على التحدث بها مع العرب ، فتلك مهارة لم يكونوا قد أقدموا عليها بعد • واقترح

---

(١) يشير هذا الرقم والأرقام المسلسلة التالية الى الملاحظات والتعليقات بآخر الكتاب • (المترجم) •

السيد ميشائيليس اختيار الأستاذ بيتر فورسكال للعلوم الطبيعية . وكان الأستاذ فورسكال قد عكف فى البداية على دراسة اللاهوت وتعلم لهذا اللغات الشرقية ، ولكن خبرته بالعلوم الطبيعية لم تكن أقل من خبرته فى تخصصه الأول ولهذا كان صالحا لرحلة مثل رحلتنا كل الصلاحية . أما أنا فقد وكلت الى مهمة وصف الأرض . وشرعت فى ذلك الحين أتعلم اللغة العربية ، الا أننى لم أستطع التقدم فى تعلمها تقدما كبيرا فى الوقت القصير الذى خلفته لى اهتماماتى الأساسية ، لأننى لم أكن قد تعلمت العبرية من قبل . ومع ذلك فقد وجدت فى القدر القليل الذى حصلته من اللغة العربية فى أوروبا نفعـا كبيرا ، اذ أعاننى على تعلم الحديث باللغة العربية الحديثة .

وتلقينا ، نحن الثلاثة ، الأمر بأن نجتمع فى كوبنهاجن فى نهاية عام ١٧٦٠ لنبدأ رحلتنا . وتبين الجراف فون بيرنستورف والجراف فون مولتكه Graf Von Moltke ــ وكان الملك قد كلف بالمهمة هذين الرجلين العظيمين اللذين عرف عنهما تشجيعهما الكبير للعلوم والفنون ــ أن بعثتنا ينقصها عضوان ضروريان: طبيب ورسام. ووقع الاختيار على الدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Christian Carl Cramer وعلى جيورج ڤيلهلم باورينفايند Georg Wilhelm Baurenfeind الذى كان رساما ومتخصصا فى الحفر فى النحاس .

وهكذا أصبحت البعثة تتكون من خمسة أشخاص . وحق للعلماء أن يعلقوا الكثير من الأمل على بعثة كبيرة الى هذا الحد توجهها أوامر اثنين من الوزراء المستنيرين غاية الاستنارة ، الا أن موت رفاقى جميعا بدد الجزء الأكبر من الآمال على النحو الذى سيراه القارىء عنـد مطـالعة يومياتى .

على أن ثمار جهود رفاقى الذين وافتهم المنيـة ليست بالقليلة على ما يروى بعض الكتاب الأجانب ، فلم أتعرض فى كتابى « وصف البلاد العربية » الا الى طرف فقط من الملاحظات التى سجلها فورسكال للاجابة

على أسئلة ميشائيلس • ولقد كان فورسكال حتى يوم مرضه بالغ النشاط ، فخلف ملاحظات ممتازة كثيرة جدا فى ميدان التاريخ الطبيعى • واذا لم تكن الملاحظات القليلة القصيرة التى دونها فون هافن بين القاهرة ومخا صالحة للاستخدام ، فان سجل يومياته من كوبنهاجن الى القاهرة ومن السويس الى جبل سيناء يتسم بالتفصيل والاسهاب • ولقد حالت ظروف مختلفة دون العمل على اخراج أوراق رفاقى فى الرحلة •

والمألوف أن أولئك الذين يطالعون الرحلات للمتعة دون ما سواها يجدون المتعة العظمى فيما يقدمه اليهم الرحالة من أخبار كثيرة عن اتصاله بالأمم الأجنبية وعن الصعوبات التى مر بهـا وما الى ذلك من أمور • ولابد لى من أن أعترف بأن هذه الأخبار أكثر امتاعا من الوصف الجاف لمواقع المدائن والمسالك التى طرقها الرحالة فى رحلته • والحق اننى كنت فى وضع يسمح لى بأن أسجل المزيد من الأشياء العجيبة والأمور الغريبة ، وما كان تسجيلى اياها سيكلفنى من الجهد والحرج ما تكبدته فى رسم خرائط المدن وخط سير الرحلة • ولو أننى سلكت هذا السبيل ، وقصرت عن الوصف الجغرافى ، لما كنت قد وفيت بغرض هذه الرحلة •

ولقد فرحت عندما وجدت العرب بشرا كالأمم المتحضرة الأخرى ، ولقد شهدت فى كل البلاد التى زرتها أياما راقت لى ، وأياما ثقلت على ، مثلما يلقى كل رحالة •

قلت ان المهمة التى أنيطت بى كانت تقوم أساسا على وصف الأرض • وانما أجعل الحكم على مدى تأديتى لواجبى هذا لأولئك الذين يعلمون ما يتطلبه جمع المعلومات الجغرافية فى بلد غريب من جهد ، ويعرفون ما كان متاحا من قبل من معلومات عن البلاد • وان كنت أظن أن من حقى ألا أكون غير راض عن نفسى فى هذه الناحية • وكم كنت أتمنى لو استطعت أن أنقل الى القراء المعلومات التى جمعتها فى أسلوب سلس شيق •

ولقد طبعت فى نهاية هذا المجلد رحلات هولندى من المنشقين كان

قد نزل مناطق مختلفة فى اليمن لم أرها . كذلك أضفت الأرصاد الجوية التى أجريتها . وكانت نيتى قد انعقدت على أن أقدم الى القارىء ملاحظاتى الفلكية التى جمعتها فى أثناء الرحلة من كوبنهاجن الى بومبساى ، ولكن الوقت لم يسعفنى ، ولهذا حفظتها للمجلد التالى .

وهناك بين المقالات الكثيرة التى تناولت كتسابى فى وصف البلاد العربية بالنقد مقالات وجدتها تتسم بالدقة والفهم العلمى واصابة الحكم . ويطيب لى أن أشكر مؤلفى هذه المقالات على ملاحظاتهم وتنبيهاتهم التى سأنتفع بها اذا قدر لى أن أصدر طبعة جديدة من الكتاب . على أن مهارة النقاد تتفاوت أشد التفاوت ، ومن بينهم من يصعب على الانســان أن يعتبره من النقاد الحقيقيين،كما يصعب على الانسان أن يعتبر «السراج» من أمراء مصر (على نحو ما ذكرت فى الفصل الخاص بآثار مصر) .

ولقد أطلعنى بعضهم على مقــال نشر فى مجلة « مقتطفات من أحدث النشريات الألمانية » التى تظهر فى مدينــة ليمجو ، تناول بالنقــد كتابى « وصف البلاد العربية » . وليس من شــك فى أن هذا المقال لن يلقى استحسان الثقاة من العلماء . ومن حق كل قارىء من قرائى أن تكون له حرية نقد كتابى فى وصف البلاد العربية طبقا لآرائه ووجهات نظره . وعلى هذا فان ناقد ليمجو (وهو على الأرجح شخص واحد يتحدث عن نفسه بالضمير « نحن » ربما ليوحى الى جمهور القراء بأن الرأى الذى يذهب اليه هو رأى الهيئة التى تنشر المجلة) له الحق فى أن ينشر حكمه على كتــابى . ومن حقى أنا أن أشكو من أنه نســب الى أشياء كثيرة لم تصدر عنى . وسأذكر بعض الأمثلة . انه يقول اعتمادا على الاخبار التى أوردتها :

« ان هواء الطبقات الجوية العليا فى البلاد العربية أقل صفاءا من مثيله فى أوروبا بصفة عامة . وان المرأة عندما يموت زوجها تصبح فى أعين أهله من قبيل الارث فلا يجوز لهــا أن تنتقل الى أيد أجنبيــة . وان بطليموس لم يزحزح اللغــة الفرعونية من مكانها ، على النحــو الذى تعرضت له اللغة القبطية فيما بعد . وان القــرآن مكتوب على الأرجح

بالحروف القبطية . وان الأفاعى فى البلاد العربية خطيرة بصفة عامة . وان العرب بدافع من ايمانهم لا يحتاطون من الجذام . وان هنـــاك من يدعون أنهم رأوا كمية كبيرة من المن ظهرت بعد هطول مطر غزير . وان نسبة الخصوبة بين ١٠٠٠ و ١٠ الخ » .

فاذا ما طالع الانسان ما كتبته فى وصف البـــلاد العربية ص٣ و ٧٠ و ٩٠ و ٩٤ و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٤٦ و ١٥٣ وجد أخبارا عن هذه الأمور تختلف كل الاختلاف عما سرده الناقد . ولست بمستطيع أن أخمن كيف عرف أو حتى كيف ظن أن السيد باورينفايند لم يرسم ســـوى رسومات قليلة ليس لها علاوة على قلتها سوى قيمة متوسطة . ولقد اعترفت فى مقدمة الكتاب ، بالصراحة التى أدين للجمهور بها ، بأننى لا أعرف اللغة العبرية ، وبأننى لا أتقن قراءة المخطوطات العربية ، وبأننى لا أســـتطيع الاجابة الكاملة على المسائل التى بعث بها السيد ميشائيلس الى العـــالم المتخصص فى فقه اللغة . وهذا هو السبب ـــ فليس فى مقدور الناقد أن يجد فى الكتاب سببا غيره ـــ الذى يتعلق به هذا الناقد عندما يؤكد اننى لم أعد نفسى للرحلة ، وأننى بعد وفاة رفاقى لم أقدم حتى على تعلم اللغة (لعله يقصد اللغة العربيـــة) . كذلك يقول اننى لم أرد على مســـائل السيد ميشائيلس جلها الا باجابات يعتورها نقص لا مراء فيـــه واننى ذهبت الى أن بعض مسائل السيد ميشائيلس غير جديرة بالرد .

ولست أعرف اذا كان هنـــاك رجل عاقل يقبل أن يسىء ناقد الى صدق مؤلف اساءة بليغة الى هذا الحد . وليس من شك فى أن السيد ميشائيلس هو أصلح الناس للحكم على الاجابة على مسائله ، وهو يقول عنها كلاما آخر فى صحيفته « المكتبة الشرقية والفقهية »

Orientalische und exegetische Bibliothek

ويصـــــارح الســـيد ميشـــــائيلس قراءه بأننى لو كنت أعـــرف العبرية لكان ذلك أفضل ، ولكن ينبغى ألا يغيب عن الأريب أن مهمتى لم تكن تتطلب منى هذه المعرفة ، فأنا لم أشارك فى البعثة كعالم لغوى أو عالم فى الطبيعة أو كمتخصص فى العقاقير ، وان كنت قد قمت ـــ بعـــد

وفاة رفاقى ــ بالكثير مما يتجاوز الواجب المفروض على • ولقــد كان السيد ميشائيلس ــ وما هو بالعالم العظيم القابع فى مكتبه فحسب ، بل له فوق ذلك علم بما يستطيع الرحالة انجازه من مهام ــ يشك فى امكان الحصول على اجابات على مسائله كلها اذا عادت البعثة بكامل هيئتها • ولقد عبر هو عن ذلك صراحة فى مقدمة مسائله وأشــار الى الأســباب الصحيحة التى يقيم عليها شكه هذا • فكيف يجوز لناقد ليمجو أن يتوقع أن أحمل أنا وحدى مهمة جمع الردود على جميع المسائل الطبيعية التى وضعت لبعثة كاملة •

ولابد للناقد المذكور من أن يكون صاحب تصور عجيب عن وصف الأرض ، اذا كان يطالب رحالة واحدا بوصف جغرافى كامل للبلاد العربية التى لا تتــاح فيها يقينا المعينات المتاحة فى أوروبــا • وهو يذكر أن الدكتور بوشينج Dr. Bueschinz قد أورد فى الطبعة الثانية من كتابه فى وصف آســيا كل ما تضمنه كتــابى من مادة ذات فائدة • ولمن شــاء أن يفحص هذا الكلام ليتبين أن هذا الكتاب لم يأت الا بأخبار قليلة عن اليمن والحجاز بعثت بها أنا بخطى الى المؤلف العالم المذكور ونوه هو بذلك فى المقدمة الجديدة التى صدر بها كتابه فى طبعته الجديدة •

والحق أننى لا أتصور أن يكون لمثل هذا النقد نفع ، بل أرى أنه يؤدى الى الضرر ما فى ذلك شك وأتصور أن العالم الجليل الذى يكتب مقــالا نقــديا فى « مقتطفات ليمجو من أحــدث النشرات الألمــانية »
Lemgoer auserlesene Bibliothek der neuesten deutschen Litteratur
يعتمــد عــلى أخبــار صــادقة موثوقة يثبت أو يدحض بهــا قضيتــه التى يدعيها ، وأتصور أن يستشهد بى على اعتبار أننى كنت بنفسى فى البلاد العربية ، وأرجو أن يرجع عالم جليل الى كتابى فيجــد فيه كلاما يختلف كل الاختلاف عما جاء بالمقال ، فيوبخ كاتبه الطيب ويخجله • فعلى من يقع اللوم الا على الناقد الذى وثقوا فيه ثقة أكبر مما ينبغى ؟ وأيا كان الأمر فان ما يمكن أن تؤدى اليه مقالات النقد الرديئة من نفع أو ضرر أمر معروف بما فيه الكفاية ولهذا فلست أريد أن أطيل فى حديثى عنــه الى القارىء •

الرحلة من كوبنهاجن الى القسطنطينية

يناير ١٧٦١

اجتمعت فى كوبنهاجن بعثتنا التى وقع عليها الاختيار للقيام بالرحلة الى البلاد العربية السعيدة[٢] ، وتلقت الأمر من الملك بأن تستقل سفينة حربية كانت تتأهب للابحار الى البحر المتوسط ، وأن تتوجه على متنها الى ازمير . وركبنا السفينة .. وكان ذلك فى الرابع من يناير عام ١٧٦١ وتصورنا فى البداية أن الرحلة البحرية ستكون مريحة ولطيفة . وأمر ربان السفينة ، السيد هاينريش فيشر Heinrich Fischer - وكان آنذاك برتبة قمندان وهو حاليا برتبة أدميرال ثان — بأن تهيأ لنا قمرتان ، كانتا فى الحقيقة صغيرتين ، ولكنهما كانتا ، بالقياس الى المكان المتاح فوق السفينة كبيرتين . وكنا نتناول طعام الغذاء وطعام العشاء فى المقصورة الكبيرة ، ولم يكن الربان هو وحده الذى عاملنا بالود الشديد والأدب الجم ، بل كان ضباط السفينة كلهم يسلكون معنا نفس السلوك . واضطررنا الى البقاء فى المرسى يومين انتظارا لريح مواتية ، فلم نحل الحبال الا فى السابع من يناير . والحق أن الريح كانت فى ذلك اليوم تهب من ناحية الجنوب ، أى أنها كانت مواتية ، ولكنها كانت هادئة هدوءا شديدا ، فلم نصل الى مرسى هيلزينجئور Helsingoer مستعينين بدفع التيار الا قرب حلول المساء . أما فى الأيام التالية فلم تأت الريح التى رجوناها لاستمرار الابحار ، بل هبت على عكس ما كنا نشتهى تماما . ونشرنا قلوعنا مع سفن مختلفة أخرى يوم الرابع عشر من يناير ، ولم ننعم بريح مواتية الا لوقت قصير ، وسرعان ما تعرضنا فى الليلة التالية لعاصفة هوجاء

ظلت تهب بغير انقطاع تقريبا حتى صبيحة السادس عشر . وكنا فى تلك الأثناء نواجه خطرا لا يستهان به ، فقد اتتهينا ، وسط الجو الحالك الذى أحاط بنا على الدوام تقريبا والتيار العنيف الذى استبد بمركبتنا والذى كان فى منطقة الـكاتيجات Kattegat ينـدفع الى الجنوب تارة والى الشمال تارة أخرى ، الى حيث استحال علينا أن نعرف موقعنا .

وفى صباح السادس عشر من يناير كنا ، حسب تقديراتنا ، نخشى أن نكون عند الساحل السويدى . فلما ظهرت الشمس من خلال الغيوم عند الظهر وتمكنا من حساب الارتفاع القطبى[٣] ، رأينا أن جزيرة ليسوه Lessoe ليست بعيدة عنا ناحية الغرب . فلما استمرت الريح المضادة ، وعاد الجو الى العبوس ، تقرر فى السابع عشر من الشهر أن نعود الى هيلزينجئور . وهناك رأينا غالبية السفن التى كانت قد أبحرت معنا ، وسمعنا أصحاب الرأى يقولون ان السفن الأخرى اما أن تكون قد لجأت الى موان أخرى ، أو تكون قد تعرضت للكوارث .

وكنا عند ابحارنا من هيلزينجئور ومرورنا من مضيق سوند Sund قد أطلقنا ثلاث طلقات مدفعية للتحية ، فردت علينا قلعة كرونشبورج Cronenburg بثلاث طلقات ، وردت قلعة هيلزينبورج Helsingburg بأربع طلقات . والمألوف عند السويد أنهم يحيون دائما برقم زوجى من الطلقات ، بينما اعتاد الدنمركيون على أن يكون رقم طلقات التحية عندهم فرديا . وعندما أبحرنا مرة أخرى ومررنا بالمضيق لم تلتزم القلاع بهذه المراسم وضاعت محاولتنا الكثيرة التالية أدراج الرياح ، ذلك أن السفن الحربية التى تمر هنا لا تطلق التحية الا عندما تبحر للمرة الأولى ثم عندما تعود بعد اتمام رحلتها كلها .

ولقد حرصت فى رحلاتى البحرية كلها على أن أقيس الارتفاع القطبى[٣] ظهرا وليلا مستعينا بثمنية جيدة من النوع المعروف باسم ثمنية هادلى Hadley Octant وعلى الرغم من أن الانسان لا يستطيع أن ينتظر من الأرصاد الفلكية التى يجريها على سطح البحر ــ وبخاصة فى الشتاء وفى هذه المنطقة التى لا تطلع فيها الشمس الا قليلا وعلى نحو لا تسهل

متابعته — أن تكون بالدقة العالية التى تتسم بها الأرصـــاد الفلكية التى يجريها على سطح الأرض مستعينا بربعية Quadrant جيدة ، فان هذه الأرصاد التى تجرى على سطح البحر تتسم بأهمية عظيمة ما فى ذلك شك . ومن الممكن ادخال تحسينات كبيرة على الخرائط البحرية والأرضـــية ، اذا تمكن الانسان من تحديد موقع الأماكن الرئيسية تحديدا لا يخطىء الا فى دقيقة أو دقيقتين .. ولا أظن أن الأرصاد التى سجلتها على سطح البحر للارتفاعات القطبية كانت تشذ عن ذلك الا فيما ندر . ولـمـا كان ذكر كل الأرصاد والحسابات الفلكية التى أجريتها فى البحر يؤدى الى الاطالة ، ولا يحقق نفعا ، فلن أثبت فى الكتاب الا تلك التى توصلت اليها وأنا على مقربة من اليابس ، وأولها حساب الارتفاع القطبى عنـــد مرسى هيلزينجئور أى الى الجنوب قليلا من المدينة ، وكان الارتفـــاع القطبى هناك ٥٧َ ٥٥° ، أما انحراف البوصلة فكان ١٤ درجة .

فى السادس والعشرين من يناير انطلقنا للمرة الثانية من هيلزينجئور وكانت الريح مواتيـــة . وكان نهار السابع والعشرين كله شديد الغيم ، ورأينا عند الظهر ناحية الشمال قوس الطل أو قوس الغيوم وهو لا يختلف فى ظاهره عن قوس قزح الا فى أنه أبيض لا ألوان به . وفى اليوم التالى ، يوم الثامن والعشرين ، وجدت عند الظهر أن الارتفاع القطبى بناء على وصد جيد جدا هو ٤٧َ ٥٧° وأن الموضع هو مارشتراند Marstrand وأن انحراف البوصلة فى هذه المنطقة هو ١/٢ و ١٤ غربا ، أى ق ١/٢ ش . ولقد تأكدت بنفسى من دقة هذا الرصد . على أن الانسان اذا أراد أن يرصد الارتفاع القطبى لمكان ليس بالقريب ، فانه يحتاج الى عين مدربة ، ولما كانت تلك الرحلة هى أولى رحلاتى البحرية فقد دأبت على استشارة الضباط البحريين والبحارة لما لهم من خبرة متكررة فى هذه الناحية وكان تقدير هؤلاء لبعدنا عن مارشتراند هو ثلاثة أميال ألمانية(٤) ونصف ، ومعنى هذا أن الارتفاع القطبى لقلعة مارشتراند هو ٤٩َ ٥٧° ، أما الارتفـــاع القطبى لاسكاجن Skagen فكان طبقا لحســـابنا من فوق السفينة ٣٨َ ٥٧° .

ولقد كانت الريح فى أواخر شهر يناير مواتية للغاية فاجتزنا مضيق كوتيجات الخطير وبلغنا بحر الشمال فى سلام آمنين • ثم تحولت الريح مع بداية شهر فبراير ضدنا شيئا فشيئا ، واشتد عصفها طوال الثانى من الشهر حتى اننا منعنا من اشعال النار فوق السفينة • على أننا لم نبتئس بذلك الا قليلا ، فما ينبغى على راكب البحـر الا أن يحتمل مثل هـذه المنغصات فى غير تبرم • وحزنا على بحار سقط فى أثناء العاصفة من عارضة الصارى الى جوف البحر ، وحالت ظلمة الليل وفورة الأمواج الهائجة دون انقاذه•واذا كانت العاصفة قد هدأت بعد ذلك،فان الريح ظلت ضدنا ، تردنا بدلا من أن تتقدم بنا • وفى الخامس من فبراير أتانا من براكيشتيت Brackestaed مرشد بحرى ، وفى السادس أتانا مرشد آخر من فليكيرؤيه Fleckeroe ، يعرض كل منهما سحبنا الى الميناء،ولكن القبطان لم يشأ اللجوء الى الميناء دون أن تكون هنالك ضرورة لذلك وظن أن السفينة لا تتعرض لخطر ولهذا رفض الخدمات التى عرضت عليه • فلما حل اليوم الثامن من فبراير تعرضنا مرة أخرى لعاصفة هوجاء فأصدرنا اشارة نطالب بمرشد بحرى ، وما لبثنا أن رأينـا سفينة صغيرة تأتى من البر ناحيتنا ، واذا بعاصفة أشـد عنفا تهب مصحوبة بثلوج كثيرة تهب وتضطرنا الى الخروج الى البحر ، واختفت السفينة الصغيرة عن أبصـارنا فلم نرها بعد ذلك • واستمرت العاصفة فى اليوم التاسع واستمرت الريح المعاكسة ، فقررنا عند الظهر أن نعود أدراجنا الى هيلزينجئور لتبدد أملنا فى اللجوء الى أى من موانىء النرويج ويأسنا من أن تهدأ العاصفة . وكانت الريح مواتية لرحلة العودة هذه حتى اننا قطعنا فى ثلاثين ساعة المسافة التى بذلنا طوال أربعة عشر يوما جهودا مضنية فى اجتيازها • وألقينا مراسينا فى العاشر من فبراير غير بعيد عن قلعة كرونينبورج Cronenburg

وفى الثانى عشر من فبراير حسبت الارتفاع القطبى لسفينتنا وهى على بعد حوالى ربع ميل جنوبى كرونينبورج فكان ٥٩ َ ٥٥ ° ، وهكذا كان

الارتفاع القطبى للقلعة التى تقع على مقربة كبيرة من مدينة هيلزينجنور ناحية الشمال هو ٥٦° •

ولقد عانى ملاحونا الأمرين من هذا الجو الفظيع ، فمات بعضهم ، ومرض ما يربو على ثلاثين غيرهم • ولما لم يكن من الصواب الاستمرار فى رحلة بعيدة فى هذا الفصل القارس من فصول السنة ، وبعد أن مرض هذا العدد من الملاحين ، فقد أرسل السيد الربان تقريرا عن الحالة الى كوبنهاجن ، وسرعان ما تلقى الأمر بالعودة • واذا بالريح تدور فى هذه الأثناء الى الجنوب الشرقى والجنوب ، الى الاتجاهين اللذين كنا طوال الوقت تتوق اليهما • ولما لم يكن من المتصور أن يتوقع من بكوبنهاجن قدومنا مع هذه الريح ، فقد أسرعوا بارسال أطعمة طازجة وملاحين آخرين الى هليزينجنور حتى لا تتعطل السفينة • ولكن يبدو أننا كنا قد أصبحنا لعبة فى يد الريح ، فقد غيرت الريح اتجاهها الى الغرب مرة أخرى قبل أن نرفع المراسى • والملاحظ أن الريح تهب فى هذه المنطقة طوال ثلاثة أرباع العام من ناحية الغرب ، وليس بالمستغرب أن تعطلنا وتسرف فى تعطيلنا عن استكمال رحلتنا •

أما رفاقى الأربعة فقد قاسوا الكثير فى البداية من دوار البحر ، ولكنهم ثبتوا ولم يعبروا عن رغبة فى ترك السفينة ، الا السيد فون هافن الذى لم يكن من سبيل الى أن يعتاد على البحر • ولما كانت السفينة الحربية سترسو فى ميناء مارسيليا فقد أرسل يستأذن الملك فى أن يسلك سبيل البر من كوبنهاجن الى مارسيليا ، ويستقل السفينة من هناك ، فأذن الملك له ، ونزل من السفينة فى السابع عشر من فبراير على الفور. وكنت أقل الناس شكوى من الرحلة البحرية ، فلم يحدث أن شعرت بشىء مما يسمى بدوار البحر حتى فى أشد العواصف هوجا ، وكنت أسلم نفسى تماما لمشيئته عز وجل وأثق فى مهارة ضباطنا وملاحينا ، فآوى الى فراشى قرير العين مرتاح البال والعاصفة على أشدها ، بينما يقاسى هؤلاء من الريح والمطر والبرودة للحفاظ على السفينة •

وفى التاسع عشر من فبراير رحلنا للمرة الثالثة من مرسى هيلزينجنور



لوحة رقم (٣)

يحدونا أمل أكيد فى أن تدوم لنا الريح المواتية على نحو أفضل • ولكننا ما كدنا نجتاز سكاجن حتى تحولت الريح الى الغرب واضطرتنا الى أن نعود الى مضيق كاتيجات مرة أخرى • وفى ظهر يوم الثانى والعشرين من فبراير كانت جبال الكوللين Kullen ، أو الجزء البارز منها على بعد ميل وربع ميل ناحية الشرق بميل قدره ٥٦° ، أما الارتفاع القطبى لسفينتنا فكان ٢٠َ ٦٥° . ومعنى هذا أن الارتفاع القطبى لهذا الجبل ١٩َ ٥٦° • وعند حلول المساء ألقينا مراسينا عند هيلزينجئور •

كنا قد قطعنا منذ خروجنا من كوبنهاجن حتى ذلك الحين ٤٥٠ ميلا ألمانيا دون أن نقترب من البحر المتوسط بأكثر من خمسة أميال • وهكذا يتبين الانسان أن البحار فى هذه المناطق الشمالية التى لا تثبت فيها الرياح على حال بل تلف وتدور بغير انقطاع لا يستطيع أن يحدد مسبقا الوقت الذى تستغرقه رحلته ، ويتبين الأخطار الكثيرة التى تحف بالرحلات البحرية •

مارس ١٧٦١

ولم يكن تبرمنا بالرجوع على أعقابنا للمرة الثالثة بالتبرم الهين ، حتى تكشفت لنا أسباب غيرت احساسنا بالتبرم الى احساس بالسعادة لرسونا فى ميناء آمن ، فقد هبت فى اليوم التالى عاصفة بشعة فى كل مكان ، حتى اننا ــ على الرغم من وقوفنا قرب الأرض التى حمتنا نوعا ما من الرياح ــ اضطررنا الى انزال العوارض والصوارى حتى تخف قبضة الرياح على السفينة على قدر الامكان . كانت الرياح تدفع بالأمواج الى السفينة لترتطم بها على نحو لا يقل عما عهدناه فى بحر الشمال مما دعانا الى التفكير فى القاء مرساة ثالثة لأن المرساتين اللتين ألقيناهما فى القاع لم تعودا كافيتين لتثبيت المركب • واستمرت العاصفة التى هبت من ناحية الغرب حتى الخامس من مارس ، عند ذاك بدأت فى الهدوء التدريجى •

ولاحظت أن حسابات المسافة المدونة فى سجل السفينة تدل على أن الموقع الذى رحلنا منه يبعد شمالا ، وأن الموقع الذى عدنا اليه يبعد جنوبا عن الموضع الحقيقى للسفينة ، فقمت بفحص حبل قياس السرعة فتبينت أنه

أقصر مما ينبغى ، كذلك تبينت أن الساعة الرملية التى تقيس نصف دقيقة تفرغ فى ٢٩ ثانية بدلا من ٣٠ . وظننت أننى كشفت هنا عن خطأ مبين . ولكن البحارة كانوا قد عمدوا الى ذلك لأن حبل قياس السرعة يتمدد بالاستعمال. وعلى الرغم من أن البحارة يراجعون قياس حبل السرعة مرارا ، ويتخذون جديدا بدلا من القديم ، فان قياس حبال السرعة تطول فى أحيان كثيرة عن المعيار ، وهكذا فان تعمد تقصيرها فى البداية يعادل نوعا ما ما يطرأ عليها من تمدد . كذلك فان حبل قياس السرعة لا يمكن ايقافه فورا عند اعطاء الاشارة ، وبخاصة عندما تكون السفينة مسرعة ، ولذلك فانهم لا يسيرون الساعة الرملية الا ٢٩ ثانية فقط بدلا من ٣٠ . وهذه تعديلات عملية تفيد عندما تكون السفينة فى عرض البحر وعندما تكون الريح طيبة فائدة كبيرة ، ويدفع الخطأ الذى يتأتى عنها البحار الى اليقظة والتنبيه اذا كانت فى طريقه مواضع خطيرة يخشاها ، أو اذا انحرفت السفينة عن سبيلها لتعرضها لتيار خفى جرفها أو لغير ذلك من العوامل التى لا يلاحظها .

على أن هذه التعديلات العملية تؤدى ، فى حالة المرور من طريق مائية ضيقة كمضيق كاتيجات ، وفى حالة التعرض لرياح معاكسة كثيرة كما حدث لنا ، الى نتائج خطيرة ، خاصة وان الملاحين ألفوا ارجاع الخطأ الى التيار العارم الذى لا يكف عن التغير والتبدل . وعلى الرغم من أن الملاحين يحرصون حرصا كبيرا على مراعاة قواعد الملاحة المدونة فى الكتب ، فانهم يلاقون أثناء الممارسة فى عرض البحر مشكلات كثيرة لايكون فى مقدورهم ازاءها ووسط الرياح المعاكسة أن يحددوا أماكنهم تحديدا دقيقا موثوقا . وما تصدق حسابات السفينة الا مصادفة . ولهذا فالخير فى أن يتوسع الملاحون فى الاستعانة بالحسابات الفلكية لتصحيح حساباتهم العملية . وليس من شك فى أن طريقة الأستاذ ماير فى تحديد البعد اعتمادا على رصد القمر هى أصلح الطرق وأصوبها . وهى منتشرة بين الانجليز انتشارا يشهد عليه أننى لقيت فى بومباى ربانا انجليزيا وملاحا انجليزيا على سفينتين مختلفتين من

سفن شركة الهند الشرقية للتجارة ، كانا يستخدمان هذه الطريقة وينتفعان بها انتفاعا عظيما . ولقد أجريت أنا بنفسى أثناء هذه الرحلة البحرية حسابات متعددة تعتمد على هذا الرصد وأرسلتها من مارسيليا الى الأستاذ ماير ففرح بها فرحا شديدا وأمر وهو فى فراش الموت أن تساق برهانا على فائدة جداوله القمرية وأن ترسل الى انجلترا ، وأقبل الانجليز أنفسهم عليها وقدروها قدرها ونشروها مع جداول السيد ماير بعد تعديلها وتصويبها (*) .

وفى العاشر من مارس أقلعنا من مرسى هيلزينجئور للمرة الرابعة ، وما انتصف النهار حتى كانت جبال كوللين الساحلية على بعد ٣/٤ ٢ من الأميال الألمانية فى اتجاه بين الجنوب والجنوب الشرقى ، وكان الارتفاع القطبى للسفينة ٢٧´ ٥٦° ومعنى هذا أن الارتفاع القطبى لجبال الكوللين كان طبقا لهذا الرصد ١٨´ ٥٦° . وفى الثانى عشر من مارس كنا تحت الارتفاع القطبى ٥٨´ ٥٧° على بعد ٤٠ ميلا ألمانيا تقريبا الى الغرب مع ميل الى الشمال من سكاجن ، أما انحراف الابرة المغناطيسية فكان ١٧° غربا .

وكانت ملوحة المياه تتزايد كلما اقتربنا من بحر الشمال ، وتبينت من فحص عينة من الماء أن درجة ملوحتها ٣٢٦ ، أما درجة الملوحة عند مرسى كوبنهاجن فكانت ٣٣٠ ، وعند هيلزينجئور ٣٣١ ، وعند جبال كوللين الساحلية ٣٣٢ ،وعند نيسه Nesse ٣/٤ ٣٣٣ . أما اليوم فقد تبينت أن درجة الملوحة فى هذه المنطقة بلغت ٣٣٨ . ولما رأيت السيد فورسكال قد اهتم بتحليل المياه على نحو أفضل وبملاحظة درجة ملوحة مياه البحر فى دقة ومثابرة ، انصرفت أنا عن هذا الموضوع . كذلك اهتم السيد فورسكال بدراسة أسباب شعشعة مياه البحر ، وأظن أنه توصل فى أثناء هذه الرحلة الى السبب . وصاد الكثير من الكائنات البحرية الصغيرة ، من بينها أنواع عديدة من قناديل البحر التى يسمونها باللغة

---

(1) Tabulae motuum Solis & Lunae, quibus accedit methodus longitudinum promota, auctore Tobia Mayer. Lond. 1770. P. 126.

الدنمركية مانيتر Mancter وقد تبين عندما تناول عددا منها كان قد حفظه فى دلو — وألقاه من النافذة فى الظلام الى البحر أن المياه التى لمستها امتلأت بومضات صغيرة كثيرة • وكرر تجاربه بعد ذلك فى همة ومثابرة فتأكد رأيه الذى ذهب اليه ، وهو أن شعشعة مياه البحر تعود خاصة الى هذه الحيوانات الهلامية التى يمتلىء بها البحر •

ووجدنا انحراف البوصلة فى السادس عشر من مارس ٣٠َ ٢٢ْ عندما كنا تحت ارتفاع قطبى قدره ٣٩َ ٦٠ْ وكنا الى الغرب من دائرة كان خط طول باريس بمقدار ٤٣َ ٨ْ تقريبا • أما انحراف البوصلة فى الثامن عشر تحت ارتفاع قطبى قدره ٢٤َ ٦٠ْ وعلى دائرة خط طول ١٠َ ١١ْ غربى باريس تقريبا فكان طبقا لأرصادنا ٢٥ْ •

واستمرت الرياح الطيبة فى هذه المرة على نحو أفضل من الرحلات المخفقة السابقة • واذا كنا قد اضطررنا من قبل عند منطقة نيسه الى العودة الى هيلزينجور خائبين ، فقد تغيرت الحال فى الثانى عشر من مارس وهبت علينا عاصفة مواتية مكنتنا فى بعض الأحيان من الاندفاع بسرعة كبيرة وصلت الى ١/٢ ٢ من الأميال الألمانية • وانعكست الريح مرة أخرى من التاسع عشر الى نهاية شهر مارس ، وهبت عواصف من الجنوب الغربى طرحت اثنين من الملاحين من فوق الصوارى الى ظهر السفينة ، فانكسرت ساق أحدهما ، ولم يصب الآخر الا بالقليل من الأذى وعاد الى عمله بعد بضعة أيام • ولم نتعرض فيما عدا هذا الى خطر جسيم لأننا كنا فى عرض البحر وكنا نركب سفينة جيدة • أما حركة السفينة فلم نكن نشعر بها قوية عنيفة الا اذا هدأت العاصفة فجأة ، لأن السفينة كانت تنطلق راقدة على جنبها طالما هبت الرياح عليها ، فاذا هدأت الرياح القوية فجأة تقلبت السفينة مع تقلبات الماء وظلت على هذه الحال حتى يتخفف البحر مما أحدثته به العاصفة من اضطراب •

وبعد أن دفعت الرياح المعاكسة بنا الى الارتفاع القطبي ٦٣°١/٢ أي الى موضع غير بعيد عن ساحل ايسلنده ، أهل علينا في الحادي والثلاثين من مارس جو الربيع الرائع الذي طالما تقنا اليه وتمنيناه . الا أن الريح كانت هادئة كل الهدوء فلم نستطع الى التقدم سبيلا . وكنا اذ ذاك تحت ارتفاع قطبي قدره ١٨´ ٦١° وعلى خط طول قدره تقريبا ٣٠´ ١٤° غربي خط طول باريس ، وكان انحراف البوصلة هو ١٦´ ٢٣° وهو المتوسط الحسابي للعديد من القراءات .

ولما لم يكن الجو في هذه الربوع الشمالية يصفو الا نادرا ، لم تتح لنا الا فرص قليلة لرؤية الشفق القطبي الذي ألف الناس رؤيته من اليابسة تحت هذا الارتفاع القطبي . وفي مساء الثالث من أبريل ظهر لنا في الأفق قوس مختلف الألوان ، ولكننا لم ننعم بمنظره الجميل الا لوقت قصير ، فسرعان ما تجمعت السحب ووارته عن أنظارنا . وفي الخامس من ابريل رأينا فوق الصواري وسط عاصفة متوسطة الشدة قبسا صغيرا من نور يعرفه بحارتنا الدنمركيون باسم فايرليس* Vejr-Lys وهناك من يسمونه كا ستور وپوللوكس Castor und Pollux أو القديس جرمانوس der Heilige Germanus أو نار القديس ايلم* Le feu St.Elme وكان الناس في العصور القديمة يعتبرون هذه الألسنة النارية الصغيرة من قبيل تجليات القديسين . فلما عرف الناس الكهرباء صححوا معرفتهم بها .

واستمرت الريح الجنوبية الغربية التي عطلتنا منذ أيام كثيرة وحالت بيننا وبين التقدم ولو لميل واحد . ثم عادت الريح المواتية في السادس من ابريل واستطعنا أن نقطع ٣٩١/٢ من الأميال الألمانية في أربع وعشرين ساعة ، وفي اليوم التالي قطعنا مسافة أطول لأننا

(*) كهربائية الصواري (قاموس البخاري) .

(*) Principis Radzivilli Jerosolymitana peregrinatio P. 227, 228. Voyage du Sieur Paul Lucas Vol, II. p. 114. & c.

كذ فى السابع من أبريل تحت ارتفاع قطبى قدره ٣٦َ ٥٧° ، وفى الثامن ٤٩َ ٥٤° . وفى السادس عشر من أبريل وجدت انحراف البوصلة ١٧َ ١٦° تحت ارتفاع قطبى مقداره ٣٩َ ٤٢° . وفى الثامن عشر من أبريل رأينا بعض الطيور التى يطلقون عليها اسم طيور السنونو البحرية وكذلك شاهدنا سمكة يطلقون عليها اسم قرصان الشمال ، وأول ضباط سفينتنا ظهورها بأنه علامة على قرب هبوب العاصفة ، وتحقق ما تنبأوا به وهبت العاصفة فى عصر اليوم نفسه . وقدر علينا فى هذه العاصفة أن نرى واحدا من الملاحين يسقط من عارضة الصوارى الى البحر ويهلك فى وضح النهار دون أن تتمكن من تقديم أدنى عون اليه لهياج الموج واندفاع السفينة .

وبعد أن ظللنا أياما كثيرة لا نرى أرضا ، لمحنا فى الحادى والعشرين قرب حلول المساء رأس ڤانسان Cap Vincent الى الجنوب ناحية الشرق على بعد ١/٢ ٥ أميال ألمانية ، وفرحنا بذلك فرحا كبيرا . وكان جميع ضباطنا الكبار والصغار وجميع ملاحينا قد حسبوا طريق السفينة على أساس سجل السفينة ، ولكن حساباتهم كلهم لم تصل الى الدقة التى اتسمت بها حسابات السيد القبطان فلم يعتورها من العجز سوى ٤٤ ثانية أى أقل من ثلاثة أرباع الدرجة . ولقد تفضل سيادته فأعطانى نسخة من حساباته التى تبين موقع السفينة ظهرا فى الأيام من الحادى عشر من مارس الى الحادى والعشرين من ابريل ، وأنا أوردها فيما يلى حتى يفيد منها من يريد رسم خريطة رحلتنا عبر بحر الشمال ويحدد بناء عليها الطريق التى سلكناها . على اننى لا أرى من الضرورى وضع خريطة لهذه الرحلة البحرية وزيادة عدد اللوحات المحتفزة فى النحاس ، وان كنت أنا نفسى قد قمت برسم هذه الطريق على الخريطة البحرية .

حساب مكان سفينتنا ظهر كل يوم من الحادى عشر من مارس ١٧٦١ إلى الحادى والعشرين من إبريل ١٧٦١

شهر مارس ١١	في الساعة الثانية عشرة ظهرا كانت منارة سكاجن في الجنوب الغربي ½ والجنوب ٧ دقائق أي ¾ ١ من الأميال . وتقع سكاجن في الخريطة على خط عرض ٥٧° ٣٦´ شمالا .						
	خط العرض المتوقع	خط العرض المرصود	الانحراف في ٢٤ ساعة	الانحراف عن سكاجن	انحراف البوصلة	المسار المصحح	المسافة
الخميس ١٢	٥٧° ٥٢´	٥٧° ٥٦´	٢° ٤١´	٢° ٤١´	½١ شرطة	شمالا ٢٠´ ٨٤° غربا	½ ٤٠ ميلا
الجمعة ١٣	٥٩° ٢٤´	— —	١° ٥٠´	٤° ٣١´	¾١ شرطة	شمالا ٠´ ٤٧° غربا	½ ٣٦ ميلا
السبت ١٤	٦١° ١٨´	— —	٠° ٥٣´	٥° ٢٤´	٢ شرطة	شمالا ٠´ ٢٧° غربا	٢٩ ميلا

وفي الرابع من مارس نقل موضع السفينة من الخريطة المسطحة إلى الخريطة الكبيرة لبحر أسبانيا . وكان موقع السفينة هو ١٨´ ٦١° خط عرض شمالا و ٨´ ١٦° خط طول

شهر مارس	خط العرض المتوقع	خط العرض المرصود	الانحراف فى ٢٤ ساعه	خط الطول المتوقع	انحراف البوصلة	المسار المصحح	المسافة
الاحد ١٥	٦٠° ٥٢´	— —	١١١ ميلا	١٢° ١٩´	٢ شرطة	جنوبا ٠´ ٧٧° غربا	٢٩ ميلا
الاثنين ١٦	٦٠° ٢٦´	٦٠° ٢٨´	٨٤ ٥/١٠ ميلا	٩° ٢٧´	٢ شرطة	جنوبا ٤٠´ ٧٨° غربا	٢١ ٣/٤ ميلا
الثلاثاء ١٧	٦٠° ٢٦´	— —	٥٠ ٤/١٠ ميلا	٧° ٤٦´	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا ٣٠´ ٥٢° غربا	٢١ ١/٢ ميلا
الاربعاء ١٨	٦٠° ٤١´	٠° ٣٠´	١٨ ٤/١٠ ميلا	٧° ٨´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٣٠´ ٥٢° غربا	٦ أميال
الخميس ١٩	٦٠° ٣٢´	— —	٤٨ ٣/١٠ ميلا	٥° ١٢´	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا ٠´ ٨٠° غربا	١٢ ١/٤ ميلا
شهر مارس	خط العرض المتوقع	خط العرض المرصود	الانحراف عن خط الزوال	خط الطول المتوقع	انحراف البوصلة من الشمال للغرب	المسار المصحح	المسافة
الجمعه ٢	٦٠° ٣٤´	٦٠° ٣٣´	٢٣ ٤/١٠ ميلا	٤° ٤٥´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٤٠´ ٦٢° غربا	٦ ٣ ميلا
السبت ٢١	٦١° ١٠´	— —	٢٩ ٦/١٠ ميلا	٣° ٤٤´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ١٠´ ٢٣° غربا	١٣ ١/٤ ميلا
الاحد ٢٢	٦٢° ١´	— —	٧ ٣/١٠ ميلا	٣° ٢٩´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٣٠´ ٩° غربا	١١ ميلا
الاثنين ٢٣	٦١° ٤٨´	— —	٤٦ ٦/١٠ ميلا	٥° ٨´	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا ٥٠´ ٤٠° شرقا	١٢ ميلا
الثلاثاء ٢٤	٦٠° ٥٨´	٦٠° ٥١´	٢٩ ميلا	٦° ٨´	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا ١٥´ ٣٠° شرقا	١٤ ١/٤ ميلا

شهر مارس	خط العرض المتوقع	خط العرض المرصود	الانحراف عن خط الزوال	خط الطول المتوقع	انحراف البوصلة من الشمال للغرب	المسار الصحيح	المسافة
الأربعاء ٢٥	٦١° ٤٤´	— —	١٥ ٤/١٠ ميلا	٥° ١٦´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٠´ ١٦° غربا	١٣ ٣/٤ ميلا
الخميس ٢٦	٦٢° ٣٥´	— —	٩ ٢/١٠ ميلا	٥° ١٧´	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٣٠´ ١٠° غربا	١٣ »
الجمعة ٢٧	٦٢° ١٨´	٦٢° ٨´	٧ ٧/١٠ ميلا	٥° ٢٣´	٢ ١/٤ »	جنوبا ٠´ ٥° شرقا	٤ ١/٤ »
السبت ٢٨	٦٢° ٢٩´	٦٢° ٢٦´	٣٠ ٢/١٠ ميلا	٤° ٢٩´	٢ ١/٤ »	شمالا ٠´ ٥٥° غربا	٩ ١/٤ »
الأحد ٢٩	٦٢° ٦´	٦٢° ٣´	١٢ ٤/١٠ ميلا	٤° ٥٥´	٢ ١/٤ »	جنوبا ١٥´ ١٢° شرقا	٥ ٣/٤ »
الإثنين ٣٠	٦١° ٤٩´	٦١° ٥´	٤ ٢/١٠ ميلا	٤° ٢٦´	٢ ١/٤ »	جنوبا ٢٠´ ١٦° غربا	٣ ٣/٤ »
الثلاثاء ٣١	٦١° ٤١´	٦١° ٣٩´	١٧ ٦/١٠ ميلا	٤° ٨´	٢ ١/٤ »	» ٤٠´ ٢٧° غربا	٥ »

شهر أبريل	خط العرض المتوقع	خط العرض المرصود	الانحراف عن خط الزوال	خط الطول المتوقع	انحراف البوصلة من الشمال للغرب	المسار الصحيح	المسافة
الأربعاء ١	٦١° ١٠´	- —	٢ ٩/١٠ ميلا	٤° ٠´	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا ٠´ ٨° غربا	٧ ١/٤ ميلا
الخميس ٢	٦٠° ٥٠´	٦١° ١´	٧٧ ٢/١٠ »	١° ٢١´	٢ ١/٤ »	» ٠´ ٧٥° »	٢٠ »
الجمعة ٣	٦٠° ١٤´	— —	٢ »	١° ١٧´	٢ ١/٤ »	» ٢٠´ ٢° »	١١ ٣/٤ »
السبت ٤	٦٠° ٣٦´	— —	٧٤ ٤/١٠ »	٥٨° ٤٩´	٢ ١/٤ »	شمالا ٠´ ٧٣° غربا	١٩ ١/٤ »
الأحد ٥	٦٠° ٩´	٦٠° ٥´	٦٠ ٥/١٠ »	٠° ٥٠´	٢ ١/٤ »	جنوبا ٣٠´ ٦٥° شرقا	١٦ ١/٤ »

الاثنين ٦	٢١´ ٦٠°	١٢´ ٦٠°	٧ ٨/١٠ ميلا	٦´ ١°	٢ ١/٤ شرطة	شمالا ٣٠´ ٢٥° شرقا	٤ ١/٢ ميلا
الثلاثاء ٧	٣٥´ ٥٧°	٣٨´ ٥٧°	٢٢ ٢/١٠ ميلا	٢٣´ ٠°	٢ ١/٤ شرطة	جنوبا — غربا	٢٩ ١/٢ »
الاربعاء ٨	٥٣´ ٥٤°	٤٨´ ٥٤	٢٢ ٢/١٠ »	٤٣´ ٣٥٩°	٢ ١/٤ »	» — ٨° غربا	٤١ ٣/٤ »
الخميس ٩	١٨´ ٥٣°	٢٤´ ٥٣°	٤ ٥/١٠ »	٥١´ ٣٥٩°	٢ »	» ٣٠´ ٢° شرقا	٢٣ ١/٤ »
الجمعة ١٠	٤٤´ ٥٠°	٥٣´ ٥٠°	١٤ ٦/١٠ »	١٥´ ٣٦٠°	٢ »	» ٠ ٥° شرقا	٤٠ »
السبت ١١	٣´ ٤٩°	٣´ ٤٩°	٣٨ ٢/١٠ ميلا	٥١´ ١°	٢ شرطة	جنوبا ١٥´ ١٩° شرقا	٢٨ ١/٢ ميلا
الاحد ١٢	٣٢´ ٤٧°	٢٦´ ٤٧°	١١ ١/١٠ »	٤٨´ ٠°	١ ٣/٤ »	» ٣٠´ ١٢° غربا	٢٣ ١/٢ »
الاثنين ١٣	٢٥´ ٤٥°	٢٧´ ٤٥°	١٠ ٢/١٠ »	٢٣´ ٠°	١ ٣/٤ »	» ٤٥´ ٤° غربا	٢٠ ١/٤ »
الثلاثاء ١٤	٥١´ ٤٣°	٤٨´ ٤٣°	٤٥ ٢/١٠ »	٢٧´ ١°	١ ٣/٤ »	» ٠ ٢٥° شرقا	٢٦ »
الاربعاء ١٥	٥٢´ ٤٢°	٥٣´ ٤٢°	١٨ ١/١٠ »	٢´ ٢°	١ ٣/٤ »	» ٠ ١٨° شرقا	١٤ ٣/٤ »
الخميس ١٦	٣٣´ ٤٢°	٣٥´ ٤٢°	١١ ٣/١٠ ميلا	١٧´ ٢°	١ ١/٢ شرطة	جنوبا ٣٠ ٢٩° شرقا	٥ ١/٢ ميلا
الجمعة ١٧	٥٥´ ٤١°	٤٠´ ٤١°	٤٧ »	٢٠´ ٣°	١ ١/٢ »	» ٠ ٥٠° شرقا	١٥ ١/٢ »
السبت ١٨	١٧´ ٤١°	١٦´ ٤١°	٣١ ٤/١٠ »	٢´ ٤°	١ ١/٢ »	» ٤٠´ ٤٠° شرقا	١٢ ١/٤ »
الاحد ١٩	٣٣´ ٤٠°	٣٠´ ٤٠°	٣ ٨/١٠ »	٧´ ٤°	١ ١/٢ »	» ٠ ٥° شرقا	١٠ ٣/٤ »
الاثنين ٢٠	٤٦´ ٣٨°	٤٥´ ٣٨°	٤ ٤/١٠ »	١´ ٤°	١ ١/٢ »	» — غربا	٢٦ »
الثلاثاء ٢١	٣٧´ ٣٧°	٣٧´ ٣٧°	٧٠ ٦/١٠ ميلا	٣٠´ ٥°	١ ١/٢ شرطة	جنوبا ٠ ٤٦ شرقا	٢٤ ١/٢ ميلا
٢١ الساعة ٧	٣١´ ٣٧°		٢٤ ١/١٠ ميلا	١´ ٦°			

فى ذلك الوقت كانت رأس ڤانسان ناحية الجنوب الشرقى على بعد خمسة أميال منا • وتقع رأس ڤانسان فى الخريطة على خط طول ٤٥´ ٦° • ومعنى هذا أن الفرق هو ٤٤ ثانية فقط •

مايو ١٧٦١

وكانت رحلتنا فى البحر المتوسط بعد ذلك ألطف وأمتع • فبعد أن قضينا الشتاء العاصف فى مضيق كاتيجات وفى بحر الشمال وصلنا فى أجمل فصل من فصول السنة الى هذه الناحية اللطيفة • وبينما كنا فى الربوع الشمالية لا نرى فى الشتاء الا جبالا عابسة أو لا نرى جبالا فى الأفق على الاطلاق ، كنا فى هذه المنطقة نرى مناظر جبال جميلة كل الجمال على الساحل الأفريقى أو على الساحل الأوروبى ، وعليهما معا فى وقت واحد أحيانا • واذا كانت العواصف فى بحر الشمال قد سببت لنا الضيق فى أحيان كثيرة ، فان الجو الجميل فى البحر المتوسط قد ثقل علينا أيضا ، فتبرمنا أشد التبرم بسكون الريح ، خاصة وأن مياه الشرب التى أتيحت لنا فوق السفينة قد تحولت الى شراب لا يساغ ، ولم يكن ضباط السفينة يرون طلب الماء سببا كافيا للرسو فى ميناء قريب •

وقام السيد باورينفايند برسم مناظر متعددة لما شاهدناه ، من بينها جبل طارق وسبته على ما يرى القارىء فى (اللوحة الأولى) • وفى الرابع عشر من مايو رسونا فى سانت أوستاش St. Eustace على بعد ميل ونصف من مارسيليا ، ووجدنا هناك سفنا حربية أسبانية وهولندية وسويدية ومالطية • أما ميناء مارسيليا فكان يغص بالسفن الفرنسية ــ التى لم تعد تجرؤ على الخروج الى البحر بسبب الحرب الجارية مع انجلترا ــ وسفن الأمم المحايدة التى تتولى حاليا تجارة الفرنسيين مع بلدان المشرق والبربر(٥) أو التى استعارها الفرنسيون من أصحابها ، وفرقاطة انجليزية حملت الى مارسيليا عددا من الأسرى الفرنسيين • ورحلنا قرب

حلول المساء الى المدينة وسعدنا بلقاء زميلنا فى البعثة السيد فون هافن الذى كان قد ترك السفينة فى هيلزينجئور فى السابع من فبراير وسافر الى هنا عبر ألمانيا وفرنسا •

يونيو ١٧٦١

وطابت لنا الاقامة فى مارسيليا خاصة وقد أتت بعد رحلة بحرية طويلة • ولم نأل جهدا فى زيارة المكتبات ومحلات الكائنات الطبيعية الغريبة ، سواء منها تلك التى يملكها كبار الهواة أو تلك التى تجمع الكثير من الحيوانات البحرية وتبيعها بأسعار مقبولة الى الهواة ، وتلك التى تقوم بصيد المرجان الأحمر فى هذه المنطقة وبتجهيزه • كذلك زرنا اليسوعيين المشهورين السيد بزناس Pezenas والسيد لاجرانج La Grange اللذين يمتلكان هنا مرصدا فلكيا مريحا مزودا بأجهزة ممتازة بعضها انجليزية الصنع ، ولقينا فى كل مكان حللنا به أحسن الاستقبال •

ولو انني تحدثت عن التجارة العظيمة التى تجرى مع المشرق ، وعن موقع المدينة ، وميناءها ، وحصونها ، وحدائقها الكثيرة الجميلة وما الى ذلك ، لكنت متحدثا بشىء لا تدعو اليه الحاجة ، فقد سبقنى الى وصف هذه الأمور تفصيلا آخرون ، ولم يعد أحد يتوقع منى المزيد • ولما كان السيد باورينفايند قد رسم شكلا عاما لمدينة سانت أوستاش قبل رحيلنا عنها ، فقد قررت أن أنشره فى (اللوحة الثانيه) ، لأننى لا أذكر اننى رأيت شكلا عاما لهذه المدينة فى أى مرجع •

ووجدنا هنا ثلاث سفن تجارية دنمركية كانت قد فرغت من الشحن وظلت تنتظر الرحيل معنا الى ازمير • وفى نهاية شهر مايو استقللنا السفينة وعزمنا على الاقلاع مع السفن التجارية المذكورة ، ولكن حبل مرساتنا انقطع وضاع اليوم كله تقريبا قبل أن يتمكن الرجال من انتشال المرساة

من القاع • أما اليوم التالى فكانت ريحه غير مواتية ، ولذلك فاننــا لم نستطيع الاقلاع الا فى اليوم الثالث من يونيو • وفى الخامس من الشهر نفسه لمحنا بعد الظهر أربع سفن عن بعد وتبينا من أعلامها أنها سفن انجليزية • وكنا قد قابلنا خارج مضيق جبل طارق سفينة من الأسطول الذى يأتمر بامرة الأدميرال سوندرز فى البحر المتوسط ، وظننا اذ ذاك أننا سنجد غالبية هذا الأسطول هنا •

ولما كانت الدنمرك فى سلام مع انجلترا ، لم تخش سفينتنا أى عمل عدائى • الا أن السفن التجارية التى انضمت الينا كانت قد رست فى ميناء فرنسى وأقلعت منه ، ولهـذا فكرنا فى أن الانجليز قد يخطر ببالهم أن يطالبوا بتفتيش هذه السفن ، ودبر قائدنا أمره على أن يمنعهم من ذلك ان هم حاولوا • وأمر أن تسير سفننا التجـارية بجوار سفينتنا الحربية ، وأعدت المدافع كلها ، ووزعت الأسلحة اليدوية ، ووضعت جميع السرر ، حتى تلك التى تخص الضباط والركاب ، فى شباك المتاريس ، وحملت المضخات الى مواضعها وأصبح كل شىء باختصار جاهزا للمعركة • الا أن سكون الريح حـال بين الانجليز وبين الاقتراب منا فى ذلك اليـوم • وأخيرا وصلت الينا واحـدة من سفن الأدميرال سونـدرز الأربع بعد منتصف الليل واتصلت بين الجانبين أسئلة وأجـوبة انصرف بعدها كل منهما الى حال سبيله •

وفى السادس من الشهر عند المساء وضعت سفينتنا فى حالة تأهب لأننا رأينا عن بعد عشر سفن • الا أن هذه السفن ابتعدت ولم نر منهـا شيئا بعد ذلك • وفى الثامن طالب قائد احدى السفن الحربية الانجليزية بالقيام بتفتيش سـفننا التجارية الثلاث ، فلما لم يسمح له قائدنا بهـذا ورأى هو استعدادنا الكامل للدفاع عن السفن ، تراجع عن مطلبـه وان استبد به الغيظ لاضطراره الى هذا •

وقد أتيح لعلماء الفلك فى السادس من يونية هذا العام أن يشاهدوا ظاهرة نادرة تضفى عليها ندرتها من الغرابة الشىء الكثير ، فقد ظهر كوكب الزهرة فى فلكه أمام الشمس • ولقد تأهب المتأهبون لرؤية هذه الظاهرة فى المراصد الفلكية الأوروبية ، وأرسل العليمون بأمور النجوم الى البقاع البعيدة ، وكلفت أنا أيضا بمهمة رصـد هذه الظاهرة من المكان الذى أكون فيه •

ولما لم أكن قد تقدمت فى طريق رحلتى بعيدا عن أوروبـا ، فان رصدى للظاهرة — حتى لو قمت به من فوق الأرض — لم يكن سيؤدى الا الى القليل من النفع • أما فى البحر فلم يكن هناك من سبيل الى رصد الظاهرة بالدقة المطلوبة ، فان حركة السفينة مهما صغرت تكون بالنسبة لهذا النوع من الرصد كبيرة مفرطـة فى الكبر • ولما كانت الريح فى تلك الأيام قد لزمت السكون على نحو يوشك أن يكون دائما ، فقد اتخذت أهبتى لرصد الظاهرة على قدر استطاعتى ، وهذه هى نتـائج رصدى أوردها هنا على الرغم من أننى متأكد من أن العلماء لن يفيدوا منهـا ، اللهم الا اذا أراد بعضهم أن يبين مدى الخطـأ الذى اعتورها • كانت الزهرة ، عند شروق الشمس فى السادس من يونيو ، أمام قرص الشمس ، ثم أتت سحابة صفيقة فوارت قرص الشمس عنـد مرور الحافة الأولى للكوكب ، ولهذا تعذر على أن أرى حافته الأخيرة • وقست بعد رصدى الكوكب مباشرة بتحديد ارتفاعات مختلفـة للشمس ، وفى ظهر اليوم التالى استخرجت من الارتفاع القطبى المرصود ومن المسافة التى قطعتها السفينة الارتفاع القطبى سـاعة الرصد مع تصحيح للزمن • وكانت النتيجة التى توصلت اليها هى أن المرور الظاهرى للحافة الأخيرة للزهرة بعيدا عن قرص الشمس حدث فى الوقت الحقيقى الساعة ٩ والدقيقة ٣ والثانية ٥٣ ، تحت ارتفاع قطبى قدره ٦َ ٤٠° مع ميل الى الشرق غير بعيد عن دائرة خط زوال مدينة مارسيليا •

ووصلنا فى الرابع عشر من يونيو جزيرة مالطة ورسونا هنـاك فى الميناء الكبير وكأنما رسـونا فى المدينة ذاتها ، ذلك أن عاصمـة هذه الجزيرة تتكون ، كما هو معـروف ، من مدن مختلفة صغيرة تحيط بها خلجان تجعل منها ثغورا آمنة • ومنظر المدينة من هذه الناحية منظر رائع • وتقع البيوت على مرتفعـات وعرة ، وقد ابتنيت من الحجر ، وجعـلت سقوفها مسطحة على الطريقة الشرقية ، وليست البيوت وحدها هى التى ابتنيت من الحجر بل لقد شـيدت الحصون الضخمة من الحجر أيضـا أو نحتت فى الصخر نحتا • والصخر الذى تتكون الجزيرة منه عبارة عن حجر جيرى رخو لايجد الانسان فى نحته مشقة أكثر من تلك التى يجدها فى نحت الخشب • ولما كانت الطائفة[٦] فقيرة الى المال والى المهندسـين المجيدين ، فان الانسان يدهش عندما يجد فى هـذه الجزيرة الكثير من الكنائس والقصور البديعة (*) •

وأبـدع كنيسة فى مالطة هى كنيسـة القديس يوحنا التى تتلقى الكثير من الهبـات من الوجهـاء جميعا ، وتزدان بقبورهم الجميلـة ، بل لقـد سمعت أن جانبـا من الغنائم التى تغنمها الطائفـة يوجه الى هذه الكنيسة • وهكذا تكدست هذه الغنـائم وأصبحت كنزا ضخما لا يكاد الانسان يصدق ضخامته • وتخطف النظر بين التحف الذهبيـة والفضية الثقيلة ، من تماثيل وثريات وغيرها ، ثريا تتدلى من سلسلة من الذهب الخالص يقال ان ثمنها بلغ خمسمائة ألف تالر مالطى •

(*) يجد الباحث فى الحجر الجيرى المالطى الكثير من الأصداف والحلزونات المتحجرة ومما يسـمونه بالسنة الحيات التى يعتبرها العالمون بالطبيعيات اسـنان سمكية • كذلك يجد ما يسمونه بعيون الحيات التى يصوغها الصياغ هنا على هيئة خواتم أو يحوطونها بسلسلة ذهبية انيقة ، ويبيعونها الى الأجانب • ويقولون ان اسـنان الحيات وعيون الحيات المتحجرة دليل على ان بولس الرسـول ابعد الحيوانات السامة عن مالطة ، وربما كان السبب فى ظهورها هو ان الحيات لم تعد تستطيع الحياة فى هذا المكان الجاف اليابس • وليس من شك فى ان هنـاك جزرا صغيرة اخرى لم ينزلها قديس قط ، ولا نجد فيها رغما عن ذلك حيات •

وتضـم الكنائس الجانبيـة ثروات كثيرة بها كل ثمين نفيس • ويقولون انها تحتوى على صليب من الذهب الخالص يزن ٢٤ رطلا وقطعة من مهد المسيح حليت بالكثير من الأحجار الكريمة • وهكذا فان ثروات هذه الكنيسة تفوق مافى مكة والكعبـة من ثروات ــ على ماعلمت من رواية الرواة ــ بل قد تفوق الكنوز التى عند قبر محمد فى المدينة • وفى مالطة مستشفى عظيم يستقبل جميع المرضى دون تفريق ويعالجهم بالمجان ، وسمعت أن المرضى هناك يتناولون الطعام فى صحاف من فضة • وربمـا كان تقديم الطعام فى صحاف من فضة قاصرا على مرضى فرسان الوجهاء ، وهذا هو ما أرجحه ، وقد نحتت صوامع كبيرة للقمح فى الصخر • أما المياه فتأتى الى المدينة من عين تبعد عنها نحو ثلاثة أميال وتنساب خلال مجرى أنشىء فى مطلع القرن السابع عشر •

ولا يزيد طـول جزيرة مالطة كلها على ٤/٣ ٤ أميال وعرضـها على ٤/١ ٢ من الأميال • والشاطىء جنوبى الجزيرة شـديد الانحدار ، ويميل فى شـمالها الى الاسـتواء ، وبه بعض الخلجان أقيمت عليهـا الأبراج والاستحكمات لتمنع نزول الأعداء • وهكذا فان الجزيرة كلها حصن • وليس على الصخر الذى تتكون منه الجزيرة سـوى القليل من الطين • والجزيرة على الرغم من ذلك شديدة الخصب ، تطرح العديد من الثمار الممتازة • ولما كان السكان ، على ما يبدو ، ينعمون بالكثير من الحرية ، فان كثافة السكان بالجزيرة مرتفعة أشد الارتفاع •

ورأينا فى ميناء مالطة السفينة الحربية التركية التى هرب بهـا فى التاسع عشر من سبتمبر عام ١٧٦٠ العبيد المسيحيون من جزيرة ستانشيو Stanchio عنـــدما نزل قبطان باشـا بوجهـــاء الأتراك الى البر • ثم وقف هؤلاء العبيد بالسفينة ، بعد أن حرروا أنفسـهم بأنفسهم ، فى موضع قريب من مالطة حتى رأى أهل الجزيرة من هيئة السفينة أنها



لوحة رقم (٤)

سفينة تركية ، ولم يفهموا سببا لتجرؤ السفينة على الاقتراب الى هــذا الحد ، فأرسلوا اليها رسلهم • وعرض العبيد النزول عن السفينة والمدافع على أن تترك لهم الغنيمة الباقية ليقسموها بينهم ، فأدخلت السفينة الى الميناء فى السادس من أكتوبر من العام نفسه • وأخذ أعقل العبيد أنصبتهم من الغنيمة وعادوا بها الى أوطانهم ، وكانت أنصبتهم من الغنيمة كبيرة جدا على ما سمعت • وبقى بعضهم فى الجزيرة ينفقون قدر الطاقة من أنصبتهم ، بل لقد أنفقها عدد منهم عن آخرها •

وكانت هذه السفينة التركية مزودة بثلاثة وثمانين مدفعا ، منها ستة وستون مصنوعة من المعدن ، وكان بعضها مصــنوعا فى بلاد القيصر ، وبعضها الآخر مصنوعا فى البندقية والبقية مصنوعة فى تركيا • أما السفينة ذاتها فكانت مشيدة على الطابع التركى ، وكانت ثقيلة شــديدة الثقل • وقد هيئت عليها ــ عند الصارى فى الممر الذى اعتاد الضباط على الجلوس فيه ، وكذلك على الجــانبين فى قلب السفينة ــ أماكن أخرى للجلوس ، فالأتراك لا يحبون المشى لا على ظهر السفن ولا على ظهر الأرض • وممر الحــراس ممر ضيق جــدا • ويتسع المكان بين المقصــورة السفلية والمقصورة العلوية لنحو عشرة مدافع ، وضع بعضها ناحيــة المؤخرة • وكان هذا المكان يستخدم ليلا لايواء العبيد •

تولت الطائفــة التى يطلقون عليهــا هنــا اسم Religion اصلاح السفينة وتجهيزها على الطريقة الأوروبية • ولم يمض على ذلك وقت طويل عندما بلغنا ونحن بمصر أن فرنسا اشترت هذه السفينة وبعثت بها هدية للسلطان • ولقد صعب حتى على الفرنسيين المقيمين فى الشرق أن يصدقوا هذا الخبر عندما سمعوه لأول مرة ، لأن أمتهم تفتقر ، فيما يبدو ، الى المال والسفن ، وتعجز لهذا السبب عن الاستمرار فى حرب الانجليز • ولكن الفرنسيين يمارسون تجارة عظيمة فى الشرق ، ولهــذا

فهم حريصون أشد الحرص على ارضاء السلطان بكل السبل الممكنة •

ويبدو أن طائفة الفرسان المالطية لم تعد شديدة الحماس فى ابادة غير المسيحيين ، ولهذا لم تعترض ، فيما أرجح ، على اعادة السفينة اعتراضا شديدا • الا أن الفرسان خافوا نوايا السلطان فأصلحوا القلاع الصغيرة كلها ، ودربوا أهل الجزيرة على حمل السلاح تدريبا عنوا به عناية شديدة• وكانت الطائفة تمتلك ، علاوة على هذه السفينة ، ثلاث سفن حربيـة بها على التوالى ٦٤ و ٦٢ و ٦٠ مدفعا ، وأربع شـوان كبير وشـانيتين صغيرتين ، أما الشانية الكبيرة فعدد مجاديفها ٥٠ ومدافعها ثلاثة ، وأما الشانية الصغيرة فمجاديفها ٣٦ وبها مدفع واحد • ويغل الى المجاديف المجرمون أو العبيد المسلمون من بلاد البربر وبلاد الترك •

ومنذ أن عقدت معاهدات بين ملك نابلى والسلطان حظر فيها على المالطيين أن ينفذوا الى الأرخبيل[٧] ، لم يعد أحد يسمع الا نادرا عن استيلاء المالطيين على سفن تركية • على أن الانسان ما يزال يجد بين غير الرسميين من المسيحيين أناسا لا يفتقرون الى الحماس للحرب من أجل الايمـان بالمسيح اذا لم تتح لهم فرصة أخرى لممارسة نشاط آخر أفضـل حقيق بأن يحقق لهم السعادة فى حياتهم • ويبدو أن الأمل فى الربح المادى يزيد لديهم عن التعصب للمسـيحية • ويؤكدون فى بلاد الشرق أن هؤلاء لا يحتاجون ، اذا ما جهزوا سفينة ، الا الى جواز أو أمر من أمير موناكو أو أى أمير آخر من الأمراء الايطاليين الميالين الى المسلمين ، كما سمعنا ، على الرغم من أنهم قد لا يكونون قد سمعوا عنهم شيئا من قبل قط ، ولا يحملون بالتالى يقينا ضغينـة نحوهم تبرر هذا النوع الرخيص من الحرب •

كذلك سمعت أن القراصـنة المسيحيين مسموح لهم جميعـا بأن يسوقوا الى مالطة السفن التى يستولون عليها • ولهـذا لا ينبغى على

الانسان أن يلوم المسلمين على الصورة التى يتصورون المالطيين عليها والتى تماثل الصورة التى تتصور نحن المغاربة والجزائريين والطرابلسيين[٨] عليها بما كانوا يأثمون ، وان كان هؤلاء البرابرة يفضلونهم فى أنهم يعيشون فى صداقة مع أمم مسيحية مختلفة ، بينما الفرسان المالطيون لا يعيشون فى صداقة مع أية أمة من الأمم الاسلامية .

وقمت أنا والسيد فورسكال برحلة فرعية صغيرة الى الملاحات التى تبعد مسافة ميل وثلاثة أرباع الميل عن المدينة . وتتكون هذه الملاحات من وحدات مربعة يبلغ طول ضلع الواحدة منها ١٠٠ قدم ، وجميعها مبلطة . وهم يملؤونها فى كل عام مرتين بماء البحر فيتبخر فى شهر ويتبقى الملح . ويقولون انهم يحصلون علاوة على ذلك فى كل مرة على ما يقرب من ٧٠٠ من أسماك السلمون يبلغ ثمن السمكة الواحدة منها ٤ سكوديات[٩] وعلى هذا الحساب فان كبير الطائفة الذى يمتلك هذه الملاحات وحده يحصل سنويا على نحو ٥٦٠٠ سكوديات من ماء البحر فقط . وهناك على مقربة من هذه الملاحات المربعة ملاحات أخرى غير مبلطة تنتج ملحا رديئا . ويستخدم هذا الملح الردىء فى تمليح السمك كما يستخدم فى تسديد أجور العمال . ورأينا فى مواضع أخرى الفقراء من السكان يحملون ماء البحر فوق الألسنة الصخرية بالساحل ويدعونه يتبخر ويجمعون الملح القليل الذى ينتج بعد التبخر .

ويقتاد المرشدون الزائر الى قبة صغيرة عند الملاحات تطل على البحر سعتها فى حجم القارب تقريبا . ويقولون ان هذا هو الموضع الذى تحطمت فيه سفينة بولس الرسول . وهناك غير بعيد من هذا الموضع كنيسة صغيرة طولها ٥٥ قدما وعرضها ٤٥ قدما تقريبا شيدت تكريما للرسول ، كتبوا فوق بابها ــ وكذلك فوق كنائس أخرى فى مالطة ــ عبارة تحذير الى الأشرار تقول : Non gode l,immunita ecclesias ca.

وذهبنا فى يوم آخر الى سانت انطون St. Antoine والى بوسكيه Bousquet وهما داران جميلتان لكبير الطائفة من حولهما الحدائق وبساتين البرتقال • وفى الموضع الأخير مغارة ظريفة جدا • ورأينا مدينة تشيتا ڤيكيا Citta Vecchia، التى كانت فيما مضى حاضرة الجزيرة والتى لم يعد يسكنها الكثيرون فى الوقت الحالى • وأعجب ما فى هذه المدينة كنيستها الرائعة والمغارة الصغيرة التى فى أسفلها والتى يقولون ان بولس الرسول اختفى فيها الشهور الثلاثة الأولى بعد أن تحطمت سفينته عند هذه الجزيرة • والمغارة صغيرة ، لا يرى الانسان فيها سوى تمثال للرسول من حوله كومة كبيرة من قطع صغيرة من الصخرة التى نحتت المغارة فيها • ويدعى الناس هنا أن قطع الصخر هذه لا تزال الى الآن تصنع المعجزات بما لها من خاصيات من بينها أن من يحملها لا يخشى عضة الثعبان • ولقد أرسلت كمية كبيرة الى الأمة الرومانية الكاثوليكية فى كل ربوع العالم ولكن كومة المغارة كلما تناقصت حدثت معجزة فأكملت نقصها •

ويرى زائر الكنيسة أيضا صورة للجراف روجر[١٠] Roger، النورماندى الذى أخرج العرب المشارقة من جزيرة مالطة • وهناك مرتفع غير بعيد عن الكنيسة يقولون ان بولس الرسول كان يقف فوقه ويعظ ، فأقيم ، احياء لهذه الذكرى ، تمثال لبولس الرسول وهو يعظ •

وهناك على مقربة من تشيتاڤيكيا سراديب كثيرة أو مساكن فى باطن الأرض منحوتة فى الصخر • ولقد بنيت جدران سدت بعض هذه السراديب حتى لا يتوه فيها الناس • ويرى الانسان عدداً من الحجرات الصغيرة وقبوا كبيرا لعله كان يتخذ فيما مضى مكانا للاجتماع،

وفى مكان آخر ما يوحى بأن طاحونة صغيرة كانت قائمة فيه . أما لماذا نحتت هذه المساكن فى الصخر ، فسؤال هناك شيء مؤكد للرد عليه وهو أن السكان القدامى للجزيرة ، والذين لم يكونوا معتادين على السكنى فى البيوت المترفة ، كانوا يجدون فى هذه السراديب فى وقت الحر مقاما رطبا يرتاحون اليه غاية الراحة ، ولا يخافون — وهم فيه — أن يتعرضوا لكثير من النهب والسلب . ولقد عثر بعضهم فى جزيرة مالطة على كتابة فينيقية منقوشة على حجر ، ولكننى لم أرها رأى العين . ويجد القارىء تصويرا لها فى كتاب بعنوان :

Saggi di dissertazioni academiche, publicamente lette nella nobile academia Etrusca della citta di Cortona in 4 to Romae 1735. Vol. III.

كذلك يجد القارىء أرصادا فلكية عن خطوط الطول والعرض فى جزيرة مالطة بمجلة

Journal des observations physiques, mathematiques & botaniques par le R.P. Feuille

ولقد تلقيت نسختين من خريطة للمدينة ومن خريطة لجزيرتى مالطة وجزيرة جوزو Gosen ، والرأى عندى انهما قد طبعتا طبعا جيدا ولهذا فلن أنشر هنا خرائط لهذه المناطق حتى لايزيد عدد اللوحات زيادة لاداعى لها .

* * *

وأبحرنا من جزيرة مالطة فى العشرين من يونيو وظللنا حتى الخامس والعشرين من الشهر لا نرى أرضا ، وكان الارتفاع القطبى فى ظهر يوم الخامس والعشرين ١١َ ٣٦° ،وكانت جزيرة سابينز Sapienza الى الشمال منا على بعد سبعة أميال على ما قال المرشدون البحريون ، ومعنى هذا أن الجزيرة تقع تحت ارتفاع قطبى قدره ٣٩َ ٣٦° . وفى السادس والعشرين وصلنا الى الأرخبيل ، وكان ارتفاعنا القطبى عند ظهر ذلك اليوم ، بناء على رصد دقيق ، هو ١٠َ ٣٦° . واعتمدت فى تحديد بعد الجزر القريبة

منا على تقديرات ربانيا ، وبناء عليهـا فان الارتفاع القطبى لجزيرة سيريجوتو Serigotto هو ٥٢َ ٣٥° ، وجزيرة أوڤو Ovo هو ٩َ ٣٦° وكاب سانت أنجيلو Cap st. Angelo هو ٢٦َ ٣٦° . وتقع هذه الأماكن جميعا فى خريطة الأرخبيل التى أعدها عن استقصاء وتبحر السيد دانفيل D'Anville ونشرها فى باريس فى عام ١٧٥٦ ، منحرفة الى الشمال انحرافا شديدا ، وليتنى كنت فى حالة صحيـة تمكننى من استكمال ملاحظاتى الجغرافية فى هذه المنطقة . فقد اعترانى نزيف شديد أفقدنى الأمل فى أن أرى القسطنطينية ، ناهيك عن البلاد العربية .

يوليه ١٧٦١

ومع ذلك فقـد اكتمل لدى من الأسباب ما جعلنى أشكر العنـاية الالهية على أن هـذه النازلة لم تنزل بى فى وقت لا أجـد فيه شيئا من العون أو وسائل الراحة . وعلى الرغم من أننى تعرضت فى ذلك الفصل من فصول السنة للكثير من حرارة الجو القائظـة ، فقد كنت فى صحبة أوروبيين لا أزال ، ونعمت بفضـل وتدبير القائد بكل ما كان يمكن أن أنتظره من عون وراحـة على ظهر السفينـة . وفى الثالث من يوليو وصلنا مع السفن الثلاث الأخرى التى أبحرت معنا من مارسيليا الى ميناء ازمير . ونزل جميع رفاقى فى الرحلة الى البر ، أما أنا فلم تكن لدى القوة التى تعيننى على مجـرد الوقوف والتطلع الى هذه المدينـة التجارية الشهيرة من خلال شباك مقصورتنا .

وفى العاشر من الشهر أبحرنا من جديد ووصلنا فى الثالث عشر الى جزيرة تينيدوس Tenedos التى رأينا فيها بعض آثار يظنون أنها من آثار طروادة . وصدر هنا الينا الأمر بمبارحة السفينة الحربية والتوجه الى حاضرة الدولة التركيـة بصحبـة المترجم الذى كان السيد فون جيـلر Von Gahler المبعوث فوق العادة للملك فى القسطنطينية قد أرسله

لملاقاتنا .ولم تكن حالتى الصحية تسمح لى بأن أجازف بالقيام بهذه الرحلة فى مركبة صغيرة مفتوحة كانت ستقطع بنا المسافة على نحو أسرع .

ولما لم نجد فى تينيدوس مركبة لها مقصورة مغلقة فقد تحتم علينا أن ننتظر حتى تأتينا مركبة من هذا النوع المقفل من الدردنيل . فلما جاءت المركبة المرجوة ودعنا السيد القائد فى التاسع عشر من يوليو وودعنا بقية ضباط السفينة الذين قضينا فى صحبتهم فى أوقات العواصف والرياح المعاكسة ساعات قاسية ، وساعات سعيدة أيضا ، وبدأت محاولتنا للسفر مع المسلمين . ولقد صعد الى السفينة فى أثناء رسونا قرب تينيدوس بعض الأتراك ، من بينهم وجيه من داخل البلاد ، أتى مع حاشيته على ما يبدو لكى يتذوق طعم خمور القائد . وكانت لغتهم وملابسهم وتصرفاتهم كلها غريبة فى أعيننا حتى تبدد الكثير من أملنا فى أن ننعم بمتعة كبيرة بين الشرقيين .

ولم تكن الريح فى أثناء الرحلة من تينيدوس الى القسطنطينية مواتية على الاطلاق ، فلم نصل الى القسطنطينية الا فى الثلاثين من يوليو . وألقينا مراسينا عند غلاطة Galata ورافقنا المترجم من فوره من هنا الى پيرا Pera لمقابلة السيد فون جيلر . ولما كان هذا الوزير المفوض من الكرم بحيث أصر على استضافتنا جميعا فى بيته فقد كنت أكثر الجماعة انتفاعا بهذه الطيبة حيث تلقيت كل ما أعاننى على استرداد صحتى .

ملاحظات على القسطنطينية

وصف الكثيرون القسطنطينية ، (أو كما يقول الأتراك : قسطنطينية ، ستمبول ، اسلامبول) ، وأفاضوا ، فلم يعد فى امكانى — وما أقمت فيها الا زمنا قصيرا — أن أضيف شيئا كثيرا يتسم بالجدة والأهمية . هذا الى أننى لم تتح لى فى خلال هذه الزيارة فرصة لرؤية الكثير . فما كدت أبرأ من مرضى حتى أسرعنا الى مصر . ولما كنت قد رأيت حاضرة السلطان التركى فى أثناء رحلة العودة على نحو أكثر دقة ، فسأسوق هنا بعض الملاحظات آملا أن يكون بعضها جديدا لم يعرفه الجميع .

مدينة القسطنطينية مدينة كبيرة كما هو معلوم . ولكن اذا لم نعتبر « قره أغادج » و « غلاطة » و « بيرا » و « ودلما باغجة » الخ — وهى كلها فيما وراء الميناء الكبير ، أو على الأحرى فيما وراء الخليج ، وكذلك « اسكادار » و « قاضى كوى » التى تقع على الناحية الأخرى من البحر ، أى فى آسيا — بمثابة ضواح ، بل اعتبرناها مدنا أو قرى قائمة بذاتها ، فان مساحة القسطنطينية ومعها ضاحيتها « أيوب » والمواقع المطلة على البحر خارج سور المدينة ، لا تصل الى مساحة لندن وباريس .

وليس فى مقدور الانسان أن يعرف شيئا مؤكدا عن عدد سكان المدن الشرقية لأن البلاد الشرقية لم تأخذ بعد بطريقة اعداد سجلات للمواليد والوفيات . فاذا أراد الرحالة أن يأخذ نفسه فى هذه الناحية بأقصى قدر من الدقة ،فليس أمامه ، بعد أن يحدد مساحة المدينة ، الا أن

يتأكد من أن هذه المساحة مسكونة كلها . وأغلب الظن أن الانسان سيتبين بصفة عامة أن ما عندنا من مدن يزيد عدد سكانها عن المدن المساوية لها فى المساحة فى البلاد الشرقيــة حيث البيوت ، اذا قيست بمثيلاتها فى البلاد الأوربية ، منخفضة بصفة عامة ليس بينها مرتفع ، وحيث ألف الناس ترك أمكنة خاوية خلف البيوت . أما الرحالة الذين يذهبون الى أن كثافة سكان المدن الشرقية شديدة شــدة مفرطة ، فهم يعتمدون فيما يبدو على تقديرهم للحشود التى تعج بها دروب السوق فى استنتاج تعداد سكان المدينة كلها .

وينبغى علينا أن نأخذ فى حسابنا أن الشرقى لا يحب اصطحاب الأغراب الى داخل البيت الذى تقيم فيه الأسرة ، وقد أدت هذه العادة الى طرد — ان صح هذا التعبير — أرباب التجارة والحرف من بيوتهم فهم يعملون جميعا فى دكاكين صغيرة مفتوحة فى دروب السوق . ولهذا فان الانســان كثيرا ما يسير فى الدرب من أوله الى آخره فلا يرى فيه الا نجارين ، بينما يعج درب آخر بالحدادين دون غيرهم ، أو صناع الأمشاط أو الصياغ ، أو تجار الجواهر والحراير والفرش وما الى ذلك . ويأتى هؤلاء الى القسطنطينية فى كل صباح بالآلاف ويعودون فى المساء الى أسرهم التى تسكن فى أحياء متطرفة أو فى القرى المطلة على القناة ناحيــة البحر الأسود . هذا الى أن الأعداد الغفيرة من البشر التى لا يرى الناظر أمثالها فى أوروبا الا نادرا وكذلك الأعداد الكبيرة من الناس ، رجالا ونساء ، الذين يترددون على دروب السوق لقضاء أعمالهم أو للتسلية وتضييع الوقت ، تبدو للأجنبى أعظم مما هى فى الحقيقة نظرا لما تتصف به الطرقات بصفة عامة من ضيق . أما اذا زار الرحالة الأحياء المتطرفة فانهم سيجدون هناك فيها من الناس أقل مما يجد الانسان فى نظائرها من البلاد الأوروبية .

ولقد أطلعت على خرائط مختلفة للقسطنطينية فوجدت أن أفضلها

تلك الخريطة التى رسمها السيد الرائد فون ريبن Von Reben الا أن مقياسه ، كما تبين لى ، أصغر من الحقيقة ، فهو يصور المدينة أكبر مما وجدتها • وقد لا يجد العليمون بالرياضيات منهجى الذى أتبعته فى مسح هذه المدينة دقيقا كل الدقة ، ذلك أننى لم أستخدم سوى بوصلة صغيرة والقياس بخطواتى • ولكننى قست بهذه الطريقة الخطوط الأساسية، أعنى محيط المدينة وعددا كبيرا من الشوارع فى القسطنطينية وفى الضواحى وفى المدن القريبة ، ومن هنا فان الخطأ لن يكون كبيرا ولن يتعدى بضع خطوات ، ولن يزيد هذا الخطأ على الأقل عن الخطأ الذى كان سينشأ اذا ما أنا حسبت مساحة المدينة بناء على زاوية خارجية فقط • وأنا أعتقد بصفة عامة ان الانسان لا ينبغى أن ينتظر من رحالة يجوب الشرق من القياسات الدقيقة أكثر مما يستطيع التوصل اليه بالبوصلة ، وبالخطوة ، ذلك أن وضع خرائط للمدن هناك دون تصريح من السلطات يكتنفه من الخطر والصعوبة ما يكتنف مثيله فى البلاد الأوروبية ، وما ينبغى أن يبحث الانسان فى خريطة المدينة الشرقية عن كل الشوارع والطرقات بل يكفيه أن يعرف، منها سعة المدينة وموقعها البارز والعجيب من معالمها • وهذه هى حال خريطتى التى رسمتها للقسطنطينية ، المطبوعة هنا فى اللوحة الثالثة ، وهذه أيضا حال جميع الرسوم الأخرى التى رسمتها للمدن الشرقية ، وجعلت فيها الشوارع حسبما اتفق فى أكثر الأحوال حتى أملأ الفراغات • وتدل أرقام اللوحة الثالثة على مايلى :

١ ــ باغجه قپوسى *

٢ ــ بالق بازار قپوسى *

٣ ــ زندان قپوسى *

٤ ــ أودون قپوسى *

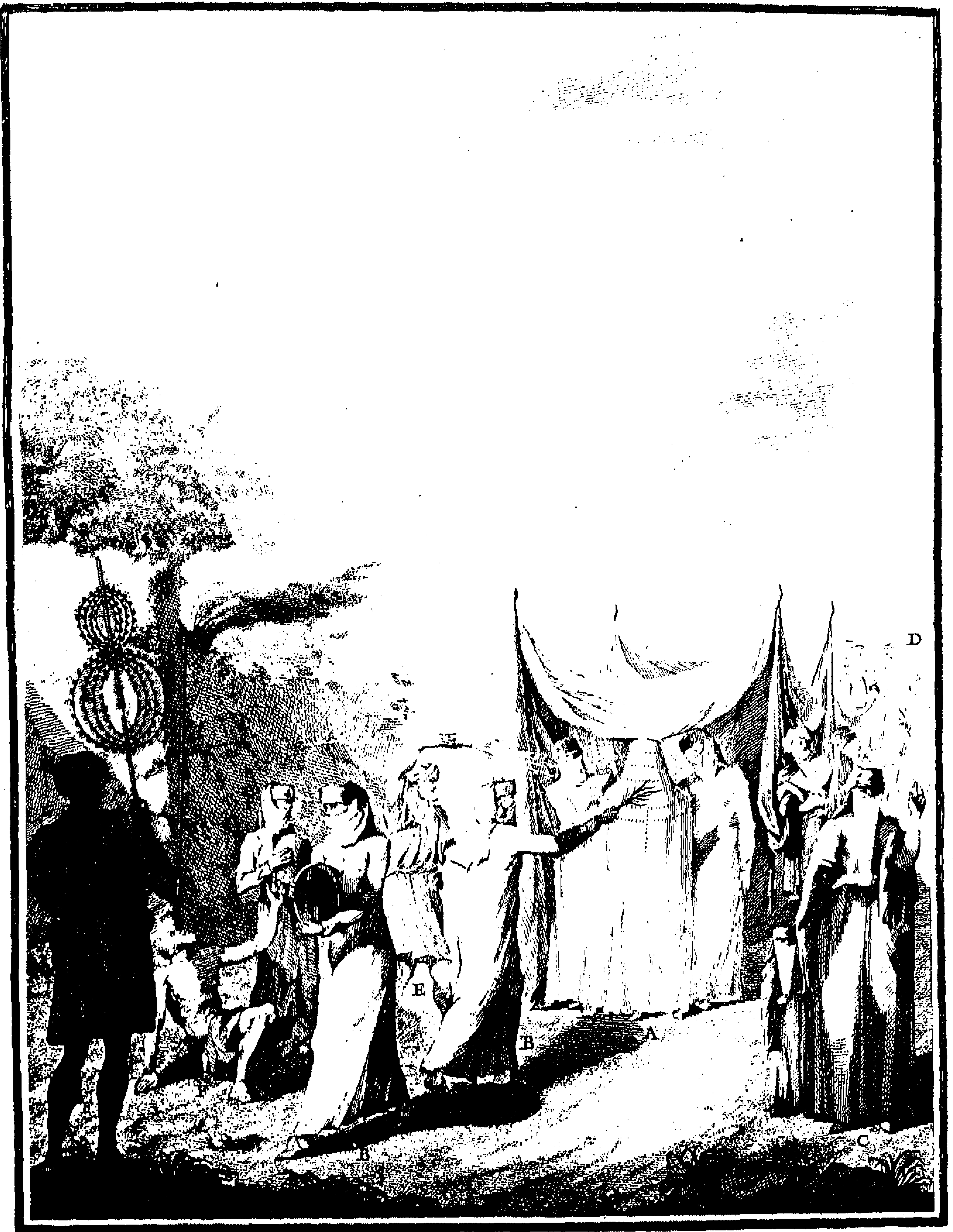
٥ ــ أيازمه قپوسى *

(*) فى الاصل بحروف عربية علاوة على الحروف اللاتينية (المترجم).

٦ ـ اون قپانی ٭
٧ ـ جبالی قپوسی ٭
٨ ـ ایا قپوسی ٭
٩ ـ یکی قپوسی ٭
١٠ ـ بذری قپوسی ٭
١١ ـ فنر قپوسی ٭
١٢ ـ بالاد قپوسی ٭
١٣ ـ عیوان سرای قپوسی ٭
١٤ ـ اکری قپو ٭
١٥ ـ ادرنة قپوسی ٭
١٦ ـ طوب قپوسی ٭
١٧ ـ یکی قپو ٭
١٨ ـ سلوری قپوسی ٭
١٩ ـ یدی قلله قپوسی ٭
٢٠ ـ نارلی قپو ٭
٢١ ـ ساماطیه قپوسی ٭
٢٢ ـ داود باشا قپوسی ٭
٢٣ ـ یکی قپو ٭
٢٤ ـ قوم قپو ٭
٢٥ ـ چاتلادی قپوسی ٭
٢٦ ـ اخور قپوسی ٭
٢٧ ـ بالق خانة قپوسی ٭
٢٨ ـ داغر من حانة قپوسی
٢٩ ـ طوب قپو ٭
٣٠ ـ یللی کیوسك قپو ٭

٣١ – دمير قپو •
٣٢ – سوق چسمه قپو •
٣٣ – بابا حميم قپو •
٣٤ – دمير قپو •
٣٥ – والده ياميا •
٣٦ – مصر چرجى •
٣٧ – قصر الوزير أو الباب •
٣٨ – مسجد ايا صوفيا
٣٩ – ايا صوفيا الصغيرة
٤٠ – سلطان أحمد يمسى وارتميدان أو ساحة الخيل •
٤١ – دار الحيوانات الوحشية •
٤٢ – دار الأسلحة •
٤٣ – العمود المسمى بالمحروق •
٤٤ – على باشا يمسى •
٤٥ – عثمانية يمسى •
٤٦ – سلطان بايزيد يمسى •
٤٧ – وزير خانة •
٤٨ – برستان أو دروب السوق ذات القباء ودكاكين التجار •
٤٩ – السراى التى يسمونها القديمة
٥٠ – سليمانية يمسى •
٥١ – سراى أغا الانكشارية
٥٢ – مجرى الماء •
٥٣ – شاه زاده يمسى •
٥٤ –سلطان سليم يمسى •

٥٥ ـ الكنيسة اليونانية البطريركية .
٥٦ ـ فتيا يمسى .
٥٧ ـ أطلال قصر قسطنطين .
٥٨ ـ أدرنة قپو يمسى .
٥٩ ـ سلطان محمد يمسى .
٦٠ ـ اتميدان أو معسكر الانكشارية .
٦١ ـ معسكرات أخرى للانكشارية .
٦٢ ـ مستشفى المجانين .
٦٣ ـ على باشا يمسى .
٦٤ ـ داود باشا يمسى .
٦٥ ـ ما يسمونه الأبراج السبعة .
٦٦ ـ دفتر دار اسكالة سى .
٦٧ ـ مسجد أيوب .
٦٨ ـ الماء العذب .
٦٩ ـ بانيو مسكن العبيد .
٧٠ ـ ميت اسكاله سى .
٧١ ـ مقر السفير الدنمركى .
٧٢ ـ مقر السفير السويدى
٧٣ ـ مقر السفير الانجليزى
٧٤ ـ مقر السفير البروسى .
٧٥ ـ مقر سفراء ومبعوثى روسيا وهولنده والبندقية وفرنسا والقيصر
٧٦ ـ اتش اغلان سراى (قصر يتربى فيه كثير من الغلمان) .
٧٧ ـ خزان المياه الذى يتصل به مجرى مياه السلطان محمود .
٧٨ ـ كوجك قوله قپوسى وبيوك قولله قپوسى . وهناك فى

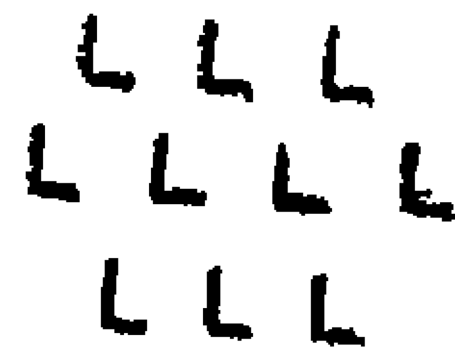


لوحة رقم (٥)

غلاطة علاوة على هـذين البـابين عشرة أبواب أخرى هى طوب خانة قپوسى ، كيرج قپوسى ، آكـرى قپو ، موم خانة قورشونلى مخزن ، قره قوى قپوسى ، بالق بازار قپوسى • اسكى ياغ قپان ، كوركجى قپوسى ، ازاب قپوسى •

٧٩ ـ بيوت السلطان الريفية •

علامة على المقابر



تقع سراى السلطان تحت الارتفـاع القطبى ١ً ٤١° لأن پيرا تقع طبقا لرصدى تحت الارتفاع القطبى ٢٦ً ٢َ ٤١° • ومدينة القسطنطينية على هيئة مثلث لا هو بالقائم ولا هو بمتساوى الأضلاع ، ولا يتجـاوز محيطه طبقا لقياسى ١٣٠٠٠ خطوة مزدوجة(٤) على الرغم من أن غالبيـة الرحالة يصورونه على انه أكبر من ذلك •

ويحيط بالمدينة سور لا يفيد فى الدفاع الا قليلا ، ويعول الأتراك فى الدفـاع على القلاع الأربع الصغيرة المشرفة على القناة (*) ناحيـة الأرخبيل ، وعلى قلاع أربع أخرى على القنـاة ، ناحية البحر الأسود ، على الرغم من أن قيمتها الدفاعية ضئيلة جـدا • ويمتد بطول الميناء أو الخليج خارج سور المدينة من ضاحية أيـوب حتى السراى (السراى أو مقر السلطان) شارع على الأقل ، وقد أقيمت فى بعض مواضعه بيوت عديدة بعضها خلف البعض الآخر • ومن هـذه البيوت ما يقوم جزء منه فى الماء • ويجرى العمل يوميا لردم بعض المواضع فى الميناء وتحويلها

(*) المقصود بالقناة المضيق (المترجم)

الى أرض تصلح للبناء ، ويؤدى هذا بطبيعة الحال الى تجريد السور من قيمته ونفعه • وقد تم فى السنوات الماضيـة ردم الكثير فى المنطقة بين الأبراج السبعة والسراى وعند بعض الأبواب للحصـول على مزيد من أراضى البناء • ولكن السور لا يزال على الرغم من ذلك ملاصقا للبحر فى غالبية المواضع •

أما من ناحية البر بين الأبراج السبعة وضاحيـة أيوب فيمتد سور مزدوج وخندق • ويرجع السـور الى أيام الاغريق ، وقد أدخل الأتراك عليه بعض الاصلاحات ، وأما الخنـدق فلا يمتلىء بالماء الا فى جزء منه • والقلعة التى يسمونها بالأبراج السبعة قلعة صغيرة وهى أصلح للاستخدام كسجن ، كحالها الآن ، من الاستخدام فى شـئون الدفاع ، لا يستثنى من ذلك الا مدخلها من ناحية الميناء والقناة من ناحية البحر الأسود فهو مزود بدفاع كاف يتمثل فى مدافع موضوعة عند السراى وعند طوب خانة وقيس قولله سى ، ولكن هذه المدافع لن تستطيع الا القليل فى مواجهة أسطول يأتى من الناحية الأخـرى ويعبر الدردنيل • ويغص الجـزء المطل على الميناء وعلى البحر من القسطنطينية بالسكان ، ويبدو للناظر اليه مزدحما بالمبانى أكثر مما هو فى الحقيقة لأن البيوت هناك مقامة على مرتفعـات فهى تلوح من بعيد متلاصقة بعضها بالبعض الآخر •

وهناك فى البر بين أدرنة قپو والأبراج السبعة حدائق كبيرة كثيرة داخل السور • وتشغل سراى السلطان ــ التى يبلغ محيطها نصف ميل تقريبا ــ والسراى المسماة بالسراى القديمة التى يقيم فيها حريم السلاطين المتوفين ، وعدد كبير من المساجد ، مساحة كبيرة • وهم يبنون المزيد من المساجد • وان كان من المستبعد أن عدد السكان يتزايد بنسـبة تزايد عدد المساجد • ولقد سمعت ان القسطنطينية قد ارتفعت كثافة سكانها فى

السنوات الأخيرة مما اضطر السلطان منذ بعض الوقت الى ترحيل الكثيرين الى الأقاليم .

ومناظر المدينة ، وبخاصة من ناحية البحر ، مناظر جميلة جدا ، وليست القسطنطينية وحدها هى التى تقع على مكان مرتفع ، فهذه هى المدن والقرى القريبة منها تقوم على تلال كثيرة ، تعلوها المساجد الرائعة ، وبين بيوتها وقصورها الحدائق الكثيرة والأشجار الوفيرة . ولا ينبغى على الانسان أن يستنتج من هذا الموقع الجميل وهذه المناظر الممتازة أن المدينة فى داخلها جميلة لطيفة . فشوارعها يغلب عليها الضيق كل الضيق والعمارة فيها رديئة بصفة عامة : البيوت مبنية من خشب رقيق اذا رأى الانسان هيكلها من بعيد ظنه قفصا من أقفاص الطيور ، والجدران مشيدة فى كثير من الأحيان من الطوب اللبن ، أما القصور والمبانى العامة فيغلب عليها أنها قد بنيت من الحجر بناء متينا غاية المتانة وان لم يكن الانسان يرى منها وهو فى الشارع سوى أسوارها العالية .

وللقصور الكبيرة والبيوت الصغيرة على السواء عيوبها ، فسكان القصور الكبيرة يتعرضون عند حدوث الزلازل لخطر الدفن تحت الردم ، وسكان البيوت الصغيرة يخشون أن تلتهمهم ألسنة النيران عند حدوث الحرائق ، وما الزلازل والحرائق بالأشياء النادرة فى هذه المدينة ، وهذا شىء معروف . وميناء القسطنطينية من أجمل موانىء العالم ، وهو كبير تستطيع السفن القاء مراسيها مطمئنة فى كل مواضعه ، وتستطيع أن تقترب من الشاطىء كل الاقتراب لتفرغ حمولاتها . ولقد أدى جمال موقع المدينة بين البحر الأسود والبحر الأبيض (الأرخبيل) ، وما يزاوله سكان الضواحى ــ أو على الأحرى سكان المدن القريبة ــ من أنشطة كثيرة فى العاصمة ، الى امتلاء البحر على الدوام بالسفن والمراكب الصغيرة التى تبدو كأنها بذرت فيه بذرا .

وتقع سراى السلطان فى الركن الشرقى على أحد المرتفعات عند مدخل الميناء وتشرف على القناة مباشرة ناحية البحر الأسود أى على البوسفور • ولهذا فهى تطل على مشاهد جميلة جدا من كل الجوانب كما يتبين الانسان فى سهولة عندما ينظر الى الخريطة • ويفصل السراى عند المدينة جدار مرتفع وان لم يكن ليحمى السلطان من ثورة الرعية الا اذا كانت ثورة صغيرة ، وهو على أية حال لا يفيد فى الدفاع عن المدينة الا أقل الفائدة • الا أن هناك مدافع كثيرة مقامة على هذا الركن مشرفة على الماء تستطيع الدفاع عن مدخل الميناء ومدخل القناة من ناحية البحر الأسود • والسراى مترامية الأطراف ، كثيرة الحدائق ، ويبدو أن مبانيها كلها مكسوة بالرصاص • ولم يسمحوا لى بالدخول الا الى الفناء الخارجى،ولم أر فيه من المعالم سوى دار سك العملة — ومبانيها رديئة جدا — وحظائر الخيول • ويقرأ الانسان فى كتب الرحالة التى تصف القسطنطينية أن عبارة « الباب » أو « الباب العثمانى » المألوفة للأوروبيين يرجع أصلها الى مدخل هذا الفناء الخارجى ، ولست أعرف سببا يمكن أن يعتمد عليه هذا الزعم • والأتراك يطلقون على الباب كلمة « قپو » وهى نفس الكلمة التى تعنى « قصر » ، على أن الناس فى القسطنطينية يفهمون كلمة « قپو » خاصة بمعنى قصر الوزير • وأفهمونى أن على من يريد أن يستخدم هذه اللفظة للتعبير عن قصر السلطان أن يقول سلطان قپوسى • كذلك يطلقون على قصر أغا الانكشارية اسم « آغا قپوسى » • ومعلوم أن مترجمى السفراء الأوروبيين يأتون الى الباب ، أى الى السراى ، يوميا تقريبا ، ولمترجم السلطان هناك حجرة يحضر فيها فى وقت معلوم كل يوم ليكون قريبا من الوزير أو الرئيس أفندى (رئيس الوزراء) اذا احتاجه أحدهما أو اذا طلب واحدا من المترجمين الأوروبيين ليتحدث اليه • وربما ظن الأوروبيون الذين تلقوا فى البداية أخبارا عن الباب أو عن محكمة الوزير أن المقصود هو بلاط السلطان ، وربما

أطلقوا عن سوء فهم اسم « الباب العثمانى » على بلاط السلطان العثمانى. على أن معرفتى باللغة التركيــة قليلة لا تسمح لى بأن أؤكد أن تسمية البلاط التركى بالباب تسمية يجانبها الصواب . ولكننى لا أعتقد مع ذلك أن تسميته بهذا الاسم تعود الى الباب الخارجى للبلاط .

وأعظم المساجد أو مساجد السلاطين ، كما يسمونها ، هى التالية :

مسجد أيا صوفيا وكان معبدا أنشأه القيصر يوســتنيان وحوله الأتراك الى مسجد . ولما كانت كتب الرحلات تضم صورا له فلمن شاء أن يعود اليها حتى يسهل عليه تصور نظام بناء المساجد الأخرى ، اذ يبدو أن هذه الكنيسة الاغريقية القديمة قد اتخذت نموذجا للمساجد التركية الكبيرة كلها . هناك مسجد السلطان أحمد ، ومسجد الوالدة الذى شيدته والدة أحد السلاطين ، وهناك مسجد السلطان عثمان ، ومسجد السلطان بايزيد ، ومسجد السلطان سليمان ، ومسجد شاه زاده الذى أنشىء فى عصر السلطان سليمان ، ومسجد السلطان سليم ، ومسجد السلطان محمد الذى ينسب الى السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية . وقد تهــدم هذا المسجد تماما فى عام ١٧٦٦ على أثر هزة أرضية . أما مسجد أدرنه قپوسى فقد شيدته واحدة من بنات السلطان سليمان وقد تعرض لتلف شديد أثناء الهزة الأرضية التى أشرت اليها . وليس هنــاك بين هــذه المساجد واحد يضارع أيا صوفيا فى عمارته وان كان بينها ما يزيد عليه فى الضخامة . وجميع هذه المساجد تشرف من بنوها ، وهى حلية المدينــة وزينتها العظيمة . وأغلبها يتربع فوق أكبر مرتفعــات المدينــة ، وتكتسى قبابها ومناراتها ــ وقد يكون للمسجد الواحد أربع أو ست منارات ــ بالرصاص . وتقوم المساجد فى ساحات فسيحة وتحيط بها أســوار أو مبان لخدمها أو للفقراء . وتتصل بالمساجد مدارس ، ويجرى عنـــد الكثير منها يوميا توزيع الصدقات على هيئة نقود أو أطعمة . وقد دفن

فى بعضها أصحابها . وقد لا يجد الانسان الآن فى الدنيا سوى القليل من المدن التى تعج بما تعج به القسطنطينية من أضرحة بديعة تضم رفات أسرتها المالكة .

وهناك مساجد كثيرة أخرى ابتناها السلاطين وأغدقوا عليها الأموال ولكنها لا تلفت الأنظار كالمساجد التى أشرنا اليها من قبل . وفى اسكادار وحدها أربعة مساجد ابتنتها السلطانات المترملات (اذا جاز للانسان أن يطلق هذا الاسم على نساء لم يتزوجهن السلاطين قط) . وعلى الرغم من أن السلاطين لا يلتزمون ببناء المساجد الا اذا تحقق لهم نصر على الأعداء وكسبوا منهم أرضا كثيرة تمكنهم من الانفاق على بناء المسجد وعلى تدبير الأموال اللازمة لرعايته ، فان السلطان مصطفى الجالس على العرش حاليا قد بنى مسجدين : مسجدا فى اسكادار على مرتفع فى مواجهة السراى وپيرا ، والمسجد الثانى فى القسطنطينية وهو مسجد صغير . ويمتاز مسجد أيوب بأن كل سلطان يعتلى العرش يتلقى فيه السيف ليتمنطق به . ويرى السائر فى القسطنطينية مساجد رائعة أخرى ابتناها الوزراء وغيرهم من الأغنياء ، كما يرى كنائس اغريقية تحولت الى مساجد ، ويجد فى كل حى تقريبا مسجدا صغيرا . وتعتبر الخانات الكبيرة ، أى الفنادق العامة ، ودروب السوق المسقوفة بالقباب ، المسماة بزستان ، والحمامات البديعة حلية المدينة وزينتها العظيمة ، ومن مقومات الراحة والخدمات فيها . ويجد الانسان هنا بيوتا (= سبلا) تقدم الماء الى الناس دائما بدون مقابل ، منها بيت أمام الباب الخارجى للسراى ، وهو بناء رائع مفتوح من كل الجوانب ، له قضبان حديدية مذهبة ، وفيه أناس يقومون دائما وبغير انقطاع على ملء الأوانى النحاسية المذهبة المثبتة بالسلاسل بالماء .

وتحصل المدينة على المياه العذبة من ثلاثة خزانات كبيرة للمياه

يسمونها « بنت » ، تبعد عن المدينة نحو ثلاثة أميال ألمانية • وما « البنت » الا صورة مصغرة من خزان المياه الذى أنشأه أهل سبأ عند مأرب ، لأن المياه التى تنساب من التلال الى الوادى يحجزها سد قوى متين تنصرف من عنده شيئا فشيئا * • وليست الأموال التى تكلفها انشاء هذه السدود الا قليلة اذا قيست بما كان الملوك فى القسطنطينية ينفقونه من قبل لتزويد المدينة بالماء الجيد • ولما كانت التربة فى هذه المنطقة متفاوتة الارتفاع أشد التفاوت ، فقد تحتم تسيير مجرى الماء خلال التلال تارة وحولها تارة أخرى ، وانشاء سدود عالية قوية متينة ، وتحويل المياه بعد ذلك الى خزانات أخرى كبيرة فى القسطنطينية • وتحمل السلطان نفقات هذه الانشاءات كلها • وقد يظن البعض أن الأتراك ورثوا هذه الانشاءات الرائعة كلها عن البيزنطيين* ولكننى قابلت من أكدوا لى أن أحد هذه الخزانات الثلاثة ـــ وهو الخزان الذى يقع شمالى قرية برغاس ـــ قد أنشىء فى عصر السلطان الحالى ، أما الخزان القائم عند (بغشكه قوى) ومجرى الماء الممتد منها الى القرى المطلة على القناة (البسفور) والى غلاطة فلا يعود تاريخ انشائهما الى قبل عصر السلطان محمود •

وهناك دليل آخر على أن السلاطين الأتراك لا يهملون صالح رعاياهم كل الاهمال ، ألا وهو أن السلطان مصطفى الجالس على العرش حاليا قد أنشأ طرقا معبدة حول ركن السراى ومن القلعة الأخيرة على الشاطىء الأسيوى الى البحر الأسود ـــ وهما منطقتان يشتد فيهما التيار ويسبب للسفن الكثير من الصعاب ـــ حتى يسهل سحب السفن • واليوم يتساءل الناس فى دهشة لماذا تأخر انشاء هذه الطرق المعبدة ألفا من السنين •

(*) انظر « وصف البلاد العربية » تاليف كارستين نيبور ، ص ٢٧٧

Beschreibung von Arabien S. 277

(*) فى الأصل الألمانى : « القياصرة الاغريق » • والأغلب أن المؤلف يقصد البيزنطيين •

ويعرف المطلعون على كتب الرحلات أن هناك في الساحة الكبيرة عند مسجد السلطان أحمد (أتميدان أو ميدان الخيل) مسلة — عمود حجري سامق — وحية مثلثة محطمة • أما الأشكال المصورة على القاعدة التي ترتفع فوقها المسلة ، والكتابة الاغريقية المحتفرة فيها ، والتي لا يرى الانسان منها اليوم الا جزءا فقط لأن الجزء الآخر تواريه الأرض ، فقد أوردتها كتب أخرى • وأما النقوش الهيروغليفية فلم ينسخها أحد من قبل ، ربما عن خوف من الوقوف في مكان عام بوسط المدينة على مقربة شديدة من السراي والقيام بهذا العمل • وهكذا كانت حالي في خلال اقامتي الأولى في القسطنطينية ، فقد ساورتني المخاوف من المسلمين حتى انني لم أجرؤ على النظر الى هذا الأثر القديم بعين التدقيق • الا أنني قمت في أثناء رحلة العودة بنسخ كل النقوش الهيروغليفية التي على هذه المسلة (اللوحة الرابعة) دون أن أخشى شيئا من أكثر من مائة وخمسين من الأتراك الذين وقفوا ينظرون الى •

أما المبنى الذي تحفظ فيه الحيوانات المتوحشة ، والاتميدان ، وقصر قسطنطين ، والعمود المسمى بالمحروق ، وغير ذلك من المعالم ، فقد اكتفيت باثبات مواقعها على الخريطة ، لأن الآخرين سبقوا الى وصفها وأسهبوا • ويجد الانسان في القسطنطينية مساكن تحت الأرض ذات أعمدة كثيرة يسمونها ألف عمود وعمود ، يقيم فيها الآن النساجون ، ويبدو أنها كانت فيما مضى من الزمان خزانات للماء • ورأيت في قسم منها أعمدة مرمرية جميلة من الطراز الكورنثي (٣٢ عمودا) ، ورأيت في قسم آخر أعمدة كثيرة عالية قبيحة النسب يكاد الانسان عندما يراها أن يشك في نسبتها الى واحد من أساطين العمارة الاغريقية ، وان صعب عليه في الوقت نفسه القول بأنها من عمل الأتراك • ولقد صنعت صورة لها تحت حرف A (باللوحة الخامسة) • ورأيت في الجدار بابا مسدودا

بالبناء زعموا لى أن الناس كانوا يسلكون منه تحت الأرض الى غليبولى ، وبنو البشر يحبون التهويل فى شأن مثل هذه الآثار القديمة •

وليست غلاطة محاطة بجدار كلها ، بل يرى الانسان هناك بقيـة من السورين القديمين العظيمين اللذين كانا فيما مضى يقسمان المدينة الى ثلاثة أحياء والى كثير من التحصينات الخاصة • وتقع المدينة فوق مرتفع شديد الانحدار مواجه للقسطنطينية ، وهى مدينـة مكتظة بالسـكان ، ويقيم فيها غالبية التجـار الأوروبيين ، وبهامن المسيحيين الشرقيين أكثر مما بالقسطنطينية • ويقيم فى بيرا — التى يجوز لنا أن نعتبرها ضـاحية من ضواحى غلاطة — جميع السفراء الأوروبيين وهم : سفراء البلاط الفرنسى ، والبلاط الانجليزى ، وجمهوريتا هولندا ، وبايلو البندقية(*) • وكذلك المفوض الدنمـركى والمفوض البروسى • والمبعـوث القيصرى والمقيم الروسى • وكان الاسـتقبال الرسـمى الأول للمفـوض البروسى لدى السلطان قد جرى قبل وصولنا بوقت قصير فى عام ١٧٦١ • وكذلك يقيم مندوبو راجوزا والجزائر وتونس وطرابلس فى القسطنطينية ، ولكنهم لا يتخذون منها مقرا دائما لهم ، والأتـراك لا ينظرون اليهم نظرتهم الى المبعوثين الأجـانب شأنهم شأن الكبوكيياس أو المندوب المعتمـد لأمير مولداڤيا وڤالاخايا الاغريقى •

ويرسو أسطول السلطان عند الترسخانة (دار الصنائع) فى صف متراص ملاصق للشـاطىء ، وقد أحسنوا طلاءه ، أما فيما عدا الطلاء فهو فى حالة رديئة جدا • وبالطوب خانة مبنى كبير تسبك فيه المدافع وبالقرب منه مسجد بديع ، وليست مناطق أيوب وقره أغاچى وغسكوف

(*) اعتاد اهل البندقية ان يسموا سفيرهم فى القسطنطينية بايلو Bailo وربما اراد أول قناصل أوروبيون اتوا الى بلاد الشرق أن يعتبروا كالسـفراء فاطلقوا على انفسهم هذا الاسم ، فما يزال العرب (على الاقل فى البصرة) يسمون القنصل الى الآن باليوس •

وقاسم باشا وبيرا وسانت ديمترى وطوب خانة وفندقلى وقبدش مناطق كثيرة العمران • أما اسكادار فجزء منها فى الوادى والجزء الآخر على سفح التلال وفوقها • وفى هذه المدينة حدائق كثيرة ، وفى خارجها قرافات كبيرة كبرا يفوق المألوف زرعت فيها أشجار السرو • ويقع قيس قولله أو ما يطلق عليه اسم برج لياندر فوق صخرة صغيرة بالماء • ولا تزيد قاضى كوى ــ أو خالسيدونيا قديما ــ على أن تكون قرية كبيرة ، وليس بها من المعالم سوى كنيسة اغريقية هى التى انعقد بها المجمع الشهير •

وللسلطان دور ريفية كثيرة جدا فى أيوب ، وقره أغاچى ، والترسانة ، والدار التى ابتناها السلطان محمود فى دلمه باغچه والدار التى ابتناها السلطان مراد بين اسكادار وقاضى كوى • وهناك علاوة على هذه الدور دور عديدة أخرى على القناة ناحية البحر الأسود • ولكن السلطان الحالى لا يكاد يزور واحدة منها باستثناء دار قره أغاچى المطلة على ما يسمونه بالمياه العذبة ، ذلك أن هذه الدار تقع فى منطقة منعزلة يمكن أن تقول عنها انها مكتئبة حزينة فهى تتناسب على خير وجه مع مزاج السلطان • أما بقية الدور فمتهدمة ، بل ان السلطان هدم بعضها واستخدم المواد التى بنيت منها فى انشاء مساجد وحمامات •

ولا يزال لليونانيين ٢٣ كنيسة وللأرمن ثلاث كنائس • وللأمتين علاوة على هذه الكنائس التى بالقسطنطينية كنائس أخرى فى غلاطة وفى الضواحى • ويقيم فى پيرا واحد من رجال الدين لقبه البابا بلقب الأسقف • وللروم الكاثوليك أيضا رهبان ينتمون الى ثلاث طوائف ، تتخذ كل طائفة كنيسة تحت حماية هذا أو ذاك من المبعوثين الأوروبيين • ولكل من السفير الانجليزى والهولندى كنيسة صغيرة ، كذلك المبعوث السويدى له كنيسته

الصغيرة • ولليهود فى القسطنطينية وفى المدن والقرى المذكورة الأخرى عدد من المعابد ، وأغلبهم تلموديون ، أما طائفـــة القرائين فلها أيضا معبد فى غسكوف • ويقولون ان المنتمين الى طوائف اسلامية أجنبية أو طوائف الكفر والالحاد لا يسمح لهم بتشييد دور للعبادة ، الا أن الطوائف المختلفة تقيم اجتماعاتها دون أن تعيرها الحكومة كثيرا من اهتمامها •

الرحلة من القسطنطينية الى الاسكندرية

سبتمبر ١٧٦١

فلما شفيت من مرضى الى الحد الذى تصورنا معه أننا نستطيع أن نستأنف رحلتنا بدأنا على الفور استعداداتنا للرحيل من القسطنطينية الى مصر • وكان من الممكن أن نسير فى الاسكندرية مرتدين ثيابا أوروبية لأن الناس هناك معتادون على رؤية الأفرنج أى الأوروبيين • أما اذا ارتديناها فى القاهرة وفى البلاد العربية فانها ــ وهى التى تتكون من قطع صغيرة كثيرة تختلف عن الملبس الشرقى البسيط أشد الاختلاف ــ كانت ستعرضنا للكثير من الأسئلة التى لا تطيب لنا ، بل تعرضنا لسخرية العامة ، هذا الى أننا لم نكن سنجد راحتنا فى الثياب الأوروبية بعد أن تحتم علينا أن نتعلم الاستغناء عن الكراسى وعن الكثير من وسائل الراحة التى تتاح للانسان فى كل مكان فى أوروبا •

ولهذا اصطنعنا فى القسطنطينية الثياب الشرقية الطويلة* ، واشترينا علاوة على ذلك أدوات المطبخ والمواد الغذائيـة التى سنحتاج اليهـا فى رحلتنا الوشيكة • وأعد لنـا السيد فون جيلر ــ الذى نعمنا فى قصره طوال مدة اقامتنا فى القسطنطينية بالكثير من اللطف ــ جواز سفر حصل

(*) ترى صورة المؤلف فى الزى الشرقى فى الصفحات المصورة من هذه الطبعة •

عليه من السلطان ، وكتب توصية وصكوكا مالية لنأخذها معنا فى رحلتنا الى مصر ، وركبنا البحر فى الثامن من سبتمبر من دولتشينيو وهو ميناء على خليج الادرياتيكى غير بعيد من جمهورية راجوزا ، وداعبنا الأمل فى أن تقلع بنا السفينة فى اليوم التالى ، ولكننا تعطلنا لأن الريح لم تكن مواتية ، ولأن البحار لم يكن قد أكمل شحن السفينة من ناحية أخرى • وكانت السفينة راسية خارج الميناء على بعد لا يستهان به ؛ وكان شحن البضائع الكثيرة مستمرا طوال النهار والليل •

ولم نحل المراسى قبل الحادى عشر من سبتمبر ، ولم تكن الرياح مواتية فلم نصل الى الدردنيل Boghas Hissar الا فى الخامس عشر من الشهر ، فرسونا عند (قوم قلة) قرب القلعة المطلة على الساحل الآسيوى . ويقوم موظفو الجمارك هنا بتفتيش كل السفن التى تأتى من القسطنطينية باحثين عن العبيد الهاربين والبضائع التى لم يتم الاعلان عنها فى جمرك القسطنطينية • واستغرق هذا العمل اليوم التالى ، مما سعدت له كل السعادة ، لأننا لم نكن قد وقفنا هنا عند قدومنا الا لساعات قليلة وفى وقت كنت فيه مريضا فلم أستطع النزول الى الأرض • أما فى هذه المرة فقد حملت على الفور ربعيتى الى الساحل ونعمت بمشاهدة هذا المكان الشهير عن كثب •

وليس للقلاع المشرفة على الدردنيل من الأهمية ما قد يظن الانسان، وما القلعة القائمة على الشاطىء الأسيوى الا بناء مربع صغير تحيط به الأسوار الضخمة والأبراج • والمدافع التى يجدها الانسان هنا مدافع كبيرة جدا ولكنها جميعها موضوعة على الأرض مباشرة أو على عوارض • وأتيح لى فحص بعضها عن كثب فتبينت أنها لم تستخدم منذ وقت طويل • ورأيت بعضها مشحونا بقنابر من الحجر ومن فوقها كثير من الرمل والطين •

والقناة عند الدردنيل ضيقة تصل طلقات المدافع من أحد شاطئيها الى الآخر ، ومجراها متعرج لا يجوز للانسان أن يأمل فى أن يجتازه فى



لوحة رقم (٦)

ليلة كاملة حتى اذا كانت الريح مواتية • هذا الى أن الأتراك يستطيعون وضع بطاريات بتكاليف قليلة عند منعطفات القناة • ولهذا فانه ليس من السهل على أسـطول معاد أن ينفذ خلال هذه القنـاة وأن يهجم على القسطنطينية من ناحيـة الماء • وحتى اذا فرضنا أنه سيجد الدعـم من قوات برية تقضى على القلاع والبطاريات المقامة على القناة المذكورة وتؤمن رجوعه ، فان البحر بين الدردنيل والقسطنطينية مليء بالمناطق ذات العمق القليل التى يتعرض فيها الأسطول لخطر الغرق حتى اذا كانت العواصف هينة. واذا أرادت الدول البحرية المسيحية أن تنال من العـاصمة التركية عن طريق البحر ، فأصـوب السبل الى ذلك هو منع الواردات عنهـا ، فهى تحصل على أكثر الأغذية التى تحتاج اليها عن طريق البحر الأسود أو عن طـريق الأرخبيل • واذا ما امتنع الوارد عن الأتراك من ناحيـة واحدة فقط ، فان الغلاء سيدب فى العاصمـة ، ولن تكون ثورة الرعية بالشيء البعيد كما هو معروف •

ولقد تبينت أن خريطة السيد دانقيل D' Anville التى تحمل عنوان سواحل اليونان والأرخبيل هى أجدر الخرائط بالثقة . أما الارتفـاع القطبى فى (قوم قلة) فهو ٨َ ٤٠° •

وفى السابع عشر من سبتمبر نشرت السفينة قلاعها ، وفى الثامن عشر عبرنا القلعتين على مشارف القناة • ولم أجد من يعرف لهمـا اسـما غير « القلعة الجديدة » و « القلعة القديمة » . ويقدر بعدهما عن الدردنيل بستة وثلاثين ميلا تركيا • ورأينا بعد ذلك سفينتين حربيتين كبيرتين وفرقاطتين يستقل أحدهما باياو فينيسى جـديد ، ورأينا شينيتين تركيتين * أتيـا ليحمـلا البايلو أى السفير الجديد من هنا الى القسـطنطينية ، ذلك أن اتفاقا أبرم بين السلطان وجمهورية ڤينيسيا ـ بعد خلافات نشبت بسبب السفن الحربية الڤينيسية فى ميناء القسطنطينية ـ تمنع بمقتضاه السفن

(*) الشينية سفينة كثيرة المجاديف • (المترجم)

الحربية الفينيسية من اجتياز الدردنيل ، وتأتى الشوانى لحمل البايلو الذى يتغير كل ثلاثة أعوام عادة الى تينيدوس أو لتأخذه من هناك •

وفى التاسع عشر عند الظهر حسبت الارتفاع القطبى لجزيرة ساموس فوجدته ٤٦َ ٣٧° ولجزيرة (فورنا) فوجدته ٤٢َ ٣٧° ولجزيرة (اسكاريا) فكان ٤٤َ ٣٧° • وفى العشرين من الشهر مررنا بجزيرة ستانتشيو . وفكر ملاحنا فى أن يرسو هنا ليتزود بالمياه العذبة ، الا أن سفينتنا كانت تقل فيمن تقل قبطانا كان عليه أن يتولى أمر سفينة حربية فى رودس ، فلم نجد ضرورة للتوقف ، خاصة وان الريح كانت مواتية جدا • وفى الحادى والعشرين من الشهر ألقينا مراسينا فى الميناء القريب من مدينة رودس والتقينا هنا بالقبطان باشا أو أدميرال السلطان ومعه عدد من السفن الحربية • وحييناه بثلاث طلقات ، فرد بطلقة واحدة •

وأهل المشرق لا يحبون زيارة أسطول السلطان ، فأينما حل القبطان باشا كان لزاما عليهم تقديم الهدايا العظيمة اليه ، هذا الى أن النظام العسكرى الذى يؤخذ به الملاحون ـ الذين يطلق عليهم إسم ليفنتى Leventi نظام ردىء كله • ونزلنا ـ السيد فورسكال والسيد باورينفايند وأنا ـ الى البر لنتحدث الى القنصل الفرنسى ، الا أن بابه كان موصدا خوفا من البحارة ، ولما كنا نرتدى الملابس التركية ، فلم يكن من أمل فى دخولنا اليه ، حتى ساقت الينا المقادير راهبا كبوشيا عاد بنا الى هناك فاستقبلنا القنصل ، وكان من الأدب واللطف بحيث أعطانا ترجمانه ليصحبنا فى جولتنا بالمدينة • ولكننا كنا حديثى عهد بالأتراك ، فلم نحس رغبة شديدة فى السير الى بعيد ، خاصة بعد ماسمعناه فى البداية عن البحارة الأتراك •

الا أننا رأينا أن البيوت فى هذه المدينة مبنية كلها بناء متينا جدا ، ورأينا فى الشارع الذى يسمونه شارع الفرسان بعض الشارات الفرسانية

معلقة على البيوت . أما القصر الذى كان المعلم الأكبر يسكنه فيما مضى فقد استحال فى أكثره الى أطلال . ولما كان الأتراك يذكرون خير الذكرى كم كلفهم فتح هذه المدينة ، فهم يعتبرونها الى الآن مدينة منيعة لا تقهر ، وقد تركوا فيها الحصون على الحالة التى وجدوها عليها عنـدما فتحوها ، وان كانت قد تهدمت فيما بعد من تلقاء ذاتها . وعلى الرغم من ذلك فان رودس حصن من أفضل حصون الدولة التركية [٦] . والمعروف أن هذه المدينة كان بها فيما مضى التمثال الضخم الشهير الذى أقيم اجلالا للشمس. الا اننا لا نستطيع أن نحدد الآن على وجه الدقة المكان الذى كان يقوم فيه . وهناك عند مدخل الميناء برجان يقوم كل منهما على جانب من الجانبين، ويظن البعض أنهما فى المكان الذى كانت به قدما التمثال الهائل ، الا أن البعـد بينهما لا يقل عن أربعمائة أو خمسمائة قدم على وجه التقريب ، ولهذا فانه أكبر من أن يصدقه الانسان .

وجربنا اليوم تناول الطعام فى مطعم تركى . وكانت الوجبة جيـدة بكل تأكيد ، ورخيصة جدا ، أما كل ما عداها فكان من الرداءة بقـدر ما كانت هى من الجودة . فقـد تناولنا الطعام على مقعد عريض مقـام بالبناء فى المطعم مطلا على الطريق العام ، وأكلنا بدون سـكين وبدون شوكة ، ومن صحون فخـارية قبيحة . ثم زرنا بعد ذلك يهوديـا يسعد بتقديم الخمر الى كل الأوروبيين الذين ينزلون هنا ، ووجدنا لديه بنتين ، قال عنهما انهما بنتاه ، تتحدثان الايطالية ، قدمتا الينا كيسين صغيرين من أكياس النقود صنعتاهما بأيديهما . الا أن تناول الخمر عنده كلفنا أكثر مما كلفنا تناول الطعام التركى .

ويجد الانسان فى الجزيرة يونانيين كثيرين جدا ، ولكن السكنى فى مدينة رودس محظورة عليهم . وفى الصباح التالى ذهب السيد فون هافن والسيد كرامر مبكرين فى صحبة بعض اليونانيين الذين نزلوا الى البر

لزيارة مطرانهم بقرية متاخمة للمدينة ، وما كادا يصلان الى هنـاك حتى أقبل بعض الموسيقيين الأتراك يريدون عزف موسيقاهم • ولم يكن للمطران رغبة فى الاستماع اليها ، لكن الموسيقيين أبوا أن يرجعوا أدراجهم دون أن يكونوا قد كسبوا شيئا ، ولم يفترق الجمعـان الا بعد أن نشب بينهما شجار بمعنى الكلمة • فلما انصرف الموسيقيون أخيرا أخذ أحدهم حذاء السيد فون هافن الجديد وترك له بدلا منه حذاءه القديم • ولو كنا قد عدنا من هنا الى أوروبا مباشرة لما كنا سنتحدث بالخير عن عادة الشرقيين خلع النعال وتركها بالباب • الا أن هذه الحادثة لم تتكرر ، على قدر علمى ، لأحد من صحبتنا ، بعد ذلك ، ولهذا فاننى اعتبرها حادثة صغيرة غير ذات بال •

وعقد ملاحنا العزم على أن ينشر قلوعه فى الثانى والعشرين من سبتمبر مبكرا كل التبكير • ولهذا فلم أستطع النزول بالربعية الى الأرض وقياس ارتفاعات بعض النجوم فى أثناء الليل ، ولم أجد وأنا على ظهر السفينـة أفقا صافيا فى دائرة الجنوب لأن جزيرة رودس كانت فى اتجاه الجنوب بالنسبة الينا بينما كانت اليابسة تجـاه الشمال غير بعيـد عنا • الا أن الملاحين لم يحلوا المراسى الا قبيل الظهر وهكذا وجدت الفرصة فى الضحى لقياس بعض ارتفاعات الشمس بالاستعانة بسدسية هادلى مسجلا الفروق الزمنية بينها بساعتى الدقيقـة التى تحسب الثوانى ثم حسبت بعد ذلك الارتفاع القطبى لسفينتنا فى مرسى رودس فوجدته ٢٦´ ٣٦° •

كنا قد سرنا عند قدومنا من القسطنطينية الى جزيرة رودس عـلى مقربة من اليابسة ، أو من الجزر ، ولهذا لم تكن بنا حاجة الى حسـاب مسار السفينة على أساس من الأرصاد الفلكية • ولكننا فى رحلتنا من هذه الجزيرة الى مصر لم نعد نرى الأرض ، ولهذا ظننت أن قبطاننا سيعتمد على حبل قياس السرعة ، ولكننى سرعان ما تبينت أن الأتراك لا يعرفون السبيل

الى استخدام مثل هذه المعينات . ولقد كان القبطان يحتكم على خرائط بحرية جيدة ، وساعات رملية ، وحبال قياس السرعة ، وبوصلة بحرية عادية وعلاوة عليها بوصلة سمتية جميلة جدا ، ولكنه لم يستعملها منذ أن تلقاها من أحد البحارة الأوروبيين . ولعله قد حصل عليها بطريق السرقة والنهب ، وقد سمعنا أن بعض البحارة الأتراك العابثين يتظاهرون أحيانا بأنهم من أهل الجزائر أو تونس أو طرابلس ويستولون بهذه الصفة على السفن التابعة لأمم بينها وبين الأتراك سلام . واذا لم تنعقد نواياهم على الاستيلاء على السفينة كلها ، فقد ألفوا الاستيلاء على الخرائط والبوصلات والمؤن . ولقد تحدثت أنا شخصيا مع بحار فى الاسكندرية جرده أحد الأتراك من مثل هذه الأشياء .

ولقد كان رباننا يتوجس أثناء رحلتنا هذه خوفا ليس بالقليل . فقد انتشرت شائعة بأن المالطيين ، أو على الأحرى القراصنة ، قد تزودوا بجوازات سفر وأعلام من أحد الأمراء الايطاليين واستقروا على سواحل مصر وسوريا . وكانت سفينتنا محملة بالكثير ، ولم تكن مدافعنا القليلة صالحة للاستعمال أو تكاد ، لأنها كانت اما مثبتة على قضبانها ، أو لم تكن لها قضبان على الاطلاق . وسار رباننا فى الاتجاه المستقيم من رودس الى الاسكندرية ، وكانت الريح لحسن حظنا مواتية ولست أعلم مع ذلك كيف وصلنا الى الميناء دون أن نتعرض لخطر كبير ، فالشاطىء المصرى منخفض لا يراه الانسان من بعيد وهو لهذا خطير كل الخطورة على السفن القادمة .

وكنت أقيس فى ظهر كل يوم ارتفاع الشمس وأعرض على الربان بيان مكان سفينتنا على الخريطة وبالتالى مقدار بعدنا عن الاسكندرية مقدرا بالأميال . ولقد أعجب بطريقتى كل الاعجاب حتى انه أمر كاتبه بأن « يسأل الشمس » عن بعدنا عن الاسكندرية . فلما رأى الكاتب أن

عمليات الرصد تكتنفها صعوبات جمة وأن التوصل الى الارتفاع القطبى يتطلب الحساب ، آثر أن يبقى على عادته القديمة •

وكان الربان وكاتبه وملاحوه يتحدثون الايطالية ويجيدونها اجادة لا بأس بها ، ولم يكن الكاتب قد نزل البندقية والموانى الايطالية الأخرى فحسب ، بل وصل الى ڤيينا ذات مرة أيضا • ولقد حكى له الكاثوليك كثيرا من السخف الشديد عن بقية المسيحيين ، كما يفعل المسلمون السنيون فى حديثهم عن الطوائف الاسلامية الأخرى • وذات مرة سألته هل فى بلاد السلطان كفار ؟ فقال : الكفار فى ألمانيا والمجر كثيرون ويطلق عليهم هناك اسم اللوثريين وهم لا يعرفون شيئا عن الله وأنبيائه الخ الخ • وكان الرجل فى أثناء الجدل مسلما حقيقيا ، وحاول واحد من جماعتنا أن يقنعه بصدق الدين المسيحى فنهض الكاتب وقال ان الذين يؤمنون بآلهة أخرى غير الله ثيران وحمير واتجه الى الباب وخرج • وكانت تلك الخطوة التى خطاها الرجل الطيب تذكرة لنا بأن نترك كل انسان على دينه طالما كان مؤمنا به لا يساوره فيه شك • ولم يكن من مهمتى أن أدعو للمسيحية أو أن أبشر بها • على أننى كنت فيما بعد عندما أسأل المسلمين العقلاء عن أركان دينهم أحكى لهم أحيانا أشياء عن المسيحية دون أن أزعم لهم أنها أفضل من تعاليمهم التى يدعو اليها القرآن ، ولم يكن أيننا ينفعل أو تأخذه الحمية •

كنا قد استأجرنا القاعة الكبيرة بقمرتها الطويلة الضيقة الممتدة بعرض السفينة لتكون لنا وحدنا ، وأصبح فى مقدورنا هكذا أن نتعزل عن الأتراك تماما اذا ثقلت علينا عشرتهم ، وكانت هناك فوق قمرتنا قمرة أخرى بعرض السفينة أيضا مخصصة للجوارى الراقيات أى للجوارى اللاتى تربين على طباع الهوانم من نساء الأتراك • أما الربان وملاحوه فكان مكانهم فوق مكاننا أمام قمرة النسوة • وكان التجار والمسافرون

الآخرون يقعدون الأيام بطولها فى المكان الذى استأجروه فوق سطح المركب ، بينما تدبر الجوارى العاديات أمور حياتهن فى ركن تحت سطح المركب ، فى حين كان للعبيد أن يبحثوا لأنفسهم عن مكان لا يسدون فيه الطريق على الآخرين ، وكان العبيد يلقون معاملة طيبة جدا ، لأن أصحابهم كانوا يريدون بيعهم فى مصر وكانوا لهذا يحرصون على أن يصلوا بهم الى السوق فى صحة جيدة وحال طيبة .

وكنت أنا والسيد فورسكال كثيرا ما نجلس بين أمتعتنا فى القمرة نقرأ ونكتب.فسمعنا أصوات النساء فوقنا ولم يكن هناك شيء أكثر طبيعية من أن نطل من فتحة النافذة لنقف على جلية الأمر ، واذا الجوارى يقابلننا بالصراخ والتعنيف الشديد فلم يكن لهن عهد بمثل هذا الفضول ، ولم يكن قد ألفن منظر الأجانب (ذلك أننا لم نكن قد اتخذنا العادات الشرقية على خير وجه فلم نكن نلبس العمامة ونحن فى القمرة) .ولكننا لم نفزع لهذا المسلك خاصة وقد لاحظنا أن احداهن أخذت تهدىء من روع الأخريات ، وكان أن تعودن على رؤيتنا شيئا فشيئا ، وأخذنا نطلعهن على الكثير من الفاكهة والحلوى الجميلة التى صنعت فى أوروبا ، فاذا زاق لهن منها شيء أنزلن الينا ملاءاتهن فنلقه لهن فيها ، وكن يقدمن الينا بدورهن بعض الأشياء البسيطة ، ولم يكن لنا علم باللغة التركية ، ولم يكن بين الجوارى من تتكلم لغة أوروبية ، ولكننا كنا نتفاهم بالاشارة ، وكانت أظرفهن تكرر بعض الكلمات مرارا ، فاذا أردنا معرفة معناها ، ذهبنا الى كاتب السفينة وسألناه عن كثير من الكلمات التركية ، وتعلمنا على هذا النحو ما مكننا من فهم أنهن كن يردن تنبيهنا الى أن نحترس وألا نظهر لهن الا فى وقت اقامة الصلاة . على أننا لم نكن فى مأمن تماما حتى فى وقت اقامة الصلاة . وأخيرا أصبحت البنات يبلغننا بالخبط على نوافذهن متى يكن وحدهن ، وهكذا نعمنا أثناء الرحلة بشيء من التسلية . الا اننى

لا أنصح أحدا بأن يحاول أن يتعرف مجرد التعرف الى جوارى الأتراك •
ونحن انما فعلنا ذلك لأن نوافذنا كانت الى الخلف بحيث لم يكن من السهل على من بالسفينة ملاحظتنا . ولو أن أمرنا انكشف، لتسبب لنا فضولنا هذا الذى لم يكن فى الحقيقة سوى حماقة ، فى الكثير من النكد •

وفى الخامس والعشرين من سبتمبر حسبت الارتفاع القطبى عند الظهر وتبينت منه أننا مازلنا بعيدين بعدا غير قليل عن الشاطىء المصرى ، الا أن رباننا كان يعتقد أننا قد اقتربنا ولهذا ضم القلوع كلها فى الليلة التالية ، ومهما يكن من أمر فلم نر الأرض قبل السادس والعشرين ظهرا ، وكنا قد انحرفنا الى الشرق انحرافا كبيرا ، فى وقت كانت الريح فيه قد تحولت الى الغرب ، ولهذا بلغنا ميناء الاسكندرية فى مشقة ليست بالقليلة• ولهذه المدينة ميناءان ، ميناء يسمونه القديم وهو أكثرهما عمقا وأمنا ، وهو الذى ألقينا فيه مراسينا ، والميناء الثانى هو الميناء الشرقى وهو ردىء جدا ، واليه تذهب سفن الأوروبيين ، وبقينا نحن فوق السفينة حتى اليوم التالى ، بينما نزل أغلب المسافرين من فورهم الى البر • أما الجوارى فقد جاء من أخذهن فى الليل وسط سكون ما بعده سكون • ومات أثناء هذه الرحلة القصيرة من بين ركاب السفينة وملاحيها الكثيرين ستة أو ثمانية أشخاص فيهم ملاح كان يزورنا فى الأيام الأولى ويكثر من التودد الينا ، وظن الظانون أن الجميع ماتوا بالطاعون ، وربما كان السبب فى موتهم غير ذلك • أما جماعتنا فلم تصب بحمد الله بأى مرض معد على الرغم من أن طبيبنا عاد بعض المرضى •

ملاحظات على الاسكندرية

تقع مدينــة الاسكندرية ــ أو « سكندرية » كما يسميها العرب والترك ــ الآن فوق لسان بين شبه جزيرة وسور المدينة القديم ، وبين الميناءين ، تحت ارتفاع قطبى قدره ١٢ََ ٣١° . وأرض المدينة منخفضة حتى ان الانسان ليعتقد أن المياه كانت فى العصور القديمــة تغطى أكثرها • وتضفى المساجد والمآذن وبعض المبانى المنيفة وبقايا سور المدينة القديم وعمــود پومپيوس ومسلة كليوباترا وأشجار النخيل على المدينــة من بعيد ــ عندما يقبل الانســان عليها من ناحية أوروبا ــ منظرا جميلا • ولقد قلنا من قبل أن الميناء القــديم كبير وعميق وأمين ، وأن المينــاء الجديد الذى يتحتم على السفن الأوروبية القادمة كلها أن ترسو فيه غير صالح للاستخدام بدرجة كبيرة تتزايد يوما بعد يوم ، فقاعــه ملىء بالصخر بحيث ينبغى ربط حبال المراسى فيه بعروق خشبية وبراميل حتى تبقى مرتفعة ولا تنقطع عندما ترتطم بالصخور • وهناك بقايا لبناء عظيم يبدو أنه قد بنى داخل الميناء ، ولعلها بقايا Timonium ، Antonius . وهناك فى هذه المنطقة علاوة على ذلك آثار مختلفــة متبقية عن أسوار قديمة وأعمدة محطمة وأحجار كبيرة • الا أن هــذه الآثار وغيرها من الأماكن الغريبة التى ورد ذكرها فى كتب المؤلفين القــدامى قد تغيرت بحيث استحال على أن أتعرف الا على القليل مما وصفه القدماء • ولهذا أجدنى مضطرا الى احالــة أولئك الذين يتوقون الى معــرفة المزيد من

التفصيلات الى كتاب آخرين أخص منهم بالذكر پوكوك[١١] Pococke الذى فحص كل هذه الأشياء كلها فحص العالم المتأنى .

وتتصدر الاسكندرية الجديدة وميناءيها شبه جزيرة كبيرة ، يحمل الجزء الغربى منها اليوم — ناحية الميناء القديم — اسم رأس التين ، ولم أر هناك من الغرائب سوى قلعة صغيرة متهدمة ، وعين مالحة وأشجار التين التى تسمت هذه المنطقة من شبه الجزيرة باسمها ، وتقوم على الركن الشرقى من شبه الجزيرة فى مواجهة الميناء المسمى بالميناء الجديد قلعة تضم ٥٠٠ من الانكشارية ، وترتفع هذه القلعة فوق لسان صخرى صغير ، ربما فى الموقع نفسه الذى كان المنار الشهير يقوم فيه ، ويمتد من هذه القلعة سد من البناء طوله عدة مئات من الأمتار الى الاسكندرية الجديدة . ولما كانت أمواج البحر تندفع مع ريح الشمال بقوة فترتطم بهذا السد فقد اتخذت فيه فتحات هلالية تمر من خلالها المياه الى الميناء ، وهناك فى مواجهة القلعة المشار اليها عند مدخل الميناء قلعة صغيرة أخرى على لسان صخرى ، يمتد منها سور طوله ألف وخمسمائة أو ألف وستمائة خطوة الى داخل البر ، وبهذا السور أيضا فتحات هلالية تنساب منها المياه حتى لا تطيح بالسور .

ويبحث الانسان الآن دون جدوى عن معالم العظمة الأولى للاسكندرية كما أنشأها مؤسسها ، فالسور الحالى للاسكندرية القديمة شيده المشارقة[١٢] أو العرب على ما يتبين الانسان من النقوش العربية المختلفة التى به ومن أسلوب بنائه وأبراجه ، وفى هذا السور أعمدة رخامية جميلة موضوعة أفقية فى بنائه . ويقل محيط هذا السور القديم للمدينة حاليا كثيرا عما جاء فى حديث المؤرخين عن الاسكندرية الكبيرة ، ولقد كان هذا السور الذى شيده العرب عظيما وطويلا وعاليا ، وتبين لى أن ارتفاع السور غير بعيد عن البوابة المؤدية الى رشيد ، وهو موضع

يرى الانسان فيه الارتفاع الكامل للسور ، وهو ٤٣ قدما ، واذا أضفنا الساتر الترابى اليه يكون الارتفـاع الكلى ٥٠ قدما • على أن السور متهدم فى كثير من مواضـعه ، ولا يرى الانسان حرسـا الا فى بعض الأبراج كما لاحظ نوردن Norden وپوكوك وغيرهم من قبل *) •

والاسكندرية لم تتعرض للاهمال دفعة واحدة بل ألم بها الاضمحلال شيئا فشيئا ، وقل عدد سكانها واشتد فقرهم • فليس بالاسكندرية الآن ما أخذ من القصور الرائعة القديمة واستخدم فى عمارة المبانى الجديدة • حتي أحجار الأساسات حفروا عليها وانتزعوها ، ولهذا لم يعد الناظر يرى هنا سـوى أكوام الردم والحطام ، وأفضـل ما بقى من الصروح القديمة بعض خزانات المياه الرائعة ، ولما كانت المدينة تسـتمد مياهها العذبـة ــ بعد الأمطار ــ من النيل ، فقد بات ضروريا أن يتخـذ أهل الاسـكندرية الجديدة من خزانات الميـاه ما يكفى لاستيعاب حاجتهم السنوية ، وأن يحرصـوا على تطهير القنوات التى مدوها من النيل الى هذه الخزانات حتى لا تنسد كلية ، وهم يتناولون فى كل عام بشىء من التطهير القناة المتفرعة من النيل والممتدة غير بعيد من أسـوار المدينة ، والتى أصبحت منذ أعوام كثيرة غير صـالحة للسفن ، ويفتحونها عندما يصل ارتفاع مياه النيل الى منسوب معين ، ويتحول الماء الوارد الى قناة صغيرة تحت الأرض شرقى المدينة الى خزانات المياه ، حتى اذا امتلأت صرف الماء الزائد فى الميناء القديم عبر قناة صغيرة تخترق سور المدينة •

وأعظم قطعة من الآثار القديمة داخل سور المدينة القديم لم يستطع

(*) لابد ان حالة هذا السور كانت قبل ٣٠٠ عام افضل من الآن ، لأن رفاق السيد فون برايدنباخ Breidenbach فى رحلته ، الذين ارتقوا السور الخارجى ليروا الخنادق والابراج والمتاريس اكدوا انهم لم يروا فى حياتهم مدينة محصنة من الخارج لتحصين الاسكندرية • أما من الداخل فلا بد ان المدينـة كانت فى ذلك الوقت خربة مليئة باكوام من احجـار المبانى القديمة . (١٣)

المسلمون حملها هى المسلة التى تسمى بمسلة كليوباترة ، وهى مثل كل المسلات التى يراها الانسان عند صروح ومعابد قدماء المصريين ، من الجرانيت الأحمر الصلب ومن قطعة واحدة ، وتغطى الأرض حاليا جزءا من هذه المسلة ؛ الا انها ترتفع رغما عن هذا ٦١ قدما و ١١ بوصة ، ويبلغ عرضها عند سطح الأرض ٧ أقدام و ٣ بوصات(*) ، ويبلغ عمق بعض حروف الكتابة الفرعونية بوصة ، وهذه دلالة على حرص المصريين القدماء على حفظ أخبارهم الى الأبد ، ان صح هذا التعبير ، وليس الذنب ذنبهم اذا لم يعد فى مقدور الخلف قراءة ماكتبه السلف (*) . وقد صنع نوردن رسما جيدا لهذه المسلة ، ويرى الانسان على مقربة من هذه المسلة مسلة أخرى عرض كل جانب من جوانبها ٦ أقدام و ٦ بوصات ، لم تعد قائمة بل تمددت على الأرض محطمة وغطى التراب أجزاء منها(١٦) .

ولم يعد بالاسكندرية من المعابد البديعة الكثيرة التى حفلت بها قديما ما يستحق المشاهدة سوى كنيسة القديس أثناسيوس التى مازالت قائمة الى اليوم ، واسعة مترامية الأطراف ، ويقال ان من يدخلها يجد بها

(*) يساورنى الشك فى ان كل ضلع من ضلوع المسلة ٦ اقدام و٣ بوصات والقاعدة ٧ اقدام و ٣ بوصات وعلى هذا يكون ارتفاع المسلة قائمة نحو ٦٠ قدما .

(*) يقدم الشريف الادريسى التفسير التالى للنقوش المدونة على هذه المسلة ، وذلك فى كتابه « جغرافية النوبى » (١٤) Geographia Nibiensis ص ٩٥ ـ ٩٦ . ولما كان قد خلط الكتابة الهيروغليفية بالكتابة السريانية (١٥) ، فلن يصدق انسان أنه فسرها .

Suntque in ipso incisae literae, characters Syro ... Porno scriptura est haec. Ego Jamer filius Sceddad aedificavi hanc urbem dum non esset adhuc senectus protensa, neque fatum praeproperum, neque canities apparens & dum lapides quasi lutum, & homines non agnoscerent sibi dominum. Erexique columnas ejus, fluvios aperni & arbores ejus plantavi. Volens autem longe superare Reges, qui fuerunt in illa, erigendo in ea monimenta mira, misi Althabut filium Morrae Aladitae, & Mecdam filium Omar, filii Abi-Reghal Thammuditae ad montem Tarim rubrum, & excederunt ex eo duos lapides, tuleruntque eos super humerus suos. Et cum fracta esset costa Althabut, volui ut gens regni mei esset pro ipso. Erexit sutem mihi ambos Alfeten filius Giarud Mutafachitae, in die prosperitatis.

طائفة من الأعمدة الجميلة وكمية كبيرة من الكتب الاغريقية • الا أن هذه الكنيسة الجميلة قد تحولت منذ أعوام كثيرة الى مسجد وحرم المسيحيون من دخولها ، وهناك على مقربة منها بعض أعمدة من الجرانيت الأحمر تتاخمها أطلال صرح منيف •

وتعتبر كنيسة القديسة كاترينا — وهى من كنائس الاغريق — من العجائب ، لا لعظمتها وروعة عمارتها فحسب ، بل لصخرتها المرمرية البيضاء ذات البقع الحمراء ، ويدعى الرهبان الاغريق ان هذه الصخرة شرفت بقطع رأس القديسة كاترينا فوقها ، وأن البقع الحمراء تقوم دليلا على هذا •

وهناك غير بعيد عن هذه الكنيسة كنيسة مرقس الرسول وهى من كنائس الأقباط ، ويرى زائرها ضريح الرسول المذكور ، ولم يعد الأقباط يفتحون القبر لأن البنادقة — على ما تقول أسطورتهم — سرقوا منه رأس الرسول • أما الروم الكاثوليك فيزعمون أنهم أتوا من المهارة ما مكنهم من الخروج بجسد الرسول كله من سجن الهراطقة ، وأن الأقباط يظلمونهم عندما يرمون كهنة طائفة الأروام بأنهم لم يسرقوا سوى الرأس ، وهم يعلمون الحيلة الذكية التى لجأ اليها اخوتهم فى تنفيذ المهمة العظيمة ، فقد قطعوا الجثة قطعا قطعا ، حزموها وأخسنوا حزمها ، وادعوا أنها من لحم الخنازير حتى لا يكتشف المسلمون واليهود فى الجمرك الكنز العظيم فيستردوه •

والحق ان ارسال جثث الموتى من الاسكندرية الى أوروبا أمر شاق جدا ، فقد منع الأتراك اخراج حتى الموميات ، لأنهم يعتبرون حرص الأوروبيين على نقل هذه الجثث من الأماكن التى ركنت فيها الى ما ينبغى لها من الراحة ، نوعا من العبث الذى لا طائل وراءه • أما الآن وقد أصبح

عمال الجمارك فى الاسكندرية من اليهود ، فلم يعد اخراج جثث الموتى من مصر وارسالها الى أوروبا على سفن ايطالية أمرا بالغ الصعوبة . ولقد تمكنا نحن من الوصول فى أمان ببضعة صناديق بها موميات الى سطح السفينة ، ولكن الملاحين جميعا صمموا على مبارحة السفينة اذا لم ينزل الربان منها جثث موتى الكافرين ، فاضطر السيد ماريون Marion الذى أخذ على عاتقه نقل مومياتنا الى أوروبا الى انزالها من السفينة ، وشحنها على سفينة أخرى كتم ربانها عن ملاحيها أمر محتويات الصناديق كل الكتمان .

وأعجب ما يراه الزائر فى كنيسة القديس مرقس كرسى صنع على غرار الكرسى الذى كان الرسول يجلس عليه وهو يعظ . وقد دفن بهذه الكنيسة أيضا بعض البروتستانتيين . ولا يرى الزائر علاوة على المسجد الذى أشرنا اليه والكنيستين داخل جدار الاسكندرية العربية سوى ديرا فرنسيسكانيا آهلا وبعض البيوت الرديئة التى يقيم فيها العرب . أما ما خلا ذلك فخراب كله .

والأرجح أن العمود الذى يطلقون عليه اسم عمود پومپيوس كان فى زمن الاغريق يقوم داخل المدينة ، أما الآن فهو على مسيرة ربع ساعة خارج أسوار مدينة الاسكندرية التى أنشأها العرب . وقد نشر نوردن رسما جيدا لهذا العمود . ولما كان الاختلاف على ارتفاع هذا العمود قائما على ما يبدو ، فقد قمت بقياسه* وتبينت أنه يرتفع ٨٨ قدما و ١٠

(*) كان المستقيم الممتد من مركز الجهاز الى جدار الأساس ٧٤ قدما و ٧ بوصات ، ومن حجر الأساس الى اسفل تاج العمود الذى قسته حوالى ٢ قدم و ٥ بوصات ، ومعنى هذا أن المستقيم كله كان ٧٧ قدما . وكانت الزاوية عند نهاية المستقيم ، بين القاعدة والضلع الممتد الى تاج العمود ٤٨ ٥. ، ومن هنا فان ارتفاع العمود عن الجهاز كان ٨٨ قدما ، وكان الخط الأفقي للجهاد عند اسفل العمود ١٠ بوصات ، وهكذا فان الارتفاع الكلى للعمود هو ٨٨ قدما و ١٠ بوصات . أما جدار الأساس تحت العمود فكان يرتفع عن سطح الارض ناحية الجنوب بمقدار ٤ اقدام وبوصتين وناحية الشمال بمقدار ٤ اقدام و ٩ بوصات .

F.

O.

P.

لوحة رقم (٧)

بوصات (بدون جدار الأساس) ، ومعنى هـذا انه طبقا لحسابى أقصر مما ذكره الرحـالة الآخرون • والعمود أثر قديم رائع لأنـه من حجر الجرانيت الأحمر ، وهو على زنته الهائلة مكون من ثلاث قطع ضـخمة ضخامة لا مراء فيها • ولم أسـتطع اجتلاء غير القليل من الحـروف فى النقوش الاغريقية التى على الجانب الجنوبى الغربى ، ولقـد بذل السيد فون هافن الكثير من الجهـد فى قراءة هذه النقوش ، ولكنه لم يصـل الى ما وصل اليه الآخرون قبلنا •

ويبدو أن الاغريقى الذى شـيد العمود لم يسع الى تخليد اسمه فى هذه النقوش ، أو لعله لم يعرف طبيعة هذا الحجر كما عرفها قدمـاء المصريين • فلو احتفر الاغريق هذه النقوش عميقـة كما فعل المصريون فى نقوشهم على المسـلات لبقيت مثلها واضحـة لا يصعب على الناظر استجلاؤها • هذا الى أن المصريين لزموا الحيطة فكتبوا على الجوانب الأربعة للمسلات • أما النقوش الاغريقية المدونة على العمود فكانت على جانب واحد هو المتعرض للتعرية الجـوية أكثر التعرض • وكان جدار الأساس أيام نوردن مهدما شديد التهـدم ، ثم تناوله محمد الشوربجى بالاصلاح ، ولهذا لم تتبين أن العمود الكبير مقام على عمود آخر أصغر منه ، على نحو ما أكد بعض الرحالة الآخرين •

وانما يدل مافعله محمد الشوربجى فى اصلاح العمود على أن المسلمين لا يسعون جميعا الى تحطيم ما فى بلادهم من آثار ، كل ما فى الأمر أن الكثيرين ينظـرون ــ مثلهم مثل الأوربيين ــ الى مصلحتهم ، ولو أن رجلا فقيرا وجد أجمل عمود قديم فى حديقتـه لفضل تحويله الى أحجار للطواحين بدلا من تركه بغير نفع • وأركان مسلة كليوباترا تتجه تقريبا الى الجهات الأربع الأصلية ، أما أركان قاعدة عمود پومپيوس فتنحرف على ما يبدو عنها بمقدار ١٢ درجة ، والأرجح انها لم يراع فيها سـوى

موقع المبانى المحيطة بها ، على عكس الأهرامات التى روعى فيها خط الزوال .

وكان العربان يحومون طوال اقامتنا فى الاسكندرية حول المدينة وبين الأطلال بلا انقطاع ، فلم أشأ تعريض نفسى لخطر النهب اذا أنا أقدمت على اعداد خريطة للاسكندرية ، خاصة وأن نوردن صنع لها من قبل خريطة جيدة جدا . ولما كنت — على الرغم من ذلك — قد استطعت وأنا فوق المرتفع الذى يقوم عليه عمود پومپيوس أن أرى جزءا كبيرا من سور المدينة القديم ، فقد سجلت بعض الزوايا التى قمت بقياسها على أمل التمكن من تسجيل زوايا أخرى من مواقع أخرى .

وكان من بين التجار الأتراك الموجودين الذين لاحظوا أننى وجهت الاسطرلاب ناحية المدينة ، رجل استبد به الفضول وصمم على النظر خلال المنظار المقرب ، فلما فعل ساوره القلق لرؤية أحد الأبراج مقلوبا ، وسرعان ما انتشرت شائعة تقول اننى أتيت الى الاسكندرية لأقلب المدينة كلها رأسا على عقب . ودار الحديث فى هذا الموضوع فى بيت الوالى ، وامتنع الانكشارى الذى كان معى عن مرافقتى اذا أنا أخذت الاسطرلاب معى . ولما كنت أعتقد حتى ذلك الحين أنه لا يجوز لأوروبى أن يظهر فى الطريق العام الا اذا كان انكشارى برفقته ، فقد أوقفت القياسات الهندسية .

وقد حدث فيما بعد أن رأى أحد العرب فى رشيد من خلال منظارى المقرب سفينة مقلوبة ، فأوشك على رمى المنظار الى الأرض لتحطيمه . وتعلمت تدريجيا أن أحتاط من المسلمين ومن ارتيابهم أثناء قيامى بالرصد ، احتياطا كان ضروريا بصفة خاصة فى الوقت الذى لم أكن فيه أتحدث العربية . كذلك حدث لى أثناء قيامى برصد فلكى عند الطرفه

الجنوبى للدلتا أن حضرنى فلاح من قرية دراوه كان فى غاية الأدب فأردت أن أطلعه على شىء لم يره من قبل فوضعت المنظار المقرب على الربعيــة ووجهته الى القرية ، فانزعج الفلاح كل الانزعاج عندما رأى كل البيوت مقلوبة ، وسأل خادمى عن السبب فى ذلك فأجــابه قائلا : ان الحكومة غاضبة على أهل القرية أشد الغضب وانها أرسلتنى حتى أهدمها وأجعل أعاليها أسافلها • وحزن الفلاح المسكين وتوســل أن أمهله حتى يخرج بزوجه وأولاده وبقرته الى الأمان ، فأكد له الخادم أن أمامه ساعتين ينجو فيهما بأهله ، وأسرع الرجل الى داره • فلما عبرت الشمس خط الزوال أعدت الربعية الى السفينــة • ولا ينبغى للانسان أن يدهش لارتيــاب المسلمين من مثل هذه الأرصاد فقد ظل الكثير من الأوروبيين الى وقت غير بعيد ينظرون الى كل الأشياء التى لا يحيط بها فهمهم وكأنهــا ضروب من السحر •

كانت المقابر فيما مضى من الزمان الى الغرب من الاســكندرية ، ولا يزال الانسان يجد الكثير منها فى هذه المنطقة • والأرض هنا كلهــا من الحجر الجيرى الرخو (كما هى الحال فى مالطة) يكسوها القليل من الطين والرمل ، ولهذا يحس الانسان عندما تسير به الركوبة فوقها انها فى بعض مواضعها جوفاء •

واقتــادونى هناك غير بعيد من عمــود پومپيوس ، وعلى مقربــة من مصلى صغير الى سراديب من النــوع الذى وصفه پوكوك فى منطقة أخرى ولــكنها أصغر منها ، ووجــدت فى السراديب التى شــاهدتها حجرتين : الواحدة وراء الأخرى ، منحوتتين فى الصــخر ، أما الحجرة الأمامية فلها فى كل جانب ١٢ فجوة فى صفين أحدهما فوق الآخر كل فجوة طولها ٢٫٧٥ من الأقدام ، وعرضها قدمان وعمقها نحو ٦ أقدام ، وليس من شك فى أن هذه الفجوات كانت مخصصة للتوابيت ، وكانت الحجرة

تتسع لـ ٤٨ ميتا ، وأما الحجرة الخلفية فلم يكن فى كل جانب منها سوى ٦ فجـوات ، وبالجدار الداخلى المقـابل للمدخل تجويف صغير يرتفع ٤ أقدام ويبلغ عرضه قدمين ونصف قدم •

ثم اقتـادونى غربا على بعد نحو ساعة من الاسـكندرية ، الى سراديب أكثر اتساعا وأعظم جمالا • ويكاد المدخل الى هذه السراديب أن يكون الردم قد سده تماما ، فاذا دخل الانسـان كان عليه أن يشق طريقه فى أحيان كثيرة زاحفا • ويرى الانسان فى السرداب الأول بعض الفتحات العلويـة فى الصخر ، لعلها كانت فتحات للتهويـة أو مواضع للمصابيح • ويؤدى هذا السرداب الى حجرة أمامية مربعة ، فى كل جانب من جوانبها باب تزينه بعض نقوش معمارية رديئة ، ويختلف الباب الذى فى الجانب الأيسر عن الأبواب الأخرى فى أنـه محفوف من جانبيه ببابين صغيرين اضافيين ، الا أن العمودين اللذين كانا يقومان بين الباب الكبير والبابين الصغيرين قد تهدما واستحال الأبواب الثلاثة الى مدخل واحد • والحجرة فى هذا الجانب دائريـة ومقببة فى أعلاها ، ويبلغ قطرها نحو ٢٠ قـدما ، ولها فى ثلاثة جوانب حجرات جانبية صغيرة تشـبه المقابر القديمة فى سوريا وتشبه فى بعض النواحى المقابر التى يطلقون عليها اسم مقابر الملوك فى القدس حيث تكتنف الجوانب مواضع مرتفعة لعلها كانت مخصصة لاحتواء الموتى ، وقد رسمت تخطيطا لها فى (اللوحة الخامسة) رمزت له بحرف B

وتؤدى الحجرة الأمامية المشـار اليها آنفا خلال باب آخر وخلال سراديب وعرة أخرى الى مكان كبير ــ أصبح الآن منخفضا ــ لعله امتلأ بالتراب والرمل الذى يمكن أن يكون قد نفذ اليه من فتحات مجهولة • وربما كان هذا الموضع مخصصا لمخـازن الغلال • ولما كان هذا المكان أكبر من أن يحمل الثقل الواقع فوقه بغير دعائم ، فقد أقيمت فى الصخر

نفسه صفوف من أعمدة مضلعة بلا زخارف طول الضلع ٣ أقدام • كذلك يجد الانسان علاوة على ما تقدم سراديب مختلفة تحت الأرض وحجرات كلها منحوتـة فى الصخر ، الا اننى رأيت من الحـكمة ألا أدخلها لأن الحيوانات المتوحشة تتخذها الآن أوكارا لها • وعلى من يريد مشاهدتها أن يأخذ معه نورا وأن يطلق من مسدسه طلقة نارية حتى يبعد ما قد يكون بها من حيوانات متوحشة •

والى الغرب من هذه السراديب ميناء صغير أو خليج صغير على البحر ، ويبدو أن صرحا كان يقوم بجانبه فما زالت هناك قطع صغيرة من المرمر لعلها كانت تستخدم كسوة للأرضية والحيطان • ويرى الانسـان هنا حجرتين منحوتتين فى الصخر ، يبدو أنهما كانتا خزانين للماء ، ليس من سبيل الى الهبوط اليهما الا عن طريق فتحة صغيرة تؤدى الى درجـات على الجانبين تنزل أفقيـا • وفى هذا الموضع بعض المصاطب المريحـة المنحوتة فى الصخر يحتمى الجالس عليها نهارا من حرارة الشمس الشديدة ويرى منظرا جميلا ناحية البحر • كذلك يرى الناظر هنا بعض الدرجات الكبيرة المنحوتة فى الصخر •

أما أعجب شىء هنا فهو مايطلقون عليه اسم حمام پومپيوس ، ويتكون حاليا من ثلاث حجرات متجاورة منحوتة فى الصـخر ، ولكل حجرة باب ناحية الميناء يمكن للمياه أن تنفذ من خلاله ، وللحجرة الثالثة أيضا فتحة صغيرة من الناحية الأخرى منحوتة فى الصخر تسمح بسريان الماء • وقد اتخذت عند الحيطان مصاطب من الصخر • والحق أننى لم أتنبـه الى ارتفاع المـاء وهبوطه ، وان كنت أعتقـد أنه يكاد يصل الى ارتفـاع المصاطب ، وللانسان أن يستنتج أن ميـاه البحر فى منطقة الاسكندرية لا تنخفض كثيرا بفعل الجزر •

وليست تجارة الأجانب مع أهل الاسكندرية كبيرة ، ولكن مينـاء

الاسكندرية هو الميناء الذى ترسو فيه جميع السفن التى تحمل البضائع من أوروبا وبلاد البربر الى مصر ، وتلك التى تحمل من مصر البضائع الى أوروبا والى بلاد البربر ، ومن هنا كان دخل الجمرك عظيما جدا • ويقيم فى الاسكندرية عدد من التجار الأوروبيين ، وقنصل فرنسى وآخر بندقى وثالث هولندى ورابع يمثل راجوزا • والقنصل الهولندى هو فى الوقت نفسه قنصل انجلترا ، والسيد ماريون هو نائب قنصل الدنمرك والسويد وتوسكانا ونابلى •

واللغة السائدة التى يتكلمها الناس فى الاسكندرية هى اللغة العربية، وهى اللغة السائدة فى مصر كلها ، أما اللغة التى يستخدمها الأوروبيون الذين لا يعرفون العربية فهى اللغة الايطالية • ولقد التقيت هنا بأناس من أهل الاسكندرية يتحدثون لهجة جنوب فرنسا ولغة الدنمرك ولغة السويد وكأنهم من أهل فرنسا والدنمرك والسويد ؛ وذلك شيء لم ألقه فى مكان آخر ، ويجوز للانسان أن يستنتج من ذلك ان أهل الاسكندرية يتفوقون على غيرهم من المسلمين فى موهبة تعلم اللغات الأجنبية ، ولعل ما يدفعهم الى الاهتمام باللغات الأجنبية هو أملهم فى الربح وضعف تمسكهم بدينهم ، فليس فى مقدور المسلم أن يؤدى شعائر دينه الا قليلا اذا كان بين ملاحين أوروبيين • هذا الى أن أبناء الاسكندرية يعملون أحيانا لسنوات على المراكب الأوروبية • وهم عندما يتعلمون اللغة يخدمون السفن الأوروبية التى تأتى الى الاسكندرية فيترجمون ويشترون ، ويكسبون هكذا لقمة العيش على نحو أكثر سعة وراحة مما لو اشتغلوا بأعمال أخرى •

ويتبع حاكم الاسكندرية حكومة القاهرة وبالتالى يتبع سلطان القسطنطينية • وتدفع بعض قبائل العربان الكبيرة التى تتنقل فى جنبات مصر اتاوات محددة للحكومة التركية وتعتبر نفسها من أتباع السلطان

أو حلفائه ، ولكنها تتمرد [١٧] أحيانا فتضطر الحكومة الى ارسال بضع مئات من الرجال قد تصل الى الألف لمطاردتهم وابعادهم الى أماكن نائية . ولقد اقترب العربان أثناء مقامنا فى الاسكندرية من المدينة وأمعنوا فى الاقتراب وسببوا للمدينة وللفلاحين المحيطين بها من الازعاج شيئا غير قليل .

وفى الحادى عشر من أكتوبر ضرب مئات منهم خيامهم على بعد نصف ساعة من المدينة ، وخرج فى صباح ذلك اليوم اثنان من الملاحين البنادقة يركبان الحمير على عادة أهل البلاد يريدون مشاهدة عمود پومپيوس ، فتعرض لهما هؤلاء العربان وجردوهما من ثيابهما ومن كل ما كان معهما . فلما قال الانكشارى الذى كان بصحبتهما للعربان ان الأوروبيين لم يحدثا بهم أذى ، وانهم اذا كانوا يريدون مطالبة الحكومة بشىء فعليهم أن يتوجهوا الى الحكومة ، تركوا الأوروبيين وانقضوا عليه هو ، ولم ينج منهم الا وقد تمزقت ملابسه . واذا أراد هؤلاء العربان أن ينزلوا المدينة للشراء فانهم يدخلونها فرادى حتى لا يلحظهم الأهالى . وهكذا دخل المدينة فى عصر اليوم المذكور عدد كبير جدا منهم رأينا من شرفتنا ومن فوق سطح بيتنا من أفعالهم مشهدا لم أر مثيله فى كل رحلاتى !

وقد روى البعض أن العامة فى الاسكندرية ـ وهم من أسوأ العوام فى الدولة التركية كلها ـ اكتشفوا أعداءهم وأرادوا الانتقام منهم لما فعلوه من شغب خارج المدينة . وروى البعض الآخر أن ابن أحد المشايخ اشترى من دكان بارودا ورصاصا وجرب سلاحه فى المدينة فأطلق رصاصة على البيت المقابل للدكان ، فأقبل عليه الرجل السكندرى وسبه قائلا انه اعرابى نذل . فأجابه الشاب ابن الشيخ العربى بعجرفة وكأنه يكلم واحدا من أتباعه فى الصحراء ، وهكذا شب الشجار بين الاثنين

أولا . وأقبل عربان آخرون لنجدة ابن الشيخ كما أقبل حشد من أهل البلد لنجدة السكندرى ، وتحرك الجميع الى ساحة كبيرة عند بيتنا ، والى المنطقة التى كان ينبغى على العربان أن يرتدوا اليها • ولو أن راكبى الخيل أرادوا الهرب لسهل عليهم ذلك كل السهولة ، ولكنهم أبوا أن يتركوا اخوانهم السائرين على الأقدام والذين كانوا بالمدينة يتعرضون للضرب واللكم • وظلوا يندفعون شاهرين الرماح أو المسدسات وراء أعدائهم ، وكان الفارس الواحد منهم يصد الحشد الكبير من أهل الاسكندرية حتى اذا أراد الرجوع لاحقه هؤلاء بالحجارة حتى أسرع اليهم آخرون بأسلحة نارية •

وكان العربان يرون تفوقهم واضحا فاحتاطوا ولم يقتلوا أحدا • أما أهل الاسكندرية فلم يأخذوا أنفسهم بهذه الحيطة ، وقتلوا اعرابيا وهو على ظهر حصانه بحجر سددوه اليه ، وقتلوا آخر بعيار نارى • وأخيرا خرج العربان وقد فقدوا ١٥ شخصا وبعض الجياد ، وأساء العامة من أهل الاسكندرية وهم فى ثورة الغضب الأولى معاملة أغلب الأسرى وأوسعوا اثنين منهم ضربا فماتا بعد قليل • فما كان من العربان الا أن حاصروا المدينة ونهبوا الكثير من بهائم السكندريين التى كانت ترعى خارج المدينة • ثم عاد السلام بعد يومين ورد كل جانب ما كان قد غنمه من الآخر •

الرحلة من الاسكندرية الى القاهرة

أكتوبر ١٧٦١

اتبع الأوروبيون الذين وصفوا رحلتهم من الاسكندرية الى القاهرة طريقا واحدة سلكوها جميعا ، وهى الطريق الى رشيد ومن هناك عبر النيل الى القاهرة . وكنا نود أن نسلك طريق البر لنرى من مصر المناطق التى لم يعرفها هؤلاء . وفى مقدور كل انسان أن يستنتج مما سبق استحالة مثل هذه الرحلة حيث يهيم هؤلاء العربان فى كل واد ، اللهم الا اذا كان من يزمع القيام بالرحلة رجلا لا يهمه أن يتعرض للنهب أو لا يتعرض. ولقد عرف واحد من صحبتنا هذا الخطر فيما بعد وتعرض له شخصيا : هذا هو السيد فورسكال الذى أراد فى العام التالى أن يرحل بطريق البر من القاهرة الى الاسكندرية فجرده العربان من كل ما كان معه ، وكان أدبا عظيما منهم أن أنعموا عليه باعادة سراويله اليه . وهكذا استأجرنا من الاسكندرية الى رشيد مركبا صغيرا ركبناه فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ولكننا لم نصل فى ذلك اليوم بسبب الريح المعاكسة الى أبعد من أبى قير أى مسافة أربع ساعات من الاسكندرية . وفى أبى قير خليج كبير ترسو فيه أحيانا السفن التى لا تستطيع الوصول الى ميناء الاسكندرية ، وعلى مقربة من القرية قلعة صغيرة بها بعض الجند .

نوفمبر ١٧٦١

وكانت الريح فى أول نوفمبر لاتزال ضدنا . ولهذا قرر رفاقى أن يقوموا

ببقية الرحلة فى رفقة بعض الأتراك الذين ظلوا فى هذا المكان وقتا طويلا ينتظرون الريح المواتية فلم تأت ، فآثروا الرحيل بطريق البر ، واستقلوا أولا قاربا اجتازوا به بحيرة لها مورد من النيل ومصب على البحر المتوسط، ثم ركبوا الخيل والحمير وشقوا منطقة رملية ليس فيها ما يستحق التنويه سوى أعمدة مبنية عددها بين ١٠ و ١٢ ترشد الى الطريق حتى رشيد . الا أنهم لم يصلوا رشيد قبلى بكثير لأن الريح انصلحت فوصلت أنا أيضا الى المدينة بالسفينة فى الثانى من نوفمبر .

والرحلة البحرية بين الاسكندرية ورشيد خطيرة فى الشتاء حيث تغرق سفن كثيرة فى البوغاز أو فى مصب النيل . وعلى الرغم من أن النهر لم تكن مياهه قد هبطت كثيرا بعد ، وعلى الرغم من أن ربان سفينتنا كان — فى ظننا — عليما بهذه المياه ، فقد ارتطمت سفينتنا المسطحة مرارا بالقاع واعتذر لنا الربان بأن مجرى النهر يتغير فى هذا الموضع كثيرا . وهكذا يحق للمصريين ألا يخافوا أن تأتيهم سفن معادية من فرع النيل هذا ، وأنا أعتقد أنهم لهذا السبب أهملوا القلاع القائمة على هذا الفرع وتركوها حتى تهدمت تماما . وهناك بين البوغاز ورشيد على الضفة الغربية للنيل قلعة قديمة عالية ، ولكنها مهجورة كلية ، وليس بها ما يستحق التنويه سوى بعض النقوش العربية وبعض المدافع القديمة بقضبان حديدية ذات أطواق . وعلى الضفة الشرقية للنهر قلعة صغيرة أخرى ولكنها بلا أهمية .

ومدينة رشيد (١٦) — أو روزيته Rosette كما يسميها الأوروبيون — معروفة فى التاريخ العربى منذ زمن طويل ، ويبدو أنها لم تزدهر الا بعد أن ضعف شأن التجارة فى فوة وهى مدينة أخرى على النيل جنوبا . والمدينة فى أيامنا هذه مستودع بضائع التجار التى تنقل من القاهرة الى الاسكندرية ومن هنا الى القاهرة ، ذلك لأن السفن القاهرية لا تتجاوز

رشيد ، وكذلك السفن القادمة من الاسكندرية الى رشيد لا تقلع الى القاهرة • والمدينة كبيرة الى حد ما ، وهى تقع على الضفة الغربية للنيل على مكان مرتفع يرى الانسان منه منظرا رائعا على الدلتــا عبر النيل ، وارتفاعها القطبى ٢٤´ ٣١° • وهناك جنوبى رشيد مرصد قديم قائم على مرتفع رسم السيد باورينفايند منه منظر المدينة كما تبينه (اللوحة السادسة).

ويصنع النيل غير بعيد من هنا ، عند قرية أبى مندور ، انحناءة كبيرة اتشاوا من عندها فى هذا العام أكثر من عشرين عمودا مرمريا ، كانت تحت الرمل ، وأرسلوها الى القاهرة • ويظن الأوروبيون المقيمون فى رشيد أن ذلك الموضع هو الذى كانت تقوم به قديما مدينة كانوبوس Canopus ويروى المصريون أن فرعا عظيما كان يخرج من النيل من هنا غربا خلال البحيرات الصغيرة المبينة على (اللوحة العاشرة) ويصب فى البحر عند (أبى قير*) • على أن هذا الممر المائى قد انسد تماما بالرمال النــاعمة التى تكثر فى هذه الناحية والتى تحملها الرياح فى سهولة ويسر •

ويقيم فى رشيد قنصل فرنسى وقنصل بندقى ، كذلك يقيم فيهــا بعض التجار الأوروبيين ليشرفوا على نقل بضائع أصحابهم بين القــاهرة والاسكندرية • ونزلنا فى رشيد عند الفرنسيسكان ، وأهل هذه المدينة مشهورون غاية الشهرة بأدبهم حيال الأوروبيين • ولهذا يستطيع الانسان أن يمد اقامته هنا أطول مما يستطيع فى المدن المصرية الأخرى التى لا يلقى

(*) ربما كان هنا فرع النيل الذى اجتازه السيد فون برايدنباخ von Breidenbach فى عام ١٤٨٣ من رشــيد الى أبى قير أو الأمــير رادتســيفيل Prinz Radzivil بعده بمائة عام من القاهرة الى الاسكندرية ، ومن المحتمل ان يكونا قد سلكا الفرع الذى يسربط النيــل – طبقــا لـرواية السـيد جرانجيــه Sieur Granger – حاليا بالبحيرة عند أبى قير • ولعلى لم أر هذا الفرع لأننى مررت به فى الظلام او لان جزيرة حجبته عن ناظرى •

فيها الأوروبيون كما هو معروف الكثير من التقدير • ولكننا تعجلنا السفر الى القاهرة • ورحلنا فى السادس من نوفمبر على متن سفينة أخرى من رشيد ووصلنا فى اليوم نفسه الى مطوبس حيث ألقينا مراسينا بسبب الريح المعاكسة •

وفى السابع من نوفمبر وصلنا قرب حلول المساء ديروط • ولما كانت الريح ساكنة ، ولم أكن أخشى من الأهالى شيئا ، فقد وضعت ربعيتى على الأرض وتبينت أن الارتفاع القطبى لهذه المنطقة ١٣´ ٣١° قياسا على ارتفاع نجم رصدته فى خط الزوال • ولقد حاولت فيما بعد مرارا أن أقوم بأرصاد فلكية دون أن أوفق ، ولهذا اكتفيت فى هذه الرحلة بملاحظة انحناءات النيل والوقت الذى قطعناه من مكان الى آخر •

وكان من حظى أن البحارة الذين جمعتنى بهم المقادير لم يرضوا فى كثير من الأحيان أن يذكروا لى أسماء القرى التى كنا نمر بها أو لعلهم لم يكونوا على معرفة بها ،فلابد أن يقطع الانسان هذه الطريق مرارا وتكرارا حتى يعرف هذه القرى الكثيرة • هذا الى أننا كنا فى أحيان كثيرة نسافر ليلا فلا نرى فى الظلام كل القرى مجرد الرؤية • ولما كانت المسافة من ديروط الى القاهرة أطول من أن يستطيع الانسان رسم خريطة جيدة لمجرى النيل فيها دون رصد للارتفاعات القطبية ، فقد قمت بعد وصولنا الى القاهرة برحلات صغيرة اليها حددت فيها الارتفاع القطبى لوردان ٢٠´ ٣٠° والارتفاع القطبى لبطن البقرة على الركن الجنوبى للدلتا ١٣´ ٣٠° ، وهو ما سأذكره بدقة فيما بعد فى الأرصاد الفلكية •

وفى الثامن من نوفمبر مررنا بمدينة فوة (١٨) التى ساءت حالها الآن بالمقارنة بما كانت عليه فيما مضى ، ويقال ان بيت القنصل البندقى الذى كان يقيم هنا لا يزال قائما وكذلك مبنى الجمارك • وفى هذه المنطقة قناة

(خليج) تتصل ، بعد أن تروى الحقول المحيطة وتغذى خزانات المياه فى الاسكندرية ، بقنـاة الرحمانية وهى أكبر منهـا بكثير ، ثم تصب قرب الاسكندرية فى البحر . ولابد من تطهير هذه الترع مرارا من الطمى الكثير الذى يجلبه النيل مع مياهه المتدفقة ، وتتكون من هذا الطمى الناتج من عمليات التطهير المتتالية شيئا فشيئا تلال كبيرة ما كان الانسـان ليراهـا فى هذه البلاد ذات الأرض المسطحة . وترسو جميع السفن الآتيـة من رشيد ودمياط عند بولاق التى وصلنا الى مينائها فى العاشر من نوفمبر قرب حلول المساء .

والرحلات على صفحة النيل رحلات جميلة وبخاصة فى هـذا الوقت الذى تمتلىء فيه الحقول بالزرع الأخضر . وتزخر ضفتا النهر بالقرى . والبيوت فى هذه القرى كلها تقريبا رديئة مبنية من الطوب اللبن ، ومسقوفة بسقوف مسطحة . الا أن الأوروبى القادم الى البلاد لأول مرة يرى فيها مشهدا غريبا جميلا ، بأبراج الحمام التى تتخذ هنا كما هو معلوم هيئـة خاصة ، وبالنخيل الذى ينمو بكثرة . ويرى الانسان على مقربة من بعض القرى تلالا كبيرة من أطلال المدن القديمة . ورأينا عند (تيرانه) أكواما كبيرة من الملح لعلها من النطرون الذى يجلبونه من أماكن أخرى ويشحنونه عن طريق النيل . ولم أر تماسيح (١٩) فى النيل بين رشيد والقاهرة ودمياط ، ويعتقد المصريون أن فى بناء المقياس قرب القاهرة طلسـما يمنع هـذه الحيوانات من أن تأتى ناحية المصب .

والسفن التى لا تختلف فى بنائها بعضها عن البعض اختلافا كبيرا تسمى فى اللغة العربية وفى اللغات الأوروبية بأسماء مختلفة . فالسفن التى تسير بين الاسكندرية والقاهرة كلها سفن صغيرة ومسطحة القاع . وكان اسم السفينة التى سافرنا بها من الاسكندرية الى رشيد « جرم » وكانت سفينة مفتوحة كلها ، أما السفينة التى استأجرناها من رشـيد

فكان اسمها « ماش » وكانت بها قمرة جيدة ، وكانت رحلتنا على متنها مريحة وسريعة ، وكانوا اذا سكن الريح يجرونها جرا • والحديث عن اللصوص الذين لا ينصرفون عن النيل كثير جدا ، الا أن الانسان اذا عنى بالحراسة ليلا وأشاع أنه مزود بالأسلحة النارية أمن شرهم • وتضيىء السفينة فى الليل عادة مصباحا يعرفون به آنها تحمل أوروبيين ، واللصوص يعلمون أن الأوروبيين لا يسهل الهجوم عليهم وهم نيام •

وفى مارس من عام ١٧٦٢ تعرضت ثلاث سفن فى هذا الفرع بالفعل للنهب، ولكن الاعتقاد السائد هو أن لصوص هذه الناحية لا يجسرون على نهب سفينة كاملة الا نادرا ، ولا يفعلون ذلك الا اذا اطمأنوا الى أن ركابها قليلون أو اذا دبروا للسطو بالاتفاق مع ريسها • وهناك حالات معروفة اقتسم فيها اللصوص الغنائم مع ملاحى السفن • ولهذا كان على المسافر أن يستعلم جيدا عن الريس الجديد بالثقة • ولصوص النيل مهرة غاية المهارة ، يحسنون السباحة ــ شأنهم فى ذلك شأن عامة الناس فى المناطق المطلة على النهر الذين يتعلمون العوم من صغرهم حتى ينعموا فى فصل الحرارة الشديدة بساعات لطيفة فى الماء أو لكى يعبروا من ضفة الى أخرى بسرعة وبدون تكلفة ــ ولهذا فانهم كثيرا ما يسبحون فرادى الى السفينة ــ اذا رأوا أنهم لا يستطيعون المجازفة بالاقتراب منها على ظهر قواربهم ــ ويستولون على كل شىء تصل اليه أيديهم فوق السفينة ، ثم يقفزون الى الماء • بل لقد جرت بالفعل حوادث لم يصعدوا فيها الى السفن بل مدوا أيديهم من فوق حافة السفينة وخطفوا من تحت رؤوس النائمين بعض أمتعتهم •

وحكى لى الأتراك القصة التالية عن واحد من هؤلاء اللصوص • كان أحد الباشوات حديث عهد بمصر ، وضرب خيامه على مقربة من النيل ، وقام رجاله أثناء الليل بالحراسة خير قيام واستطاعوا أن يقبضوا على واحد من اللصوص الذين كانوا يتربصون بهم • وفى الصباح سيق



















لوحة رقم (٨)

اللص الى الباشا الذى توعده بالموت على الفور . وتوسل المقبوض عليه الى الباشا أن يسمح له بأن يقوم أمامه بعمل يكشف، له به سرا من أسرار فنه ، قائلا انه على يقين من أن الباشا سيهبه عند ذلك الحياة . وسمح له الباشا الشغوف بالمعرفة أن يكشف له سره . وطفق اللص يجمع ثيـاب الباشا وكل ما وقعت عليه عيناه فى الخيمة من أشياء ، وصرها صرة على النحو المألوف عند المصريين الذين يصرون ملابسهم فى صرة يحملونها على رؤوسهم أثناء اجتيازهم النهر سباحة . ولعب اللص بالصرة بعض الألعاب البهلوانية ثم ألقى بنفسه بعدها فى النيل وسبح الى البر الآخر والصرة فوق رأسه وبداخلها الأشياء التى سطا عليها ، وبلغ الأمان قبل أن يتمكن الأتراك من احضار أسلحتهم النارية لتأديبه !

الرحلة الى دمياط ..
ثم العودة الى القاهرة

ابريل ١٧٦٢

يعد أن رسمت الفرع الرئيسى الأول للنيل من القاهرة الى البحر المتوسط رغبت فى رؤية الفرع الثانى الذى يمر بدمياط حتى أتمكن من رسم خريطه تمثل الاتساع الحقيقى لذلك الجزء من مصر الذى اعتاد الأوروبيون حاليا على تسميته بالدلتا ، وكان هذا الجزء ناقصا فى الخريطة التى رسمها السيد نوردن لمجرى النيل من الشلال الثانى الى البحر . وكنت أود القيام بالرحلة الى دمياط بعد وصولى الى القاهرة بوقت قليل ، الا أن الغيوم والأمطار التى كانوا يتوقعون لها أن تشتد كلما اقترب الانسان من البحر والتى كانت ستحول بينى وبين القيام بالأرصاد الفلكية اللازمة دفعتنى الى تأجيل هذا المشروع الى مطلع مايو من العام التالى ، ولم أجد من الأسباب ما يجعلنى أندم على هذا التأجيل ، لأننى تعودت فى هذه الأثناء على التعامل مع الشرقيين الذين كنت أجهل لغتهم وعاداتهم عند وصولى الى مصر كل الجهل .

وقد ألف الأوروبيون الذين يقومون برحلات فى هذه البقاع أن يلتمسوا حماية الحكومة ايمانا منهم بأنهم لا يستطيعون القيام برحلة آمنة اذا لم يتلق الملاحون وأصحاب الجمال والحمير التى تكترى للرحلة برا أمرا من الحكومة بالاهتمام بهم اهتماما خاصا . والنتيجة

الأولى التي يؤدي اليها هذا الوهم هي أن واحدا من خدم الحاكم الذي يلجأ اليه الرحالة الأوروبي يأتي بأول ملاح يلتقي به في الطريق أو يتوقع أن يحصل منه على هدية،ويظن الملاح ــ عندما يتلقى من رجل رفيع القدر توصية بالاهتمام بالمسافر ــ أن الحظ قد واتاه • فهو لا يضيع فرصة يمكن أن يكسب فيهــا شــيئا من الموصى به أو يجعله فيهــا يحس بضرورته له الا وانتهزها ، وهو في سبيل اظهار همته لا يكف عن تصوير كل خطوة لا خطر فيها على أنها محفوفة بالأخطار • ولقد تبينت انني أصل دائما الى أفضل نتيجة عندما أتوجه في مثل هذه الظروف الى واحد من التجار المعروفين من أهل البلد ، فالتجار يعرفون عادة معرفة أكيدة الى حد كبير هل بالمناطق التي يزمع الانسان الرحيل اليها شيء يخشى منه • كذلك لهم ملاحوهم وجمالوهم الذين يرســلون بضــائعهم معهم والذين يهتمون بالحفاظ على رضاء التجار الذين يكسبون منهم أكثر مما يحرصون على رضاء الحكام الذين يندر أن يربحوا منهم شيئا • هذا الى أن الانسان لا يستطيع أن يرسم خرائط صحيحة في بلد أجنبية اذا لم يستطع مرشده أن يذكر له أسماء القرى التي يتاح له رؤيتها أثناء الرحلة ــ اما عن جهل بها أو عن تصميم على عدم الادلاء بها للأجانب ــ وكنت بحاجة الى ملاح قطع المسافة بين القاهرة ودمياط مرارا ، عليما بالقرى التي لا يأمن الانسان فيهــا على نفسه ليلا ، يرضى بأن يسير بالنهار ولا يســير بالليل ــ الا اذا كانت هناك ضرورة ملحة ــ حتى أستطيع رؤية مواقع القرى وانحناءات النيل على نحو أفضل •

وهــكذا توجهت الى واحــد من التجــار ، راجيــا اياه أن يخطرني عندما يزمع ملاح من ملاحيه، تتوفر فيه الأوصاف التي طلبتها ،على السفر ، فأرسل الى ملاحا رضيت عنه كل الرضا • وقرر السيد باورينفايند الذي لم يكن قد خرج خارج القاهرة أثناء اقامتنا هنا الا قليلا أن يصحبني في هذه الرحلة • واستأجرنا انكشاريا ذهبنا بصحبته وبصحبة خادم كان

عليه أن يؤدى عمل الخادم والطباخ معا الى بولاق فى الثلاثين من ابريل عام ١٧٦٢ ، وكانت السفينة الصغيرة التى ركبناها الى دمياط تحمل اسم « القادسية » ، ووجدنا عليها من سبل الراحة مثل ما وجدناه على السفينة التى حملتنا من رشيد الى القاهرة •

مايو ١٧٦٢

وفى ساعة مبكرة من أول مايو بدأنا الرحلة فى هدوء كامل حتى اننى لم أستيقظ من النوم الا بعد أن كانت السفينة قد سارت عدة أميال ، ولكننى لم أفقد شيئا نتيجة لذلك لأننا سلكنا هذه الطريق نفسها عندما أتينا من رشيد الى القاهرة • ثم رأينا بعد ذلك الطرف الجنوبى للدلتا الذى كنت قد حددت فى مناسبة سابقة ارتفاعه القطبى ، ثم رأينا قصر القاهرة بين الجنوب والجنوب الشرقى وحددت موقع هذه المنطقة بأعظم دقة ترتجى فى رسم الخرائط الجغرافية • ويسمى العرب هذا الطرف « بطن البقرة » ويعتقدون على أساس من التقاليد القديمة أن تمثالا كبيرا للبقرة كان يقوم فى هذه المنطقة فى عصور الكفر • والنيل من القاهرة الى الدلتا واسع جدا ملىء بالجزر التى يجرف النيل بعضها أثناء ذروة الفيضان جرفا كاملا من جراء قوة اندفاع المياه ثم يطرحها فى أماكن أخرى •

ولما كان الفرق بين أعلى وأدنى منسوب للمياه هنا كبيرا جدا فقد رأينا فى هذه المرة من الجزر أكثر مما رأينا فى نوفمبر ، ذلك لأن مستوى المياه كان منخفضا فى مايو انخفاضا شديدا أدى الى ارتطام سفينتنا ذات الأرضية المسطحة بالقاع مرارا • وفى كل قرية من القرى المشرفة على النيل خفراء عليهم أن يبلغوا عن قوارب اللصوص فورا اذا اقتربت بالليل • الا أن أهالى بعض القرى يرسلون هم أنفسهم أحيانا قوارب للسرقة ، فاذا الذين يرجون الاحتماء بهم فى الليل يخافون

من التعرض للنهب على أيديهم • وألقينا اليوم مراسينا فى طحلة لأن ملاحنا رأى أن القرى الأخرى التى كان يمكننا الوصول اليها لم تكن آمنة•وأنزلت ربعيتى الى البر على الفور لقياس الارتفاع القطبى ، الا أننى وجدت خيوط منظار الجهاز مقطوعة ، فأعدت الجهاز الى السفينة دون أن أتمكن من قياس شىء •

وفى الثانى من مايو رحلنا مبكرين من طحلة ، الا أن الريح اشتدت شدة عنيفة فاضطررنا الى الرسو عند مسجد الخضر •وكنت قد أصلحت خيوط المنظار واستطعت ــ بكثير من العناء بسبب الريح الشديدة والأتربة الكثيرة التى امتلأ بها الهواء اذا صح هذا التعبير ــ أن أقيس بعد الشمس عن نقطة السمت ، وحسبت ــ بعد أن ضبطت الجهاز من جديد ناحية دمياط ــ الارتفاع القطبى لهذه القرية أو لهذه البقعة فوجدته ٢٦َ ٣٠° • ولم نستطع حتى عصر اليوم أن ننطلق الى أبعد من ميت العطار ، وتحولت الريح قرب المساء فجأة الى سكون كامل ، وعادت العاصفة بعد نصف ساعة هوجاء من ناحية الجنوب الغربى وكانت من قبل من ناحية الشمال الشرقى ، وملأت الأتربة والرمال الهواء على نحو أكثر من ذى قبل • ولما كانت السفن التى تسير على صفحة النيل ذات قلوع كبيرة جدا فان الملاحين هنا لا يستطيعون التحكم فيها الا على نحو ردىء ، ولهذا فان السفن كثيرا ما تنقلب اذا تعرضت لرياح اعصارية أو لعاصفة مباغتة • وكنا فى بعض الأحيان نرسو عند البر طلبا للأمان •

ونشرنا قلاعنا فى الثالث من مايو فى الخامسة صباحا لنستأنف المسير ووصلنا الى مدينة زفتى مبكرين فاستطعت أن أرصد ارتفاع الشمس ظهرا ، وعلى هذا فان الارتفاع القطبى للمدينة هو ٤٢َ ٣٠° • وتبعد زفتى عن فرع النيل الذى يمتد من القاهرة الى رشيد ست ساعات فقط ، وهى طبقا لحسابات الملاحين فى منتصف المسافة بين القاهرة ودمياط • وتتبع

هذه المنطقة «كسلار» ، أغا القسطنطينية السابق الذى يقيم فى القاهرة ، وله هنا وكيل « قائمقام » .

وبمدينــــة زفتى ثلاثة مســـاجد ، أحـــدها بــلا مئـــذنة ، وبها ــ كما هى الحال فى كل القرى المطلة على النيل تقريبا ــ قبة ، والقبة بناء صغير فوق قبر من يظن الناس أنه من الأولياء ، والعامة يقيسون قدسيته على قدر ثراء البناء وفخامته .وتضم الطائفة القبطية هنا ٣٠٠ بيت تقريبا ، واضطرنا الأقباط الى زيارة كنيستهم فوجدتها على الهيئة الرديئة التى رأيت عليها الكنائس فى منطقة القاهرة . وأرضية كل هذه الكنائس مفروشة بالحصر التى نادرا ما يغيرونها أو ينظفونها ، ومن السهل أن يتصور الانسان أن البراغيث تتكاثر فيها بشدة وسط الحرارة المعروفة فى هذه النواحى ، وقد هجم على منها عدد كبير . ولما كان الأقباط يظلون واقفين طوال الخدمة ، وكان الكثيرون لا يطيقون الوقوف مدة طويلة ، فانهم يتكئون على عـــكاكيز ، وقد أعدت عكاكيز خشبية كثيرة لهـذا الغرض وكومت على الأرض على هيئـــة لا يعتبر الأوروبى منظرها حلية جميلة للكنيسة . والصــور التى يرسمها الأقباط رديئة جدا كلها . وأنا أذكر اننى رأيت فى كنيسة بمصر العتيقة صور المسيح والعذراء مريم وقديسين آخرين يركبون الخيول جميعا ، ولعل الأقباط يرون أن من غير اللائق أن يركب المشاهير الحمير ، فليس لهم أن يركبوا فى القــاهرة سوى الحمير .

وأحسن ما أعجبنى فى كنيســـة زفتى عتبة بابها ، ويبدو أنها كانت فيما مضى تمثالا مرمريا جميلا من صناعة أحد الفنانين الاغريق . وعلى الضفة الأخرى للنيل فى مواجهة زفتى تقوم مدينة ميت غمر ، وبها ستة مساجد وكنيسة قبطية . والمعروف أن الأبراج الرفيعة ، أى المآذن ، التى ترتفع فوق المساجد ، مدورة كلها ، الا أن احدى المآذن فى ميت غمــر مربعة الشكل ، ولعلها كانت فيما مضى برج احدى الكنائس .

وتجد السفن الآتية من القاهرة عونا كبيرا فى سيرها يتمثل فى سكون الريح بالليل ، لأنها تستطيع ــ اذا هبت الريح نهارا من الشمال وعطلتها ــ أن تندفع مع التيار فى الليل اذا كانت القرى التى فى طريقها قرى آمنــة أو اذا كانت السفن فى مجموعة كبيرة لا تخشى اللصوص • ونحن لم نستطع عصر هذا اليوم أن نستأنف الرحيل بسبب ريح الشمال ، فلمــا هدأت قرب حلول المساء رحلنا من زفتى بصحبة سفينتين أخريين مندفعين بالتيار •

وما كدنا نقطع ميلا حتى رأينــا زورق لصــوص يقبل نحونا ، ولكنه ما لبث أن ابتعد عندما أسمعنا من به سلاحنا النارى • ثم رأينــا بعــد ذلك عددا من الزوارق الصغيرة تحت الأشجار وخلف جزر صغيرة ذهب ملاحونا الى أنها تقل لصوصا ، ولكنها لم تجرؤ على التعرض لنا • وفى اليوم التالى رأينا بعض الأطواف المتخذة من الأوانى والجرار التى جىء بها من الصعيد لتباع هنا • ويتخذ الطوف من أوان كثيرة تربط بعضــها بالبعض الآخر تحت خشب النخل الخفيف ، يتراوح طولها بين ٤٠ و ٧٠ قدما ، وعرضــها ما بين ثلث ونصف الطول ، ويقوم على الطوف ما بين ٦ و ٨ رجال يستخدمون فروع الشــجر بدلا من المجاديف*، ويتخذون مطبخهم ويدبرون أمور معاشهم كلها فوق الطوف ، ويقال انهم يحملون بضائع ثمينة فى أوانيهم ، وهذا كلام لا يمكن تصديقه ، فليس من الممكن حفظها فيها على نحو جيد ، لأن الماء ينفذ بقوة الى داخل الأوانى الفخارية مما يضطر الرجال الى تفريغه المرة تلو المرة • كذلك يقــال ان هؤلاء الرجال يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد اللصــوص على خير وجه باستخدام المقاليع • فاذا باعوا الأوانى ، أى باعوا السفينة كلها ، عادوا الى الصعيد سيرا على الأقدام •

(*) رسم « نوردن » قارب صيد من هذا النوع فى اللوحة الثانية والثلاثين •

ولم أر اليوم ما يستحق التنويه سوى مدينة المنصورة ، تلك المدينة التى سجن فيها ملك فرنسا لويس التاسع • ولقد بدت لى أكبر من دمياط ، الا اننى لم أجد فرصة لمشاهدتها عن كثب ، بل رأيتها أثناء عبور السفينة عليها ، وقد أقيم فى فرع النيل الذى يمتد من هنا الى البحيرة جدار ليمنع انسياب المياه الى هناك الا بالقدر الذى يكفى لرى الأراضى المجاورة الخصبة التى يزرع فيها الأرز خاصة • وبعد أن تجاوزنا المنصورة تحولت الريح الى الشمال فاضطررنا الى الاتجاه الى البر ، وهكذا أتيحت لى فرصة قياس الارتفاع القطبى على بعد نصف ميل تقريبا بين الشمال والشمال الشرقى من المدينة ، فوجدته ٣´ ٣١° • وفى الخامس من مايو لم نر فى رحلتنا البعيدة الى دمياط شيئا يستحق التنويه سوى عشرين سفينة محملة بالنحل ، وكان سنجق المنصورة قد عسكر ومعه أربعون من العبيد والخدم بين قريتى بدوى وكفر بدوى ليحصل ضرائب النحل • وتقدر حمولة السفينة الواحدة من خلايا النحل بـ ٢٠٠ خلية ، ومعنى هذا أن السفن العشرين كانت تحمل نحو ٤٠٠٠ خلية ، ويبلغ طول الخلية نحو ٣ أقدام وعرضها قدما واحدا ، وكانت الخلايا كلها موضوعة أفقيا وفتحاتها عند نهاياتها •

وتنعم مدينة دمياط بموقع ممتاز للتجارة ، مثلها فى ذلك مثل رشيد ، ذلك أن جميع البضائع التى تأتى من سوريا والبلاد المجاورة متجهة الى القاهرة أو التى تعود من القاهرة اليها ، لابد أن تمر من هنا ، هذا علاوة على التجارة الواسعة فى الأرز الذى يزرع فى المنطقة المحيطة • وعلى الرغم من ذلك فليس فى دمياط تاجر أوروبى واحد ، بل ليس فيها رهبان أوروبيون وان كان بها كثير من المارونيين ومن المسيحيين الشرقيين المنضمين الى الكنيسة الرومانية • وكان للفرنسيين فيما مضى قنصل فى دمياط وتجار ، حتى أشاع الأهالى أنهم لاحظوا أن هؤلاء الأوروبيين مالوا

الى نساء المسلمين ميلا مفرطا ، فقتلوهم جميعا الا من استطاع الفرار ، ولم يعد منذ ذلك الحين لأحد من الفرنسيين ــ طبقا لأمر من ملك فرنسا ــ أن ينزل المدينة حتى البحارة أنفسهم ، وعلى من له أعمال منهم فى دمياط أن ينجزها عن طريق وكيل ، وأن يدبر أمر التجارة على سطح السفينة فى الميناء .

وعلى الرغم من ذلك فقد التقيت باثنين من الملاحين الفرنسيين فى المدينة ، ولكننى لاحظت عليهما أنهما يخافان خوفا ليس بالقليل من الأهالى الذين يذكرون علاوة على الحادثة المذكورة الحروب الصليبية ولذلك يعادون الأوروبيين جميعا عداوة كبيرة . وأكد لى البحاران الفرنسيان انهما اذا تعرضا لسوء المعاملة هنا لن يكون لهما أن يشكوا الى السفير الفرنسى فى القسطنطينية أو يلتمسا منه عونا . واذا كان الأوروبيون يسيرون فى الاسكندرية وفى رشيد مرتدين الملابس القصيرة ، فقد كان هذان البحاران يلبسان العمامة ويلتفان بعباءة تركية (بنش) . ولما كنا نحن نرتدى الملابس التركية كاملة ونستطيع التحدث مع الأهالى نوعا ما ، فقد أمضينا وقتنا فى المدينة دون أن نخشى شيئا كثيرا من العامة ، وكنت أحمل معى كتاب توصية الى تاجر يونانى والى رجل ايطالى كان فى سنوات شبابه تاجرا مرموقا فى القاهرة وتراكمت عليه الديون فلم يستطع العودة الى وطنه ، وقرر أن يدخل فى الاسلام . وكانت له آنذاك حظوة لدى واحد من أكثر البكوات نفوذا فى القاهرة ، فداعبه الأمل فى أن يلقى فى مصر حظا عظيما . الا أن صديقه أسقط ، فعد الايطالى نفسه من السعداء عندما حصل على وظيفة فى جمرك دمياط ، وعاش فى المدينة حياة كريمة لا يعتمد فى ظنى على وظيفته فحسب بل على مكاتبة الأوروبيين لأنه كان يقوم بتدبير أمور شحن كل البضائع التى يرسلونها عبر دمياط وكانوا هم يكتبون اليه اذا احتاجوا شيئا . وهكذا كان يعامل الأوروبيين فى ود

كبير على الرغم من أنه كان مسلما منذ أعوام كثيرة ، والمعروف عن الذين يتركون دينهم ويدخلون فى الاسلام أنهم يصبحون أكثر عداوة للأوروبيين من أولئك الذين ولدوا على الاسلام .

وتقع مدينة دمياط — طبقا لأرصادى — على مسافة ربع ميل الى الشمال من خط عرض رشيد ، وهى تحت ارتفاع قطبى قدره ٢٥َ ٣١° ، وتبعد بنحو ميلين ألمانيين تقريبا عن البحر المتوسط ، أى أنها تبعد عنه أكثر مما تبعد عنه رشيد الواقعة على الفرع الآخر للنيل . ومعنى هذا أن البلد تمتد من ناحية شرق مصر الى الشمال أكثر منها ناحية الغرب . وعلمت من بحار زار الساحل بين دمياط ورشيد مرارا أن رأس البرلس تقع على مسافة ميل أو ميل ونصف — من الأميال الألمانية — شمالى مصبى النيل ، وتقدر المسافة المستقيمة بين دمياط ورشيد عبر الدلتا بيوم ونصف يوم أو يومين ، الا أن الطريق بينهما لم تعد آمنة على الاطلاق لتعرضها للصوص . والمنطقة الواقعة على الضفة الغربية للنهر من دمياط الى الشمال حتى مصب النيل والممتدة غربا الى البرلس مغطاة برمل ناعم وهى لذلك مجدبة .

ولم أر فى دمياط أثرا لسور المدينة القديم ، ولعله لم يعد بناؤه مرة أخرى بعد عام ٦٤٨ من الهجرة عندما تهدم حسب رواية أبى الفداء ، ويبدو لى انه فى الامكان التعرف على الموضع الذى كان النيل فيه يغلق بسلسلة ، فهناك ناحية الشمال داخل المدينة برج عتيق مرتفع ، وعرض النهر فى هذه المنطقة لا يزيد كثيرا عن مائة قدم ، وعلى الضفة الغربية فى مواجهة هذا البرج أساس برج مشابه تبدد من بنائه ما كان بارزا فوق سطح الأرض (٢٠) .

لم أجد فرصة مواتية لتحديد مواقع جميع شوارع المدينة فى خريطة أرسمها لها ، ولو اننى سعيت الى ذلك لاستحال على الأمر نظرا لضيق

الوقت الذى أمضيته هناك ، ولعرضت نفسى للخطر . على أننى قست طول شارع السوق الذى يخترق المدينة كلها وكذلك محيط المدينـة بالخطوات وصنعت بناء على هذا القياس الخريطة التى (باللوحة السابعة) ، ورسم السيد باورينفايند منظر دمياط على (اللوحة الثامنة) . والمنطقة المحيطة بدمياط تمتلىء بالقنوات التى تسـقى حقول الأرز الـكثيرة . ومنسوب الميـاه هنـا منخفض ولهذا يستخدم الناس آلات لرفع المـاء تختلف عن تلك التى تستخدم فى القاهرة لرفع المياه من أعماق بعيـدة الى أعلى . وتدل الأرقام المدونة على خريطة دمياط على مواقع المعـالم التالية :

١ ــ برج قديم عليه نقش عربى مشوه .A رسم تخطيطى للدور الثـانى فى هذا البرج .
٢ ــ آثار قليلة لقصر قديم .
٣ ــ كنيسة حولها المسلمون الى مسجد .
٤ ــ مصبغة قطن .
٥ ــ مدافن .
٦ ــ مسجد بناه أحد السلاطين .
٧ ــ ساحة المنشية .
٨ ــ مكان ذبح الحيوانات .
٩ ــ ساحة الشرباص .
١٠ ــ دير اليونانيين .
١١ ــ الجمرك .
١٢ ــ مسجد كبير .

ولما كنت قد أصبحت على مقربة من البحر المتوسط فقـد قمت برحلة صغيرة من دمياط الى مصب النيل أو البوغاز . وهو بوغاز لا تتعرض

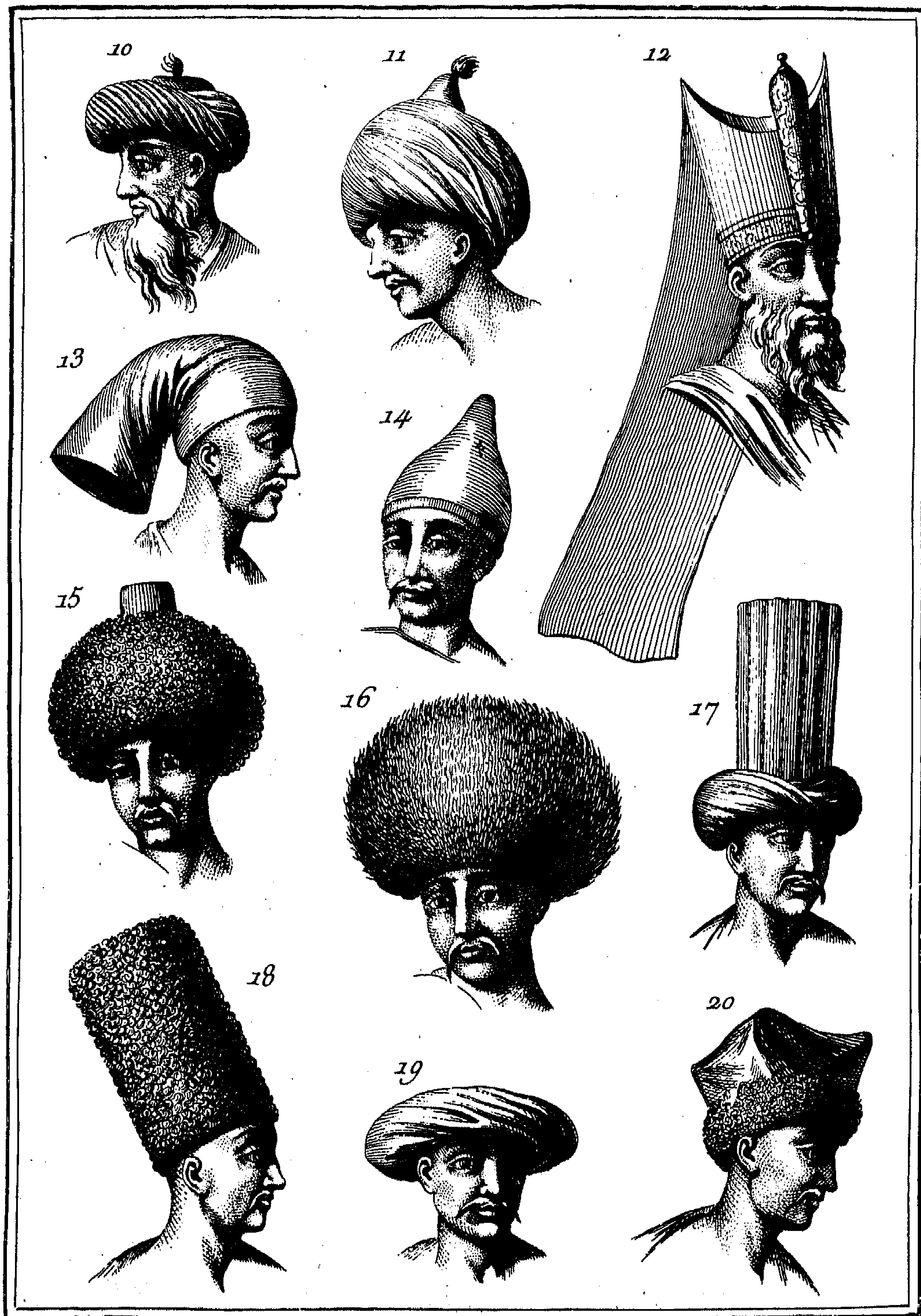
فيه السفن للخطر الذى تتعرض له فى بوغاز رشيد ، فهنـاك علامات موضوعة على القرارات الرملية ، وهناك قارب فى حالة استعداد دائم يساعد السفن الأجنبية • وتدخل من مصب النيل ــ حتى الآن ــ سفن كبيرة تصل الى المدينة ، وان كانت غالبية السفن تلقى مراسيها على بعد ميل من الشاطىء لانخفاض منسوب المياه انخفاضا شـديدا • وهنـاك على الضفة الشرقية لفرع النيل وعلى بعـد ٣٥٠ خطوة مزدوجة من البحـر (وأنا أذكر هذا البعد بدقة حتى يقوم الرحالة فى المستقبل بالتأكد ممـا اذا كانت أرض مصر تنمو بسرعة كبيرة على النحو الذى يذهب اليـه بعض المؤلفين) قلعة قديمة على هيئة الرسم C فى (اللوحة التاسعة) • ويبلغ طول القلعة ٢٩ خطوة مزدوجة وعرضها ٢٣ خطوة مزدوجة ، وحدثنى خادمى بأنه قرأ تحت نقش على باب القلعة تاريخا هو عام ١٠٦٩ • والبناء خاو لا يسكنه أحد خوفا من العفاريت على حد قول الناس هنا ، وقد أدى المسلمون الذين كانوا معنا الصلاة عندما اقتربنا من القلعة ، فلمـا وصلنا اليها صلى كل واحد منهم مرة أخرى على المدافع المركبـة على البطارية D ، ثم عجلنا بالعودة الى السفينة دون أن أتمكن من رؤية القلعة من الداخل •

وهذه هى المرة الوحيدة التى رأيت فيـها مسـلمين يخـافون من العفاريت ، ولم أسمع بشىء من هذا بين العرب على الاطلاق • وتقوم ناحية الجنوب على الضفة الغربيـة للنيل وعلى بعـد ٧٥ خطوة مزدوجة من الشاطىء القلعة التى يسمونها القلعة الجديدة والتى يتبين من نقش عليها أنها أنشئت فى عام ١١١٦ أى أنها أنشئت منذ ٥٩ سنة قمرية • وهـذه القلعة على هيئة دائرية على ما يبين الرسم A وكذلك المنظـر العام B فى (اللوحة التاسعة) ، والى أسفل القلعة بطارية دائرية بها مدفعان من المعدن وثلاثة مدافع من الحديد • وبالدور الثانى من المبنى خمسة مدافع صغيرة

قريبة بعضها من البعض الآخر بحيث لا يمكن استخدامها كلها فى وقت واحد • ولا تزال هذه القلعة آهلة بالقائمين عليها • فاذا استأنف الانسان السير الى الجنوب على الضفة الغربية من النيل وجد برجا قديما آخر ولكنه متهدم وخرب ، مثله مثل البرج الذى فى دمياط • أما على الضفة الشرقية من النهر عند قرية القولى فهناك أربع بطاريات قديمة متهدمة ارتفاعها نحو ٢٠ قدما ، وفوق احداها مدفع قديم على منصة محطمة ، وبعض المدافع الصغيرة ذات الماسورة الطويلة ملقاة فى قبو صغير وقد أتلفها الصدأ كل التلف •

ذكرت فى « وصف بلاد العرب » ص ٤١٨ البحيرة التى تمتد من دمياط شرقا الى قرب الغصنة والتى تعتبر من المعالم العجيبة لكثرة الأخبار التي يجدها الانسان عنها فى كتب القدماء • وأريد أن أثبت هنا أن بعض جزر هذه البحيرة لا يزال بها آثار متفرقة من المدن القديمة • وقد حكى صاحب البيت الذى نزلنا فيه أنه اشترى لملاح فرنسى قبل بضعة أعوام كتابا مدونا بالحروف الأفرنجية (يعنى كتابة لا يعرفها •• ذلك ان الشرقيين يصفون كل الكتب والنقوش التى يجهلونها بأنها أفرنجية). وكذلك بعض أحجار محفوظة وجدها بعضهم فى صندوق حديدى باحدى هذه الجزر ، وحكى لى كذلك أن الناس كثيرا ما يجلبون الى يومنا هذا من هذه الجزر ، عملات اغريقية ورومانية •

وليست آثار سيسوتانيس Sisutanîs (ربما تانيس Tanis التى كان مصب النيل يتسمى باسمها) بعيدة عن البحر المتوسط ، عند قرية المطرية Mataré ، والحديث عن آثار هذه المدينة كثير جدا ، ولكنى لم أجد بين من حدثتهم عنها من رآها • وتستغرق الرحلة من دمياط الى هنالك بطريق البر والعودة ثلاثة أيام ، ولكنها رحلة محفوفة بالمخاطر كالرحلة عن طريق البحيرة ، بسبب



لوحة رقم (٩)

اللصوص ، ذلك أن سكان هذه المنطقة فيهم المتمردون وفيهم الفقراء الذين لا يرضون بترك الرحالة يعودون بمالهم ومتاعهم الى حيث أتوا •

وتقع مدينة دمشلى Dimischli التى تصنع فيها المنسوجات الكتانية بين الجنوب الشرقى والجنوب من دمياط ، ولا يزال اسم بلبيس الى الآن اسما على مدينة معروفة ، ولكننى لم أجد من يذكر لى موقعها يقينا ، وفى هذه المدينة - وكذلك فى طمبول Tambul وهى على بعد يوم من المنصورة — آثار كثيرة * •

وكم تمنيت قبل رحيلى من هذه المنطقة أن أرى آثار تنيس ، وأن أزور مدينتى دمشلى والمنزلة ، وأن أذهب الى المنصورة على ظهر سفينة عبر البحيرة • الا أن هذه الرحلات كانت محفوفة بالمخاطر ، لا أجرؤ على حمل آلاتى معى عند القيام بها ، خاصة واننى كنت هنا أقوم برحلة ثانوية ، لأن رحلتى الأصلية التى أتيت لها كانت تستهدف بلاد العرب السعيدة • وهكذا عدنا ، السيد باورينفايند وأنا ، فى الثانى عشر من مايو من دمياط الى القاهرة • ولما كنت فى أثناء قدومى من القاهرة الى دمياط قد قمت بعدد كاف من الأرصاد للارتفاعات القطبية ، فقد اهتممت فى رحلة العودة من دمياط الى القاهرة بمراجعة انحناءات النيل على البوصلة وكذلك مراجعة أسماء القرى وأبعادها حتى أصحح بياناتى الأولى • وكانت الريح مواتية فوصلنا القاهرة فى الخامس عشر من مايو •

---

* رأى جرانجيه Granger آثار تمويس Thmuis وبوته Butte على بعد اربعة فراسخ الى الشرق من المنصورة •

ملاحظات على خريطة الرحلة من رشيد الى القاهرة
ومن القاهرة الى دمياط ، على اللوحة العاشرة

نعرف مصر فى أقدم ما وصل الينا من شواهد التــاريخ بلدا كثير السكان عظيم الشهرة ، ونعرف أن تاريخ الشرق فيما بعد ظل يذكر مصر فيكثر من ذكرها ، ولهذا فهى جديرة بأن يبوئها الجغرافيون فى اهتمامهم مكانا ممتازا وأن يبذلوا الجهود لمعرفة البلاد فى حالتها الراهنة ، فلن يفهم انسان المدونات القديمة التى تصف مصر فهما كاملا الا اذا عرف الوضع الراهن معرفة دقيقة ، والحق أن بين أيدينا اليوم خرائط رسمت لهــذا البلد تحرى فيها أصحابها الكثير من العلم ، الا أننى لا أعرف هل قام أولئك الذين تفضلوا علينا بهذه الخرائط بالتأكد فى كل حالة من سلامة الأخبار التى استخدموها تأكدا يكفى للاطمئنان اليهــا كل الاطمئنان ؟ ولست أعرف من بين الرحالة الكثيرين الذين نزلوا مصر من صنع خرائط أفضل من تلك التى صنعها ب. سيكارد P. Sicard والكابتن نوردن Norden الا أنهما لم تتح لهما امكانية تصحيح الخرائط على أساس من الأرصاد الفلكية ، على الرغم من أن مثل هذه الأرصاد تعتبر بالنسبة لمصر بالذات معينات جميلة تساعد على اعداد الخرائط الجغرافية . وتقع أهم الأماكن التى تستحق التنويه على النيل أو غير بعيــد عنه ، وينســاب النيل من الجنوب الى الشمال فى مسار يوشك أن يكون مستقيما ، مما يجعل حساب أبعاد الأماكن المختلفة ، بدقة ، على أساس الارتفاعات القطبية ، أيسر بكثير وأدق من الاعتماد فى ذلك على القياسات الهندسية .

ولو أن أحدا توقع من رحالة أقام فى مصر فترة قصيرة أن يصنع للبلاد كلها خريطة كاملة ، لكان فى ذلك مبالغا كل المبالغة ، ولن يجنى أحد فائدة كبيرة من رحالة ينسخ خريطة قديمة ويضيف اليها تصويبات ، لأن مثل هذه الخريطة تتطلب من العلماء جهدا كبيرا عندما يريدون التأكد مما اذا كانت الاضافات قد أفسدت الأصل وشوهته أو أصلحته وصححته ولهذا فاننى اكتفيت بتقديم خريطة رحلتى والأسس التى أقمتها عليها . والمطلع على الخرائط الأخرى يجد عليها من القنوات والأنهار والبحيرات الصغيرة أكثر مما يجد على خريطتى . والشريف الادريسى يعطينا فى « جغرافية النوبى » (١٤) أخبارا عن أنهار كبيرة مختلفة قد يجدها الانسان حاليا ، وقد أكد المصريون لى أن من يرى مصر وقت الفيضان خاصة يجد فيها عددا كبيرا من القنوات والبحيرات الصغيرة التى لم أرها أنا . ورغما عن ذلك فلم أثبت فى خريطتى الا ما رأيته بعينى وما سمعته من أولئك الذين يعرفون البلد . ولو اتبع كل الرحالة هذا المنهاج لسهل على العلماء تقدير ما أسهم به كل واحد فى تحسين الجغرافية الحديثة . وأنا لم أقم فى مصر برحلات أخرى سوى تلك التى ركبت فيها النيل ، ولكنى أعتقد على الرغم من ذلك أننى حددت مسار الفرعين الرئيسيين للنهر من القاهرة الى البحر المتوسط وحددت أماكن المدن والقرى الواقعة عليه بدقة لم يبلغها أحد من قبل فى سجل رحلته ، وقد تتاح للرحالة فى المستقبل فرصة زيارة مناطق أخرى من مصر وصناعة خرائط لرحلتهم اليها .

وأحب أن أرجو الأوروبيين الذين يأتون الى مصر ولا تكون لديهم فرصة التجوال فى ربوع البلاد أن يحرصوا على مصادقة الأقباط الذين يعملون لدى البكوات كتبة وحسابين ، لأننى أعتقد اعتقادا جازما بأنه لن يكون من الصعب الحصول منهم على قوائم كاملة الى حد كبير تضم أسماء جميع القرى التابعة لسادتهم . وأنا لم أفد من هذه الامكانية شخصيا .

وسيعذرنى الناس لأن رسم خريطة للمدينة الكبيرة القاهرة تسبب لى فى مشاغل كثيرة ، ولأننى كزائر حديث عهد بالبلد كنت أخشى عقد صداقات كثيرة مع الأهلين والسؤال عن كل شيء • فاذا اجتهد كل رحالة فى جمع معلومات جغرافية دقيقة عن بعض المناطق ، فسيكون لدينا بعد وقت قليل مادة تكفى لوصف جغرافى كامل لمصر الحديثة ، ولن نعدم فى أوروبا علماء يضمون شتات هذه المعلومات كلها ويصنعون خرائط كاملة للبلد •

ولقد ذكرت فى مقدمة « وصف بلاد العرب » أن كتابة الأسماء الأجنبية للقرى والمدن فى لغتها الأصلية أمر تكتنفه الصعوبة ، وأن كتابتها بلغة أخرى غير لغتها أكثر صعوبة ، خاصة اذا كان الانسان يسمع نطق هذه الأسماء من أناس يتكلمون لهجة مختلفة أو — وهو الأسوأ — يتكلمون لغتهم القومية على نحو ردىء • ولهذا السبب كتبت أسماء القرى مرة على هذا النحو ومرة أخرى على نحو آخر حسب اختلاف نطق من سمعتها منهم • وحتى أصل الى الأسماء الحقيقية للقرى والمدن فى مصر لجأت بعد وصولى الى القاهرة — وبعد أن كنت قد أثبت جميع الأسماء بحروف أوروبية أثناء الرحلة طبقا للهجة من رافقونى فى الرحلة — الى كاتب عربى ليدونها لى بالعربية • وأرجو أن أكون قد تمكنت على هذا النحو من الحصول على الكتابة العربية الصحيحة فى غالبية الأحوال • ويستطيع كل أوروبى مهما كانت الأمة التى ينتمى اليها أن يكتب هذه الأسماء حسب أبجدية لغته اذا ظن أننى كتبت بحروف أوروبية غير صحيحة بدلا من الكتابة بالحروف العربية • كذلك ينبغى على أولئك الذين تتاح لهم فرصة الحصول على قوائم بأسماء القرى ، أن يكلفوا العليمين بها بمطالعتها جميعا وأن يسجلوا الأسماء بحروف أوروبية حسب السمع • فالعرب يكتبون أسماء الأعلام المعروفة لهم بدون نقط أو لعلهم ينسون كتابتها أو يغيرون مواضعها ، ولهذا فان الأجنبى لا يستطيع على الاطلاق

فى كل الأحوال . وسأذكر فيما يلى بعض الأسماء التى يجدها الانسان فى كتاب « الجغراف النوبى » (١٤) والتى تعرض بعضها للتحريف بحيث يعجز من لا يعرف الكتابة العربية عن معرفة المقصود بها .

فى قائمتى	فى الترجمة	فى الكتابة الأصلية
Damiât أو Dumiât	Damiat	ذمياط
Fereskûr	Fare.ker	افارسكر
Serimsâh	Seremsah	شرمساح
Scherinkâs	Serencas	سرنقاس
Talcha	Tucha	طوخا
Nuâs el bâhhr	Nasc al hagiar	نش الحجر
Ghoghar	Guiger	جوجر
Miet assâs	Moniat assas	منية عساس
Et tâbanie	Thobania	الثعبانيه
Samanûd	Die Stadt Semennud	مدينة سمنود
Miet Samanûd	Semennud	سمنود
Dsjerâhh	Gerah	جراح
Abusir	Butsir	بوصير
Bennha	Banna	بنا
Miet beddre halaue	Moniat Bedr	منية بدر
Schübbra el Jemen	Sabra	شبره
Sunbâd	Sanbat	سنباط
Demsis	Damasis	دمسيس
Miet Ischne	Moniat Asna	منية اسنا
Hanûd	Hanut	حانوت
Dacadûs	Dacarcus	دقرقوس

(*) احتفظت بالكتابة التى دونها كارستن نيبور بحروف عربية وحروف لاتينية ولم اصحح اخطاءها (المترجم)

في الكتابة الأصلية	في الترجمة	في قائمتي
منية رقبة	Moniat Raccaba	Sitte
منية غمر	Moniat Amr	Miet ghrammer
صحرست	Baharast	Sâhradsj
منية الحرون	Moniat el harun	Miet el barûn
وزوره	Vazura	Warûra
منبت	Manbat	لعل اسمها : Senith
منية الحوقى	Moniat el hauca	Miet el hauféin
حنجر	Hanglar	ولعلها هي : Gangara
انزيت	Anzit	Atrib
بنة العسل	Banna el aasal	Benha assel
جدوه	Gedua	ولعلها : Dighu
شميرف	Samairec	ولعلها : Imscherif
انتوهى	Antuha	ولعلها : Abu tauâki
منية العطار	Moniat al aattar	Miet el attâr
منية العطف	Moniat el aatfi	El ätf
الصالحية	Salehia	Salheie
طنت	Tant	Tant
زفينه رفينه	Rafina	Sufêti
شلفان	Selfan	Schalakân
الحرقانية	Hercanie	Charakanie
تنسوس	Tansos	Bsûs
شبره	Sciabra	Schübbra
أم دينار	Omdinar	Omdinâr
ذروه	Dhorua	Daraue

فى الكتابة الأصلية	فى الترجمة	فى قائمتى
الاخصاص	Achsas	'Ul achsâs
سنديون	Sandiun	Sendiûn
فـوه	Fua	Fue
مليج	Malig	Mehallet malik
الحريش	Horais	Dsjureisch

ولعلنى كنت قد أثقلت على القارىء اذا أنا كتبت أسماء جميع المدن والقرى التى يجدها الانسان على جانبى النيل فى الفصل الخاص بملاحظاتى على الرحلة من رشيد الى القاهرة ومن القاهرة الى دمياط ، ولهذا وضعت هذه الأسماء وبيان انحناءات النيل فى موضع مستقل من الكتاب بحيث يستطيع القارىء أن يتجاوزها ويقلب الصفحات الى ما بعدها اذا لم يكن يريد الوقوف عندها . وليس من شك فى أن بعض القراء سيرون أن ضم القائمة الكاملة الى الكتاب ليس شيئا لا داعى له ، لأننى لو وضعت هذه الأسماء كلها على الخريطة لكان على أن أزيد فى مساحتها زيادة كبيرة ، أو أحشر الأسماء حشرا لأنها تشير الى مواضع متقاربة أشـد التقارب . كذلك فأنا أنشر هنا مراحل رحلة السيد فورسكال من القاهرة الى الاسكندرية والعودة ، وأعتقد أن لى الحق فى ذلك الى حد ما ، لأننى أعطيته عند سفره البوصلة ورجوته أن يثبت كل أسماء القرى التى يراها وأن يبين مواضعها ولأنه قدم الى بنفسه هذه القائمة بعد عودته . فاذا تجمعت عن مصر السفلى معلومات تكفى لرسـم خرائط خاصة لها فان كل هذه البيانات التى توصلت اليها ستفيد فى انجـاز هـذه المهمة (٢٢) .

على الضفة الشرقية للنيـــل	على الضفة الغربية للنيـــل	انحناء النهر	اسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القـــاهرة	
١			القولى : قرية صغيرة باربع بطاريات	Elkôli
٢			عزبت البرج : هناك جمرك .	Aesbet el burdsj
٣			الشيخ درغان	Schech Durghân
٤			عزبت كرنونيه	Aesbet Karnunie
٥			عزبت اللحم	Aesbet el lâhhm
٦			صماياط أو دمياط	Damiât (Dumiât)
	١		سنانيه	Sennanie
٧		ج غ	المنيه : هنا مصـــانع كثيرة للفوط الجميلة	Minie
٨			الشعره : من هنا تمتد قناة الى البحـــيرة . وكانت هنا كميات كبيرة من الملح جلبت من قنطرة البيضا	Es schâara
٩		ش غ	العادليه	Adlie
١٠		ش غ	كفر بيحه	Kafr atbelâhha
	٢	غ ج غ	كفر بطيخ	Batêch
١١		ج ج غ	بستان . كانت هنا كميات كبيرة من الملح . من بستان الى البحيرة ساعة سفر .	Bustân
١٢		ج ج غ	حورانى	Haurâni
١٣		غ	ميت الشيوخ : على بعد ساعة من البحيرة	Miet es schiûch
	٣	ج	كفر يوسف	Kafr Jusof
١٤		ج غ	العبيدية : بعيدة نوعا ما من النيل	El abedie
١٥		ــــــ	كفر أبو عضمى	Kafr abu âdmi
	٤	ــــــ	كفر سليمان	Kafr Slimân

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	انثناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Fereskûr	فارسكور	جغ		١٦
Kafr el árrab	كفر العرب	—		١٧
Kafr Schenaue	كفر الشناوى	ججغ		١٨
Scherabás	شراباس	غ		١٩
Miet abu ghalib	ميت أبو غالب	—	٥	
Kafr Miet abu ghalib	كفر ميت أبو غالب : عنده جزيرة	ججغ	٦	
Es sauâlim	السوالم : وهنا توجد جزيرة	ججق	٧	
Berissie	برسية	ججغ		٢٠
Dakáhhle	داقحلى	غ الى ق		٢١
Râs el chalîdsj	راس الخليج	غ	٨	
Seru	سرو : قلعة صغيرة	—		٢٢
Kafr ettará el kadîm	كفر الترعا القديم	غالى ش	٩	
Kafr ettará dsjedid	كفر الترعا الجديد	ج	١٠	
Dahriê	الداهرية	ججق	١١	
Kafr Achmed Bédoui	كفر أحمد البدوى	—		٢٣
Serka	الزرقا	غ		٢٤
Kafr Schech atteïje	كفر شيخ عطيه	غ الى ج	١٢	
Miet el chôli	ميت الخولى	—		٢٥
Garra farráh	قرا فارعه	—		٢٦
Zaatre	الزعاتره	—		٢٧
Serimsáh	سرم ساح	—		٢٨
Achmadie	الأحمديه	غ	١٣	

على الضفة الشرقية للنيل	على الضفة الغربية للنيل	انحناء النهر	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	
٢٩		——	بساط تليها جزر مختلفة	Busât Kuramedîn
	١٤	——	كنكه	Glagä
٣٠		——	محلت مشاق	Mehallet Mischák
	١٥	——	شربين : قرية كبيرة	Scherbîn
	١٦	ج	كفر الحطبى	Kafr el háttabe
٣١		شرغ الى ش	منيه ترانيس	Miet Taranôs
	١٧	غ	كفر الدبوسى	Kafr Dabûsi
	١٨	ج	بطره : عندها جزيرة	Báddra
٣٢		ش	بدوى	Bédoui
٣٣		غ	كفر بدوى : عندها جزيرة صغيرة جرت بين أهالى القريتين مؤخرا الحرب بسببها	Kafr Bédoui
	١٩	ج	دباسط : لا تبعد كثيرا عن النيل	Dabást
٣٤		ج الى ش	كفر البرامون	Kafr el baramûn
٣٥		ججغ	برمون	Baramûn
	٢٠	——	الطويله	Thaufle
٣٦		——	خياريه	Chiarie
	٢١	——	شرنقاس	Schirinkâs
٣٧		——	بداله	Biddâle
	٢٢	——	ميت عنطار	Miet Antar
٣٨		——	قلنجيل	Kolundsjil

	اسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القـــاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيـــل	على الضفة الشرقية للنيـــل
Mansûra	المنصوره : مدينة المنصورة وعندها فرع كبير للنيل . وأفضل أرز فى مصر ياتى من المنزلـــه اى من هـــذه المنطقة .	غ		٣٩
Talcha	طلخا	——	٢٣	
Ghoghar	كوكر ويقولون ان امـــوالا كثيرة مدفونـــة فى هـــذا المكان . وربما كانت هنا آثار مدينة قديمة .	غجغ	٢٤	
Miet el wârake	ميت الوارقا	ج غ	٢٥	
Schech Ramadân el moye	شيخ رمضان الموجه	——		٤٠
Miet Beddre chamis	ميت بدرى خميس	ج		٤١
Miet Nabit	ميت نابت : على مقربة منها ما يلى :	غ ج غ	٢٦	
Kanâter Uwisch	قناطرويش : جســر علـــى فرع للنيل يصب فى البحر عند البرلس	غ ج غ	٢٧	
Uwisch	ويش	ج غ		٤٢
Kafr Scheinêber	كفر شينيبر قرية بهـــا كثير من ابراج الحمام .	——		٤٣
Miet Assâs	مينت عساس	——	٢٨	
Nuâs el Bâhhr	نواسى البحر	ج ج غ		٤٤

على الضفة الشرقية للنيل	على الضفة الغربية للنيل	انحناء النهر	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	
٤٥			نواسى الفيض	Nuâs el Gheit
			بعيدة نوعا عن النيل	
٤٦		غ	سنبخت	Sunbucht
	٢٩	ج غ الى غ	كفر التعبانيه ، من هنا تمتد قناة صغيرة الى طنطا	
	٣٠	ج ج غ	سمانود : على مقربة من هنا المحلة الكبيرة حاضرة الغربية، وعندها قناة تخترق الدلتا . وفى النيل جزيرة كبيرة .	Samanûd
٤٧		ج ج غ	منيه سمانود : مدينة صغيرة ذات خمس مآذن يبدو أن بعضها كانت أبراج على كنائس .	Miniet Samanûd
	٣١	ج الى ق	ميت النصاره	Miet en nasâra
٤٨		ج	جراح	Dsjerrâhh
	٣٢	غ ج غ	أبو سير	Abusir
٤٩		ــــ	ميت أبو الحارى	Miet Abulhâri
٥٠		ج غ	سلاميه	Salamie
٥١		ج غ	ميت بزه	Miet Bissu
	٣٣	غ	بنه	Benuha
٥٢		ج	كفر لمنضره	Kafr el Mândara
٥٣		ــــ	منضره	Mândara
	٣٤	غ	ميت بدر حلاوى	Miet Beddre haláue
	٣٥	ج ج غ	شبرا اليمنى	Schubbra el Jémene

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Kafr Schubbra el Jémene	كفر شبرا اليمنى	——	٣٦	
Miet Demsis	ميت دمسيس : عندها جزيرة	——		٥٤
Sunbâd	زنباط	ج	٣٧	
Kafr Miet Ischne	كفر ميت اشنى : من هنا الى البحيرة سفر يوم	——		٥٥
Miet Ischne	ميت اشنى	——		٥٦
Kafr Namân	كفر نعمان	ج ج غ		٥٧
Kafr Dabûr	كفر دبور	ج غ	٣٨	
Hanûd	حانوت : عندها جزيرة	——	٣٩	
Sarnaghe	سرناكه	ج ج ق		٥٨
Dáhtûre	دهتورى	——	٤٠	
Dacadûs	دقادوس	ج ج غ		٥٩
Sifte	زفته	ج	٤١	
Miet ghrammer	ميت غمر	——		٦٠
Sendabast	صندابسط : عندما جزيرة	——	٤٢	
Dundeit	دنديط	—		٦١
Kafr Dsjehanumme	كفرالجهنمى : وعندهاجزيرة	ج		٦٢
El ghreiib	الغريب	——	٤٣	
Másara	المعصره	ج		٦٣
Sahrâdsj	سهراج	ج الى غ		٦٤
Meidusif	مسيدوصيف	——	٤٤	
Kafr Miet le Aes	كفر ميت العز	——		٦٥
Miet el Harûn	ميت الحارون	ج	٤٥	
Kafr el Harûn	كفر الحارون	——	٤٦	



















لوحة رقم (١٠)

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Tafahna	تفهنى	——	٤٧	
Kafr Abuk sebe	كفر أبوق صيبه	——		٦٦
Es safên	الصفين	——		٦٧
El manschie	المنشيه	ج غ		٦٨
Kafr Dimardáschi	كفر الدمرداشى	——	٤٨	
Kafr Miet el ábsi	كفر ميت العبسى	ج ق	٤٩	
Miet el ábsi	ميت العبسى	——	٥٠	
Miet eddarech	ميت الدريح	——		٦٩
Kafr Schukle	كفر شكل : وعندها جزيرة	——		٧٠
Senith	سنيت	غ الى ج		٧١
Miet Bérre	ميت بره	ج ج غ	٥١	
Kafr Haláue	كفر حلاوه	ج الى غ		٧٢
Miet el Haufein	ميت الحوفينى	——	٥٢	
Ischbûl	يشبول : وعندها جزيرة	ج ج غ		٧٣
Miet Drâde	ميت درادى	ج غ		٧٤
Gängara	كنكره	ج غ الى غ		٧٥
Damalla	دماله . أمامها ترعة مويس وهى فرع عظيم للنيل يصب فى البحيرة	ج غ	٥٣	
Kafr Essádie	كفر السعديه	——	٥٤	
Kafr Mues	كفر مويس	ج غ		٧٦
Warûra	وروره	——	٥٥	
Trieb أو Atrib	اتريب	——		٧٧
Batta	بطا	——	٥٦	
Benha Assal	بنها العسل	——		٧٨

على الضفة الشرقية للنيـــل	على الضفة الغربية للنيـــل	انحناء النهر	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القـــاهرة	
	٥٧	ـــــ	كفر الجزات	Kafr Dajesâd
	٥٨	غ ج غ	أبو الطواقى : وعندها جزيرة	Abu tauâki
٧٩		غ ج غ	رمله	Ramle
	٥٩	ـــــ	بحيرة	Baheire
٨٠		ـــــ	ميت العطار	Miet el Attâr
	٦٠	ـــــ	مسيد لخضر	Msidr el châdr
	٦١	ج ج ق	أمشيرف	Imscherif
٨١		ج	طحله	Táhhle
٨٢		ـــــ	كفر طحله	Kafr Táhhle
٨٣		انحناءة كبيرة	دجوه : كان على العابرين من هنا قبل بضعة اعوام أن يدفعوا اتاوة حتى لا يتعرضوا للنهب .	Dighue

والأرجح أن هذا هو المكان الذى يطلق عليه السيد ب . سيكار P. Sicard اسم «Agoué» فى كتابه : مذكرات الارساليات الى الشرق ، الجزء الثانى، ص ٩١ Memoires des Missions dans le Levant Tom. II. p. 91.

	٦٢	ج	كفر العطف	Kafr el ätf
	٦٣	ـــــ	اسريكه	Isrighe
	٦٤	ـــــ	كفر القرينين . يمتد من بين القريتين ترعة تتجه الى الدلتا ، وتتفرع بعد ذلك وتصـــب عنـــد محلة اللبن	Kafr Karinejn

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
	وصافيه Sali في الفرع الآخر للنيل . وهذا الجزء من الدلتا ملىء بالقرى .			
Miet Afif	ميت عفيف وهى قرية تليها :	ج غ	٦٥	
Tant	طنط : وهى قلعة صغيرة ، وكلاهما فى جزيرة	ج ق	٦٦	
Kiâd	كيد . وكانت هناك فى هذه المنطقة أعداد كبيرة من الطيور الصغيرة اتخذت عششها فى الأرض على الضفة المنحدرة للنيل .	ــــ		٨٤
Habib	حبيب : بعيدة قليلا عن النيل .	ج ج غ		٨٥
Kafr Regulât	كفر الرجالات : عنده جزيرة	غ	٦٧	
Kafr Faraonie	كفر الفرعونيه	غ . ج غ	٦٨	
Nadir	ومن هنا تمتد الى نادر على الفرع الآخر للنيل .			
Kafr Seafi	كفر سيفى	ــــ		٨٦
Sakiet abu scháara	ساقية أبو شعره	ج . ج ق	٦٩	
Berschûm Et tin	برشوم التين : من هنا الى القاهرة جزائر كثيرة .	ــــ		٨٧
Salheie	الصالحية	ــــ		٨٨
Kafr el Hámme	كفر الحمى	ج	٧٠	
Kafr el Haulâle	كفر الحوالى	ــــ		٨٩
Schubbra Schahaute	شبره الشهاوية	ج . ج ق		٩٠

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من دمياط الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Sufêti	زفيتى	ج		٩١
Schalakân	شلاقان	—		٩٢
Charakanie	خراقانيه	ج		٩٣
Dsjalatmie	جلتامية	—	٧١	
Abu el Gheit	أبو الغيض	ج		٩٤
Kurateije	قروطية		٧٢	
Bsûs	بسوس	—		٩٥
Wararik	الوراف	—	٧٣	
Damanhûr	دمنهور	—		٩٦
Schubbra el makâse	شبره المكاسة	—		٩٧
Dsjesire	الجزيره	—		٩٨
Bulâk	بولاق	—		٩٩
Embâbil	امبابل	—	٧٤	
Masr (Kâhira)	مصر أو القاهرة	—		١٠٠

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Aesbet el Madie	عزبة المدية			١
Aesbet en Nadsjâr	عزبة النجار			٢
Raschîd أو (Rosette)	رشيد		١	
El âtf	العطف			٣
Et türki	التركى			٤
Schech Abumandûr	الشيخ ابو منصور		٢	
Abulkride	ابو الكريدى			٥
El malauâd	الملاوات			٦
El busrâd	البصرات			٧
Aesbet el kirs	عزبة الكرس			٨
El dsjedîe	الجديه		٣	
El beridie	البريديه			٩
Mekarîe	الميكريه			١٠
Mehallet el Emir	محلة الأمير		٤	
Berimbâl	برمبال			١١
Barnabâl	يذكرها يوهان‌ليو			
Miniet el Mürsched	منيه المرشد			١٢
Dêbeh	دبيـــه		٥	
Johann Leo	هـــى فى ترجمـــة يوهان‌ليو			
«Thebes»	لوصف أفريقيا : طيبة			

* ليست هذه القائمة دقيقة كسابقتها ويرجع ذلك الى جهل الرجال الذين رافقونى فى الرحلة من رشيد الى القاهرة ، ولاننى لم أكن قد ألفت طريقة تفكير المسلمين ولم أكن قد تعلمت لغتهم . كذلك تحتـــاج بيانات انحناءات النيل التى اثبتها فى بعض المواضـــع الى التصويب ، وهى بيانات جمعتها فى اثناء رحلتى من القاهرة الى صالحجر .

	اسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Miniet el Benâd				١٣
Defêni			٦	
Mentûbes أو (Mtûbes)	مطوبز			١٤
Kaum scherik	كوم شريك			١٥
Fasara	فزاره		٧	
Sendiûn	سنديون			١٦
Deirût	ديروط		٨	
Dsjedie	جديه			١٧
El âtf	العطف		٩	
«Voy»	فوه Fue . هى عنـد السيد فون برايد نباخ			١٨
Schurafa	شرفا			١٩
Scherumbê	شرونبه		١٠	
Schibrachid	شبرخيت			٢٠
Es salamie	السالميه			٢١
Kafr Schaiib	كفر شعيب		١١	
Mehallet Mâlik	محلت مالك			
Dirschâbe	درشابى		١٢	
Sid Ibrahim أو Dsûk Ibrahim	دسوك ابراهيم			٢٣
Rachmanie	الرحمانيه		١٣	
Dmidsjimân	دميجمون			٢٤
Markas	مركز		١٤	
Mehallet Abuâli	محلت ابو على			٢٥
Miniet Salâme	منيه سلامه		١٥	
Demink	دمنك			٢٦
Kafr Madsjar	كفر مجر			٢٧

على الضفة الشرقية للنيل	على الضفة الغربية للنيل	انحناء النهر	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	
	١٦		أم الحكيم	Om el hakim
٢٨			شبره الشهلا	Schubr es schahale
٢٩			صافى	Safi
	١٧		محلة بشر	Mehallet Bisch
٣٠			محلة ديس	Mehallet Deis
	١٨		كفر عبدين	Kafr Abedin
	١٩		شبرخيت . ورد هذا الاسم من قبل	Schubr achid
٣١			محلة تيناة	Mehallet Tinâd
	٢٠		المعصره	El másra
	٢١		جبريش	Dsjibbrisch
٣٢			كفر رضوان	Kafr Radnân
	٢٢		حليصا	Halissa
٣٣		ج	سلحجر	Salhádsjar
	٢٣	ج . ج ق	كفر شهاب الدين وعندها جزيرة	Kafr Schehâb ed din أو Kafr Uchdeiar
٣٤		ـــ	الكدابه	Kuddâbe
٣٥		ج . ج غ	الفرستك	Ferestâk
٣٦		ـــ	محلة اللبن	Mehallet el Läbben*
	٢٤	ـــ	نكله	Nikle
	٢٥	ج ج ق	شليمة	Schlîme
٣٧		ج ق	ابيج	Obîk

* وهنا ترعة كبيرة تاتى من فرع دمياط وتمر بطنطا حيث ضريح الولى المصرى الشهير احمد البدوى . ومعروف ان الناس يزورون فى كل عام ضريح الولى المذكور . وهناك سوق سنوية كبيرة . وهذا هو السبب الذى يجعل الكثيرين من الاجانب يذهبون الى هناك .

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Dahrie	الضهرية عندهـا ثلاث جزر متجـاورة والنيـل هناك عريض جدا	ج٠ج ق	٢٦	
Konesi	الكنايس (؟)	ج٠ج غ	٢٧	
Bnûfar	بنوفر	—		٢٨
Kafr el Aeis	كفر العيس	ج	٢٨	
Schech Ali	الشيخ على	—		٣٩
Kafr Imgáhet	كفر مجاهد يستمر النيل فى الانحناء فى اتجاه ق . ش ق ويصل الى قرب بنوفر .	ق ٠ ج ق	٢٩	
Kafr Zeiâd	كفر الزيات	ج ٠ غ ٠		٤٠
Dedelsjemûn		—		٤١
Schabûr	شابور	غ ٠ ج غ	٣٠	
Kafr Suburiâd		غ ٠ ج غ		٤٢
Kafr Salamûn	كفر سلامون	ج٠ ج غ	٣١	
Salamûn	سلامون . عندها جزيرة	—	٣٢	
Kafr el bahadsji	كفر البهجى	ج ٠ ج ق		٤٣
Kafr el Gharîm	كفر الفريم	ج ق	٣٣	
Mitnie	المتنيه	—		٤٤
Kafr el máhrûk	كفر المحروق	—		٤٥
Nedsjîle	النجيـلى : هنـا منتصف المسافة بين رشيد والقاهرة فى رأى الملاحين .	ج ٠ غ ٠	٣٤	
Kafr el akrûd	كفر العكروت : وعندهـا جزيرة	ج ق		٤٦

	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Mischle	مشله	ج • ج ق		٤٧
Esseiâle	السياله	——		٤٨
Sauâfe	صوافه : وعندها جزيرة	ج	٣٥	
Tnûb		ج • ج ق		٤٩
El chamsîne	الخمسينى : وعندهاجزيرة	ج		٥٠
Amrûs	عمروس	ج • ج غ		٥١
Kaumscherik	كوم شريك : ويجد الانسان هذا الاسم فى القائمة السابقة .	——	٣٦	
Bestamie	البصطامية	——		٥٢
Zauiet el Bághli	زاوية البغلى	——		٥٣
Et teirie	الطيريه	ج	٣٧	
Nafûr	نافور	ج • ج ق		٥٤
Abulchaue	أبو الخاوى : وعندها جزيرة	——	٣٨	
Kafr Dimschik	كفر دمشك	ج ق		٥٥
Kafr Dsjáfar	كفر جعفر : وعندها جزيرة	ج • ج غ		٥٦
Aelquâm	علقم : عندها انحناء كبيرة للنيل	——	٣٩	
Manûf el âle	منوف العله	——		٥٧
Nadir	نادر	——		٥٨
Kafr Nadir	كفر نادر	——		٥٩
Schäbsche	شبشة	——		٦٠
Dimischle	دى‌مشلى	——	٤٠	
Dsjamalie	جمليه	——		٦١
El bureidsjâd	البريجاه	——	٤١	
Kafr Dauûd	كفر داود	ج	٤٢	

أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة		انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية للنيل
Dsjerdsjâgi	جرجاجى : وعندها جزيرة	ج . ج ق		٦٢
Terâne	الطرانى	—	٤٣	
Sansâf	زنزف	—		٦٣
Saniet Rasin	زاوية رزين	—		٦٤
El achmâs	الخماس	—	٤٤	
Abu Chauâsch	ابو خواش	—		٦٥
Abu Neschâbe	ابو نشابه	—	٤٥	
Tahaûe	طهوه	—		٦٦
El chatatba	الخطاطبا	—	٤٦	
Miniet Salâme	منية سلامه	—	٤٧	
Auiâd Faradsj	أولاد فرج	—	٤٨	
Munsie	مونسيه	ش . ق .		٦٧
Dris	دريس	ق . ج ق	٤٩	
Abu tôr	أبو تور	ج . ق .	٥٠	
El menschie	المنشيه	—		٦٨
Wardân	واردان : وعندها جزيرة	ج . ج ق	٥١	
Dsjureisch	جريش : وهناك على الضفة الغربية للنيل من هنا الى طرف الدلتا منطقة صحراوية وهى التى تسمى فى « جغرافية النوبى » باسم « الصيدم » .	—		٦٩
Es sauâfi	السوافى	—	٥٢	
Kafr abu Ali	كفر أبو على	—		٧٠
Lindsjib	لنجب	—		٧١
Kafr abu ghâlib	كفر أبو غالب	ق . ج .ق.	٥٣	

Latin	أسماء القرى والمدن على فرع النيل من رشيد الى القاهرة	انحناء النهر	على الضفة الغربية للنيل	على الضفة الشرقية النيل
Kafr Salamie	كفر الساليه	ـــــ		٧٢
El katta	الكطه : وعندها جزيرة .	ج	٥٤	
Sidi Ibrahim	سيدى ابراهيم	ـــــ		٧٣
Kafr ghâli	كفر غالى : وعندها ترعة صغيرة	ج . ق .		٧٤
Minlet el árûs	منية العروس	ق		٧٥
Er rahâue	الرهاوى	ق . ش ق	٥٥	
Kafr Mansûr	كفر منصور	ق	٥٦	
Schafschûr	شفشور	ـــــ		٧٦
Om Dinâr	ام دينار . عندما يرتفع النيل يرى الانسان ترعة كبيرة من هنا الى الوراريق Wararik			
Daraue	دراوه : قرب بطن البقرةاو طرف الدلتا .	ق . ج.ق.		٧٧
Ul Achsâs	الاخصاص .	ـــــ	٥٨	
	بقية القرى حتى القاهرةورد ذكرها فى القائمة السابقة .			

اسماء القرى والمدن التى سجلها السيد فورسكال فى اثناء رحلته

من القاهرة الى الاسكندرية ومن الاسكندرية الى القاهرة *

من القاهرة الى الاسكندرية

باب البكرى	Bâb Báqari
١ ـ منية السيرج	Miniet es esiri
٢ ـ شبره المكاسة . ج الى غ القاهرة	Schubbra el makâsa
٣ ـ دمنهور	Damanhur
٤ ـ باسوس + الاهرامات غ.ج.الى غ .	Basûs
٥ ـ ابو الغيط . الاهرامات ج غ الى ج ابو المنجه . جسر .	Abul Ghait Abul menaga
٦ ـ خراقانيه . الاهرامات ج . الى غ .	Charaqaniae
٧ ـ بهاده	Baehâdae
٨ ـ سفيته + فرع دمياط .	Saffaete
٩ ـ شبره الشهابية +	Schubra Schabiae
١٠ ـ كفر الحمة .	Káfre haemae
١١ ـ شناوان . الطريق تتجه ش.غ .	Sjenvaâni
١٢ ـ سمالية ش . غ .	Samelaei
١٣ ـ فرعانية ش . غ . الاهرامات ج . ج غ .	Faraaniae

(*) يجد القارىء عددا من هذه الأسماء فى قائمتى ، ويتبين من اختلاف الهجاء انه سويدى وانني المانى . وجدير بالذكر ان الكاتب الذى دون بالعربية قائمتى المسجلة حسب نطق الملاحين هو الذى دون فى حضورنا قائمة السيد فورسكال حسب نطق حماره ، ولكنه سجل الكلمات التى بجانبها علامة + بحروف مختلفة . واذا كان الكاتب العربى قد كتب نفس الأسماء بحروف مختلفة باختلاف نطق أهل بلده ، فان العالم المنصف لن يأخذ على اننى لم اكتب الاسماء بنفسى بحروف عربية ، بل سيشكرنى على ذلك .

١٤ ــ سمان . هنا تتوارى الاهرامات عن البصر . Summân
الخضره Chádra بعيدة عن الطـريق الى حد ما .
١٥ ــ قلتة . فرع النيــل . Qâlate
١٦ ــ ثلوانا . Taelvânae
١٧ ــ فيشــة النصــارى . Fischaet en nasâra
١٨ ــ سرس القتــه . Syrs el qâtte
١٩ ــ منوف العلا + ثلث المسافة . Menuf el âla
٢٠ ــ تتا وغمرين . Tette, Ghomrin
٢١ ــ واط . Uât
٢٢ ــ المنيــة الواط . Miniet el uât
٢٣ ــ سلمون عشـمة . Saelamûn âschme
٢٤ ــ دمشة . ش . ش غ . أبو كلس . Abu Kûllus Dimschae
٢٥ ــ بشــادى . Baeschâdae
٢٦ ــ عمروس : على النيل Amrus كومازن Kommâsaen
٢٧ ــ طنوب : على النيــل . Tenûb
٢٨ ــ الزعيره : يمتد الطريق من هنا تجاه الشمال Zaâjara
على مسافة من النيل . فرع رشيد
٢٩ ــ النجيله + : على النيل . ش . منتصف Nedjilae
المسافة بين القاهرة والاسكندرية . مليحة Meliha
٣٠ ــ كفر بريم . ش غ . الى غ . Kafr Berim
بلاقــوش : Belakosj بعيدة عن الطريق الى حد ما .
٣١ ــ بريم : ش . ش . غ . Berim
٣٢ ــ نقيدة : ش . الى غ . Noqaejde
٣٣ ــ صفت العنب : ش الى غ . Saft el énab
٣٤ ــ لبراج حمام : ش : ش غ . Brâgh hamâm
٣٥ ــ رمسيس : ش . غ الى ش . Ramsis
دقدوقة : بعيــدة نوعـا ما عن الطريــق . Daqdûqa
النقراش Neckrâsj ش الى غ .

٣٦ ــ النييبره Nubaejri : ش الى غ . Nubaejri

٣٧ ــ صفته ابو زينه ش الى غ . Sáft ábuzaejne

بهاى : Baehaj بعيدة نوعا ما عن الطريق .

٣٨ ــ دنشان : ش غ الى ش Dinschân

عوجه Avaye بعيدة نوعا ما عن الطريق .

٣٩ ــ تسونس ش غ الى ش . Tsunis

٤٠ ــ دمنهور البحيرى ش . ش غ . هنا ثلث Damanhur el baehaejre

الطريق من القاهرة الى الاسكندرية فى تقديرهم

٤١ ــ القروى ش غ . الى غ ½ غ . Qáravi

٤٢ ــ بركة غطاس ش غ . الى غ . Birket ghatâs

٤٣ ــ كريون ش غ . الى غ . Kariûn

نشو Naeschu : بعيدة نوعاما عن الطريق .

٤٤ ــ عكريشة العجوز . غ الى ش ½ ش . Akrischaet el aguz

٤٥ ــ كفر سليم . تقع ابو قير بالقياس الى هنا Kafr Slim

ناحية ش ½ غ . بيضة Beida : قرية متهدمة .

سكندريه Alexandrien .

من الاسكندرية الى رشيد

سبخة عراما : بحيرة صغيرة . Saebachat arama

ابو قير : قلعة . Abuqir

سد . Saedd

المعدية : بحيرة . Madie

الزاويه : قرية عند الشيخ حصر . Scheeh Hasar Zaziae

ادكوى . Otkui

العلامات : ١١ علامة مبينة على هيئة العمدان على الطريق Alamât

رشيد . Rosette

من رشيد الى القاهرة

١ – شيخ أبو منصور + Schech Abu mandûr

٢ – سلميه Salmiae

٣ – محلة الأمير . Mehállet el emir

٤ – ديبى + Dibae

٥ – تفينة + . فرع رشيد . Tfaejni

٦ – امطوبس + Mtûbis

٧ – شمشيره . Schimschaejre

٨ – سنديون : Saendiûn

نصف المسافة بين رشيد والمحلة الكبيرة Mehallet el kbîre

٩ – فوة . Fûa

١٠ – محلة العلوى : بعيدة نوعا ما عن النيل . Mehallet el alâvi

١١ – محلة مالك + . Mehallet Málek

١٢ – سلميه : على النيل . Saelmiae

١٣ – شرفا أو محلة مالك Mehallet máleg على النيل . Schérafae

١٤ – سيدى ابراهيم الدسوقى . Sîd Ibrahim eddasûqi

١٥ – دجامون + Gimeimûn أو Degamûn

١٦ – محلة أبو على الغربيه على النيل . Mehallet abuali el gharbiae

١٧ – جمينته . من هنا طريق مائلة خلال الدلتا . Gemeinte

١٨ – شباس الشهده : ق . ج ق بعيدة الى حد ما عن الطريق . Schabâse Schöhadae

١٩ – شباس الأمير ق . ج ق بعيدة الى حد ما عن الطريق . Schabâsaet el emir

٢٠ – طويلة ق . ش ق : بعيدة الى حد ما عن الطريق . شيخ حارس البدوى . Tauîle / Schech Hâras el bedui

٢١ – روينة Roêne

النطاح Ennatâh ق الى ج بعيدة الى حد ما عن الطريق .

Sarha ٢٢ ــ سخا ق . ج ق . هنا منتصف الطريق بين
محلة أبو على Mehallet abuali والمحلة
الكبيرة Mehallet el kbire
Mesir ٢٣ ــ مسير ج ق ½ ش : بعيدة عن الطريق
نوعا ما .
Nimri ٢٤ ــ نمره ق الى ج : بعيدة الى حد ما عن الطريق
Maehtendiae ٢٥ ــ مهتنديه ج الى ق .
Syndeseis ٢٦ ــ سندسيس ق . ج ق .
Mehallet el kebire ٢٧ ــ محلة الكبيره ج الى ق .
Scherumbabel ٢٨ ــ شرنبابل ج الى غ .
Aggesiae ٢٩ ــ العجاريه ج الى ق .
Methasiae ٣٠ ــ متحاسى ج الى ق .
Schöbra ٣١ ــ شبره + ج . ج ق على الضفة الغربية
للنيل . سنباط + Sumbât .
Dahtûra ٣٢ ــ دهتورا . حانوت Hanût
Daemsîs ٣٣ ــ دمسيس على الضفة الشرقية للنيل .
Abu naebhân ٣٤ ــ ابو النبهان ج الى ق .
Aesjne ٣٥ ــ عشنه ج الى ق . على النيل .
Naeaemân ٣٦ ــ نعمان .
Kafr Naeaeman ٣٧ ــ كفر نعمان .
على النيل فى مواجهة سنباط Sumbât
Sarnage ٣٨ ــ سرنكه : على النيل فى مواجهة دهتوره Dahtora
Kafr Sárnag ٣٩ ــ كفر سرنكه بعيدة الى حد ما عن النيل .
Abu nága ٤٠ ــ أبو نغا : ج الى ق .
Dakadûs ٤١ ــ دقادوس : على النيل .
Met gúmir ٤٢ ــ مية غمر .
Ziftae ٤٣ ــ زفته : على الضفة الغربية للنيل .

30



31



32



34



33



35



36



37



38



لوحة رقم (١١)

٤٤ ـ أولاد عنان . بعدها تتجه الطريق ناحيـة ج . ج غ الى الدلتا . Auläd hanân

٤٥ ـ فرسيس ج . ج غ . Faersîs

٤٦ ـ مية الرخا ج . ج غ . Meterrácha

٤٧ ـ شرنبخون ج . ج غ . Schrumbuchûm

٤٨ ـ بقسه ج . ج غ . Bákse

٤٩ ـ مية بره : على النيل . بعدها يتجه الطريق مرة اخرى الى الدلتا . Métberae

٥٠ ـ مية الحوفين ج . ج غ . Met el hofîn

٥١ ـ دامله «Damálle» أو «Dahúlle» ج غ الى ج على النيل .

٥٢ ـ بره . Bêre

٥٣ ـ وروره : على النيل . Warura

٥٤ ـ كفر الجزار . Káfr Gessâr

٥٥ ـ بطـا . Báta

٥٦ ـ عرب ارمل . Arab erráml

٥٧ ـ مسيد الخضر + : على الضفـة الغربيـة للنيل . Mesíd el chádr

٥٨ ـ طحله : على الضفة الشرقية للنيل . Táhalae

٥٩ ـ كفر الرجـلات ج الى غ . من هنـا يرى الانسان الاهرامات ناحية الجنوب . Káfr regelât

٦٠ ـ امية ج الى غ : بعيدة عن الطريق نوعا ما . Aemmiae

٦١ ـ خراب ج الى غ . Charâb

٦٢ ـ اكهور الورد ج . الاهرامات ناحية ج غ . Aghûr eluard

٦٣ ـ قرنفيل ج . Koromfîl

٦٤ ـ سندابيس ج . الى ق . Saendebîs

٦٥ ـ كفر الحارت ج الى ق : بعيدة نوعا ما من الطـريق . Kafr el hâred

٦٦ ـ كفر الجديد ج الى ق . Kafr djedid

٦٧ ـ قليوب ج الى ق . الاهرامات ناحية ج غ . Kaljûb

القاهرة ج . ابو المنكه ، Abul Menagge جسر ، ق . ج ق .

٦٨ ـ اشبرة الكاسه . Schûbrat el makâse

٦٩ ـ مينه السيرج . Minlet essiri

٧٠ ـ مصر القاهرة Caire أو Masr el Kâhira

موقع بعض المدن القديمة فى مصر

يجد قارىء الكتب القديمة التى تصف مصر فيها أسماء طائفة من المدن تعرضت غالبيتها لتغيرات عظيمة حتى لا يكاد يكون من الممكن تحديد موقعها الآن ، وقد يميل الانسان لهذا الى الاعتقاد بأن البلد قد خلت من سكانها تماما • ثم ها نحن أولاء نسمع الآن عن دمياط والمنصورة والمحلة الكبيرة وزفتى وميت غمر ورشيد وفوه ومنوف وقليوب وغيرها ، وهى كلها مدن لم تعرف أسماؤها الا منذ بضع مئات من السنين ، ولم يسمع أحد بها قبل ألفى عام أو يزيد • وكما أن الاسكندرية زاحمت منف ، ثم زاحمت الفسطاط الاسكندرية ، وزاحمت القاهرة الفسطاط ، وطردت الواحدة الأخرى اذا صح هذا التعبير ، كذلك تعرضت بقية المدن المصرية القديمة الأخرى للموت ونشأت مكانها مدن جديدة عاد النسيان فطوى الكثير منها •

وانما يظهر لنا أن المدن المصرية قد تعرضت لتغيرات عظيمة أعظم مما تعرضت له المدن الأخرى فى البلاد الأخرى لأننا عرفنا أخبارا عن المدن المصرية ترجع الى أزمان بعيدة • ثم ان هذه المدن مرت عليها أوقات صعدت فيها الى أعلى ، وبلغت أسمى ذروة ثم اضمحلت وهوت •

وكان لهذا التطور أسبابه التى ترجع الى التكوين السياسى للبلاد أو الى اتحاد الناس وتضامنهم أو نشاطهم وجهودهم • حتى الدلتا نفسها تغيرت • فهيرودوت يذكر فى الكتاب الثانى ١٥ و ٥٤ أن بوسيريس (وهى على الأرجح أبوصير الحالية) تقع فى وسط الدلتا ، ومعنى هذا أن ذلك الجزء من مصر الذى كان يسمى فى العصور القديمة بالدلتا ، كان فيما مضى أوسع بكثير من الآن ، وأن ترعة مويس — هذه الترعة الكبيرة بين أتريب والقاهرة والتى تصب فى البحيرة — كانت فيما مضى الحد الشرقى لها • ولم يعد هناك من سبيل الى مقارنة العدد الحالى للمدن فى مصر بعدد تلك التى كانت فى العصور القديمة فيها • ولا ينبغى للانسان أن يدهش لذلك ، فقد عمل الفرس والاغريق والرومان والعرب وأخيرا الأتراك — وكلهم من الأمم الأجنبية التى حكمت مصر واحدة بعد الأخرى — عن طريق ولاتهم على تخريب مصر ، وسحبوا منها فى كل عام الأموال الكثيرة. وقطعوا على أهلها سبل الحياة ، حتى انتهى أمر البلاد حتما الى الانكماش شيئا فشيئا وقل ما بها من الناس والمدائن •

والأرجح أنه لن يكون فى مقدور أحد أن يحدد الآن مواقع غالبية المدن المصرية القديمة التى اشتهرت قبل ألفى عام بل وقبل أكثر من ألفى عام تحديدا دقيقا ، وان بات من الممكن أن يعثر الباحث عليها بين بعض العواصم فى الأقاليم والمراكز المختلفة اذا هو ركز اهتمامه على جميع السدود الكبيرة التى أقامها المصريون القدماء اتقاء لفيضان النيل ، وبخاصة السدود التى تحتوى على بقايا المدن القديمة حتى اذا كانت هذه البقايا أكواما وقطعا صغيرة من الجرانيت والمرمر والشقف وما اليه ، ذلك اننا لا نجد فى مصر السفلى سوى القليل من الآثار القديمة الرائعة • فقد

غطى التراب بمرور الأعوام غالبية هذه الآثار ، وقام الناس بالاستيلاء على المواد النافعة ، ما كان منها فوق سطح الأرض وما كان فى باطنها ، واستخدموها فى المبانى الجديدة ، ولا يزال المصريون الى يومنا هذا يحفرون فى المناطق التى تضم مثل هذه الآثار بحثا عن أحجار يستخدمونها فى بناء المساجد والبيوت فى المدن ، والأكواخ الرديئة فى القرى على حد سواء • ولا يزال المصريون الى يومنا هذا يبحثون عن الكنوز التى خلفها أجدادهم الأغنياء القدماء ، فهم يغربلون حتى التراب الذى يستخرجونه عند الحفر ليجدوا فيه الفضة والذهب والأحجار المقطعة • وسأبين فى مصر السفلى ، أى فى ذلك الجزء من مصر الذى رأيته ، المواضع المعروفة لى والتى ما زالت بها آثار واضحة للمدن القديمة ، وفى استطاعة القارىء أن يراها على خريطتى • أما تحديد أسمائها فمهمة أتركها للعلماء الذين يستطيعون قراءة ما كتبه المؤلفون القدامى عن مصر باللغة الأصلية لهؤلاء المؤلفين •

أول آثار يصادفها القادم الى مصر من هذه الناحية هى الآثار المتاخمة لمدينة الاسكندرية الجديدة والتى وصفتها من قبل (ملاحظات على الاسكندرية) • واسم هذه المدينة لا يدع للانسان مجالا للشك ، بل هو يكشف له يقينا عن وقت انشاء المدينة ومؤسسها ، وهو اسم ظلت محتفظة به حتى الآن • على أن هذه المدينة التى تعتبر بالقياس الى المدن الأوروبية والى المدن المصرية الحالية مدينة قديمة تلوح حديثة اذا ما قورنت بالمدن المصرية القديمة . ثم انها مدينة أنشأها رجل أجنبى . كذلك ذكرت من قبل مدينة كانوبوس[٢٣] Canopus وأشرت الى أن هنالك من يعتقدون

أنها تقع قرب قرية أبو مندور غير بعيد من رشيد ناحية الجنوب ، وقد وارتها الرمال الناعمة التى حملتها الرياح شـيئا فشيئا حتى غطتها الآن تماما . ويجد الانسان غير بعيد عنها آثار مدينة قديمة عند منتوبس (٢٤) Mentubes وأنا لم أر هذه الآثار بنفسى أثناء رحلتى العابرة ، ولكنى سمعت بأخبارها فى القاهرة . ولقد حكى لى السيد فورسكال أنه وجد فى أثناء رحلته البرية من القاهرة الى الاسكندرية على الناحية الغربية من النيل بين دمنهور وبريم قرب قرية يسمونها رمسيس(٢٥) Ramsis آثار مدينة قديمة . وتصافح العين الى الآن تلال ضخمة من الآثار عند صالحجر (٢٦) بالدلتا . واسم هذه القرية اسم عربى ، ولكن يبدو أن المدينـة القديمة التى كانت هنا فيما مضى مدينة شهيرة فى عصور المصريين القدماء .

ولقد رأيت فى بولاق تابوتا من الجرانيت عليه كتابات هيروغليفيـة كثيرة جلبوه من صالحجر(٢٦) ، ولما أكد لى الناس أن هناك الكثير من الآثار الرائعة ، قمت من القاهرة برحلة خاصة الى هناك ، ولكنى لم أعثر الا على ما ذكرته من قبل من رسوم مدينة عظيمة وبعض الأعمدة من طراز تلك التى صورها نوردن Norden وبوكوك Pococke فى مصر العليا والتى يستخدمها فقراء الأهالى فى القرية دعـامات لبيوتهم . واكتفيت برسم الحجر D على اللوحـة (الحادية عشرة) وهو حجر وجدته أمـام معصرة للزيوت . وتدل أشكال الكتابة الهيروغليفية التى ترى على هذا الحجر على أن الحجر من نحت المصريين القدماء ، وكانت هذه الأشكال ، شأنها شأن كل الكتابات التى رأيتها من هذا النوع على الأحجار ، غائرة ، الا الأشكال الوسطى فكانت بارزة . وفى أثناء هذه الرحلة رأيت عند قرية الكام Alkâm

تلالا كبيرة تعتبر من آثار مدينة قديمة ، ومنظرها من بعيد يوحى بأنهـا كانت على هذه الهيئة .

والجانب الشرقى من الدلتا الحالية لا يفتقر الا قليلا الى آثار المدن القديمـة والعظيمة ، ولقد ذكرت من قبل أن فى البحيرة فى الموضـع المسمى سيسوتانيس آثارا كثيرة وأن على الباحث عن موضع المدينـة القديمة تانيس أن يلتمسها هناك . وبين اسم المدينة الصغيرة أبو صير الواقعة على فرع دمياط واسم المدينة الشهيرة بوسيريس[٢٧] Busiris الكثير من الشبه،وعلى مقربة من هذه الناحية ببهبيت Bhabeit أو Baalbeit حيث رأى سيكارد Sicard وپوكوك Pococke الكثير من الآثار القديمة العظيمة ، ويقال ان عند ميت نابت Miet Nabid وكذلك عند قناطر ويش Kanâter u wisch وسمنود كثيرا من الآثار .

ان هذه المنطقة من الدلتا لتبدو عجيبة ، ولتستحق أن يذهب اليها أحد الرحالة ويقيم فيها بعض الوقت . ومن المعلوم أن المصريين كانوا فى زمن هيرودوت يحجـون اليها (*) . ولا يزال الأقبـاط الى يومنا هذا يزورون فى هذه المنطقة كل عام كنيسة قديمة فى جميانة Gemiâne ومن المؤكد أن فى امكان من يريد القيـام بالرحلة الى هنا أن يسير مع هؤلاء الحجاج . وهم ينزلون الى الأرض عند سمنود [٢٨] وهى مدينـة صغيرة حاليـا يبدو أنهـا تحتل المكان الذى كانت مدينـة سيبينيتوس تحتلـه فيما مضى من الزمـان . ومن الجنـوب عند قرية أتريب تقـوم تلال كبيرة لعلها أطلال مدينة أثريبيس Athribis . ولما كان أهالى

(*) هيرودوت ، الكتاب الثانى ٥٥ و ٥٦ .

هذه القرية فيما يدعى الناس من قطاع الطريق فقد تعبت تعبا شـديدا في اقناع ملاح السفينة بأن يرسو بى هناك ، حتى اذا نجحت فى اقناعه ، ونزلت هناك لم أجد ما يوازى الجهد الذى بذلته ، فقد استولى النـاس منذ أزمان بعيدة على كل الأحجار النافعة ولم يتركوا سوى تلال كبيرة قوامها قطع صغيرة من المرمر والجرانيت . ووجدت أن صـاحب هـذه الناحية ــ وهو أحد أصدقائى القاهريين ــ لا يكف عن التنقيب فى أطلال هذه المدينة حتى انه يكلف الناس بغربلة الأتربة المتراكمة بحثا عن الأحجار والخواتم وما اليها . ولقد أهدانى جعرانا جميلا كان قد تلقاه مؤخرا ، تتضمن (اللوحة الحادية عشرة) تحت رقم C رسما له بالحجم الطبيعى ، والكتابة المنقوشة على ظهره غير واضحة ويبدو أنها حفرت بمنقش من نوع المناقيش التى يستخدمها حفار النحاس فى أيامنا هـذه . ورأيت فيما بعد جعرانا مشابها ــ وان لم يكن فى جمال جعرانى ــ عند السيد ريجو Rigo فى البصرة وعلى ظهره كتابة تتضمنها (اللوحة الحادية عشر) تحت رقم B أما الكتابة التى نقلناها تحت رقم A فى اللوحة ذاتها فقد وجدتها على شقفة مكسوه بطبقة صقيلة ، لعلها نصف غطاء اناء ، ويبدو أن الأشكال قد أثبتت فى الطين الطرى بطريقة البصم التى يتبعها مجلد الكتب فى طبع عناوين الكتب فى الجلد ، ولهذا يحق للانسـان أن يفترض أن المصريين القدماء قد عرفوا المناقيش وعرفوا نوعا من المطبعة .

أما موقع مدينة هليوبوليس فقد وصفه الجغرافيون القدماء المحدثون وصفا دقيقا لا يدع مجالا للشك(*) . ويرى الزائر أطلالها قرب قرية المطرية

(*) انظر Geogr. Nub. p. 97, 98, Index geogr. in Vitam Saladini.

على بعد نحو ساعتين الى الشمال الشرقى من القاهرة أو ثلاث ساعات من الفسطاط ومصر العتيقة • ولم يبق من المدينة سوى بعض السدود الكبيرة والأكوام التى تمتلىء بقطع صغيرة كثيرة من المرمر والجرانيت وشقف الفخار وبقايا تمثال على هيئة أبى الهول ومسلة لاتزال قائمة الى يومنا هذا ربما لأن نقلها صعب على الأهالى • والمسلة المذكورة مصنوعة من الجرانيت من صخرة واحدة ، وعلى صفحاتها الأربع نقوش هيروغليفية. وزوايا المسلة تتجه الى الجنوب / الجنوب الشرقى ــ الشمال / الشمال الغربى ــ الشرق / الجنوب الشرقى ــ الغرب / الجنوب الغربى • وقمت بمقارنة الصورة التى أوردها نوردن Norden للرسوم الهيروغليفية التى على الصفحة الجنوبية بالنقوش التى على المسلة ذاتها كما رأيتها ووجدتها جيدة جدا • أما الجوانب الأخرى من المسلة فكان الماء فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٧٦١ يحاصرها فلم أستطع أن أقترب من المسلة اقترابا كافيا يتيح لى رؤية النقوش بوضوح • وقست ارتفاع المسلة بأن أخذت المستقيم a.b. فى الشكل C (اللوحة الخامسة) بطول ٨٤ قدما و ٩ بوصات ، والمستقيم b.d. بطول ٥ أقدام و٧ بوصات ، وكان المستقيم الممثل للقاعدة a.c. فى مجموعة ٨٨ قدما و ٨ بوصات وكانت الزاوية e.f.g ٣٠° ٥َ ، ومعنى هذا أن ارتفاع المسلة على أفقى الآلة ٥١ قدما و ٤ بوصات وكان المستقيم g.b. ٦ أقدام و ٩ بوصات ، وبهذا فان ارتفاع المسلة e.c. عن سطح الأرض يساوى ٥٨ قدما وبوصة واحدة •

كانت المسلة ، هذه القطعة الأثرية الجميلة ، تقوم فى المعبد القديم المكرس للشمس ، فى منطقة منخفضة انخفاضا كبيرا بحيث اذا بلغ فيضان النيل أقصاه ارتفعت المياه عند المسلة كما وجدتها ٥ أقدام و ٨ بوصات .

أما المعبد (وكذلك جزء من المدينة) فكان فيما مضى محاطا بتلال عالية صناعية تحميه من فيضان النيل ، شهد الأقدمون بأن بيوتا كانت مقامة فوقها (*) . ولقد بذل الدكتور شو Dr. Shaw في الطبعة الجديدة من رحلاته ص ٤٠٣ و ٤٠٤ جهدا كبيرا وكشف عن معرفة علمية رصينة حيث برهن على أن المناطق التى توالى عليها الفيضان فى مصر قد ارتفعت منذ عصر هيرودوت ارتفاعاً كبيراً يكاد الانسان ألا يصدقه . وربما كانت أرضية معبد الشمس فيما مضى على ارتفاع لا يزيد كثيرا عن ارتفاع الأرض خارج السدود . ولو أن واحدا نقب عند المسلة وكشف ارتفاع الأرض فوق أساسها ، لكان فى ذلك فائدة توازى الجهد الذى سيبذله . على أن عامة المصريين لا يحبون أن نقوم نحن الأوروبيين بالحفر والتنقيب حيث تكون الآثار لأنهم يظنون أننا نبحث عن كنوز ، ولكنهم لن يمنعونا من البحث والتنقيب اذا نحن أبلغنا السبب الحقيقى الذى يدفعنا الى اجراء بحوثنا الى شيخ الناحية مقدما وكلفنا فلاحيه بالعمل . ولقد تنبه فلاحو المطرية الى كل التنبه عندما قمت بقياس ارتفاع المسلة ، ووقفوا على بعد كبير ، لأنهم ظنوا أننى سأنسف هذا الحجر الهائل بقوة من فنون عندى لا علم لهم بها ، واستخرج الكنوز التى تحتها ، والتى قر رأيهم مقدما على ألا يتركوها لى . فلما تكشف لهم زيف وهمهم لم يوجهوا الى كلمة نابية . والمؤلفون العرب يسمون هليوبوليس عين شمس ، ويبدو أنهم يضيفون اليها أيضا اسم مصر .

(*) Strabonis Geogr. libr. XVII. p. 932. Solis urbs est aggeri magno imposita.

ويرى الانسان ناحية الشمال الشرقى على بعد حوالى ميلين ألمانيين من هليوبوليس تلالا كبيرة من أطلال مدينة قديمة يسميها العرب الآن تل اليهود أو تربة اليهود • وليس هناك على الأرجح جـدال فى أن أرض جاسان كانت فى هذه المنقطة من مصر ، وربما كان المعبد المشهور لليهود الذى أنشأه أونياس فى هذه المدينة وليس فى هليوبوليس كما يسـود الاعتقاد عامة • ويجد الباحث هنا بعض الآثار اليهودية لا تزال باقية ، وأنا لم أر هذه التلال الا بعـد أن خرجت من القاهرة وابتعـدت عنها بنحو ساعتين ، وقال لى القائلون ان هناك على مقربة من هذه التـلال قريتين هما شبين ومنية دماطة •

ولقد سمع السيد فورسكال من عرب قايتباى Kaidbey — وهى قرية قريبة من القاهرة — أسماء أخرى مختلفة لأماكن فى هـذه المنطقة من مصر معروفة الى يومنا هذا بأن اليهود كانوا قد سكنوها • ولما كنت أعتقد أن بين هذه الأماكن ما يستحق أن يزوره الأوروبيون فقد قررت أن أنشر هنا الأخبار التى جمعها عنها •

١ — لبلاب Liblab • عين سـيدنا موسى على بعد ساعتين ونصف من قايتباى ، ويقولون ان عينا من المياه العذبة كانت هنا فيما مضى •

٢ — مرقب سيدنا موسى فوق جبل على بعـد ساعة ونصف ساعة من لبلاب من ناحية مصر القديمة ومصر العتيقة •

٣ — طرطور اليهودية أى tiara judaicae feminae وهو على بعد أربع ساعات أو — فيما قال آخر — ست ساعات من قايتبـاى ، وهناك بعض آثار قلعة قديمة •

٤ ـ فسقية أبو طاقية على بعد ساعتين ناحية الشمال الشرقى من قايتباى ، وهناك آبار للمياه العذبة • والأرض والجبال حولها محمرة اللون ، وليس هناك غير ذلك شيء عجيب •

٥ ـ تنورفرعون أو جبل فرعون اسم جبل على بعد ساعة الى الشرق من قايتباى •

٦ ـ قبور اليهود Qabûr l'jehûd على بعد ست ساعات من قايتباى • كانت هناك فيما مضى مدينة كبيرة لليهود • (ولعل هذه هى نفسها الأطلال التى ذكرت من قبل باسم تربة اليهود) •

٧ ـ قلعة راى ، سبع الى ثمانى ساعات من قايتباى ، ويجد الانسان هنا آثار قلعة قديمة يظن البعض أنها كانت قائمة على عهد موسى • »

كذلك سجل السيد فورسكال أنه سمع من هؤلاء العرب أن بنى اسرائيل عبروا البحر الأحمر جنوبى السويس عند عين سيدنا موسى •

ومن الغريب أن الناس فى العصر الحديث يشكون فى موقع مدينة ممفيس الشهيرة ، وكان أهل عصور أبى الفدا والشريف الادريسى قد رأوا من آثارها الشيء الكثير ، والرأى عندى أن هؤلاء المؤلفين العرب حددوا مكان ممفيس بدقة ، وأنهم ليسوا وحدهم فى هذا بل أن بعض المؤلفين الأوروبيين المحدثين يذهبون مذهبهم • ويبدو أن الأخبار التى تواترت عن هذه المدينة لم تلق فى كل الأحوال الفهم الصحيح من المؤلفين لأنهم لم يستحضروا فى أذهانهم أن العرب أسموا عاصمتهم فى مصر « مصر » وأنهم أسموا العاصمة السابقة للبلاد مصر العتيقة أى مصر

القديمة ، ولهذا فان هليوبوليس وممفيس والفسطاط والقاهرة تحمل فى عرفهم اسم مصر ، كذلك تحمل القاهرة الآن اسم مصر بصفة عامة ، بينما يطلقون على الفسطاط اسم مصر العتيقة • وكانت ممفيس تقع على الشاطىء الغربى للنيل ؛ وعلى ما يذكر أبو الفدا ، على بعد رحلة صغيرة تستمر يوما من مصر ، وعلى ما يذكر الشريف الأدريسى ، الى الجنوب من مصر أى من الفسطاط وكانت العاصمة السابقة لمصر •

وقد ذكر بنيامين التوديلى فى كتابه Benjamin von Tudela أن ممفيس تبعد عن الفسطاط ساعتين • أما السيد مايبه Maillet فقد رأى فى عام ١٦٩٧ أطلالها فى المنطقة التى يبحثون فيها عن المومیات • وهو يشير خاصة الى پلينيوس Plinius الذى يقول بصريح العبارة ان الأهرامات تقع بين ممفيس والدلتا ، ويذهب الى أن الباحث عن موقع ممفيس عليه أن يلتمسه الى الجنوب من الأهرامات أى غير بعيد من الجيزة . وأما بوكوك Pococke فقد رأى فى تلك المنطقة آثار مدينة قديمة ظن أنها ممفيس ، الى آخر ذلك (*) • وأنا لم أتوغل فى مصر ناحية

(*)

Abulfedae Tab. 2. Est Memphis Misra antiqua, injuncta lateri occidentali Nili. Eam expugnatam evástavit Amrou ibn Elasi, atque Phustatam condidit ab altero latere orientali, mandatu Omari ibn Elchettabi Chalifae. Exstant Memphitica in urbe vestigia ingentia, oblitterata tamen, saxorum exsculptorum figurisque variegatarum : super quibus oleum viride, aliaque reliqua, ad hunc usque diem; a sole aliisque injuriis aeris nihil immutata longinquo isto intervallo. Minf abest a Misra (Fostat) brevem diaetam. v. Schultens Jud. geogr. in vitam Saladini.

ويقول الشريف الادريسى فى كتابه جغرافية النوبى ص ٩٨ :

Ex parte meridionali Fostat jacet oppidum Menf, & ad plagam ejus septentrionalem urbs Ainsjemes dicta: sunt autem ambae quasi rurs,.

الجنوب الى أبعد من الأهرامات الأولى ، ولم أر بالتالى آثار مدينة كبيرة . ولكنى سمعت أن الذاهب الى منطقة سقارة يلقى بعض آثار ممفيس ، ورأيت قرب القاهرة أحجارا كثيرة أتى بها الناس من تلك المنطقة المذكورة لتستخدم فى العاصمة الحالية لبناء بيوت جديدة ومساجد.ولهذا لا يمكننى أن أوافق على رأى السيد الدكتور شو D. Shaw الذى يذهب الى أن ممفيس كانت تقوم فى الموضع الذى تقوم فيه اليوم الجيزة ، على الرغم من اعتراضه الشديد على بوكوك والمؤلفين الآخرين الذين يختلفون معه فى الرأى على هذا الموضوع .

ومن الخير أن أستعرض فيما يلى بايجـاز بعض الاستشهادات التى استقاها هذا العالم من كتب بعض المؤلفين الآخرين ــ ص ٢٩٦ وما بعدها وأوردها فى طبعـة كتابه Travels or observations (رحـلات

= fitae in parte quae respcit montem mocattam.

وفى رحلة بنيامين التوديلى

Itinerarium Benjamini Tudelensis p. 104.

a Misraim nova (Fostat) antiqua Misraim (Memphis) duabus leucis distat, verum tota vastata desertaque est : retinet tamen murorum atque domorum vestigia multa; visendaque praebet thesaurorum & horreorum Joseph monumenta non pauca.

وجاء فى كتاب مايبه المسمى « وصف مصر » :

Description de l'Egypte par Maillet Tom II. p. 6, 18. 19.

« والراى الأرجح هو أن هذه المدينة العظيمة قد انشئت عند مدخل هذا الوادى الرملى الكبير الذى يسمونه اليوم وادى المومياء والذى تقوم الاهرامات على الجانب الشمالى منه . ولسوف تظل الآثار العظيمة التى يراها الانسان فى هذا المكان زمنا طويلا شـواهد على عظمة المدينة التى تبقت بعد زوالها ، وبراهين ساطعة على مكانها الحقيقى .

وجاء فى كتاب ريتشارد بوكوك Richard Pococke الذى يحمل عنوان وصف الشرق Description of the east ص ٤٠ : وانا ارجح ان هذه المدينة كانت عند امخنـــان وميت رهينة على الطريق من القاهرة الى الفيوم على الضفة الغربية للنيل ، فى موضع اقرب الى هرم سقارة منه الى اهرام الجيزة .





















لوحة رقم (١٢)

أو ملاحظات) التى أصدرها فى لندن عام ١٧٥٧ ــ والتى أرى أنها لاتثبت ما قصد المؤلف الى اثباته بها . فالدكتور شو يستند فى صفحة ٢٩٦ ، تأييداً لرأيه ، على ديودور الصقلى Diodorus Siculus الذى يقول ان ممفيس كانت تقع فى الموضع الذى يبدأ فيه النيل فى التفرع الى فروع مختلفة . وأنا اذا اتبعت هذا الكلام لن أجعل من الجيزة موقعا لهـذه المدينة ، بل سأبحث عن موضع يبعد عنها كثيرا ناحية الجنوب ، ذلك لأن النيل لا يتفرع عند المكان الذى يرى فيها الانسان الطرف الجنوبى للدلتا ، بل عند مكان أبعد منه يقع بين الجيزة والأهرامات . والدكتور شو يقول فى صفحة ٢٩٧ ان الدلتا لها حدود ثابتة مستمرة كانت دائما تبعد بنفس القدر عن ممفيس ، وهذا كلام ما كنت لأقوله . فالموضع الحالى للطرف الأقصى من الدلتا عند بطن البقرة أى عند قرية دروة . الا أن الدلتا ربما كانت فى الماضى ممتدة الى الجنوب . وليس فرع النيل الذى رسمته على الخريطة من أم دينار الى الوراريق ترعة محتفرة ، بل هو فرع واسع وعميق اذا ارتفع مستوى المياه فيه أثناء الفيضان استطاعت السفن الجارية بين بولاق ورشيد أن تمر به . ولهذا فمن المحتمل أن يكون طرف الدلتا فى الماضى عند الوراريق أو فى مكان غيره . ولما كان هذا الرأى محض افتراض ، فقد فحصت الأرصاد الفلكيـة التى أوردها بطليموس والتى اعتمد عليها السيد الدكتور فى تأكيد رأيه . يذكر بطليموس أن الارتفاع القطبى لمفيس هو ٥٠َ ٢٩° وأن الارتفاع القطبى للدلتا هو ٣٠° . واذا كان الارتفاع القطبى للجيزة هو ٣٠° ، وكان بعد ممفيس الى الجنـوب ٢ ١/٢ ميلا ألمانيا ، فليس من الممكن أن يكون موقع ممفيس هو الجيزة .

ويحاول المؤلف (صفحة ٢٩٨) أن يبرهن على رأيه فى موضوع موقع

مدينة ممفيس اعتمادا على بعد هذه المدينة عن الأهرامات • ولكن حتى اذا كانت الجيزة تبعد عن الأهرامـات قدر البعد الذى يذكـر المؤلفون القدامى أنه كان بين ممفيس والأهرامات ، فان ممفيس يمكن أن تكون فى موقع أكثر انحرافا الى الجنوب على نفس البعد من الأهرامات • ولما كان سترابون Strabo يذكر أن الواقف فى بابليون يرى الأهرامات ، ولما كانت ممفيس تقع فى الناحية الأخرى المواجهـة لهذه المدينة ، فان الدكتور شـو يريد أن يستنتج من هذا (فى صفحـة ٢٩٩) أن ممفيس كانت قديما فى الموقع الذى تتخذه الجيزة حاليا • والحق ان الواقف فى قلعة القاهرة أو فى بابليون القديمة ، يرى الأهرامـات • ولكن المؤلفين الذين أشرنا اليهم آنفا والذين رأوا بأعينهم آثار ممفيس ، يقررون أن هذه المدينة تقع الى الجنوب على بعد بضع ساعات من الفسطاط ، أى من بابليون ، ولهذا لا يمكن الذهاب الى أن موقع ممفيس كان ينحرف الى الغرب ويتاخم بابليون • وربما أراد سـترابون أن يقول ان ممفيس تقع مواجهة لبابليون ولكن على خط مائل •

ثم يستشهد الدكتور شـو بهيرودوت الذى يذهب الى أن ممفيس تقع فى أضيق مكان من مصر • وبنـاء على هذا فاننى أميـل الى التماس موقع هذه المدينة جنوب المنطقة التى يقف الدكتور شو عندها ، على الرغم من أنه يقول ان الجيزة تقع بكل تأكيد فى أضيق مكان فى مصر • ولقد رأيت هذا المكان فى سهل منبسط ، ورأيت ـ الا أن أكون قد أخطأت خطأ شديدا ـ أن التلال التى تقوم الأهرامات فوقها والتى تعتبر أضيق موضع فى مصر تقع ناحيـة الجنوب • ولهذا كان من الممكن أن يكون موقع الأهرامات بالقرب من ممفيس وأن تكون الأهرامات مسماة بالنسبة

اليها ، على الرغم من أن المدينة كانت فى المنطقة التى ظن بعض الرحالة الآخرين أنهم رأوا فيها آثار ممفيس .

والخلاصة أن الانسان يستطيع أن يعتمد على كل المؤلفين الذين أوردهم الدكتور شو ليثبت على نحو أفضل أن ممفيس كانت تقع بين الأهرامات وسقارة فى الموضع الذى تقوم فيه الجيزة حاليا . وأنا أدهش لأن هذا العالم الكبير لم يجد على الأقل فى كتاب « جغرافية النوبى » وفى رحلة بنيامين ــ الكتابين اللذين يذكرهما فى صفحة ٣٠٦ للاستدلال على موقع هليوبوليس ــ وصفا لموقع مدينة ممفيس ، ولم يقارن كلامهما بالرأى الذى ذهب اليه .

والظاهر ان الآراء المختلفة لشو وپوكوك حول موقع ممفيس قد أثارت بين العلماء الانجليز الكثير من الجدل ، يدلنا على ذلك ما كتبه مؤلفو كتاب التاريخ العام للعالم فى الأزمان الحديثة ، فى الجزء الأول فقرة ٣٢٨ : « كانت مدينة ممفيس تقوم فى نفس المكان الذى تحتله حاليا قرية الجيزة . نعرف هذا مما كتبه الدكتور شو الذى نرى أن ملاحظاته على جغرافية مصر وبلاد العرب أحرى بالقراءة من ملاحظات الآخرين ، والتى تفضل من ناحية تحرى الحقيقة أو على الأقل البداهة ومن ناحية التبحر العلمى والدقة والحكم الناضج كل ما جاء فى كتب الرحلات الحديثة ... والخلاصة أن كتابه سيظل ثابتا كالطود عندما تنتهى هجمات الحقد والشر التى وجهت اليه ، وعندما يطوى النسيان بعض الكتب التى صنعت تقليدا أو تلخيصا له أو عندما يصيبها على الأقل الاحتقار الذى تستحقه . » ــ ولما لم أكن أعلم السبب الذى ثار من

أجله العلماء الانجليز وجعلهم يصدرون حكما متعسفا كهذا على جميع الرحالة ، ويجعلون من الدكتور شو ـ الذى لا ينكر أحد دون حاجة الى هذا أفضاله العظيمة ـ زعيما لهم أو نحو ذلك ، فاننى لا أستطيع أن أناقش الحكم المشار اليه من قبل . وانما أحب أن أسجل هنا أنه من غير الممكن أن يجد الانسان وصفا لرحلة يخلو من كل الأخطاء ، ورحالة يتجرد من كل الأحكام السبقية ، وان الانسان يسلك أقرب الطرق الى العقل ، اذا امتنع عن الدفاع فى عناد عن رأيه الخاص . عند ذاك يأتيه العدل يقينا . وربما استطاع الانسان أن يحصل من اليهود والأقباط فى مصر على أخبار كثيرة عن موقع المدن القديمة فى بلادهم ، ولكن القليلين من الأوروبيين هم الذين يرضون بالتنزل الى حيث يسعون الى صداقة هؤلاء الناس ويستأنفون السعى ـ اذا لم يجبهم أول من يتجهون اليه عن أسئلتهم اجابة كاملة ـ لدى الكثيرين ، ويستخرجون من بين الأخبار التى يغلب عليها الخرافة ، ما يجدون فيه النفع أكثر النفع . وأنا نفسى لم ألجأ الى هذه الوسيلة ، ولكننى أوصى رحالة المستقبل بها .

وصف مدن

القاهرة وبولاق ومصر العتيقة والجيزة

تغيرت منطقة القاهرة فى فترة الـ ١١٠٠ سنة الأخيرة — وهى الفترة التى كان فيها المسلمون سادة مصر أزالوا بعض المدائن أو أهملوها وبنوا مكانها مدنا جديدة كل الجدة — تغيرا كبيرا ، وقد غزوا بعد نزولهم البلاد بقليل وعلى أثر خيانة المقوقس مدينة اسمها مصر (٢٩) • ويبدو ان هناك الى الآن خلافا على موضع هذه المدينة ، ومؤلفو كتاب « التاريخ العام للعالم » على الأقل يظنون ان هذه المدينة هى مدينة ممفيس المشهورة • وتشير روايات المؤرخين الشرقيين الى أن المقوقس لاذ بجزيرة فى النيل ومعه فريق كبير من حاميته • أما الاغريق (؟) الذين كانوا معه فقد سلكوا سبيلهم الى الشاطىء المقابل ومن هناك الى الاسكندرية(*) • ومعنى هذا أن مدينة مصر كانت تقع على الشاطىء الشرقى للنيل • أما ممفيس فكانت هى والاسكندرية تقع على الشاطىء الغربى للنهر ، ولو صحت الرواية ، فما كان بالاغريق حاجة الى اجتياز النهر اذا هم أرادوا أن يذهبوا من هذه المدينة الى الاسكندرية • وربما

* انظر التاريخ العام للعالم Allgemeine Welthistorie der neuern Zeiten I. Theil § 328, 329. Eutychii annales Tom. II.

كانت مدينة مصر هذه هى بابليون التى يتحدث عنها المؤلفون الاغريق ، وكانت تقع بدون شك الى الجنوب من القاهرة بين جبل المقطم والنيل • والمتطلع الى هذه المنطقة يجد فيها أشياء من بينها آثار مدينة بالية ، وبعض الكنائس القديمة التى يحوطها الأقباط بالتقدير — أما اليهود الذين كانوا فى مصر فى كل زمان بأعداد غفيرة(*) فلا تزال لهم مقابر فى هذه المنطقة على الرغم من أن الطريق من القاهرة الى هناك طويلة طولا لا مراء فيه ، مفتقرة فى كثير من الأحيان الى الأمان •

وكانت المدينة الأولى التى ابتناها المسلمون فى مصر هى تلك التى أسموها الفسطاط • والباحث فى كتب المؤلفين العرب يجد بعض الأخبار حول أصل هذه المدينة (**) ، منها أن عمرو قائد قوات الخليفة عمر ، عندما جاء الى مصر وفتح هذا الجزء منها ، وهم بالسير بجيوشه نحو الاسكندرية ، ترك — على ما يقولون — خيمة فى هذا المكان حتى لا يزعج حمامة عششت فوقها ، وكان المألوف عند العرب أن يعتبروا ذلك فألا حسنا ، وكان هذا هو الذى دفعهم الى انشاء مدينة فى هذا الموضع • ولكن العرب كانت لهم أسباب أخرى للاستقرار فى تلك الناحية بالذات ، فقد رأى المسلمون القليلون الذين أتوا الى مصر آنذاك أنه ليس من الحكمة فى شىء أن يعيشوا بين الأهالى المسيحيين فى المدينة القائمة ، وكان أن ابتنوا خارج المدينة مدينة لهم فى المكان الذى عسكروا فيه ، دفعهم الى ذلك دافع الأمن على ما نرجح وربما كانت هناك دوافع أخرى •

(*) انظر رحلة بنيامين التوديلى Jtinerarium Benjamini Tudelensis p. 101.

(**) انظر جغرافية النوبى Geographia Nubiensis P. III. Cl. 3.

واستقر العرب الآخرون الذين كانوا فى تلك الأثناء يجربون حظهم فى مصر ، وكذلك المسيحيون الذين تحـولوا الى الاسلام فى الموضـع الجـديد ، ويمكننا أن نعتبر هذا أصـل مدينة الفسطاط . واذا كان الاغريق والرومان قد جعلوا من الاسكندرية عاصمة للبلاد لأنها كانت أقرب المدن اليهم ، فربما كان اختيار العرب لمنطقة الفسطاط راجعا الى سبب مشابه ، لأن منطقـة الفسطاط كانت بالقياس الى القـوات التى أرسلت الى مصر هى أقرب المنـاطق . هذا الى أن هذه المنطقة كانت تمتاز بأن والى مصر كان يستطيع أن يرسـل منها عند الضرورة الى كل الأقاليم بغاية السرعة ما يحتاج الى ارساله من قوات ، لأنه كان ، اذ يقيم فيها ، يقيم فى وسط البلاد تقريبا .

فلما أصبحت الفسطاط عاصمة مصر تسمت أيضـا باسم مصر . ولكنها لم تحتفظ بهذا الشرف طويلا ، فسرعان ما تهدمت شيئا فشيئا ، وقامت مدينة القاهرة وارتفع شـأنها ، فلما أصبحت مدينة القاهرة فى نهاية المطاف عاصمة البلاد كلها ، تسمت هى أيضا باسم مصر ، وأصبحت الفسـطاط التى كانت فيما مضى تتسمى باسم مصر تتسمى الآن باسم « مصر العتيقة » أى مصر القديمة . وظل المصريون على الرغم من هذا يحتفظون بالأسماء القديمة على الدوام ، فهم يطلقون على مدينـة مصر الحالية بصفة عامة اسم القاهرة ، ويطلقون على الشـارع الطويل المطل على النيل ــ والذى يعتبر جزءا من مصر العتيقـة ــ اسم الفسطاط . الا أن الأوروبيين حرفوا اسم الفسـطاط واعتادوا على أن يطلقوا على الفسطاط أو مصر العتيقة اسم القاهرة القديمة Alt Kâhira

على الرغم من أن أهل البلاد لم يطلقوا عليها مطلقا اسم القاهرة •

ومدينة القاهرة ــ كما هو معروف ــ مدينة أسسها فى عام ٣٥٨ أو ٣٥٩ بعد الهجرة جوهر (Dsjohar) أو Jaur قائد جيوش الخليفة الفاطمى المعز(*) ، وكانت هــذه المدينة الجــديدة تعتبر ــ ربما حتى عام ٥٧٢ عندما أنشأ فيها صــلاح الدين الكثير من المساجد البديعــة والمدارس والمستشفيات وأحاطها بسور ــ بمثابة ضاحيــة للفسطاط ، يدلنــا عــلى ذلك أن الشريف الادريسى(٣٠) الذى ألف كتــابه فى وقت لا يسبق هذا التاريخ كثيرا لم يذكر القــاهرة على الاطلاق ، بل ذكر مدينة الفسطاط التى كانوا يســمونها آنذاك مصر • ولا يزال السائر فى ربوع القاهرة يرى فيها الى الآن بقايا سورين للمدينة ، بقايا الســور الداخلى ــ وهو الأمتن بناء ــ بين باب الفتوح وباب النصر وباب غريب وباب المحروق وباب زويلة ، وبقايا السور الخارجى ــ وهى بقايا كثيرة قائمة الى الآن ــ بين باب الحديد وباب الشعرية ، وبين باب المحروق والقلعة وكذلك عند باب القرافة • ولا أستطيع عن يقين أن أحــدد أى هذين السورين هو الذى ابتناه صلاح الدين ، نظرا لأننى لم أتنسخ فى هذه المدينة شيئا من النقوش العربية وهى كثيرة تكاد أن تكون على كل المنشآت العامة • ولكننى أحتمل أن يكون سور صلاح الدين هو السور الداخلى • وكان هذا السور يعتبر فى الوقت الذى زار فيه مصر اثنان من الرحالة الموثوقين ــ هما يوهــان ليو Johann Leo والأمير رادتسقيل

---

* انظر Abulfedae descriptio Diar Masr أبو الفدا : وصف ديار مصر و Marai, Geschichte der Regenten in Egypten مارية : تاريخ أمراء مصر

ـ بمثابة حدود مدينــة القاهرة • وأول الرحالين Prinz Radzivil يكتب أن المناطق الخارجة على باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة ـ وهى الأبواب الثلاثة التى ما زالت تفوق الأبواب الأخرى كلهــا عظمة وجمالا ـ تدخل كلها فى عداد الضواحى • أما الثــانى فيكتب بصريح العبارة أن الحى الممتد بين باب زويلــة والقلعة يعتبر من الضواحى • ويذهب هانس ڤيلده Hans Wilde الذى أمضى فى القــاهرة فى مطلع القرن السابع عشر عدة أعوام نفس المذهب ، ويذكر أن تلك المدينة كانت محوطــة فى عصره بسور • وربما كان السور الذى يعنيه هو الســور الخارجى •

وليس من الممكن أن نقرر على وجــه اليقين هل زادت سعة مدينة القاهرة فى القرون الأخيرة أو نقصت ، نظرا لأننا لا نحتكم على خرائط لها • الا أننا اذا قرأنا وصف يوهان ليو Johann Leo للقاهرة تصورنا أنها لم تكن فى عصره أصــغر منها الآن ، فعلى الرغم من أن حى طيلون ليس الآن على السعة التى كان عليها فى زمانه ، وعلى الرغم من أن القرافة قد تحولت على نحو أكبر مما مضى الى مقابر ، وعلى الرغم من أن المنطقة بين القاهرة وبولاق لم يعد بها بيوت ، ومن أن مصر العتيقة كانت اذ ذاك أكبر من الآن ، فاننا نجد الآن أحياء بأكملها فى الناحية الأخرى من المدينة لم يذكرها الكاتبان المشار اليهما على الاطلاق • هذا الى أن الضواحى لم تكن على الأرجح متقاربة ، ولم تكن قريبة من القاهرة كما هى الحال الآن •

وأيا كان الأمر فليس هناك من يتوقع أن أسجل له تاريخ المدينة ،

فليس من شأنى الا أن أسجل موقعها ومساحتها كما ألفيتها أنا نفسى . وتحقيقا لهذا الهدف رسمت على (اللوحة الثانية عشرة) خريطة للقاهرة وللمدن القريبة منها وهى بولاق ومصر العتيقة والجيزة . ولقد كانت تلك مهمة شاقة بحق وخطيرة اذا أخذنا فى الاعتبار تعنت أهل القاهرة مع الأجانب الذين لا يدينون بدينهم ، وهى مهمة لم يقدم عليها لهذا السبب أوروبى من قبل ولن يقدم عليها أوروبى مرة أخرى فى وقت قريب . ولكننى تجاسرت وقمت بقياس أطوال كل الشوارع بالخطوات وبخاصة تلك التى تنتهى الى نهايتين ، وقمت بتحديد اتجاهاتها مستعينا ببوصلة صغيرة .

وهناك بين هذه الشوارع الرئيسية الكبيرة أحياء كثيرة بعضها يتكون من شوارع صغيرة كلها شوارع ذات نهاية واحدة هى تلك التى تصب فى الشارع الرئيسى . وهذه الأحياء هى تلك التى يقيم فيها أصحاب الحرف بصفة عامة وغيرهم من فقراء الأهالى الذين لا يعملون — كما هو مألوف فى المدن الشرقية — فى بيوتهم ، بل يعملون فى دكاكين صغيرة بالسوق أى بشوارع السوق كما أشرت من قبل . ولهذا فليس من المعقول أن يذهب أحد فى أثناء النهار الى هذه الأحياء بحثا عن رجل فى مسكنه ، وليس من المألوف فى البلاد الشرقية أن يذهب أحد لزيارة زوجة أو ابنة صديق له فى بيته ، ولهذا فاذا دخل رجل أجنبى الى حى من هذه الأحياء ، فان من يقابله يتصور على الفور أنه ضل الطريق ، ويلفت نظره على الفور الى أن الشارع مسدود لا يؤدى الى آخر ، وأن عليه أن يعود أدراجه . ومن هنا لم يكن من السهل على الرجل الأجنبى أن يزور كل الأحياء القائمة بذاتها . ولكننى وجدت السبيل لمشاهدة بعض

هذه الأحيــاء ورسمتها على الخريطة حتى تكون أمثلة للنظام الخــاص للشوارع بالقاهرة . ولقد ركزت اهتمامى فى كل المدن الأخــرى التى رأيتها فى الشرق على تحديد موقعها ومساحتها وأبوابها ومعالمها تحديدا دقيقا على خريطتى . وليس هناك فى أوروبا من يهتم بالشوارع الصغيرة فى المدن الشرقية اهتماما كبيرا ، ولهذا لا ينبغى أن يطالب انســان أحد الرحالة بأن يعرض نفسه للخطر بسبب هذه الأشياء التافهة .

وفيما يلى بيان مدلول الحروف والأرقام المثبتــة على اللوحــة الثانية عشرة :

خريطة مدينة القاهرة او مصر

A دار الباشا الحاكم .

B مقر الانكشارية أو القلعة بمعناها المحدود .

C مقر العزب .

A,B,C تقع على صخرة وتسمى بصفة عامة القصر أو القلعة .

D قراميدان .

E ميدان الرميلة .

F قلعة الكبش ــ قلعة متهدمة وبجوارها جامع طيلون Teilun .

G سلطان حسن ــ مسجد رائع . وغير بعيد منه سوق السلاح وهى وكالة أو مكان يتجمع فيه التجار .

H جامع الأزهر ــ جامع مشهور وجامعة (أكاديمية) .

I الكنيســة البطريركيــة القبطية . وفى هذه المنطقــة يقيم البطريق اليونانى لمصر .

K القـديس نقولا ، كنيسة اليونانيين . وغير بعيد عنهـا وكالة الحمزاوى .

L كنيسة قبطية وتحتها كنيسة أرمنية .

M مقر وكنيسة المطران اليونانى لجبل سيناء .

N بيت القاضى .

O خان الخليل (خان الخليلى) .

P المارستان أو المستشفى .

Q بيت القنصل الفرنسى وتجار فرنسا .

R بيت قنصل البندقية .

S حى اليهود .

T قبة العزب ، فيما مضى مقر قوات العزب ، فيها قلعة صغيرة ومسجد كبير ، وقد تهدم كل ما بالمنطقة حاليا . وهنا يقوم وجهاء القاهرة باستقبال الباشاوات الذين يأتون بطريق البر .

V مقابر أهل البندقية ومقابر الأقباط .

X مكان يجرى فيه ذبح الكثير من الحيوان .

Y فرن لتفريخ البيض ، وفى هذه الناحية معمل للبارود .

Z مصنع للجير .

أسماء القناطر التى تقوم على الخليج
الذى يخترق القـــاهرة

a قنطرة فم الخليج .

b قنطرة الجنينه .

c قنطرة السباع .

d قنطرة امرشى .

e قنطرة الجماميز .

f قنطرة سنقر .

g قنطرة عبد الرحمان كخيا .

h قنطرة باب الخرق .

k قنطرة الأمير حسين .

l قنطرة الموسكى .

m قنطرة الجديده .

n قنطرة باب الشعريه .

o قنطرة الخروبى .

p قنطرة الضاهر به برس (الظاهر بيبرس) .

أسمـــاء البرك

q بركة الشيخ قمر .

r بركة الرطلى .

s برکة اليزبکيه (الأزبكية) •

t برکة الفواله •

u برکة أبو شوارب •

w برکة النصريه •

x برکة القصارين

y برکة أيوب به •

z برکة الفيل •

اسماء الابواب فى القاهرة

1 باب النصر ، وهو باب كبير جميل •

2 باب الفتوح ، باب أكثر فخامة من باب النصر انظر (اللوحة الثالثة عشرة) •

3 باب المذبح •

4 معمل النشى •

5 باب الشعريه •

6 باب البكرى •

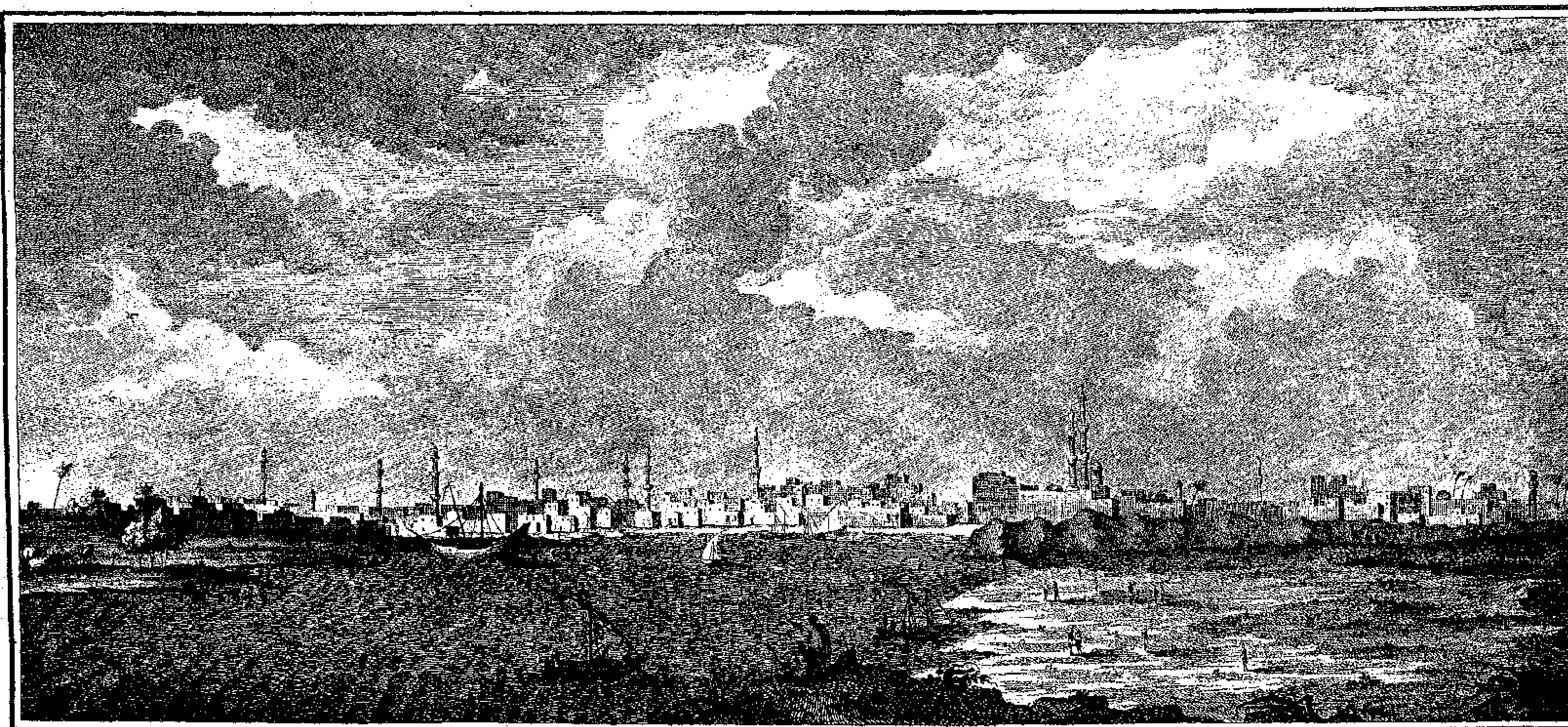
7 باب الشيخ شايب •

8 باب الحديد •

9 باب ولاد عنان •

10 باب الهوى •

11 باب الفواله •



لوحة رقم (١٣)

12 باب سوق البكرى .

13 باب المدابغ .

14 باب الشيخ ريحان .

15 باب الناصريه .

16 باب غيط الباشا .

17 باب أيوب به.

18 باب ستى زينب .

19 باب طيلون (طولون) .

20 باب الخليفى .

21 باب القرافة .

22 باب الجبل .

23 عرب ليسار .

24 باب قراميدان .

25 باب العزب .

26 باب الانكشارية .

27 باب الوزير .

28 باب الحطابة .

29 باب المحروق .

30 باب الغريب .

31 باب السويلى (باب زويلة) باب جميل جدا ، يكاد الآن أن يكون في وسط المدينة .

32 الحله El hélle مبنى متهدم يستقبل فيه أهل القاهرة الباشوات الذين يأتون بطريق النيل .

33 مخزن خشب .

34 دار صناعة قديمة .

35 مخزن الملح .

36 دار الجمرك .

37 ساحة سوق كبيرة مغطاة (القيسارية) .

38 قمينة طوب .

39 أماكن يجرى فيها تفريغ الأحجار المجلوبة من ممفيس ومن مدن قديمة أخرى ، كما يحمل فيها أهل القاهرة ماء النيل على ظهور الجمال .

40 البيت الريفى لأحد البكوات ، وكان الباشا الذى عزله المصريون يقيم فيه أثناء وجودنا بمصر .

41 مسطبة ــ ساحة فسيحة يتدرب فيها وجهاء القاهرة ومعهم خدمهم وعبيدهم على الرماية بالاسلحة النارية وبالأقواس .

42 قصر العين ــ مبنى كبير له قبة يقيم فيه الآن بعض الدراويش .

43 بيت ردىء يقيم فيه الباشا عند فتح السد لتنساب المياه الى الخليج ، ويضعون ما يسمونه بالعروسة فى المنطقة بين هذا السد والنيل عند تطهير الخليج .

44 كنيسة ومقابر الأقباط . وهذا هو الموضع الذى يقال ان عظام الموتى تتحرك فيه فى يوم معلوم من كل عام .

45 مبنى مرتفع فيه خمس ساقيات ترفع مياه النيل الى أعلى حيث توجه الى خزان قرب القلعة .

46 مسجد كبير .

47 مسجد أبو الساقى ــ أو مسجد بانى مجرى الماء .

48 كنيسة قبطية .

49 جامع عمرو .

50 مكان كبير محاط بسور مثل القلعة القديمة ، يقيم فيه الآن بعض المسيحيين فقط .

51 ما يسمونه بصومعة يوسف .

52 البازار أو شارع السوق .

53 دار الجمرك .

54 فرن للنشادر فى الجيزة .

55 مصانع فخار مختلفة .

لم أرسم المياه الا فى البرك التى لم تكن قد جفت فى فبراير ومارس بعد . ولم أستطع تحديد مساحة الحدائق المسورة على خريطتى . ــ ولكننى أشرت الى الحدائق ورمزت الى وجودها فى كل موضع رسمت فيه بعض الشجر ــ وتدل علامة LLLL على المقابر . وتتسمى شوارع القاهرة عامة بالنسبة الى الأبواب والقناطر القريبة .

مدينة القاهرة ــ مصر ــ أو كما يكتب الأوروبيون كايرو Cairo طولها ساعة ، وتبعد مسافة ثلاثة أرباع الميل الألمـــانى من بولاق والنيل وربع ميل من مصر العتيقة ، وتقع أغلب أجزائها فى سهل رملى عند أسفل جبل المقطم وطرفه الأقصى • وقد قست الارتفـــاع القطبى للشارع الذى يقيم فيه الفرنسيون فوجدته ٥٨ً ٢َ ٣٠° • وأحسن موضع يشرف منه الانسان على المدينة هو جبل المقطم والقلعـــة • وتحيط بالقاهـــرة من النواحى الأخرى ــ جزئيا ــ تلال عالية تكونت تدريجيا من القمامة التى تحملها الحمير يوما بعد يوم الى هناك ، أما التلال الملاصقة للخليج خارج المدينة فقد تكونت من الطين الذى يستخرجونه عاما بعد عام من الخليج عند تطهيره • ولقد ارتفعت هذه التلال ارتفاعـــا كبيرا حتى لم يعد فى مقدور الواقف على هذه الناحية من النيل أن يرى أعالى الأبراج الا فيما ندر •

والحق أن القـــاهرة فسيحة ، الا أن هذا لا يعنى أنهـــا تمتلىء بالسكان على قدر سعتها أو أن الكثافة السكانية فيها أكثر من الكثافة السكانية لمدينة مماثلة لها فى السعة فى أوروبا ــ والســـائر فى العاصمة المصرية يجـــد فيها بركا كثيرة جدا عندما تمتلىء بالمياه يشبه منظرهـــا منظر بحيرات صغيرة كثيرة • كذلك تشغل المساجد الكثيرة حيزا كبيرا ــ ومن الجائز أن تكون هناك حدائق كبيرة وساحات خالية أيضا فى بعض الأحيـــاء وبخاصـــة فى باب زويلة وطيلون (٣١) (طـــولون) والحنفى وباب اللوق ــ وهى الأحياء التى لم أر الا الشوارع الرئيسية بها والتى رسمتها على خريطتى وكأنما هى مليئة كلها بالبيوت ــ وقـــد أتيحت لى

فرصة التوغل فى المنطقة بين الخليج وبركة الفوالة ورؤية كل شىء فيها بدقة فوجدت أنها على هذه الحال • وليست البيوت فى القاهرة فى ارتفاع البيوت الأوروبية ، وأغلبها فى الأحياء الصغيرة مبتناة من الطوب اللبن من طابق واحد • وقد ذهب بعض الأوروبيين الى القول بأن القـاهرة مزدحمة بالسكان ازدحاما فائقا للمألوف ، وانما ذهبوا هذا المذهب لأنهم لم يأخذوا فى اعتبارهم النظام الخاص لشوارعها ، فقد يكون من الممكن أن يتبادل جاران يسكنان فى حيين مختلفين ، يقف كل منهما فى مؤخرة بيته الحديث ، أما اذا أراد أحدهما أن يذهب الى بيت صاحبه ، فعليه أن يسير نحو ربع الساعة حتى يصل اليه لأن لكل مخرجا واحدا الى الشارع الرئيسى • ولهذا فان الغريب الذى لا يرى من القـاهرة سوى شوارعها الرئيسية يجد هذه الشوارع الرئيسية مزدحمة نهارا بالناس ، خاصة وان الشوارع هنا ضيقة كما هو المألوف فى المدن الشرقية • أما الشوارع الرئيسية المتطرفـة التى لا يعمل فيها الا القليل من الحـرفيين ، فكثيرا ما يجدها الانسان خاوية ، وتلفت تلك الظاهرة الانتباه على نحو أوضح فى الأحياء المتطرفة •

ولقد تناول أصحاب الرحلات السابقة الى مصر بالحديث الأحياء العجيبة والمبانى الغريبة وأفاضوا فى ذلك فاكتفيت بتحديد أماكنها على خريطتى • على أننى أود رغما عن ذلك أن أشير الى بعضها فى ايجاز •

تقع القلعة بين المدينة وجبل المقطم فوق صـخرة من هذا الجبل قائمة بذاتها • وليس فى الامكان تحديد العصر الذى بدأت فيه عمارة هذا التل تحديدا دقيقا • والأرجح انه كان فى عصر الاغريق آهلا بالسكان

وأنه كان جزءا من البابيلون المصرى . ويطلق بنيـــامين الطوديلى على القلعة اسم سيئون Soan مما يوحي بأن اليهود المصريين كانوا يظنون فى عصر بنيامين أن Zoan الذى يأتى الحديث عنه فى الكتاب المقدس موقعه هنا (*) . وموقع هذه الصخرة (٣٣) موقع ممتاز يكاد الانسان أن يظن أن المسلمين قد وجدوه منيعا أصلا . وكان الخليفة المأمون قد ابتنى فى عام ٢١٧ من الهجرة على جبل المقطم وفى مكان مواجه لهذه القلعة حصنا صغيرا هو قبة الهوى (قبة الهواء) تهدمت نهائيا فيما بعد (**) .

وتتكون القلعة بالقاهرة فى مجموعها من ثلاث مناطق : منطقة الباشا ومنطقة الانكشارية ومنطقة العزب . أما منطقة الباشا فهى مليئة بالخراب حتى ليصعب على الانسان أن يصـــدق أن والى مصر كلها يسكن هنا . ولكن الباشاوات لا يبقون فى الولاية مدة طويلة الا فيما ندر ، ولهذا فهم لا يجهدون أنفسهم فى بناء قصر جديد ويعيشون فى هذا المكان عيشة رديئة. وهناك بابان فى هذه المنطقة يؤديان الى المنطقتين الأخريين ، منطقة العزب ومنطقة الانكشارية . وليس مع الباشا مفاتيح هذين البابين ، بل معـــه مفاتيح لبابين آخرين رديئين ، يؤدى أحـــدهما الى قره ميدان والثـــانى فى سور قلعة الانكشارية ناحية الجبل والساحة ، ويقفل هذان البابان بأقفال من الخشب بالليل فقط كما هى عادة البلاد . وتقع دار سك العملة

(*) يذكر بريانت Bryant فى كتابه « ملاحظات على جوانب مختلفة من التاريخ القديم »
Observations relating to various parts of ancient history
أن هليوبوليس كانت تسمى Zoan فى العصور القديمة.
Allgemeine Welthistorie der neuern Zeiten, II. Theil §. 136.

(**) التاريخ العام للعالم فى العصور الحديثة ، الجزء الثانى ، فقرة ١٣٦ .

فى منطقة الباشا ، وفيهـا تسـبك عملات المجهر Sequin وهى من الذهب وعملات البارة Para وهى من الفضة ، وعملات Burben وهى عملات صغيرة من النحاس ، وكلها رديئة اذا قيست بالعملات التى تضرب فى القسطنطينية .

أما منطقـة الانكشـارية فانهـا كبيرة الشـبه بالحصـن لأنهـا ذات سور بأبراج على هيئة الحصون التركية الأخرى ، أو على هيئة النمط القديم من الحصون الأوروبية . والحق أن الانكشارية يتلقون مثلهم مثل بقية فئات العسكر المصريين أجورهم من السلطان ، ولكن غالبية ضباطهم كانوا مماليك عند وجهاء أهل القاهرة ولهذا فان ولاءهم لسادتهم القدامى أكبر من ولائهم للسلطان ، وقد أصبح من المألوف أن يستخدموا المدافع فى طرد الباشا الذى يعزله المصريون اذا ما تجـاوز المهلة التى حددها له البكوات .

ويبـدو أن العربان لا يخـافون الانكشـارية خوفا كبيرا ، فكثيرا ما يمارسون أعمـال النهب والسلب تحت القلعة مبـاشرة . ومنطقة الانكشارية مليئة بالبيوت ، وفيهـا بير يوسف، المشهورة التى يعتبرهـا جميع الرحالة أعجوبة من الأعاجيب الكبرى فى القاهرة . ولابد أن احتفار هذه البئر قد تكلف الكثير من الجهد والمال لأنها شديدة العمق ، ولأنها محتفرة فى الصخر ، وان كان هذا الصخر لينا فهو حجر جيرى ، يعتبر تشغيله عملا هينا اذا قيس بالآثار القديمة الأخرى مثل المعـابد الهندية التى نحتت كلها فى الصخر الصلد . وقد رسم نوردن لبير يوسف رسما جيدا جدا .

وأما منطقة قوات العزب ففيها القصر الذى يسمى بقصر يوسف وهو أعجب شىء فيها ، ويجرى فى هذا القصر فى كل عام تصنيع النسيج الثمين (الكسوة) الذى يتحمل السلطان تكلفته ويرسله الى مكة ، وفى هذا المبنى بقايا من الرونق الذى كان يحليه فى الماضى (٣٣) ، فحيطان الحجرة التى يقعد فيها النساجون عليها رسوم أشجار وبيوت وما الى ذلك من الفسيفساء الجميلة المكونة من الصدف وصنوف كثيرة من الأحجار الصغيرة والزجاج الملون . أما الحجرة التى يقومون فيها بتوشية الكسوة فعلى حيطانها كتابات منقوشة لازالت فى حالة جيدة . وثمة حجرة ثالثة ذات سقف جميل غاية الجمال . وفى الناحية المطلة على قره ميدان - حيث يستند هذا المبنى الكبير على جدار مرتفع عند الصخرة المنحدرة أشد الانحدار - تقوم شرفة عالية مسقوفة يرى الانسان منها منظرا رائعا يمتد الى الاهرامات والجيزة ومصر العتيقة وبولاق ويحيط بجزء كبير من القاهرة أيضا ، ويجد الانسان هنا أسماء بعض حكام مصر القدامى لا تزال محفورة . ويبدو أن الخلفاء والسلاطين المصريين كانوا يسكنون فى هذا القصر ، ولابد من أن يدهش الانسان لأن الولاة الأتراك لا يستخدمونه الآن سكنا لهم . ولقد تحينت الفرصة وسألت المشرف، على عمال الكسوة - الذى اقتادنى فى جنبات هذا القصرالقديم ثم استضافنى فى بيته وقدم الى القهوة - عن يوسف المشار اليه آنفا والذى يتسمى البئر والقصرالعظيم باسمه،وكان رأيه أن هذه المنشآت لايزيد عمرها على ٦٠٠ سنة وان الذى أقامها هو صلاح الدين.وليس هذا الرأى بعيد الاحتمال ، فمن المعلوم ان هذا الحاكم ابتنى الكثير من المبانى العظيمة ،

وان اسمه الحقيقى هو يوسف أبو مظفر بن أيوب (*) • وما الأسماء الأخرى التى أطلقت عليـه ـ مثل السـلطان والناصر وصلاح الدين ـ الا ألقاب تشريفية • وهناك بالقرب من القصر المسمى بقصر يوسف نيف وثلاثون عمودا قائما مصنوعا من الجرانيت • وكلها كبيرة جدا وجميلة اذا قيست بالأعمدة التى يصادفها الانسان من حين لآخر فى بعض المبانى ولكنها لا تقاس من ناحيـة الجمال والعظمـة بعمود پومپيـوس فى الاسكندرية • ويبدو ان هذه الأعمدة كانت فى الماضى مسقوفة ، أما الآن فهى عارية لا سقف فوقها ، وقد أقيمت بعض الأكواخ القبيحة ملاصـقة لهذه الأعمدة الرائعة • أما الطريق المؤدية من هذه الأعمدة الى باب العزب فقد شقت جزئيا فى الصخر • ويرى الناظر هنا فى سور أحد المبانى نسرا مزدوجا عفا عليه الزمن ولكن العين لا تزال تتبين ملامحه بكل وضوح •

أما ضاحية القرافة فقد قل عدد سكانها الآن قلة شديدة ، ولا يزال السائر فيها يجد الكثير من المساجد العظيمة وأضرحة قدامى حكام مصر أصاب البلى بعضا منها • وهنا ضريح الشافعى المشهور مؤسس واحـد من المذاهب الأربعة التى يسمونها السنية • وتمتلىء هذه المنطقة فى أيام الجمع خاصة بنساء المسلمين يأتين بدافع من التقوى أو طلبا للنزهة • وهناك الى الناحية الأخرى من القلعة بين جبل المقطم والمدينة عدد كبير من المساجد ودور العبادة ـ بعضها متهدم ـ مبتناة فوق قبور أغنيـاء

(*) انظر Vita Saladini (حياة صلاح الدين) ترجمة شولتنس Schultens

المسلمين ، فى صف يبلغ طوله ثلاثة أرباع الميل الألمانى (*) . ولابد أن قايتباى كان يعتبر من كبار الأولياء ، أو لعله فاق الآخرين فى معرفة السبيل الى حفظ خيرات مسجده معا ، فليس هذا المسجد الذى ابتناه هنا فى حالة جيدة فحسب ، بل لقد أقام الناس حوله الكثير من البيوت حتى تكونت قرية كبيرة لاتزال موجودة الىالآن. أما اليزبك Eljüsbek الذى أنشأ مسجدا كبيرا فى القاهرة فى الحى المسمى باسمه ، فهو مدفون فى مسجد من مساجد قايتباى يقع ناحية الشمال الشرقى ، وهناك بيوت كثيرة تحيط بضريحه .

والظاهرأن حكام مصر المسلمين وغيرهم منأغنياء القاهرة لايقلون فى اهتمامهم بالأوقاف الدينية عن سلاطين القسطنطينية ، بل قد يفوقونهم فى هذا السبيل . وأنا أذكر اننى سمعت أن شيخا فقيرا استطاع فى العصر الذى كان فيه الحاكم مقيما فى القاهرة أن ينتقل عاما كاملا من مسجد الى مسجد آخر ينال الطعام والشراب والمرقد . وهناك فى حى طولون مسجد كبير جدا يبلغ طوله مائة خطوة مزدوجة ، وقلعة قديمة هى قلعة الكبش القائمة على صخرة صغيرة . والقلعة المذكورة بنـاها أحمد بن طولون الذى تمرد على الخليفة فى بغداد فى عام ٢٦٥ بعد الهجرة ** . ومعنى

(*) يسمى ماريه Marai هذه المنطقة « الصحراء » ، ولا يقف عند حد الاشارة الى مدافن قايتباى ، بل يذكر مساجد عظيمة واضرحة كثيرة اخرى فى القاهرة وحولها .

** كتاب جان ليون « الوصف التاريخى لافريقيا »

Historiale description de l'Afrique, Jean Leon, fol. 365.

— وكتاب التاريخ العام للعالم فى العصور الحديثة ، الجزء الثانى ، فقرة ١٨٤ . — ماريه : تاريخ حكام مصر . يذكر ماريه ان احمد بن طولون بدأ فى عام ٢٦٣ فى بناء مسجده واتمه فى عام ٢٦٥ ، وان السلطان لاجين المنصورى وقف عليه أموالا عظيمة ، وعين له الكثير من العلماء .. الخ .

هذا أن هذه القلعة أقدم من مدينة القاهرة • ويعتبر الجامع الأزهر أقدم وأوسع وأفخم المساجد الكثيرة المنيفة فى القاهرة ، ويتلقى عـدد كبير من الفقراء يوميا من الجامع الأزهر بالمجان المسكن والمآكل والمشرب • وتقوم هنا جامعة (= أكاديمية) مشهورة للمسلمين لهـا أربعة من المفتين للمذاهب الأربعة المسماة بالسنية ، المذهب الشافعى والحنفى والحنبلى والمالكى •

أما مسـجد السـلطان حسن القريب من ميـدان الرميلة فبناء استـخدم ذات مرة أثناء ثورة من الثـورات لاطلاق القـذائف على القلعة [٣٥] • والمساجد فى القاهرة كثيرة جدا ، يمل الانسـان من قراءة قائمة تضمها ، ويصعب عليه جمع أسمائها جميعا وتحديد مواضعها على خريطة • ولهـذا سأكتفى هنـا بملاحظة بعض الأمور منها : أن لبعض المساجد أكثر من منارة (برج) ، وأن المنارة لاتنتهى فى أعلاها بناقوس بل بشرفة أو شرفتين أو ثلاث شرفات يقف فيها الناس ويؤذنون للصلاة • ويقول المسلمون ان دق النواقيس من شأن الحيوان المسخر للنقل ، فقد اعتادوا على أن يعلقوا لجمالهم وبغالهم فى القوافل أجراسـا صغيرة • وليس بالمساجد من زخرف سوى منبر بسيط وسجاجيـد كبيرة ثمينة أو حصر من القش تكسو أرضه ، وكتابات كبيرة مذهبة هى فى المعتـاد آيات من القرآن على الجدران ، وعدد كبير من المصابيح البسـيطة مثبتة فى أطواق ضخمة معلقة أفقيا ، ويتخلل المصابيح المعلقة عادة بيض النعام وما أشبه من الحليات البسيطة ، وبالمسجد فى الناحية تجاه مكة تجويف مبتنى من الرخام الجميل يسمونه قبلة ، أمامه بعض الثريات الكبيرة ذات الشموع • واذا كان المكان الذى يقام فيه المسجد بارحا ، جعلوا جانبـا

من جوانبه تجاه مكة ، فان لم يكن هذا متاحا جعلوا القبلة فى الحائط وأمالوها بحيث تتجه نحو مكة ، فالمسلمون عندما يصلون يولون وجوههم جميعا الى قبلة واحدة .

والمورستان Muristân (٣٦) مستشفى للمرضى والمجانين ، ولمن شاء أن يقرأ فى الكتب العربية التى تصف القاهرة كلاما كثيرا جدا عن الأموال الكثيرة المخصصة لرعاية هذا المستشفى والكثير من المساجد الكبيرة . الا أن انفاق هذه الأموال كثيرا ما يجرى على نحو يثرى به القائمون بأمره ثراء متزايداً ، تصاب به المساجد بفقر متزايد ، الا أن تأتى أوقاف جديدة تعوض الخسارة . وكان هذا المستشفى يقوم بكل ما يحتاج اليه المريض لم يغفلوا منه شيئا حتى الموسيقى . وكان المرضى قد حرموا قبل أعوام كثيرة من متعة الموسيقى ، حتى عاد عبد الرحمن كخيا فرد هذه النعمة اليهم منذ بعض الوقت . وأنا لم أر من المبنى الا الجزء الذى به المرضى ، وكان عدد المرضى يقينا قليلا جدا بالقياس الى حجم المدينة .

والوكالات والخانات عبارة عن مبان محاطة بأسوار كبيرة منيعة وفيها حجرات كثيرة صغيرة ومخازن للبضاعة مخصصة للتجار . وهى كثيرة جدا فى القاهرة .

كذلك عدد الحمامات العمومية كبير . وليس منظرها من الخارج بالمنظر الجميل ، ولكنها من الداخل فسيحة ونظيفة وجميلة ، وأرضيتها مكسوة فى أغلب الأحوال بالرخام الثمين . ويجد طالب الاستحمام فيها الكثير من الخدم لكل واحد منهم مهمة خاصة ، وهم يتولونه بألوان من الطقوس ــ سبق الى وصفها والافاضة فى عرضها آخرون ــ يعجب لها

الأوروبى الذى لم يألفها ، وقد تدفعه الى الضحك . وأهل المشرق لا يعترضون على شيء منها ، بل يقبلونها راضين ، يدعون العاملين بالحمام يطقطقون لهم أطرافهم كلها فيحسون بعد ذلك بالراحة . وفى قلب الحمام حجرة صغيرة فى وسطها قرمة يبلغ ارتفاعها قدمين ونصف قدم يجلس عليها من يريدون التخلص من الشعر النابت فى المواضع الخفية من أجسامهم ، ويتوسلون الى ذلك بمرهم يباع فى الحمامات . ولقد اهتممت بهذه الحجرة خاصة لأننى ذكرت أننى رأيت بين سوم القدماء أشخاصا عرايا يجلسون على قرمة — ولهذا فأنا أظن ان الطريقة المتبعة حاليا فى الحمامات طريقة قديمة جدا .

ومن المبانى العامة فى القاهرة مبان يتلقى فيها من يطلب من المارة الماء بدون مقابل كل يوم . وبعض هذه المبانى ذات منظر جميل ، ويعمل بها رجال مهمتهم السهر على ملء أكواز من النحاس المبيض بالقصدير الجميل بالماء ووضعها ناحية الشارع أمام سياج من القضبان (٣٧) .

والبرك — وهى متعددة فى القاهرة وحولها — أماكن منخفضة المستوى تتحول فى مدى عام الى بحيرات صغيرة تقوم عندها حدائق جميلة ومروج وما يشبه الأدغال فى نهاية المطاف . ويسكن عندها ، وبخاصة حول بركة الفيل ، الكثيرون من الوجهاء والأعيان . الا أن المسلمين لا يحبون عرض ما لديهم من عظمة على ظاهر بيوتهم فلا يرى الانسان من قصورهم الا أسواراً عالية .

ولقد تحدثت من قبل عن آثار هليوبوليس التى تقع على بعد ساعتين تقريبا الى الشمال الشرقى من القاهرة . وهناك على مقربة منها قرية

المطرية Matarè يعرض الناس فيها على القادم جميزة يحوطها المسيحيون الشرقيون بالتبجيل الكثير ، لأنها كانت من الأدب بحيث انفتحت وضمت العائلة المقــدسة أثناء هربها الى مصر وظلت تخفيهـــا حتى مر مطاردوها وابتعدوا • ويذكر هذه الأعجوبة من الرحالة السابقين السيد برايدنباخ والأمير رادتسيڤيل وغيرهم • ولكن الانسان يضلل نفسه أشد التضليل اذا صدق ان هذه الشجرة هى التى كانت قائمة قبل ١٨٠٠ سنة • والأمير رادتسيڤيل يصف الشجرة بأنها عالية وضخمــة وأن بها شقا عجيبا ، أما ڤيلده فيقول : ان الجذع يتفرع فوق الأرض مباشرة الى ثلاثة أفرع • وأنا لا أذكر أننى رأيت هذه العلامات فى الشجرة التى شاهدتها ، ولهذا فاننى لا أصدق الا أقل التصديق أن هذه الشـــجرة هى تلك التى كانوا يمجدونها قبل ٢٠٠ عام • والمسيحيون القادمون الى هنا يحرصون على أخذ قطعة صغيرة من هذه الشجرة التى يعتبرونها مقدسة يحملونها معهم عندما يعودون ، وهكذا نزعوا جزءا كبيرا من جذعها • ويرى الناظر فى هذه المنطقة على مقربة من الشـــجرة بئرا يقولون عنها ان المـــاء العذب انساب اليها عندما زارتها العائلة المقدسة • ولم تعد هنا أشجار بلســـم ، وقد سجل هاينريش راتسوا Heinrich Rantzow فى كتاب رحلته أن آخر شجرة بلسم قضى عليها فى الفيضان عام ١٦١٥ ، وأنه ليس من المحتمل أن يهتم أحد ـــ بعد أن أخضع الترك مصر ـــ بجلب غرس جديد من هذا الشجر من مناطقه البعيدة (٣٨) •

وتقع بركة الحج الى مسيرة أربع ساعات شرق القاهرة ، وهى بحيرة كبيرة نسبيا تستمد ماءها من النيل ، ويطلقون عليها اسم بركة الحج لأن الحجيج يجتمعون عندها كل عام عند سفرهم ثم يجتمعون عندها مسرة

أخرى عند عودتهم وقبل أن يتفرقوا كل الى اتجاهه • وعنـد البركة يضع قرى صغيرة وكبيرة ، وبيوت ريفيـة متهدمة فى أغلبها يمتلكها وجهـاء القاهرة وأعيانها ، كذلك عندها حدائق ذات نخيل • وليس هنـاك غير ذلك شىء يستحق التنويه الا ما يطرأ على المكان عندما يقيم الحجيج فيه خيامهم • وحتى فى ذلك الوقت لا يجد الانسان وسط الخيام غير المنتظمة الا عـددا قليلا من الخيام العظيمـة البديعة تستحق الذكر ، وهى اما للمسافرين لتأدية الحج أو لأصدقائهم الذين يأتون من القاهرة الى هنـا لمرافقتهم •

وقد أسرعت بعـد عودتى من دميـاط فى العشرين من مايو ١٧٦٢ ـ الذى كان فى ذلك العام يسبق موعد سفر الحجيج بيومين ـ لأشاهد هذه القافلة المشهورة عند بركة الحج قبل أن ترحل ورسـمت تخطيطا لمخيمهم على (اللوحة الرابعة عشرة) ، وان كنت أشـك فى أننى رسمت الخيام على نفس النظام المضطرب كل الاضطراب الذى ضربهـا عليـه الحجاج • ويبدو أن الحال هنا لا تختلف عن حال القوافل الأخرى جميعا حيث يضرب كل واحد خيمته فى المكان الذى يستحسنه • الا أمير الحج الذى نصب لنفسه ولرجاله خياما كثيرة ، فيبدو انـه اتخذ لمخيمه نظاما معينا • ويشير حرف A على اللوحة المذكورة الى خيام أمير الحج ومن بينها الكسوة الثمينـة التى يحملونها الى مكة تحت خيمتهـا الصغيرة الخاصة • ويشير حرف B الى السكن الذى يقيم فيه أمير الحج فى أثناء النهار ، وأمام هذا المبنى وضعت ثلاثة مدافع صغيرة ، كما وضعت أربعة مدافع صغيرة أخرى حيث الحرف C • ويشير الحرف D الى خيـام

المغاربة • والخطوط المستقيمة المرسومة تمثل حبـالا تربط فيهـا الخيول والجمال • ويشير حرف E الى قرية بسيطة • وما بين F , B بيوت ريفية يمتلكها أعيان القاهرة • أما العلامات الأخرى فتمثل خياما مستديرة ومستطيلة • وأنا لم أشاهد خروج هذه القافلة من القاهرة ، ولكن كتب بعض الرحالة الآخرين تحتوى على وصف مفصـل لها • ويرحل مع هذه القافلة المغاربة أو عرب المغرب ، ويسافر مع المصريين فى يوم رحيلهم أهل مراكش الذين يشتغلون عامة بالتجارة ولهم فيها نشـاط كبير ، أما أهل طرابلس والجزائر وتونس فيسافرون قبلهم أو بعدهم بيوم ولا يدفعون ضرائب الى الحكومة المصرية •

ولعل بولاق الحـالية هى مدينـة ليتوپوليس Litopolis التى يذكرها المؤلفون الاغـريق • ويرى الانسـان فى بولاق سـوقا كبيرة مسقوفة يسميها الأهـالى قيسارية Kissarîe ، ظن أحد أصـدقائى الأوروبيين بالقاهرة أن الاسم مأخوذ من قياصرة اليونان أو الرومان • الا أن هذه الأسواق التى يسمونها قيسارية موجودة فى مدن أخرى ، فى بيروت مثـلا ، وعلى هذا فان هذه الكلمـة لا تعنى أكثر مما تعنيـه فى القسطنطينية كلمة بزستان أو فى القاهرة كلمة وكالة (*) • وبولاق الآن مدينة كبيرة نسبيا ، وهى أهم ميناء لمدينـة القاهرة ، وجميع البضـائع التى تجلب من دمياط ورشيد عبر النيل الى العاصمة ، والتى تصدر من القاهرة الى البحر المتوسط ، تمر من هنا ، ولهذا أقاموا فى بولاق أكبر

(*) يطلق اسم Casseries فى بلاد البربر على المبانى العامة الكبيرة . انظر :
Histoire de Barbarie ... le R.P. Pierre Dan. p. 168.



لوحة رقم (١٤)

جمرك فى مصر كلها • وفى بولاق مخازن الأرز والملح والنطرون والخشب والزعفران الذى ينمو فى مصر العليا ــ أما الزعفران الذى ينمو فى مصر الوسطى فيصـــدر الى القاهرة • وللسلطان هنـــا دار يختزن فيها القمح الذى يرسله فى كل عام الى مكة والمدينة ، ودار صنـــاعة قديمة يختزنون فيها آلات خاصـــة بالسفن ترجع الى الوقت الذى كان فيه أسطول مصر فى السويس •

ومن الممكن أن نعتبر الفســـطاط ــ مصر العتيقة ــ أو كما يكتب الأوروبيون عادة « القاهرة القـــديمة alt Cairo » مدينة ، ولكنها صغيرة بالقياس الى ماكانت عليه الفسطاط عندما كانت هى العاصمة • وفى الفسطاط الآن جمرك يحصل الضرائب الجمركية على البضائع الواردة من مصر العليا أو الصـــادرة اليها ، وفيها أيضا ساحة كبيرة مكشـــوفة بلا سقف محاطة بسور كبير منيع تختزن فيها الحكومـــة القمح ، وليس هنالك مجـــال للجدل فى أن هذه الساحة أقامها المســـلمون فى العصـــور الحديثـــة • أما الكتاب الذين يذكرون أن هذه الصـــومعة واحدة من الصـــوامع التى بناها يوسف (٣٩) ، فلعلهم صـــدقوا ما ادعاه بنيامين الطوديلى فى رحلته ص ١٠٤ من انه رأى فى مصر القديمة الكثير من آثار صوامع يوسف • ولكنه يتحدث عن ممفيس ، وهى مدينة تبعد عن مصر العتيقة الحالية ساعتين •

ويقع الجامع الذى بناه القائد العربى عمرو (بن العاص) بين مصر العتيقة وجبل المقطم ، ويأتى وجهاء وأعيـــان القاهرة فى يوم معلوم كل عام لزيارة هذا الجامع احياء لذكراه باعتباره المسجد الأول الذى بنـــاه

المسلمون فى مصر • على أننى لاحظت أن صيانته ورعايته تتم على مستوى ردىء •

وفى هذه المنطقة مكان محاط بسور قديم جـدا هو الذى يحمل رقم ٥٠ (اللوحة الثانية عشرة) ، وربما كان هنا حصن مدينة مصر الذى يأتى ذكره فى أخبار العرب عن غزو مصر ، ويقيم فى هذا الحصن المتهدم حاليا بعض المسيحيين • ويرى الانسان فيه بعض الكنائس ومدافن اليونانيين والأقباط وديرا للراهبات القبطيات ومغارة تحت كنيسة قبطية يمجدونها تمجيدا عظيما لأنهم يعتقدون أن العائلة المقدسـة سـكنت فيها بعض الوقت • وللانجليز والفرنسيين هناك جبانة ، وللفرنسيسكان كنيسـة صغيرة يقيم عندها واحد من الطائفة ، وتتمتع كنيسة مار جرجس التابعة لليونانيين بشهرة ترجع الى المعجزات التى يشيع الرهبان أنهـا تتحقق فيها • فهم يدعون أن المجانين ــ سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين ــ يستردون عقلهم اذا ما هم أوثقوا بحلقة حديدية مثبتة فى عمود من عمد هذه الكنيسة ، وتليت بعض الصلوات من أجلهم •

واقتادنى الناس هنا الى مقياس للنيل فى بئر عميقة يأتى اليها شىء من الماء فى كل عام عندما يحل الفيضان ، وقالوا ان شاطىء النيل كان فيما مضى من الزمان فى هذا الموضع ، وهذه مقالة ليست بعيـدة الاحتمال كلية ، اذا ما تصور الانسان أن الأنهار جميعا تغير مجراها وبخاصة فى المواضع التى تقوم فيها المدن ، وهكذا فان الخليج الممتد بين الفسطاط وجزيرة الروضة يجف اذا كان مستوى الماء منخفضا • أما مقياس النيل المشار اليه فلابد أنه متصل بالنيل بقناة تحت الأرض ، وقد ذكر الأمير

رادتسيڤيل قبل مائتى عام أن الناس كانوا فى ذلك الوقت ــ كمـا هى الحال الآن ــ يستطيعون عند هبوط مستوى الماء فى النيل أن يسيروا من مصر القديمة الى جزيرة الروضة دون أن تبتل أقدامهم ، ويستخلص من كلامه هذا أن الشاطىء الشرقى للنيل فى هذا الموضع لم يتغير فى فترة من الزمان يمكن تقديرها بعدة مئات من السنين تغيرا ملحوظا •

وقد رسمت على خريطتى مجرى الماء فوق العيون الذى يحمل المياه من النيل الى قرب قلعة القاهرة ، والذى ذكر ماريه أن السلطان الغورى ــ الذى آل اليه الحكم فى عام ١٥٠١ ميلاديا ــ هو الذى بناه ، وقد كتب عنه أصحاب الرحلات فى كتبهم ما فيه الكفاية •

وفى الناحية الأخرى من الخليج الذى يخترق القاهرة يقوم بنـاء عظيم ذو قبة بديعة متاخم للنيل هو قصر العين Kasr el ain (٤٠) يقيم به دراويش تجرى عليهم أموال كثيرة ، وهم يأخذون الزائر الى موضع يقولون ان السلطان سليم جلس فيه • ولديهم فوق باب هذا الدير (؟) أشياء عجيبة أخرى ، منها حذاء طويل يبلغ طول نعله ٢٢ بوصة دنمركية ، يقولون ان درويشـا اسمه ابراهيم كان يلبسه أيام السـلطان بيبرس ، ورأس نارجيلة عجيبة الحجم ، وأشـياء نادرة من هـذا النوع جمعتها هـذه الطائفة المتجولة وحفظتها هنا تذكارا •

وهناك غير بعيد عن هذا الدير ساحات فسيحة اعتاد أعيان القاهرة على أن يذهبوا اليها مع قواتهم الخاصة أيام الأربعاء والسبت ليتـدربوا على البنادق والأقواس ، وقد أقام بعضهم هنا أحجارا تبين المدى الذى يصلون اليه فى الرمى بالقوس •

وهناك على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة مدينة مصر العتيقة ، مدينة صغيرة هى الجيزة • ولست أعلم شيئا عن أصلها ، ولكننى أستنتج من التلال المحيطة المكونة من القمامة التى تجمع من الشوارع وتحمل اليها ، أن هذه المدينة ليست حديثة العهد ، ولعلها نشأت مع الفسطاط فى وقت واحد ثم تدهورت • ويبدو أن الكثيرين من العمال اليدويين الذين كانوا يذهبون كل يوم الى الفسطاط ليكسبوا قوت يومهم ، كانوا يسكنون فى الجيزة فلما اضمحلت تحولوا الى القاهرة • ولم أجد فى الجيزة شيئا يستحق الذكر سوى بعض بيوت ريفية يمتلكها أعيان القاهرة ، وبعض المصانع •

وتقع جزيرة الروضة بين مصرالعتيقة والجيزة ،ويبدو أن هذه الجزيرة لم تكبر ولم تصغر فى السنوات الـ ٦٠٠ الماضية ، لأن الانسان اذا أراد أن يصفها الآن من حيث المساحة والمنظر ، قال ما قاله الشريف الادريسى * من قبل • على أن الجزيرة كانت فى عصر الادريسى ، عندما كانت مصر العتيقة مزدهرة ، كثيرة الحدائق والبيوت الريفية ، وكانت هناك قنطرة من المراكب ليس فقط بين الفسطاط والروضة ، ولكن أيضا بين الروضة والجيزة ، نظرا للأعمال الكثيرة التى كانت لأهالى العاصمة فى الناحية الأخرى للنيل • فلما أصبحت القاهرة هى العاصمة ، لم تعد هناك حتى قنطرة بين الفسطاط والجزيرة المذكورة ونقل أهالى القاهرة بيوتهم الريفية الى مصر العتيقة وبولاق حتى بركة الحج • ولهذا ليس فى الروضة شىء

(*) انظر Geographia Nubiensis P. III. Cl. 3.

يستحق التنويه الا ركنها الجنوبى الذى يقوم عليه جدار منيع ليصد عنف المياه ، وهناك أيضا بعض المبانى القديمة وبخاصة مسجد فيه المقياس المشهور الذى يقيس ارتفاع مياه النيل • ولقد رسم عدد من الرحّالة هذا المبنى ، ولكن أفضل صورة له.هى تلك التى رسمها نوردن • الا أن الصورة التى رسمها نوردن أجمل بكثير من الأصل • فمنذ أن قتر الأتراك فى الانفاق على المقياس أصابه تدهور متزايد •

ولست أعرف هل قام أحد من قبل بقياس عرض النيل • وقد وجدت أنا أن عرض النيل عند الجيزة (بما فيه عرض جزيرة صغيرة ــ جزيرة المقياس ــ نشأت منذ سنوات قليلة) على أساس قاعدة طولها ٢٣٣ قدما وزاويتين قدرهما ١٠َ ٨٣° و ٢٠َ ٩٢° هو ٢٩٤٦ قدما • أما عرض النيل عند رشيد فهو ٦٥٠ قدما فقط وعند دمياط لا يزيد على ١٠٠ قدم • والمعروف أن نهر النيل يحل به فى كل عام عند منتصف شهر يونيو تقريبا فيضان يستمر ما بين ٤٠ و ٥٠ يوما الى أن يبلغ مداه ، ثم يهبط تدريجيا حتى اذا جاء مطلع يونيو من العام التالى كانت المياه قد هبطت الى أدنى مستوى • والمعروف كذلك أن الأمطار تنهمر يوميا تقريبا فى أكثر شهور الصيف حرارة فى بلاد الحبش ــ مثلما يحدث فى الناحية الغربية من المنطقة الجبلية من اليمن ــ وأن ذلك هو الذى يسبب الارتفاع المفاجىء فى مياه النيل* • والأنهار فى اليمن تفيض فى الوقت نفسه أيضا لهذا السبب ، مع فارق هو أنها تتدفق فرادى الى البحر أو تتفرق فى الرمال

* انظر Voyage d'Abyssinie du P. Lobo p. 80. Beschreibung von Arabien S. 3. Greaves miscellaneous Works Vol. I. p. 102. Jerofol. peregrinatio principis Radzivil. p. 159. Benjamin de Tudels.

ــ أما فى الحبشة فان المنابع الكثيرة والنهيرات والأنهار تتجمع ليتكون منها نهر واحد يخترق مصر كلها .

ومن الجدير بالذكر أن ارتفـاع مياه النيل ليس على مسـتوى واحد فى كل مكان . ولقد أبوا أن يسمحوا لى بأن أقيس عنـد المقياس مدى هبوط النيل ، ولهذا بحثت فى جـدار مائل بالجزيرة عن علامة تبين الارتفاع الأقصى الأخير الذى بلغه النيل ، ووجدت أنه كان فى الثلاثين من يناير ١٧٦٢ م ١٥ قدما فوق سطح الماء ، ثم اعتمدت على العلامة ذاتها فى حساب مدى هبوط النيل فوجدت أنه هبط ٢٤ قدما فى مطلع يونية التالى . ومعنى هذا أن النيل يرتفع فى منطقة القاهرة بمقدار ٢٤ قدما على وجه التأكيد . أما فى دمياط ورشيد فلا يرتفع النيل ، على قدر ما أكد لى الناس ، الا بمقدار نحو أربعة أقدام فقط . وما من انسان أطال التفكير فى فيضان النيل اعتقد أن النيل لا يرتفع فى الموضع الذى يمكن القول بأنه ينحصر فيه فى مجراه ارتفـاعا يفوق ما يبلغه قرب البحر المتوسـط بعد أن يكون قد روى الحقول الظامئة الكثيرة وراء القاهرة وملأ الكثير من البرك أو البحيرات الداخلية الصغيرة ، وتفرع الى فروع عديدة . ولعل الذين شغلوا بهذا الموضوع لم يتوقعوا أن يـكون الاختلاف فى مستوى الفيضان اختلافا شديدا الى هذه الدرجة على هذا البعد الهين .

ويعمد الناس، اذا بدأ النيل فى الارتفاع، الى سد كل القنوات الكبيرة والصغيرة المتفرعة من المجرى الرئيسى لرى الحقول المحيطة ، وتطهيرها حتى يصل الفيضان الى مستوى بعينه يتحدد اعتمـادا على مقياس النيل فى جزيرة الروضة ، وهناك شيخ معين لهذا الغرض يعلن ارتفاع مستوى

المياه عندما يتبينه • وينتظر هذا الاعلان فى مصر العتيقة أو الفسطاط كثير من الفقراء ؛ يهرعون بالخبر السعيد على الفور الى القاهرة فيعلنــه كل منهم فى شوارع حيه • ويعود هؤلاء الناس فى كل يوم فى ســاعة معلومة الى الفسطاط حيث يعلن عليهم الشيخ من المقيــاس مقدار ارتفاع النيل بالقيراط ، فينشرون الخبر كما فعلوا فى يومهم الأول • وهكذا حتى يبلغ النيل الارتفاع الذى يتيح فتح الخليج الذى يجتاز القاهرة ، وتكون تلك اشارة الى أن موعد دفع الخراج الى السلطان قد حل ، والى أنه لم يعد هنالك خوف من القحط •

وما ينبغى أن يصــدق الانســان الأرقام والبيانات التى ينشرها الشيخ عن ارتفاع النيل الا أقل التصديق ، فالشيخ يذهب وحده الى المقياس ، ويعلن فى البداية رقما أقل من الرقم المسجل حتى يستطيع فى النهاية ، اذا قل ارتفاع المياه فى بعض الأيام أن يعلن رقما أعلى حتى لا يتملك الناس الخوف من ألا يصل الفيضان الى الارتفاع المأمول. ولقد ذهبت بنفسى فى الوقت الذى كان الناس فيه يتوقعون قرب فتح الخليج من القاهرة عدة مرات الى فم الخليج لأتبين على جدار مائل تغير ارتفاع المياه ، وكانت الأخبار التى ذاعت فى المدينة فى تلك الأيام تتضمن أرقاما أعلى من تلك التى سجلتها • وكم أتمنى أن يقوم أحد التجار الأوروبيين المقيمين بالقاهرة والمستأجرين لبيت بالجيزة ، أو أحد الرهبان الموجودين هنا ، أو رحالة أوروبى آخر بقياس ارتفاع النيل دون أن يلحظه المسلمون • وأســهل وسيلة لذلك أن يقيس ارتفاع ماء نهر النيل فى وقت التحاريق معتمدا على جدار قائم على حافة النهر ، ثم يقوم بعد ذلك يوميا بعد الأحجار البارزة

فوق سطح الماء وحساب مقدار الزيادة التى تطرأ على ارتفاع سطح الماء ، وسيتبين أن المياه قد تنخفض أثناء الفيضان فى وقت لا يكون فيه الانخفاض متوقعا • وعليه فى هذه الحالة أن يسأل هل فتح خليج من الخلجان فى موضع ما ، فان ذلك من شأنه أن يؤثر تأثيرا واضحا على ارتفاع النيل •

ولقد نودى — فى العام الذى كنت فى مصر خلاله — على بداية الفيضان فى ٢٩ يونية ، وجاء فى يوم من أغسطس الاعلان بأن النيل بلغ ١٦ ذراعا • وفى اليوم التالى جرى فتح السد المقام على الخليج المار خلال القاهرة ، وأقيم لذلك الاحتفال الذى سبق الكثيرون الى وصفه • وظللنا فى المدينة ننتظر ورود الماء بلا جدوى ، ذلك أن تطهير الخليج تم فى هذا العام على نحو بالغ الرداءة فلم نر الا فى مساء العاشر من الشهر قليلا من الماء ، وكان المألوف أن يمتلىء الخليج فى اليوم الأول من الماء بما يتيح للسفن أن تجرى على صفحته ذهابا وايابا • وكان لهذه الحادثة الغريبة أثرها فى احداث هياج شديد بين أهل القاهرة•وتحدث الناس بأن الرجل الذى تولى تطهير الخليج سيفقد رأسه حتما ، ولكنه دفع مبلغا كبيرا من المال الى الحكومة وأقام علاوة على ذلك فى اليوم الحادى عشر من أغسطس على نفقته سدا جديدا على الخليج جرى فتحه فى الثانى عشر من الشهر بغير احتفال •

ويتوالى فتح الترع الكبيرة فى الوجه البحرى الواحدة تلو الأخرى بعد فتح خليج القاهرة ، وليس لأى ناحية أن تسحب مياه النيل اذا لاح لأهلها أن المياه قد ارتفعت ارتفاعا كافيا ، بل هناك قوانين بعينها يلتزمها المصريون التزاما دقيقا • كذلك يلتزم القائمون على كل قناة بقوانين

خاصة يفتحون طبقا لها الترع الجانبية ، وتظل فتحات البرك داخل القاهرة وحولها مقفلة ثلاثة أيام عادة حتى يمتلىء الخليج الجارى خلال القاهرة بالمياه على خير وجه • ولم تنهمر المياه فى هذا العام الى بركة الأزبكية الا فى الثامن عشر من أغسطس ، أما البرك الأخرى فقد فتحت بعد ذلك •

ويقام فى الخليج اتباعا لعادة قديمة ، بين السد المتخذ عليه ومجرى النيل عمود من الطين بالارتفاع الذى يتوقع الناس أن يصل النيل اليه فى فيضانه عند فتح الخليج ، ويطلق المصريون على هذا العمود اسم « العروس » • وأنا أعتقد أننى قرأت أن المصريين أيام الكفر كانوا يلقون فى النيل عذراء قربانا فى كل عام • أما هذه العروس التى يقيمها المسلمون فلا يمكن اعتبارها بحال من الأحوال الا بمثابة مقياس شعبى للنيل ، فالتيار فى هذا الموضع هادىء طالما ظل السد قائما لا يقوى على الاطاحة بالعروس ، ويستطيع عامة الشعب أن يعرفوا بالنظر اليها مدى ارتفاع النيل ومتى يكون فتح الخليج على وجه التقريب • فاذا تم فتح الخليج لم يعد للعروس نفع يرتجى ، وانساب الماء على نحو شديد وبخاصة فى الأيام الأولى فأطاح بالعروس •

ولقد تعجب جبريل الصهيونى كل التعجب فى تعليقاته على جغرافية الادريسى من المحاولات التى يقوم بها المصريون ليعرفوا مسبقا مقدار ارتفاع مياه النيل ، وهل ستكون السنة سنة جدب أو رخاء • وتوشك النساء المصريات جميعهن تقريبا سواء منهن المسيحيات والمسلمات على الايمان بمقدرتهن على التنبؤ بها ، والشائع فى مصر أن النيل يبدأ ارتفاعه فى ليلة السابع عشر الى الثامن عشر من يونية فى

الحبشـــة ، وأن « النقطة » التى تسبب فيضـــان النيل تسقط اذ ذاك • وتضع النسوة فى الليلة المذكورة كمية معينة من العجين على أسـطح بيوتهن ، فاذا لم تزد وزنا فى اليوم التالى فمعنى ذلك أن النقطة لم تسقط فى تلك الليلة • أما اذا زاد وزن العجين ، فمعنى ذلك أن النقطة سقطت • ويذهب الناس الى أن فى مقـدورهم أن يحسبـوا بالأقدام الزيادة التى سيزيدها النيل والأسعار التى ستكون عليها المحاصيل فى العام التالى • ولما كان المناخ فى مصر منتظما غاية الانتظام فربما كان ذلك الفصــل من العام فصـــلا يسـقط فيه ليلا ندى كثير يؤدى الى زيادة وزن العجين المكشوف ــ ولما كانت النسوة يضعن العجين فى تلك الليلة بالذات ، فانهن يزدن فى سلامة تجاربهن • ولقد اختلفت نســاء القاهرة فى هــذا العام على الليلة التى سقطت فيها النقطة ، ولما كن جميعا يتبعن التقويم القبطى فى الحساب فقد أخطأ بعضهن الليلة ، واكتشفن النقطة على الرغم من ذلك • والمؤكد على أية حال أن الناس فى مصر يقومون فى كل عام بمحاولات ليعلموا متى يبدأ النيل فيضانه ، وليكتشفوا هل ستكون السنة سنة غلاء أو رخاء ، والعقلاء من المسلمين لا يحملون المسألة كلها الا على محمل التسلية المحضة التى يتسلى بها النساء ، وقال لى بعضهن ان المنجمين العرب يسمون اللحظة التى تدخل فيها الشمس برج السرطان « النقطة » وان هذا الاسم أغرى العامة بالقيام بهذه التجارب التى لا طائل وراءها •

ولقد تبينت أن السيد فورسكال قد قام بنفسه ببعض التجــارب وسجل التقرير التالى عنها •

« ينتظر أهل القاهرة فى ليلة السابع عشر من يونية « النقطة » ، ولما

كانت شهور التقويم الهجرى لا تأتى دائما فى الفصل نفسه ، فان الناس يتبعون فى القياس التقويم القبطى • ويعتقــد عامة الناس فى مصر منــذ أزمان ســحيقة أن نقطة ماء تسقط من الســماء الى النيل فى تلك الليلة وتسبب بعد أسبوعين أو ثلاثة أســابيع فيضان النهر ، ولهذا فهم يجرون ، على الأقل فى نصف بيوت المدينــة ، تجارب اســتطلاعية ليعرفوا بهــا ما سيكون عليه النيل من نماء وما ســيحمله الى البلاد من خصب • من هذه التجارب تجربة تتلخص فى وضع رطل من الطين الجاف كل الجفاف فى طست ، وصب ما يساوى وزنه من ماء النيل عليه ، ثم يترك الطست على هذه الحال فى الليلة التى ينتظرون فيها النقطة ، والبعض لا يفرقون بين وضع الطست على السطح أو وضعه فى مكان مسقوف والبعض الآخر يرون أنه من الضرورى أن يوضع على السطح فى مكان مكشوف • فاذا امتص الطين الماء كله كان ذلك نذيرا بعام جاف ، أما اذا بقى الماء فعلى قدره يكون فيضان النيل • ولقد قمت أنا نفسى باجراء هذه التجربة ليلة بعد ليلة ، ووجدت أن الماء يبقى فى كل مرة لا يمتصه الطين كله ، ولست أظن أن طين النيل يمكن أن يمتص قدر وزنه ماء ، ومعنى هذا أن التجربة مضمونة النجاح أصلا وأنها تشير فى كل الأحوال الى أن النيل يفيض فى كل عام ، وليس هناك حد معين لقياس كمية الماء المتبقى ، بل يخرج كل واحد من هذه التجربة التى لاجدوى منها بما يشاء له تصوره من نبوءته •

والتجربة الاستطلاعية الثانية تتلخص فى عمل قراطيس صغيرة من الورق عددها ١٢ قرطاسا ، وكتابة اسم شهر من الشهور القبطية على كل قرطاس ، ووضع مقادير صغيرة متساوية من القمح فى القراطيس ، فاذا

زاد وزن قرطاس كان ذلك فى ظنهم علامة على أن النيل سيكون طيبا فى الشهر المكتوب عليه ، وهذه التجربة أكثر سخفا من الأولى •

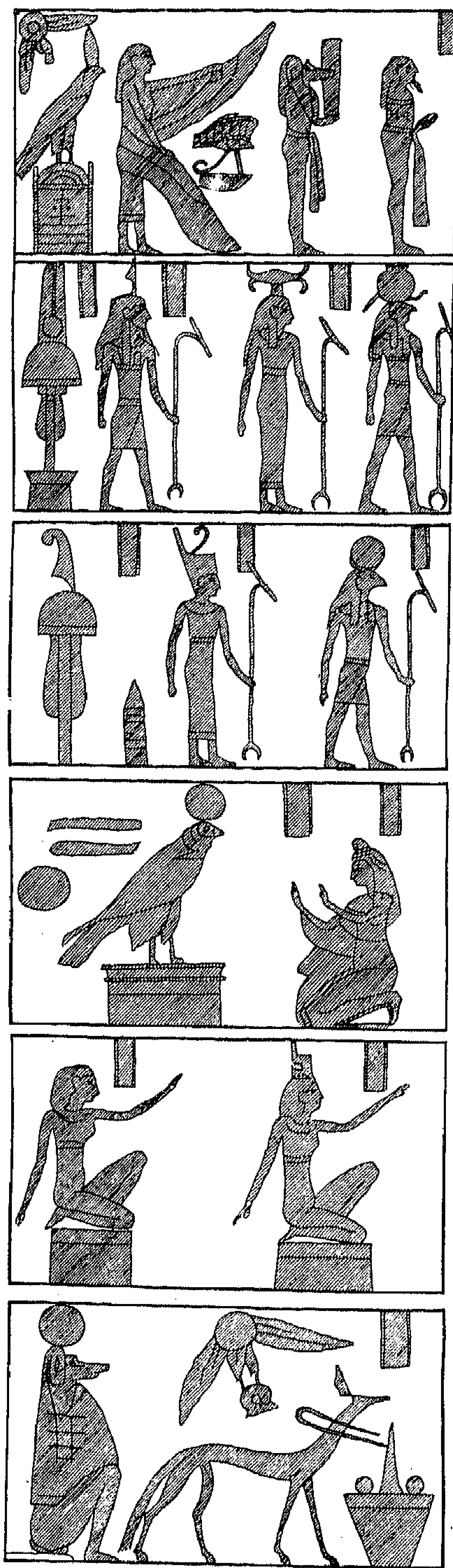
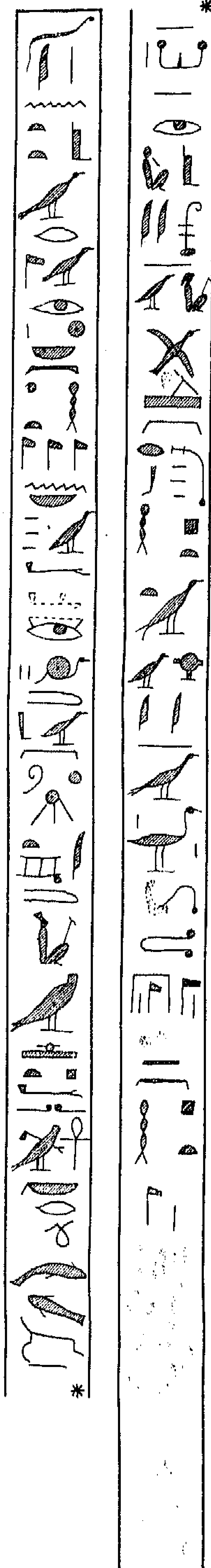
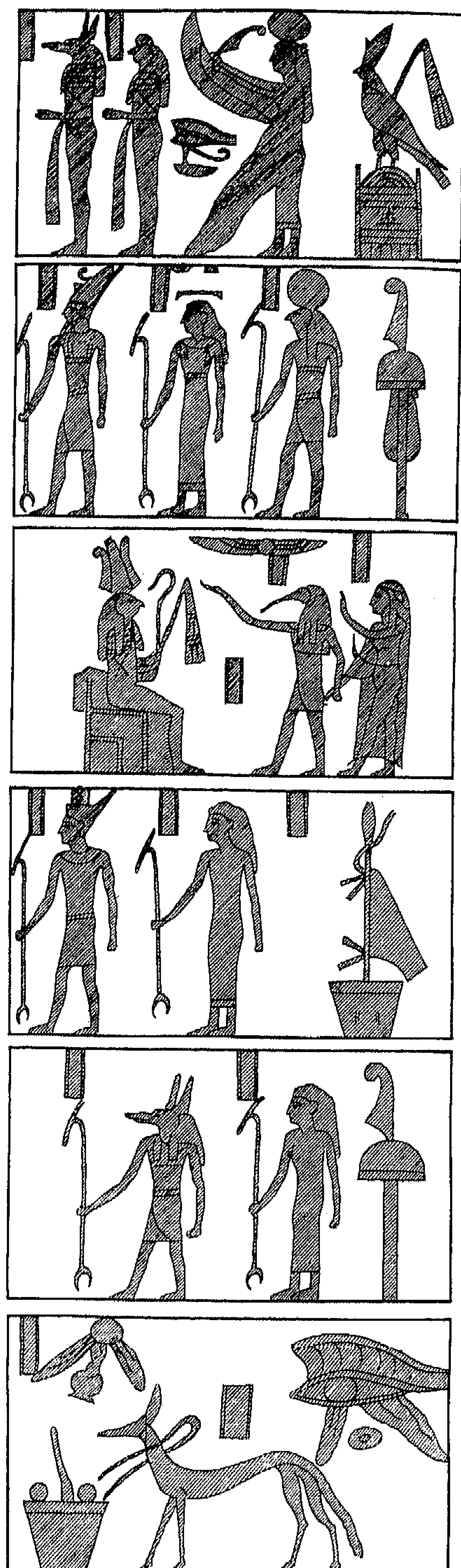
كذلك يعتقدون أنهم اذا وضعوا عجينا فى العراء فى الليلة التى تسقط فيها النقطة ، فانه يتخمر ، أما فى الليالى الأخرى فلا • واذا أراد بعض الأشخاص المقيمين فى بيت واحد أن يتسلوا ، فان كلا منهم يضع قليلا من العجين فى صحن ، ثم يوضع الصحن بما فيه من قطع العجين فى العراء ويعتقـدون أو يقولون مازحين على الأقل ان من اختمر عجينه أكثر من الآخرين هو أكثرهم حظا فى عامه • ولقد قمت أنا باجراء هـذه التجربة ليلة بعد أخرى ، ولم يختمر عجينى فى ليلة السابع عشر من يونية • أما فى الليالى الثلاث التالية فقد اختمر سواء وضعته فى العراء أو فى الحجرة ، وكان من الواضـح أن العجين اختمر فى الليلة التى سبقها نهـار حار ، وليس لمعجزة تحققت فى ليلة تمتاز على غيرها من الليالى » •

ذكرنا من قبل أن الخليج الذى يشق القاهرة يجرى تطهيره عاما بعد عام ، فاذا انتهت أعمال التطهير استخدمه الناس كما يستخدمون الشارع ، ولكنهم لا يجدون السبيل الى ذلك الا لبضعة أيام فقط ، لأن تطهير الخليج يؤجل حتى قرب موعد فتح السـد • والسـكنى فى البيوت المشرفة على الخليج ممتعة فى الشهور القليلة التى تلى فتح السـد عندما تنساب المياه فى الخليج ، أما بعد ذلك فان الخليج يكون فيما بقى من العام جارا قبيحا غاية القبح ، لأن سكان البيوت المحيطة يلقون فيه الكثير من القاذورات ، فلا يتم له الجفاف ، وتبعث هذه القاذورات الراكدة فى هذا البلد الحار رائحة كريهة للغاية •

وليس بالقاهرة ذاتها ماء صالح للشرب ، بل يرد اليها يوميا من النيل في قرب من الجلد على ظهور الجمال والحمير . وهناك تحت بعض المساجد صهاريج عامة للمياه تملأ فى وقت معلوم من العام لتزود المدينة بالماء الشروب فى الوقت الذى يبدأ فيه الفيضان ، وتتعكر مياه النيل وتصبح ، فيما يرجحون ، ضارة بالصحة . ومياه النيل عكرة دائما الى حد ما ، فاذا ما وضعت فى جرار كبيرة ، كتلك التى يجدها الانسان فى كل بيوت المدينة، قد حكت من الداخل باللوز المعد بطريقة معينة فانها تروق فى ظرف ساعات قليلة ، وتصبح خفيفة نافعة .

ويصاب سكان القاهرة فى فصل معين من فصول السنة من أثر مياه النيل يطفح جلدى[٤١] يكسو الجسم كله، وهويسبب الضيق ، ولكنه لايضر على الاطلاق .

السكان • نظام الحكم • التجارة
فى مدينة القاهرة

لوحة رقم (١٥)

غالبية سكان مدينة القاهرة عرب وأتراك ومسلمون آخرون من كل ولايات الدولة التركية • يضاف اليهم مغاربة أو عرب من بلاد البربر ، وأفارقة وتتر وفرس • والمسلمون المصريون سنيون يتبع أغلبهم مذهب الشافعي • وطائفة المسيحيين الأقباط هى الطائفة التى تلى المسلمين عددا ، وهؤلاء ينحدرون من المصريين القدماء ، والأتراك يسمونهم ـ أحيانا على سبيل السخرية ـ أبناء فرعون ، ويسكن هؤلاء الأقباط عند بركة اليزبكية وقنطرة الخرق وباب الشيخ ريحان وأماكن آخرى ، فى أحياء وشوارع كبيرة ، ولهم فى القاهرة كنيستان فقط ، ولهم فى مصر العتيقة كنائس أخرى مختلفة ، وهناك يقيم حاليا البطريق القبطى ، وليس المسيحيون المصريون وحدهم هم الذين يتبعونه ، بل انه هو الذى يرسل الى الحبشة ، كما هو معلوم ، أعلى رجال الدين مرتبة •

وطائفة اليهود هى التى تلى المسلمين والأقباط عددا ، ولا تتكون طائفة اليهود من الفريسيين أو التلموديين فحسب ، بل تضم أيضا قرائين لهم معابدهم الخاصة ، وان كانت جماعة القرائين قليلة العدد جدا • وأحوال اليهود التلموديين فى مصر طيبة جيدة ، وقد تولوا أعمال الجمارك

المصرية كلها منذ أعوام كثيرة ، وهي جمارك بولاق ومصر العتيقة والاسكندرية ودمياط . وينالون من الديوان هنا عن طريق الهدايا وغيرها من الوسائل والسبل قدراً من الحماية يفوق ما يحصل عليه الآخرون في الولايات التركية الأخرى التي يخضع فيها عمال الجمارك للباشاوات أو للرئيس الأعلى للجمارك في القسطنطينية . ومما يدل على أن اليهود يمكنهم أن يحققوا الكثير جدا من مطالبهم لدى ديوان القاهرة ، أن الجمرك يتعطل يوم السبت ، فلا تمر به بضائع سواء كانت مملوكة للمسلمين أو للمسيحيين .

ولليونانيين في القاهرة كنيستان فقط ، يقيم عند احداها بطريق الاسكندرية ويقيم عند الثانية مطران جبل سيناء . أما الجالية الأرمنية هنا فصغيرة ، ولها كنيسة صغيرة جميلة تتبع الكنيسة القبطية .

وللأمم الأوروبية في القاهرة قنصل فرنسي وقنصل ڤينيسي وقنصل هولندي ، ويلتقي الانسان هنا بتجار فرنسيين وايطاليين مختلفين . أما التاجر الهولندي الوحيد الذي كان قد استقر قبل وصولنا بقليل في القاهرة فقد ترك المدينة أثناء وجودنا بها وعاد الى أزمير . ولا تخلو مصر من الرهبان الأوروبيين ، ففي القاهرة يسوعيون وكبوشيون وفرنسيسكان(*) وكلهم متحمسون غاية الحماس للتبشير وكثيرا مايتمكنون من تحويل بعض المسيحيين الشرقيين الى الكاثوليكية . ولا يعتقد المسلمون أن هؤلاء الداخلين الجدد في الكاثوليكية سيكونون مواطنين أفضل ،

(*) Patres de propaganda fide , Patres de terra sancta.

ولكن أصحاب الحل والعقد فى الديوان لا يجدون سببا يدفعهم الى مناهضة المبشرين الأوروبيين ، فالمنازعات التى كثيرا ما تنشب بين المتحولين الى الكاثوليكية والمتمسكين بالكنيسة الأولى تتيح للباشوات فرصة تحصيل غرامات مالية مرتفعة من هذا الطرف مرة ومن الطرف الآخر مرة أخرى ، بل ان الرهبان أنفسهم يطالبون أحيانا بدفع الغرامات التى يحكم بها عليهم .

وللباشا المقيم هنا فى كل وقت ثلاثة من ذيول الخيل ، وهذا يعنى أنه من الطبقة العليا . ولكن السلطة التى له فى البلد دون السلطة التى لغيره من الباشاوات فى الولايات الأخرى ، فهو يخضع فى أغلب الأحوال « للجمهورية » (٤٢) أى للديوان الذى يتكون من البكوات (البكوات والسناجق والأمراء) ومن رؤساء القوات المصرية ومن كثيرين غيرهم من وجهاء القاهريين . ولما كان هؤلاء يفكرون بصفة عامة تفكيرا مختلفا عن الباشا الذى يعتبرونه مستبدا بهم فان المصريين كثيرا ما يعزلون هذا الوالى المعين من قبل السلطان اذا لم تكن لديه الحنكة الكافية لاثارة الأحزاب المختلفة بعضها على البعض الآخر ولمساندة هذا الحزب تارة وذاك تارة أخرى فى الوقت المناسب . وفى الوقت الذى كنت فيه فى الاسكندرية طرد القاهريون أحد الباشوات . وكان مصطفى باشا ، الذى شغل منصب الصدر الأعظم مرتين ثم تمكن بعد ذلك من الارتقاء الى هذه الرتبة الرفيعة مرة أخرى ، قد تلقى أمرا بالذهاب الى جدة ، ولكنه ادعى المرض عند رحيل القافلة الكبيرة وأرسل وكيلا عنه ، وبقى هو فى القاهرة . وانتخبه القاهريون باشا لمصر وتوصلوا الى جعل السلطان ، على الرغم

من حنقه على الباشا وعلى المصريين جميعا ، يعينه واليا على مصر • ولم يشغل مصطفى باشا المنصب الا سبعة أشــهر فقط ، اضطر بعدها الى تسليم مقاليد الحكم الى باشا آخر جاء من القسطنطينية • ولم يلبث أن خلفه باشا جــديد هو كابيجى باشى مات فجــأة فى الليلة التالية لتوليه الحكم • وهكذا حكم مصر فى الفترة الوجيزة التى كنت خلالهــا بالقاهرة ثلاثة من الولاة • كذلك من المألوف أن يأتى من القسطنطينية كل عام قاضى قضاة جديد يحل محل القديم ، ولست أعرف فى هذه العاصمة غير ذلك من الوظائف الكبيرة التى تخضع مباشرة للسلطان أو للمفتى الأكبر •

ويتولى البكوات فى مصر الوظائف العليا بعد الباشــا أو والى السلطان • والوالى هو الذى يعين من يشغل هذه الوظائف وغيرها ، ولكن المصريين هم الذين يرشحون الموظفين ، وأغلبية الموظفين رجال ولدوا على المسيحية وأخذوا فى صغرهم من چيورچيا ومنجريليا الى القسطنطينية ، ومنها الى القاهرة حيث يبــاعون ربما لقاء ٦٠ أو ١٠٠ قرش • ويشترى البكوات وغيرهم من وجهاء المصريين عــددا كبيرا من هؤلاء العبيــد المسيحيين الصغار ، ويعلمونهم كل ما ينبغى أن يتحلى به السيد المســلم المهذب ، وكأنهم أبناء لهم ثم يعينونهم بحسب مهارتهم فى الوظائف المدنية أو فى قواتهم الخاصة ، فكل بك له حرسه الخاص أو قواته التى تبين عظمته أو التى تحفظ النظام فى المديرية أو النواحى الخاضعة له • ولمــا كان هؤلاء الرجال يعرفون أن الفضل فيما هم فيه من نعيم فى الدنيــا يرجع كله الى سيدهم فانهم يخلصون له كل الاخلاص • والســيد اذا اكتشف فى واحد من عبيده قدرات خارقة واخلاصا فائقا ، يرقيــه الى

وظائف أعلى من تلك التى يتولاها هو لأنه بذلك يدعم جانبه فى الحكومة •
ولقد تعرفت الى تاجر كبير ثرى لم يكن يقوم على خدمته سوى خادم واحد ، ولم يكن يركب سوى الحمار اذا خرج لقضاء أعماله ، ولكنه دفع ببعض عبيده الى حيث أصبحوا ضباطا كبارا فى القوات المصرية التى تظهر فى شوارع المدينة فى أبهة عظيمة ، علما منه بأنهم على استعداد فى كل وقت لحماية صاحب الفضل عليهم •

ولقد أعان رجل اسمه حسن كخيا عددا من عبيده على الوصول الى وظائف عظيمة وتحقيق ثروات كبيرة ، وكان من بينهم عثمان كخيا سيد ابراهيم كخيا الذى رفع الكثيرين من مماليكه وخدمه الى أعلى الوظائف حتى تمكن بعونهم فى السنوات الأخيرة من حكم مصر كلها تقريبا على الرغم من انه هو لا يشغل سوى وظيفة كتخدا الوقف التى يتغير شاغلها كل عام • والكخيا هو الذى يلى فى الرتبة أغا الانكشارية •

وفى الوقت الذى كنت فيه فى القاهرة كان صاحب الحل والعقد عبدالرحمن كخيا (٤٣) بن حسن كخيا الذى أشرت اليه من قبل والذى لم يكن سوى كتخدا الوقف ، ولم يكن له بمفرده سلطة كبيرة ، ولكن البكوات والأغوات الذين يرجع الفضل فيما وصلوا اليه من عز الى أيادى أسرته عليهم ، كانوا ــ وهم أولو القوة الكبرى ــ فى صفه ، ثم انه كان غنيا واسع الثراء،وكان لايكتفى بتأكيد عظمته عن طريق قواته الخاصة بأعدادها الغفيرة ، بل كان يحظى بحب العامة ورجال الدين للأوقاف الكثيرة التى أوقفها على الخير • ويقولون ان كل بكوات مصر من أصل مسيحى وانهم بيعوا بيع العبيد فى صغرهم ، وان بعضهم القليل من أصل

مسلم ولم يكونوا يوما ما من العبيد • وسأذكر فيما يلي أسماء جميع البكوات الذين كانوا بمصر أيام اقامتي بها •

١ ـ خليل بك : اشتراه ابراهيم كخيا ورباه ورقاه ، وكان في عام ١٧٦٢ يشغل منصب الدفتردار أو صاحب خزينة مصر •

٢ ـ حسين بك : وكان في العام المذكور أمير الحج أو رئيس قافلة الحجاج المصريين ، وكان هو أيضا من مماليك ابراهيم كخيا •

٣ ـ علي بك : وكان أيضا من مماليك ابراهيم كخيا ، وقد شغل منصب شيخ البلد أي ما يساوي محافظ القاهرة ، وكانوا في زماني يسمونه علي بك الصغير •

وقد قام في العام التالي هو وحزبه باجبار الباشا الحاكم على اصدار أمر الى عبد الرحمن كخيا ـ الذي كان قد ذهب الى بركة الحج مرافقا لبعض أصحابه ـ بألا يعود الى القاهرة وبأن يرحل مع القافلة على الفور ، وأصبح لعلي بك من النفوذ ما كان لعبد الرحمن كخيا • الا أن هذه الحال لم تستمر طويلا ، فسرعان ما بعثوا به هو الى غزة ، ولكنه عاد في عام ١٧٦٨ الى القاهرة مرة أخرى وقتل بالليل أربعة بكوات ، وأكره الباشا على أن يصدر أمرا بمنع أربعة آخرين من البكوات لاذوا بالفرار من أن يعودوا الى القاهرة ، وهكذا أصبح زعيم الحزب الباقي وأصبح أمره نافذا على الجميع ، حتى انه أعاد الباشا الذي أرسله السلطان وأعلن العصيان على السلطان رسميا ـ الا أن واحدا آخر من البكوات هو محمد بك أبو الدهب طرده ، فتحالف مع طاهر عمر ، شيخ عكا ، كما

هو معلوم من الأخبار . ـ أما البكوات الآخرون فلم أستطع معرفة الوظائف التى يقومون بها .

ويلى البكوات الثلاثة الذين ذكرتهم آخرون هم :

٤ ـ عثمان بك : وكان مملوكا لابراهيم كخيا .

٥ ـ حسن بك : وكان مملوكا لسليمان أغا ، كخيا الجاويشية .

٦ ـ حسن بك : كان مملوكا لعمر بك الكتيار ، وكانوا يسمونه حسن بك رضوان حتى لا يختلط بحسن بك السابق الاشارة اليه .

٧ ـ خليل بك : وكنيته بلفى وكان ابنا لبك اسمه ابراهيم بك أى أنه كان ابنا لواحد من وجهاء المسلمين .

٨ ـ حسن بك المسمى دامود : كان عبدا لسليمان أغا ، كخيا الجاويشبة .

٩ ـ صالح بك : كان فيما مضى مملوكا لمصطفى بك الكرد .

١٠ـ عثمان بك : وكنيته أبو سيف (أى ذلك الذى برع فى استخدام السيف) كان تركى المولد من القسطنطينية ، ولم يكن عبدا قط ، وقد رقاه ابراهيم كخيا ـ الذى كان يعمل فى خدمته ـ ليشغل أهم المناصب فى قواته الخاصة ثم رفعه أخيرا الى رتبة بك فى مصر .

١١ ـ خليل بك : وكنيته السكران (أى الذى يشرب حتى السكر) وكان مملوكا لحسين بك أمير الحج الحالى .

١٢ ـ أحمد بك السكرى : كان ابن تاجر سكر مسلم من القاهرة ، أى

انه لم يكن مسيحى الأصل ، وقد شب فى بيت ابراهيم كخيا ، وكان فى زمنى سنجق السويس ، أى أنه كان منفيا •

١٣ ـ اسماعيل بك : مملوك ابراهيم كخيا •

١٤ ـ محمود بك : مملوك عثمان كخيا •

١٥ ـ حمزة بك : كان ابنا لحسن بك أباظة ، أى انه ولد مسلما •

١٦ ـ محمد بك : وكنيته الحنفى • كان مملوكا لسليمان أغا الجاويشية •

١٧ ـ محمد بك دالى : ابن اسماعيل بك الدالى ، أى انه كان مسلم المولد •

١٨ ـ على بك : وهو غير على بك شيخ البلد ، ولقد كان عظيم النفوذ فى القاهرة قبل عدة أعوام ، ولهذا لقب بالكبير ، وكان على بك الكبير هذا أيام وجودى فى مصر منفيا فى غزة ، وعاد قبيل رحيلنا الى القاهرة ، وما لبث أن مات ، ويرجحون أنه مات بفراء مسموم قدمه اليه صديق زائف مدعيا انه هدية يعبر بها عن اجلاله اياه • وكان على بك الكبير مملوكا اشتراه ابراهيم كخيا ورباه ، وأظن انه هو الذى روى عنه انه كان ابن قسيس من چيورچيا وان والديه واخوته جاءوا لزيارته فى القاهرة ، ثم عاد الوالد المسن وبقى أخواه وأخته ودخل أخواه هذان فى الاسلام وعينهما على بك كاشفين فى منطقتين صغيرتين •

والمفروض أن يكون عدد البكوات فى مصر ٢٤ ، ولكن هذا

العدد لا يكتمل بحال من الأحوال ، وربما كان السبب فى ذلك أن موارد البلاد لم تعد على ما كانت عليه فيما مضى من الوفرة ، وربما كان السبب هو أن الباشا والبكوات يقتسمون فيما بينهم الموارد التى كان المفروض أن يحصل عليها بقية البكوات .

ويلى البكوات فى الديوان بالقاهرة :

١ ـ الأغا : وهو رئيس كتيبة من المتفرقة ، والأغا الحالى كان مملوكا لابراهيم كخيا .

٢ ـ كتخدا الجاويشية ، وكان الكتخدا مملوكا لعثمان كخيا .

٣ ـ أغا الجملان ، وكان مملوكا لابراهيم كخيا .

٤ ـ أغا التفكشان ، وكان مملوكا لابراهيم كخيا أيضا .

٥ ـ أغا الجراكسة ، وكان مملوكا لعثمان كخيا .

٦ ـ أغا الانكشارية . والأغا الحالى كان قديما مملوكا لابراهيم كخيا .

٧ ـ أغا العزب ، وكان قديما مملوكا لابراهيم كخيا .

ويجلس فى ديوان الباشا علاوة على البكوات والأغوات المذكورين آخرون كثيرون مثل قادة (كخيا) الكتائب ، وعدد كبير من العلماء ورجال الدين وغيرهم . ولما لم أكن قد تمكنت من الحصول على معلومات وافية عن أعمالهم ، فاننى لا أستطيع أن أذكر هنا شيئا موثوقا . وكم كنت أتمنى لو أن السيد مايبه Maillet أورد أخبارا أوفى عن نظام الحكم فى

مصر لأنه أمضى فيها سنوات كثيرة ، وعرف شخصيا كثيرا من وجهائها فكان أصلح لمعالجة هذا الموضوع من رجل كانت رحلته فى مصر رحلة عابرة . والظاهر أن نظام الحكم الذى وجده الأتراك فى هذه البلاد لايزال قائما الى اليوم وهو نظام لم يستطع الأتراك على قوتهم وصلفهم أن يغيروا منه شيئا .والحق أنه جدير بأن نعرفه معرفة أدق،على الرغم من أنه لايصلح للتقليد فى كل الأحوال .

ولما كانت القاهرة تعج بصغار المستبدين الذين يتخذ كل واحد منهم لنفسه حرسا خاصا وأحزابا سرية وعلنية ، ويحاول أن يكون الحكم فى يديه وأن يسقط غرماءه ، فقد يظن الظانون أن الأمن حظه ضئيل بين الجموع الغفيرة التى تسير فى الشوارع الضيقة بهذه المدينة ، والحقيقة أننا لم نسمع عن حوادث سرقة وقتل تزيد عن تلك التى تحدث فى أى مدينة أوروبية كبيرة . وهناك علاوة على قاضى القضاة عدد كبير من القضاة الآخرين يجلسون يوميا فى أماكن معينة وبيوت معلومة ليسووا بين الأطراف المتنازعة ، ويقوم الانكشارية فى كل الشوارع الرئيسية بحفظ الأمن ، ولكل حرفة شيخها الذى يعرف أهل الحرفة جميعا . حتى العاهرات واللصوص لهم فى البلاد الشرقية كبيرهم ، وليس معنى ذلك أن اللصوص ينعمون بحرية السرقة ، ولكن الذى يتعرض للسرقة يستطيع أن يتوجه الى شيخ اللصوص فيعيد اليه أشياءه لقاء مكافأة سخية فى أغلب الأحيان* ، ويذهب عدد من وجهاء موظفى القضاء والشرطة نهارا وليلا

(*) بلغنى ان العبيد السود فى طرابلس ببلاد البربر ينتخبون من بينهم شيخا يتقدم الى الحكومة بصفته شيخا للعبيد السود فتعترف به . وقد تبين ان مثل هؤلاء الشيوخ
=

ومن خلفهم حاشية كبيرة تارة الى هذا الحى وتارة الى ذاك ليتأكدوا من صحة مقاييس وأوزان البضائع المعروضة فى السوق ، وليجمعوا المشبوهين ويضربوهم بالعصى أو يعلقوهم — دون مزيد من التقاضى — على المشانق اذا قبضوا عليهم متلبسين ، وهكذا فان الخوف الدائم من مباغتة رجال القضاء يلزم أصحاب الأفكار الشريرة حدودهم . وكنت كلما لقيت واحدا من هؤلاء الموظفين فى الطريق ألاحظ الخوف والفزع على عامة الشعب المصرى ، وكان خادمى المسلم اذا لمحه من بعيد يتمنى أن يعود من حيث جاء ، حتى لا يراه الموظف مرافقا لرجل أوروبى خلال شوارع لم يعتد الأوروبيون ولوجها ، ولو لم أكن أجبره على السير ورائى، لتركنى وولى الأدبار .وتسهم الأبواب الكثيرة المتخذة على مداخل الأحياء المنفصلة وعلى الشوارع الرئيسية اسهاما كبيرا فى أمن الأهالى ، فهى تقفل بالليل الا فى شهر رمضان . ويقف بكل باب من هذه الأبواب بواب يفتح لأولئك الذين تكون لديهم أعمال فى الشوارع بالليل ويأتون اليه حاملين مصابيح ، راجين أن يفتح لهم ، ويتلقى لقاء ذلك بقشيشا بسيطا ، أما المشتبه فيهم فيستوقفهم جميعا . ومعنى هذا أن أولئك الذين يخرجون ليلا للسرقة لا يستطيعون بحال من الأحوال الابتعاد كثيرا ، وهناك عند كل بوابة علاوة على ذلك حجرة صغيرة لواحد أو اثنين من الانكشارية ، لا يتم تبديلهم فى ساعات معلومة ، ولا يستعرضون سلاحهم اذا مر بهم كبير من كبراء القاهرة على ظهر حصانه . وهم يظلون فى موقعهم زمنا

=

لهم فائدة كبيرة فهم يعرفون ابناء جلدتهم معرفة دقيقة ويراقبون اولئك الذين يخالطونهم . فاذا حدث أن هرب عبد أسود من سيده ، فان السيد يرسل الى شيخ العبيد الذى سرعان ما يستدل على الطريق التى سلكها العبد الهارب .

قد يطول الى أعوام ، ويضيعون الوقت نهارا فى تدخين التبغ ولعب الشطرنج وما اليه ، وفى الليل ينام على الأقل واحد منهم فى الحجرة المذكورة • وعلى هؤلاء الانكشارية أن يسهروا على الأمن والنظام فى الحى الذى يحصلون منه على أجورهم ، فاذا تهاونوا فقدوا معاشهم الذى كانوا يحصلون عليه عن سعة وهم مرتاحون • ولهذه الاجراءات فائدة عظيمة عندما ينشب صراع بين الكبار فى القاهرة • فسرعان ما تقفل الأبواب فيحال بين عامة الشعب والتجمع • بل لقد سمعت أن البكوات تشتعل بينهم أحيانا معارك عنيفة فى المدينة وفى الخلاء دون أن يتسبب عنها قلق كثير بين الأهالى •

ذكرت فى كتابى « وصف البلاد العربية » ص ٤٤ أن اليهود والمسيحيين الشرقيين بل والأوروبيين لا يسمح لهم الا بركوب الحمير فى مدينة القاهرة ، وأن عليهم أن ينزلوا من فوقها اذا أقبل عليهم بيك أو واحد من وجهاء القاهرة وهؤلاء السادة لا يظهرون فى الشوارع الا على ظهور الخيل ، ويتقدمهم واحد من خدمهم الجسورين ممسكا هراوة ويقول لمن ظل راكبا على حماره ••• ولم ينزل من تلقاء نفسه : « انزل !* » ، فاذا لم يطع الأمر على الفور صب عليه الخادم جام غضبه قبل أن ينبهه للمرة الثانية الى ما ينبغى عليه أن يظهره لسيده من احترام وتبجيل • ولقد حدث قبل عدة أعوام أن ضرب تاجر فرنسى لهذا السبب ضربا أحاله ما بقى من عمره الى قعيد •

---

* فى الاصل بالعربية ، بحروف لاتينية .

ولقد تعرض طبيبنا الدكتور كرامر للاهانة ذات مرة لأنه لم ينزل من فوق حماره فى الوقت المناسب • ولهذا لا يمكن لأوروبى أن يتنقل فى المدينة على ظهر ركوبة دون أن يكون معه رجل يعرف جميع السادة الذين يظنون أن لهم الحق فى أن ينزل أمامهم الأجانب المؤمنون بأديان بينها وبين الاسلام قرابة من فوق ركائبهم • ولقد كنت فى البداية أركب حمارى ، وأقدم أمامى انكشاريا وأؤخر خلفى خادما ، وكان الاثنان مسلمين ، فكانا يظلان على حماريهما جالسين ، اذا تحتم على أن أنزل • وكان غضبى من هذا الوضع أكثر من غضبى من الذلة التى كنت أجبر على اظهارها للسادة الوجهاء ، ولهذا آثرت أن أسير على قدمى بصفة دائمة تقريبا • كذلك لا يجوز لمسيحى أو يهودى أن يمر راكبا حماره أمام بيت القاضى ونحو أربعة وعشرين بيتا آخر يجلس فيها رجال القضاء ، وبوابة الانكشارية ، والجامع الأزهر وبعض المساجد الأخرى ، ولكن له أن يمر بها سيرا على الأقدام ، وليس له أن يقترب من مسجد السيدة زينب عند قنطرة السباع ، ومن مسجد آخر غير بعيد من باب النصر،ومساجد كثيرة أخرى أقامها حكام مصر السابقون فى حى القرافة، سواء كان راكبا حمارا أو سائرا على قدميه ، وعليه أن يلتمس له طرقا أخرى •

وقد رأيت على جانبى الحوارى فى هذه المناطق مساجد كبيرة ، وربما جعل العامة للطريق بين بيوت العبادة ما لبيوت العبادة ذاتها من قدسية ، فمنعوا اليهود والمسيحيين من دخولها • والحق أننى لا أعرف عن يقين ما اذا كان الأوروبيون ممنوعين فعلا من ركوب الخيل

فى القاهرة • فقد كان هناك قبل أعوام ليست بالكثيرة قنصل انجليزى غنى ، كان يلبس الملابس التركية ويركب حصانا دائما ، وكانت ثروته تمكنه من اقامة الولائم لوجهاء القاهرة ، وكانوا هم أيضا يولمون له ، وكان اذا خرج الى الشارع يوزع الصدقات عن سعة ، وكانوا يحبون رؤيته • أما الآن فلا يركب السادة القناصل الجياد الا اذا كانوا ذاهبين للمثول بين يدى الباشا ، وهم عند ذاك يلبسون الملابس الأوروبية الفاخرة • فاذا ساروا فى الطريق كان عليهم أن يسمعوا صابرين الكثير من ألفاظ السب واللعن يوجهها اليهم العامة — وهذا شىء لا أجد فيه ما يدعو للدهشة — لأن ملابسنا القصيرة الضيقة تعتبر فى نظر الشرقيين فاحشة غاية الفحش لا تليق على الاطلاق برجل شريف ، كذلك لا يرى الانسان على ملابس الناس هنا ذهبا أو فضة • ويلبس القناصل فيما عدا ذلك الملابس التركية الطويلة ، وينزلون مثلهم مثل التجار الأوروبيين والمسيحيين الشرقيين واليهود من فوق حميرهم اذا بلغوا الأماكن المذكورة أو اذا مر بهم فى الطريق واحد من وجهاء المسلمين •

وعلى الرغم من أن مصر ليست آهلة بالسكان كما كانت فى العصور القديمة ، فان دخل البلد لم يعتوره نقص • ولما كانت مصر تتمتع بموقع ممتاز للتجارة ، كان من الطبيعى أن يجد الانسان فى القاهرة عددا كبيرا من التجار الأغنياء الذين يمارسون تجارة واسعة مستمرة مع أوروبا وآسيا وأفريقيا • وتتلقى مصر عن طريق الخليج العربى كل ما تحتاج اليه تقريبا من الهند وفارس وبلاد العرب • وينقل النيل التجارة مع النوبة، وتتصل التجارة من ناحية البحر المتوسط مع سوريا وتركيا وبلاد البربر

وأوروبا • أما البلاد التى لم تصل اليها الرحلات البحرية ، فتأتى منها كل عام قوافل كبيرة محملة ببضـائع ثمينة تقايض عليها لتحصـل على البضائع التى تفتقر اليها •

وبينما تتم أعمال التجارة لدينا فى غالبيتها عن طريق المراسلات ، ويلتقى التجـار فى المـدن الكبيرة فى أوقـات معلومة فى البورصـة ، فان التجار الشرقيين يسافرون هم أو خدمهم أو عبيدهم للتجارة ، ويقيم جميع من يأتون من منطقة واحدة ويتجرون فى بضاعة واحدة ، فى وكالة كبيرة أو خان أو كارڤانسراى ، كذلك يقيم جميع الأوروبيين تقريبـا فى شارع واحد بالقاهرة ، أو بحيث لا يبعد بعضهم عن البعض مسـافة كبيرة • وعلى هذا فان مكان اقامة التجـار الأجانب الذين يتجرون فى البضائع الأجنبية معروف • وبالقاهرة وسطاء كثيرون ، يسهلون على البائع التعرف الى المشترين ، ويسهلون على المشترى الوصول الى البضـائع التى يبحث عنها • ثم ان المسافرين الذين يقدمون فى قافلة أو يتأهبون للسفر معها يجدون راحة كبيرة فى النزول بمساكن متقاربة تتيح لهم أن يتبادلوا الكثير من الخدمات الصغيرة ، ولو انهم تفرقوا فى المدينة الكبيرة ، لما وجدوا السبيل اليها •

ولست بقادر على تقديم تقرير واف عن التجـارة التى يمارسـها المصريون ـ الا أننى وجدت أثناء اقامتى بالقاهرة فرصة الحصول على معلومات وثيقة مختلفة عن الصادر والوارد من أحد التجار الفرنسيين ذوى الخبرة ، ولهذا لا أشك فى أن هذه المعلومات سترضى قرائى ، على الأقل

لأنها ستتيح لهم أن يعرفوا المنتجات المتوفرة فى هـــذه البلاد ، وتلك التى تحتاج اليها من الخارج خاصة .

يعتبر الجلد الخام من أهم البضائع التى تصدرها مصر ، ويقدرون كمية الصادر منه سنويا بـ ٧٠ أو ٨٠ ألف قطعة ، تصل الى مرسيليا منها نحو ١٠٫٠٠٠ قطعة من جلود الجاموس الجيدة . وتستورد ايطاليا كمية أكبر بكثير من أنواع مختلفة وبصفة خاصة جلود الجـــاموس والثيران والبقر والجمال . أما جلود فحول الجاموس فيصدرونها غالبا الى سوريا وهى جلود أكثر سمكا وثقلا وان لم تكن أكبر حجما من غيرها . ولمـــا كان العلف فى مصر السفلى أجمل علف ، فان جلود هذه المنطقة تعتبر أحسن الجلود ، وبخاصة جلود الحيوانات التى تذبح فى شهور ينـــاير وفبراير ومارس وابريل ، وهى الشهور التى تخرج فيهـــا الى المراعى الخضراء ، أما فى الشهور الأخرى فتكتفى بالعلف الجاف . والجلود الخام موجودة طوال العام ، وبخاصة بعد عيد الأضحى ، أعنى فى الوقت الذى يجتمع فيه الحجاج فى مكة وعلى جبل عرفات . فى هذا الوقت يذبح الناس فى مصر وفى جميع البلاد الاسلامية الأخرى كمية هائلة من الحيوانات . وكانت تجارة الجلود فى زمن ابراهيم كخيا الذى حكم مصر نحو عشر سنوات بمفرده ــ حكرا ، وبنى المحتكرون فى الاسكندرية مخزنا خزنوا فيه الجلود التى لا يستطيعون تصـــديرها ليبيعوها شيئا فشيئا ، مما يتيح لهم رفع الأسعار . ثم تحررت هذه التجارة من الحكر مرة أخرى وظلت هكذا منذ عدة سنوات ، ولكن الأسعار لم تتغير تغيرا ملحوظا .

ويظهر محصول الزهرة التى يسميها الفرنسيون Saffranon :

URBIS KÁHIRA

nec non

OPPIDORUM BULÁK

MASR EL ÂTIK ET DSJÎSE

ICHNOGRAPHIA

Auctore C. Niebuhr.

لوحة رقم (١٦)

ـ الزعفران ــ فى نهاية شهر مايو ومطلع شهر يونيو ، والزعفران الذى ينمو فى منطقة القاهرة يحمل كله الى وكالة فى القاهرة ولا يعرض للبيع على التجار الا عند نهاية يونيو أو مطلع يوليو ويستمر البيع نحو ثلاثين يوما • ويتراوح مقدار ما يجنونه عادة من هذه الزهرة بين ١٥ و ١٨ ألف قنطار ، يذهب أغلبه وأفضله الى مرسيليا وليفورنو والبندقية ، وتذهب البقية التى لم تستهلك فى مصر ذاتها الى ازمير وسوريا وجدة • وفى مصر أكثر من ١٥ نوعا من الزعفران يقسمونها الى أربعة أنواع رئيسية هى : البلدى والقبلاوى والبحرى والصعيدى ، والنوع الأول هو الذى يجنونه فى منطقة القاهرة وهو أفضل الأنواع ، أما النوع الذى ينمو فى الصعيد أو فى مصر العليا فهو أردأ الأنواع •

وموعد حصاد الكتان شهر يوليو ، وأفضل وقت لشراء الكتان هو الشتاء ، وأكثر تجارته فى رشيد ، وما لا يستهلك فى مصر منه يصدر الى تركيا والى ليفورنو • وتجارة التيل فى مصر تجارة عظيمة جدا ، ويجرى تصديره من مصر الى بلاد البربر ومارسيليا وليفورنو وتركيا وسوريا وجدة بل واليمن ، ومنه أنواع مختلفة •

ويزرع القطن خاصة فى الوجه البحرى ويجنى فى يوليو مثل الكتان، وأفضل وقت لشراء القطن ديسمبر ويناير وليس قبل ذلك • ويصدر أكثر القطن الذى لا تستهلكه البلاد الى مارسيليا وليفورنو •

وموعد حصاد الأرز شهر أكتوبر ، ولا يباع الأرز الجديد قبل شهر ديسمبر ولا يسمح للأوروبيين حاليا بشحن الأرز الا من دمياط ، وتجارة الأرز حكر منذ بضع سنوات •

ويزرع قصب السكر بكثرة فى الصعيد خاصة . ويجنى فى يونيو . وأفضل وقت لشراء السكر شهرا نوفمبر وديسمبر عندما يصل من الصعيد الى القاهرة . الا أنهم فى مصر لا يتقنون صناعة السكر ، وثمنه فى المعتاد هو نفس الثمن الذى يدفعه الأوروبيون اذا ما هم اشتروه من أمريكا .

وتتركز تجارة النشادر فى رشيد ، وأفضل وقت للشراء هو الشتاء ، ويصدر ثلثا الكمية الى مارسيليا وليفورنو ؛ ويتوزع الباقى على الولايات التركية ، ولما كان الطلب على النشادر قد اشتد فى تركيا منذ بضعة أعوام ، وزاد على المألوف، فقد أدى هذا الى رفع السعر بدرجة كبير جدا .

وليس فى مصر من الشمع الأصفر ما يزيد على استهلاك البلاد ذاتها ، ولكن المسيحيين الشرقيين يشترون كميات منه من القرى ويرسلونه الى ليفورنو .

ومن البضائع التى تمر خلال مصر والتى يشترى التجار الأوروبيون نصيبا منها « الصمغ العربى » ، ويأتى العربان الى القاهرة من منطقة الطور وجبل سيناء فى شهر أكتوبر عادة بقافلتين أو ثلاث قوافل صغيرة عليها من الصمغ العربى ما بين ستمائة وسبعمائة قنطار ، وهذه التجارة فى أيدى التجار المسلمين وحدهم . ولا يدخل العربان أبداً بهذه البضاعة الى المدينة ، بل يبقون بها على بعد ربع ميل خارج القاهرة ، وعلى التجار أن يذهبوا اليهم . وهم لا يبيعون بحسب الوزن أو المعاينة ، بل يبيعون الصمغ فى أكياس مقفلة من الفراء غير المدبوغ ، ولا يسمحون للمشترى

الا فيما ندر بأن يفض الكيس قبل اتمام الشراء ، فاذا اعترض بعد الشراء على جودة البضاعة وأراد ارجاعها رفضوا كل الرفض. ومن هؤلاء العربان من يدسون وسط الصمغ بعض الحصى والرمل أو الخشب • ولما كان من الممكن أن يقبض على هؤلاء العربان بعد ذلك فى المدينة ، فانهم لا يقبلون البيع بالأجل ، بل يقايضون عادة على بضاعتهم فى الحال لقاء ملابس أو أسلحة أو ما يحتاجون اليه من أشياء غير ذلك ، ويعودون بعد ذلك الى صحرائهم • ولست أعرف هل الأصح أن يصف الانسان هؤلاء العربان فى تصرفهم هذا بأنهم غشاشون أو بأنهم تجار يفتقرون الى الحنكة • فهم يحبون الحرية والكلام القليل ، ولو كان لهم علم بامتداح بضاعتهم للمارة ، لاستطاع أولئك الذين أحسنوا تنقية صمغهم أن يبيعوه بثمن أغلى بكثير • وأكثر هذه البضاعة يذهب الى مارسيليا وليفورنو •

كذلك تأتى فى كل عام فى شهور أبريل ومايو ويونيو عدة قوافل من أفريقيا محملة بثلاثة أنواع من الصمغ، وبسن الفيل والتمر هندى، والعبيد ـ المخصيين وغير المخصيين ـ والببغاوات وريش النعام ، وتراب الذهب، وتعود القوافل بالتيل والخرز والمرجان والكهرمان والسيوف ومختلف الثياب التى يعدها المصريون مناسبة لذوق هؤلاء الأفارقة والتى يستخدمون فى صناعتها منذ عدة أعوام قماشا فيه شيء من الخشونة • ولقد كانت أسعار الصمغ العربى أو على الأحرى الصمغ الأفريقى قبل عدة أعوام منخفضة حتى ان القوافل كانت تعود بالقليل من البضاعة ، ثم ارتفعت الأسعار بعد ذلك ، وأصبحت القوافل تأتى منذ بعض الوقت محملة بكمية من الصمغ يتراوح وزنها بين ٤ و ٥ آلاف قنطار ، كل قنطار يزن ١٠٠ رطل •

ويصدر هذا الصمغ أيضا من الحبشة الى جدة ، وينقل منهـا الى القاهرة عبر السويس ، ولكن هذا الصمغ ليس فى جودة الذى تأتى به القوافل ، وأغلبه يذهب الى أوروبا أيضا •

ويأتى فى كل عام من اليمن بالسفن عن طريق جدة والسويس ما بين ٢٢ و ٢٥ ألف فرض من البن ، ولما كانت القهوة هى المشروب المفضـل لدى الأتراك ، فقد حظروا استيراد البن الأمريكى ، أو على حد التعبير الشائع فى المشرق ، البن الأفرنجى ، وكذلك حظروا تصدير البن العربى الى أوروبا : الا أن التصدير والاستيراد يجريان كلاهما اذا ما قـدم التاجر الهدايا الى الحكومة وعمال الجمارك ، وعلى هذا يخرج من مصر فى كل عام ما بين أربعة وخمسة آلاف فرض من البن العربى الى البندقية وليفورنو ومارسيليا • وتحمل السفن القادمة من جـدة والقوافل الآتية من مكة الكثير من التوابل المستوردة من الهند ، والسنا المستورد من اليمن والحبشـة ، والمر ، وما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف فرض من بخور الهند وبلاد العرب،ولا يذهب من البخور الى مارسيليا وليفورنو الا القليل بينما يذهب الكثير أو تذهب الكميات كلها الى تركيا • ويأتى الكثير من السنا عبر مصر العليا ، ويذهب أغلبه الى أوروبا ، وتجارته حكر ، وتأتى للحكومة سنويا بستين كيس والكيس يساوى ٥٠٠ قرش أو ٣٣٣ ١/٣ رايخستالر تقريبا •

وخير ما يستطيع الفرنسيون تصريفه من بضائعهم فى الشرق قماش اللانجدوق ، وتستهلك مصر منه فى العام الواحد ما بين سبعمائة وثمانمائة بالة ، وأكثر ما يكون الطلب على هذا القماش فى الشهر السابق على شهر

رمضان ، حيث يصنع كل من يستطيع دفع ثمن هذا القماش لنفسه ولخدمه ثوبا جديدا لعيد الفطر •

وتطلب القافلة التى تبارح مصر فى ٢٧ شوال متجهة الى مكة ما بين ٦٠ و ٨٠ بالة من هذا القماش ويستهلك أمير الحج أو رئيس القافلة أكثر هذه الكمية حيث يصنع منها ثيابا يقدمها هدايا الى العربان فى المناطق التى يمر بها وكذلك الى أهالى مكة • والتجارة فى هذا القماش تدر ربحا كبيرا على التجار الفرنسيين طالما بقيت فى أيديهم ، الا أنها خرجت من أيديهم أثناء الحرب الأخيرة بين انجلترا وفرنسا ، وانتهز المسيحيون الشرقيون الفرصة واستوردوا كمية كبيرة من القماش نقلوها من مارسيليا الى ليڤورنو ومن هناك الى مصر ، وأصبح على التجار الفرنسيين أن ينهجوا نهجهم فى البيع • كذلك أحدث انقطاع تجارة الفرنسيين مع الهند الشرقية ــ نتيجة لهذه الحرب ــ أثره على التجارة مع مصر ، فقد بلغ مقدار ما كان يصدر قرب نهاية الحرب سنويا الى جدة مائتى أو ثلاثمائة بالة من القماش ، كانت تنقل من جدة فى أغلبها الى الهند الشرقية • ولا تستورد مصر من أوروبا الا القليل من الأقمشة الحريرية وبخاصة بعد أن بدأ أهل جزيرة سيو Scio فى صناعة أقمشة ثمينة موشاة بالذهب والفضة يبدو أنها تتفق مع ذوق الشرقيين أكثر من أقمشة الفرنسيين والايطاليين •

وتستورد مصر فى كل عام ما بين ٦٠ و ٨٠ برميلا من القرمز ، هذا الى ٢٠٠ برميل أرسلت عبر مصر أثناء الحرب الأخيرة الى الهند • وتطلب أوروبا فى العام نحو ٤٠٠ بالة من الفلفل زنة الواحدة منها ٣٠٠ رطل •

ويجلب بعض المطلوب من الفلفل منذ حين عن طريق جدة • ويجد الانسان فى القاهرة القرنفل وغيره من التوابل التى تطلبها أوروبا • كذلك تصل الى مصر سنويا كميات بين ٥٠ و ٦٠ برميلا من القصدير ، وكمية مشابهة من صفائح الحديد الأبيض ، وكمية من أسلاك الحديد ، والزنجفر (= خام الزئبق ولونه أحمر) والزنجبيل والقرنفل وكميات من الخرز الملون والخواتم الزجاجية ، والزئبق والرصاص وبعض السكاكين ، وتأتى من البندقية ومارسيليا فى كل عام كمية من الورق تقدر بنحو ١٠٠٠ بالة تستهلك جزئيا فى مصر ، ويصدر جزء منها الى جدة • والشرقيون يصقلون الورق قبل استخدامه لأنهم يكتبون بريشة من البسط وحبر سميك يناسبهما الورق الصقيل • وتستخدم نسبة كبيرة من الورق فى مصانع السكر ومحلات البدالين ، ويحتاج العمال الحرفيون الى شىء منه يلصقونه فى الشبابيك الخشبية والحديدية ، لأن الشبابيك الزجاجية نادرة فى هذه البلاد الحارة • ولقد زاد منذ بضع سنوات ما تستورده جدة من الورق زيادة تفوق المألوف ، ومن المحتمل أن يجرى تصديره من هناك الى اليمن والهند •

ولقد ضاع على الفرنسيين فى أثناء الحرب الأخيرة ما كانوا يقومون به من تجارة فى البن الأمريكى مع مصر ضياعا يوشك أن يكون كاملا ، ولا يشتريه التجار هنا الا ليغشوا به البن العربى ، ولا يأخذون منه الا ما كان جيدا جدا ، ولقد ارتفع ثمن النوع الجيد من البن الأمريكى فى السنوات الأخيرة حتى أصبح مثل سعر البن العربى • وكان الناس فى صعيد مصر لا يشترون الا بن المارتينيك ، فارتفع ثمن هذا البن ، وجاء

ابراهيم كخيا فضرب على البن العربى فى السويس جمارك عالية جـدا ، ولهذا التمس أهالى الصعيد أقصر الطرق وأيسرها فجلبوا البن الذى يحتاجون اليه عن طريق القصير وأصبح البن اليمنى فى متناول أيديهم بسعر رخيص كسعر بن المارتينيك الذين كانوا يحصلون عليه من فرنسا ٠

ولست على علم كامل بالأوزان المستخدمة فى مصر ، ولكنى سجلت ملاحظاتى على بعضها أوردها فيما يلى ٠ يجرى حساب الأوزان فى القاهرة بالأقة والرطل والوقية (الأوقية) والمتقال ، والدرهم والقيراط وعلاقتها بعضها بالبعض :

١٦ قيراط = درهم ٠

١ $\frac{1}{2}$ درهم = متقال ٠

١٢ درهم = أوقية ٠

١٢ أوقية = رطل ٠

٤٠٠ درهم = أقة ٠

وتحسب الأوزان الكبيرة بالقنطار ، ويختلف القنطار فى مصر بحسب البضائع فهو بالنسبة لبعضها ١٠٠ رطل وبالنسبة للبعض الآخر ١٠٢ أو ١٠٥ أو ١١٠ وقد يصل الى ١٥٠ رطل ٠ وبعض البضائع يحسب فيهـا القنطار بالأقة ، فيساوى القنطار ٤٤ أو ٧٨ أو ٨٢ أقة وقد يصـل الى ٨٦ ٠ ولست أجد ما يدعو لذكر البضائع التى يحسب فيها القنطار بالرطل وتلك التى يحسب فيها بالأقة فذلك استطراد لا نفع فيه الا لبعض التجار الذين يريدون الاتجار مع مصر ، وفى مقدور هؤلاء أن يجدوا هـذه

البيانات فى نشرة يبعث بها اليهم مراسلهم فى مصر عندما يريدون . كذلك لم أذكر أسعار البضائع الواردة والصادرة لأنها تتغير هنا كما تتغير فى البلاد الأخرى ، والتجار الشرقيون يبحثون عن طرق جديدة تمكنهم من الحصول على هذه البضاعة أو تلك بسعر أفضل ، أو من تصديرها الى الأماكن التى يتحقق لهم فيها ربح أكبر .

وأكبر مكيال للحبوب رأيته فى بولاق عند تجار الغلال هو الويبة ، والويبة تساوى ٤ ربعات ، والربعة تساوى ٤ أقداح ، وقد تبينت أن قطر قاع الويبة ١٨ بوصة دنمركية ، وسمك الخشب نحو ٧/٨ بوصة ، ومعنى هذا أن قطر قاع الويبة من الداخل هو ١٧ ١/٨ تقريبا ، أما قطر فوهة الويبة المكسوة بالصفيح فهو ١٢ بوصة والصافى يبلغ نحو ١١ ٧/١٦ ، ووجدت الارتفاع الرأسى بين الحافة العليا والقاع ٨ بوصة . وعند استخدام هذه المكاييل فى كيل الحبوب لا يمسح الحب على الفوهة ، بل يكوم فوقها على هيئة المخروط ، ويبلغ ثمن الربعة من القمح فى القاهرة ٥ أو ٦ بارة وقد يصل الى ٦ ١/٢ ، أى أن الويبة ثمنها بين ٢٠ و ٢٦ بارة وهو ما يساوى ٢ مارك الى ٢ مارك و ٨ شلن دنمركى ، أو ما يساوى ١ مارك الى ١ مارك و ٤ شلن لوبيكى .وقد قست ربعة فى القاهرة فوجدت ارتفاعها ٦ ٥/٨ بوصة ، ووجدت القطر السفلى ١٢ بوصة والقطر العلوى ٦ ٥/٨ بوصة .

الآلات المائية والمطاحن ومعاصر الزيوت
وآلات الفلاحة وأفران النشادر وأفران تفريخ
الكتاكيت فى مصر

الآلات التى تستخدم فى رى الأرض بعد انحسار الفيضان هى أجدر الآلات المصرية بالملاحظة والاعجاب ، وللمصريين وسائل مختلفة لرى الأرض . هناك الآلة المرسومة على (اللوحة الخامسة عشرة) تحت رقم I ، وهى أكثر الآلات انتشارا واسمها « ساقية التور » (*) أى الآلة التى يحركها الثور . وتتكون العجلة الكبيرة من اطارين d , e يرتبط الاطار الخلفى منهما ــ وهو الأقوى ــ بالمحور عن طريق ريش ، أما الاطار الأمامى e الذى يمسك فى الاطار الخلفى بريش أفقية ، فليس له من مهمة الا حمل الجرار أو القواديس . وهناك حوض f يتلقى المياه ، وهو موضوع الى أسفل فى الساقية نفسها ان صح هذا التعبير . وتختلف كمية الجرار المثبتة على هذا الاطار بحبال مصنوعة من القش أو من ألياف النخل من ساقية الى أخرى بحسب حجمها ، وعمق الماء،وقوة عجلة الساقية ، وقوة الثيران. وكانت الساقية التى رسمتها مزودة بـ ٢٢ جرة . والقصبة c a نير يتحرك عند c ويربط على رقبة الثور ، وهناك حبل يصل هذا النير من نقطة a

---

* هكذا فى الأصل (المترجم) .

بالنير الأقوى b الذى يعتبر بمثابة النير الرئيسى الذى يحرك العجلات C.B.A.. أى يحرك الآلة كلها • واذا كان المطلوب هو رفع الماء الى جزء من الحديقة أعلى من الجزء الذى تقوم به الساقية ، فان العجلات كلهـا تكون عالية بحيث يستطيع الثور أن يتحرك تحتها تقريبا على النحو الذى صوره شو Shaw فى اللوحة الخاصة بمصر السفلى فى كتابه « رحلات شو Shaw's Travels » •

والحدائق المصرية تمتلىء بكثير من القنوات تمكن الزراع من ريها جزءا بعد جزء ، وقد نظمت القنوات بين مزروعات الحديقة التى يساق الماء الى جذورها فحسب تنظيما فنيا جميلا بحيث يبدو تخطيط الحديقة على هيئة مسالك متشابكة يتنزه بين جنباتها الناس •

أما الآلة المرسومة تحت رقم II فهى آلة أخرى يستعين بها المصريون فى رى الأرض ، ولعلها هى التى يتحدث عنها الكتاب المقدس (سـفر التثنية ، الاصحاح الحادى عشر) . ويسمونها « ساقية تدار بالرجل » (*) أى ساقية تستخدم الأقدام فى ادارتها • وهى فى جوهرها مثل السـاقية السابقة لا تختلف عنها الا فى أنها أصغر منها • ولم أر من هـذا النوع فى مصر سوى واحدة فقط على بركة الأزبكية بالقاهرة ، ثم رأيتها فيمـا بعد فى الهند أيضا • وكانت الساقية التى رأيتهـا فى القاهرة تعمل فى حديقة صغيرة لم يكن من المجدى جهدا وتكلفة تركيب ساقية كبيرة فيها • وتتكون الآلة فى مجموعها من عجلة لها ٨ ريش مثبتة على المحور ، ولهـا

(*) هكذا بالاصل (المترجم) •

٤ ريش أخرى أصغر من السابقة ، ريشتان على هذا الجانب ، وريشتان على الجانب الآخر ، متقابلتان على المحور . ولاستخدام هــذه الساقية يحفر الانسان بئراً ، ويضع فوق البئر عرقين من الخشب لحمل الآلة ، وعند نهاية العجلة يوضع على أحد الجانبين فوق العرقين قطعة من الخشب يقعد عليها العامل الذى لا يحتاج لدعامة أخرى غير ذلك ، بل يعمل بيديه وبقدميه ، كما يتضح من الرسم . وحوض الماء هنا متخذ تحت الجرار وفى داخل العجلة بحيث لا يعرقل حركتها .

والآلة المرســومة رقم III شــائعة فى منطقــة دميــاط لأن ارتفــاع النيل طفيف مما يسمح للعجلات التى يتراوح قطرها بين ١٠ و ١٣ قدما بملامسة المياه . وهذه الآلة هى أغلى الآلات ثمنا وهى أيضا الآلة التى ترفع أكبر كمية من الماء الى أعلى . وحافة العجلة a مقسمة الى عيون لها فتحات من الناحية الخارجية ومن الجانب ، وهى مهيأة من الداخل بحيث اذا دخلت المياه من أسفل الى الحافة ، وارتفعت مع الدوران الى أعلى ، استطاعت أن تخرج من الجانب الى الحوض . ولا توضع العجلة فى وضع رأسى بالضبط ، بل توضع منحرفة الى الخارج قليلا ، حتى يقل الفاقد من الماء الى أقل مقدار ممكن . ويدور الثور فى بعض السواقى حول العجلة الكبيرة ، وفى بعضها الآخر بين العجلة الكبيرة والعجلة المسننة . وفى الحالة الأخيرة يرتكز النير على العجلة الأفقيــة كمــا فى حالة الآلة المرسومة فى الشكل I ، وقد يصل عدد الثيران التى تدير مثل هذه الآلة الى ثلاثة ثيران تربط فى أنيار مختلفة .

ويستخدم أولئك الذين يسكنون قريبا من النيل ويسقون قطعة

صغيرة من الأرض الآلة المرسومة تحت رقم IV ، ولما كان الخشب والحجر من المواد الغالية فى مصر ، فان الفلاح المصرى يبنى العمودين ويصنع الثقل الذى يركبه فى نهاية العارضة من الطمى عادة ، ويتخذ الدلو من الجلد . واذا كان مستوى النيل منخفضا استخدم الفلاحون فى منطقة القاهرة عددا من هذه الآلات يصل الى أربع متتالية ، ومن هنا يتضح أن الرى باستخدام هذه الوسيلة شاق جدا . واذا كان المطلوب رفع الماء الى ارتفاع هين كما هى الحال عند تجفيف ترعة مثلا ، فان المصريين يستخدمون، نظرا لافتقارهم الى الجواريف ، سلة يربطونها بأربعة حبال يمسكها أربعة من الرجال ، ويسمون مثل هذه السلة « قفة » وترى صورتها فى الشكل رقم V

ولم أر فى مصر طواحين تتحرك بالماء أو بالهواء . وقد صورت «طاحون القمح» بالشكل المألوف فى القاهرة على (اللوحة السادسة عشرة)، حيث يظهر القطاع العرضى فى الرسم A والقطاع الطولى فى الرسم B ويمثل العرق C النير الذى يربط فيه حصان ، و D القمع الذى يلقون فيه بالحب . وتستخدم هذه الطاحونة فى طحن السمسم الذى يستخرج منه الزيت . ويستخدم عامة المصريين فى طحن الحب أبسط طاحونة يدوية ، وهى التى تظهر على (اللوحة السابعة عشرة) تحت حرف A ،وتستخدم هذه الطاحونة أيضا فى دش الفول للحمير . ـ أما الآلة المرسومة تحت حرف B فتتكون من حجر أفقى ، وحجر رأسى متحرك يديره ثور ، ولا تستخدم هذه الطاحونة لطحن الحب بل تستخدم لعصر الزهرة التى يسميها الفرنسيون Saffranon (= الزعفران) وتستخرج العصارة منها بعد ذلك

بالضغط بالأيدى • ولعل هذه الطريقة فى معالجة الزعفران هى التى تجعل زعفران القاهرة جيدا (كما ذكرنا آنفاً) ويقولون ان زهرة الزعفران فى الصعيد تجمع ثم تجفف دون ما معالجة • والطاحونة المبنية تحت حرف C لا تختلف عن الطاحونة السابقة الا فى أن الحجر الرأسى المتحرك مائل قليلا ، والحجر الأفقى منحرف قليلا ، وتستخدم هذه الطاحونة فى طحن الجبس والحجر الجيرى • والطاحونة محاطة بسور صغير حتى لا يدوس الثور الذى يدير الطاحونة الجبس المتساقط •

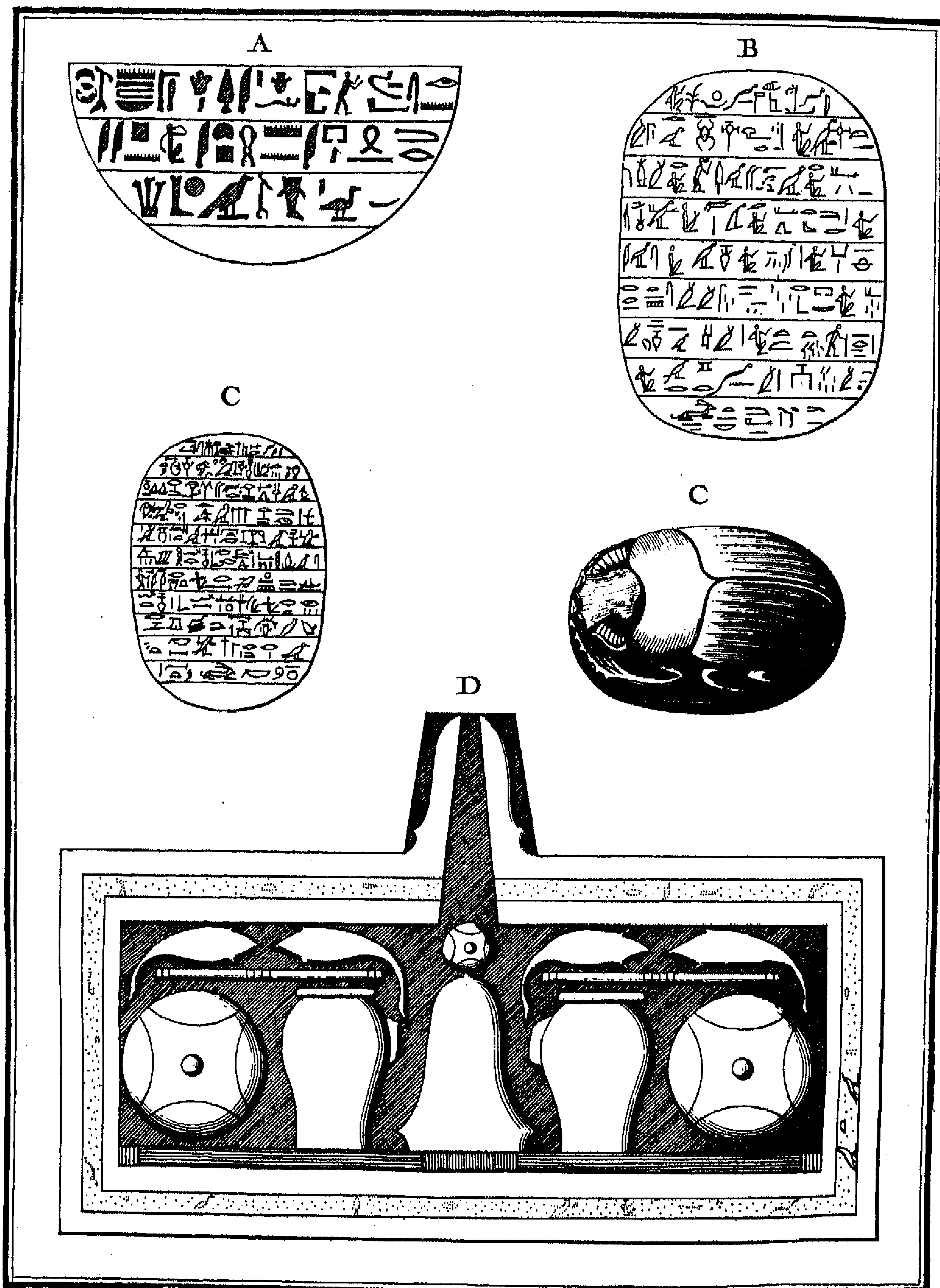
والآلة المرسومة تحت حرف D معصرة زيت مصرية ، ويشير رقم .1 الى صندوق كبير مملوء بالحجر والخشب ، ورقم .2 الى نقطة ارتكاز الصندوق فى الجدار ، ورقم .3 الى حجر كبير فيه بريمة يرتكز عليه الطرف الآخر للصندوق وهذا الحجر متحرك ، ورقم .4 يشير الى اسطوانة من السمسم السابق طحنه بالطاحونة المرسومة على (اللوحة السادسة عشرة) ، وقد وضع السمسم المطحون فى حصر دائرية الواحدة فوق الأخرى على حجر ، ورقم .5 الى قزان يتجمع فيه الزيت المعتصر ، وعند وضع السمسم المطحون تحت هذه الآلة يتحرك الثور المربوط فى النير رقم .6 ليدير البريمة فيرتفع الصندوق حتى يوقف الحبل رقم .7 الآلة ، حتى اذا وضعت الاسطوانة رقم .4 أديرت البريمة فى الاتجاه الآخر حتى يرتكز الصندوق على الاسطوانة ، ويرتفع الحجر رقم .3 عن الأرض حتى يزيد من الضغط على العجينة الزيتية • واذا انخفض مستوى الاسطوانة رقم .4 بمرور الوقت عن مستوى ارتكاز الصندوق فى الحائط ، وضعوا فوقها قطعا من الخشب كما يتبين الانسان من الرسم •

أما معدات الزراعة التى يستخدمها المصريون فرديئة للغاية • وليس محراثهم* بأفضل من محراث العرب (= اليمنيين) ، وتسخر لجره الثيران أيضا (وصف بلاد العرب ص ١٥٥) ، ويستخدم المصريون لتمهيد الأرض بدلا من الزحافة جذع شجرة أو لوحا قويا يربطون فى طرفيه حبلا تجره الثيران ، ويقف العامل عادة على جذع الشجرة أو اللوح ، لأن الفلاحين المصريين لا يسيرون على أقدامهم اذا وجدوا ما يجرهم•ويستخدم المصريون الى الآن فى الدرس الثيران كما كان بنو اسرائيل يفعلون أيام موسى (سفر التثنية ، الاصحاح ٢٥ ، ٤) الا أن آلة الدرس عندهم ليست من الحجر كما هى الحال عند العرب ، كذلك ليست مكونة من ألواح ثبتت تحتها أحجار صلدة حادة كما هى الحال عند السوريين (انظر وصف بلاد العرب ص ١٥٨) ، بل هى مركبة زحافة على الهيئة التى تظهر فى الرسم تحت حرف E على اللوحة السابعة عشرة من الجانب ومن المسقط الأفقى • ويسمون آلة الدرس هذه « النورج » ولها ثلاث أسطوانات تدور حول محاويرها ، والاسطوانات مزودة بصفائح مستديرة من الحديد •

وقد رأينا ، أنا والسيد فورسكال ، فى مطلع شهر يونيو فى الجيزة كيف يدرس القمح فى مصر • كان كل فلاح يختار ساحة مسطحة مكشوفة محيطها بين ٨٠ و ١٠٠ خطوة • ويحمل الى هناك القمح مربوطا فى حزم مستخدما فى نقله الجمال والحمير ، ويصف القمح على هيئة دائرة عرضها بين ٦ و ٨ أقدام وارتفاعها نحو قدمين • ويضع النورج المشار اليه على

---

* فى الأصل « محراة » بحروف عربية : (المترجم) •



لوحة رقم (١٧)

هذه الدائرة وقد ربطه الى ثورين يشدانه ويدوران به على هوى الفلاح الذى يجلس على مقعد اتخــذه فوق النورج نراه فى الرسم • ويدع الفلاح الثيران تبول فوق القش والقمح ، فاذا هست بفعل شيء آخر ، نزل ووضع يديه تحتها وحفظ ما تلقى من روث ليخلطه بعد ذلك بالتبن ويســتخدمه وقودا • ويجرى فى اليوم الواحد درس شحنتين من القمح على النحو المذكور ثم تقلب الشحنة بعــد الدرس بالنورج ثمانى مرات بشــوكة خشبية لها خمس أسنان يسمونها « المدراة » فيتجمع القش فى وســط الحلقة على هيئة كومة ترتفع شيئا فشيئا •

وعنــدما يتم درس الشــحنة الأولى من حــزم القمح ، يوضــع القش على هيئــة دائرة ويســير عليــه النورج عــلى النحو الســابق ليقطعه الى قطع صغيرة تكاد تتخذ هيئة التبن الخشن عندنا • ثم يقذف الفلاح هذه القطع الصغيرة بالشوكة المشار اليها ضد الريح مسافة عدة أذرع فترد الريح القش ويقع القمح والسنابل التى لم تدرس بعــد على كومة • ويقوم رجل بجمع بقايا الطين وما اليهــا من شــوائب اختلطت بالقمح ، ويضعها فى غربال • وتفرد الكومة ، وبها الكثير من الســنابل الكاملة التى لم تدرس ، على هيئة دائرة ، وتطلق عليها عشرة أزواج من الثيران ، ربط كل زوجين ميها معا ، لتهرس الســنابل على مدى أربع أو خمس ساعات وتخرج منها الحب بأقدامها ، وبعد ذلك يأتى دور اللوح الذى يفصلون به الحب عن القش • ويكتمل للفلاح بعد هاتين العمليتين اللتين تستمران ستة أيام كومة من القمح يقدرونها بما بين ٣٠ و ٤٠ أردبا • أما الشعير فلا يحتاج فى درسه الى هذا الوقت الطويل •

ولم أر من العربات فى مصر الا القليل وشأن مصر فى هذا شأن بلاد العرب • وعندما جرى العمل فى تطهير الخليج خارج القاهرة ، رأيت فلاحا يربط ثورين الى آلة ترى تحت حرف F على (اللوحة السابعة عشرة) ، ووقف عليها والثيران تجرها خلال التربة المفككة حتى امتلأت فذهب بها الى الشاطىء • ــ أما فى المدينة فلم يكن الخليج قد جف بعد فرموا فى الوحل ترابا من الطريق ، ثم وضعوا الوحل وقد اختلط بالتراب بأيديهم فى قفف حملتها الحمير الى خارج المدينة • وهذا أسلوب من العمل يصعب على الأوروبيين انتهاجه •

معروف أن المصريين يصنعون الكثير من النوشادر يستخرجونه من السناج المتبقى بعد حرق روث الكثير من الحيوانات • وقد زرنا أنا والسيد فورسكال مصنعا من هذا النوع فى الجيزة واستعلمنا لدى المعلم عن الطريقة التى يتم بها صنع النوشادر ، ورسمت الفرن الذى يستخدمه تحت حرف على (اللوحة السابعة عشرة) • ويشير الرقم I الى فتحة الفرن التى يقذف منها الوقود ، والرقم 2 الى الجدران المبتناة على هيئة العقود كما يتضح من القطاع الرأسى والرقم 3 الى قنينات مكورة مصنوعة من زجاج سميك معتم ولها عنق قصير واسع . وكان صاحب المصنع يمتلك فرنا صغيرا يصنع فيه هذه القنينات المكورة • وعند استخدام هذه القنينات المكورة تطلى من الخارج أربع مرات متتالية بالطين أو بطمى النيل مخلوطا بالكتان أو على الأصح بنفاية الكتان ، وتترك فى كل مرة فى الهواء الطلق حتى تجف • والسبب فى ذلك ان هذه القنينات اذا لم تتخذ هذه الكسوة لا تحتمل الحرارة • وتملأ هذه القنينات بعد ذلك بسناج الروث المحروق

الذى لا يكبس فيها كبسا ، بل يترك داخلها مفككا ، ويتوسلون الى ذلك بهز القنينات أو دحرجتها أثناء الملء .

وبعد أن يملأ الفرن الذى أشرنا اليه آنفاً بالوقود المتخذ من الروث المجفف توضع هذه القنينات على مسافة بسيطة فوق الفتحات التى بين العقود المقبية ، وتترك فوهاتها مفتوحة . وتوضع قطع من الطوب الأحمر حولها ثم تملأ الفراغات كلها بالتراب بحيث يتغطى ثلثا القنينات . عند ذاك يشعل وقود الروث فى الفرن ، ويستمر الفرن مشتعلا ثلاثة أيام وثلاث ليال ، حيث يزود باستمرار بوقود جديد ، ولابد من أن تبقى الحرارة باستمرار متجانسة ، وان كانت فى البداية تزيد عنها فى النهاية . ويحتاج هذا العمل الى ملاحظة دقيقة ، فالحرارة اذا ضعفت لبضع ساعات ، أو اذا تولدت فتحة صغيرة فى التراب حول القنينات ولم تسد على الفور ، فان النوشادر الناتج يتلف على نحو يتبينه صاحب المصنع عندما يراه ، ويؤدى به الى معاقبة العمال على اهمالهم . وبعد ١٨ ساعة تنسد فوهة كل قنينة تلقائيا بالنوشادر المتصاعد من الرماد . وبعد ثلاثة أيام كاملة (٣×٢٤ ساعة) تكسر القنينة فى الموضع الذى كانت ترتكز عليه فى الفرن ويستخرج منها ملح النوشادر الذى يكون قد تجمع الى أعلى . أما المادة المتبقية التى تملأ القنينة كلها تقريبا فهى رماد يميل لونه الى الخضرة يقولون انها لا تفيد فى شيء . وتبلغ كمية النوشادر التى يحصلون عليها من كل قنينة ٧ الى ١٢ رطلا اذا كان الرماد قويا وكان تجمع الملح على خير وجه . ويباع القنطار (١٠٠ رطل) من النوشادر تسليم المصنع بـ ٦٠٠ بارة . ومما يجدر التنويه به أن الطين الذى يحيط

بالقنينات يتحول بفعل الحرارة الشديدة الى مادة صلبة كالطوب الأحمر .

ويستوى فى صناعة النوشادر أن يكون الروث المستخدم روث جمال أو خيول أو ثيران أو أغنام أو غيرها من الحيوانات ، وأكثر الحيوانات التى تستخدم فى هذه البلاد فى الطرقات الجمال والحمير ، وتقوم بجمع كمية كبيرة من الروث المستخدم فى الوقود بنات صغار يجمعنه فى الطرقات . ويخلط الروث فيما بعد بالقش الذى يقطع أثناء عملية الدرس المألوفة فى مصر قطعا صغيرة جدا كالتبن عندنا (كما أشرت من قبل)،وتصنع منه أقراص يجففونها فى الشمس على جدران البيوت أو على التلال . ولدى الفلاحين فى الريف بيوت مقبية (= أفران) مبتناه من الطوب اللبن، يطبخون فيها مستخدمين أقراص الجلة المجففة ، كذلك يستخدمون أقراص الجلة فى تدفئة الحجرة شتاء اذ يشعلونها فى اناء حجرى (مدفأة) ومعها بعض الحطب . ويتجمع سناج الدخان كله تحت فوهة الفرن فيأخذونه الى مصانع النوشادر ويبيعونه بثمن بخس.كذلك السناج الذى يتكون فى أفران النوشادر من الدخان المتصاعد من أقراص الجلة المستعملة فيه كوقود ، يجمع ويستخدم . وأصحاب هذه الصناعة يختبرون السناج بألسنتهم ليعرفوا عن طريق التذوق هل يحتوى على كثير من ملح النوشادر أم لا . ويقولون أن سناج الخشب لا يحتوى على ملح ولا يعطى لذلك نوشادر .

وهناك فى أوروبا بعض المناطق التى يستخدم الناس فيها الروث ــ نظرا لقلة الخشب ــ وقودا ، وربما كان من الممكن صناعة النوشادر

فيها بالطريقة الجيدة الرخيصة المعروفة فى مصر اذا ما أجريت التجارب اللازمة • وربما أمكن الحصول على السناج اللازم للنوشادر بنفس الطريقة المستخدمة عندنا فى الحصول على سناج الأخشاب الراتنجية •

سبقنى رحالة آخرون فى وصف طريقة المصريين فى تفريخ الكتاكيت فى أفران وصفا تفصيليا • ولما كانت الرسومات التى نشروها تختلف عن الفرن الذى رأيته بالقاهرة قرب باب الشعرية وبركة الرطلى ، فقد رسمت له صورة على (اللوحة الثامنة عشرة) . ويمكن القول ان البناء كله يبدو كما لو كان مبنيا داخل تل • والرسم .A.B يمثل المسقط الأفقى للأفران السفلية ، ويمثل الرسم .C.D المسقط الأفقى للأفران العلوية ، والرسم .E.F القطاع العرضى للبناء كله ، طوليا عند المستقيمات A.B و C.D و G.H وعرضيا عند المستقيمات .I.K.K.L ويشير حرف.a الى مسكن القائم بالتفريخ ، وحرف.b الى حجرة يحفظ فيها النار والرماد ، وحرف.c الى حجرة يحفظ فيها البيض ، والحرف.d مدخل الأفران • والباب يرتفع قليلا عن الأرض وهو الى هذا صغير جدا حتى يحكم القفل عند اشعال النار • والحرف .e يشير الى الأفران فى الدور السفلى والحرف .f يشير الى الأفران فى الدور العلوى ، وأفران الدور العلوى هذه لها من الأمام والخلف قناة صغيرة توقد فيها نار تستخدم لها أقراص الجلة ، ويشير الحرف.g الى كوات فى الحائط توضع فيها المصابيح • ويتبين من الرسم أن كل دور من هذا البناء فيه ١٢ فرنا ، وأن الأجزاء كلها داخلة بعمق فى التل حتى ان فتحات التهوية العلوية فوق الممر.h وكذلك فوق الأفران .i داخل التراب • والسبب فى ذلك ، على نحو ما

علمنا ، هو المحافظة على درجة حرارة متجانسة . وعند تفريخ البيض ، توضع فوق أرضية الأفران أولا حصيرة ويوضع فوقها قش ، ثم توضع طبقة من البيض على القش ، وفوقها طبقة أخرى ، بحيث تتلاصق بعضها بالبعض تلاصقا وثيقا . ثم توقد النار فى القنوات الأمامية والخلفية بالأفران العلوية فقط ، وهناك بين الفرن العلوى والفرن السفلى فتحة مستديرة تنفذ منها الحرارة من أعلى الى أسفل . وعند اشعال النار تسد كل الفتحات الخارجية بالروث والطين أو الكتان ، حتى ترتفع الحرارة بسرعة ، ثم يوقدون فى الممر المصابيح ليلا ونهارا . وليس لديهم من قاعدة يتبعونها فى تحديد درجة الحرارة المطلوبة ، الا أن تكون هذه الحرارة مثل حرارة الحمام . ويقولون ان ارتفاع الحرارة فى البداية لا يسبب ضررا ، أما عندما تقترب الكتاكيت من الخروج من البيض ، فينبغى أن تخف الحرارة . ويقلب البيض كل يوم مرتين ، وكل ليلة أربع مرات ، تقلبه الأيدى عندما تتحرك فوقه جيئة وذهابا . وتفحص كل بيضة عند المصباح بعد ثمانية أيام ، لمعرفة تلك التى ستعطى كتاكيت فتعاد الى الأفران، أما البيض الفاسد فيلقى.وفى اليوم الحادى والعشرين يتشقق البيض وتخرج الكتاكيت منه تلقائيا ، فيخفضون لها الحرارة حتى لا تموت.وهناك على الأرض فى الممر بين الأفران مسطحات صغيرة مرتفعة على هيئة الساحات الصغيرة المربعة ، اتخذت لكى توضع فيها الكتاكيت المفرخة ، ملتصقة بعضها فى البعض ، حتى تملأ المكان كله . وتسهل تربية الكتاكيت فى هذه الحجرات الكامنة تحت الأرض غاية السهولة ، لأنها تجد هنا الدفء الذى كان المفروض أن تلتمسه عند أمها .

قمت بزيارة فرن التفريخ هذا برفقة السيد فورسكال فى منتصف شهر يونيو ، ولم يكن الفرن يعمل فى ذلك الوقت ، فالتفريخ لا يتم الا فى الشهور الستة الباردة لأن البيض فى الشهور الحارة يكون فيه فاسد كثير كثرة مفرطة . وعلى الرغم من أن الأفران لم يكن بينها واحد مشتعل ، فقد كان المكان بفعل الشمس حارا حتى أننا تصببنا عرقا منذ دخلناه . وقالوا لنا ان هذا النوع من الأفران لا يوجد الا فى القاهرة وان هـذه الأفران مملوكة للباشا ، واذا أتى الناس بالبيض ليفرخوه فانهم يتفقون مع المعلم على الثمن الذى يدفعونه على المائة ، ويكتب صاحب البيض اسمه أو يضع علامة على كل بيضة ، ويلتزم المعلم بأن يظهر صـاحب البيض على جميع البيض الفاسد . وتباع الكتاكيت الصغار فى البداية ٣٠ كتكوتا بـ ٢٠ بارة (نحو مارك لوبيكى) ثم بعد ذلك بـ ١٥ بارة . ويسمون الثلاثين كتكوتا (ربعة) ، ولما كانت كلمة ربعة تطلق فى مصر على مكيال الحب ، فقد خلط بعض الرحالة الكلمتين ، وقالوا ان الكتاكيت تبـاع بالمكيال ، وهذا ما لا يحدث ، وقد أكد لى ذلك الناس فى فرن التفريخ(٤٤) .

ازيـــاء الشرقيين

يلبس الأتراك والعرب والفرس — وباختصار المسلمون جميعا — ملابس طويلة فضفاضة ، ولكن لكل أمة فى ملابسها شيئا خاصا يستطيع الانسان أن يعرفها به على الفور وأن يميزها عن غيرها • هذا الى أن الشرقيين الذين يسكنون فى المدن يغيرون هيئة ملابسهم كما يغيرها الأوروبيون • ولننظر الى الأزياء التى أمر السيد دى فيريول de Ferriol فى عامى ١٧٠٧ و ١٧٠٨ برسمها والتى قام السيد دى لاهى de la Haye بحفرها فى النحاس ، ثم خرجت مطبوعة فى نورنبرج تحت عنوان « Abbildung des türkischen Hofes » «صورة البلاط التركى» ، ولنا أن نتصور انها كانت كلها جيدة فى ذلك العصر ، ولنقارنها باللوحة الرابعة عشرة واللوحة الخامسة عشرة فى كتاب روسل Russel وصف حلب ، لنجد أشياء قد تغيرت كل التغير • على ان هذا الكتاب يحتوى على رسوم جيدة للأزياء الشتوية التى يلبسها الباشا ، و أغا الانكشارية ، والقاضى ، والخادم التركى ، وكذلك ملابس رجلين من عامة الأتراك ، وملابس أحد الدراويش ورجلين من المسيحيين • وتكاد أزياء أهل

القاهرة وبخاصة الوجهاء وأبناء الطبقة المتوسطة ، أن تكون مطابقة لأزياء الأتراك ، لأن الشرقيين يتبعون فى الموضة ذوق وجهاء عاصمة الدولة العثمانية • ولما كنا نلبس الملابس التركية فسأذكر فيما يلى باختصار وصفا لما كنا نلبسه •

يشبه القميص التركى قمصان النساء فى أوروبا ، الا أن كميه أكثر سعة • ويلبس الشرقيون تحت القميص ــ لا فوقه ــ سراويل كبيرة مصنوعة من التيل الأبيض • ويلبسون فى أقدامهم جوارب من التيل ، ومن فوقها ترلك أو خفا صغيرا مصنوعا من جلد خفيف جدا ، وعليه مست أو جوارب أخرى مصنوعة من الجلد مخاطة فى الشكشير وهو عبارة عن سراويل حمراء فضفاضة جدا • ونعل الترلك والمست مصنوع من نفس الجلد الخفيف الذى تصنع منه الأجزاء العلوية ، لأن الانسان لا يدوس به الا على السجاجيد أو الحصر أى فى الأماكن النظيفة ، وفى المواضع التى يجلس فيها عادة • ويلبس الرجل فوق هذه الأخفاف أحذية تشبه أحذيتنا تماما ولكنها بدون كعوب ، ويلبس فوق القميص والشكشير العنترى ، والعنترى مبطن بالتيل ويصل الى ماتحت الركبة بشبرين • ويأتى فوق العنترى القفطان الذى يتدلى حسب الموضة الحالية فوق القدمين ، ويتمنطق من يلبسه حزاما كبيرا يلفه فوقه عند الوسط ويدس فى الحزام من الجانبين طرف القفطان ، فيتيح لنفسه حرية أكثر للحركة ، ويظهر العنترى والشكشير • واذا ما لبس الانسان هذه الملابس الى هذا الحد بدا على هيئة الخادم كما يظهر فى لوحة روسل رقم ١٥ • ويحمل الأتراك فى الحزام سكينا كبيرة يسمونها خنجرا ، لها مقبض قد يصفح

بالفضة أو الذهب ، وقد يرصع بالأحجار الكريمة أيضا •

وتأتى فوق القفطان الجبة التى تتخذ فى الشتاء بفراء وفى الصيف بدون فراء • وللجبة كمان قصيران لا يكادان يصلان الى الكوعين ، ويقل طول الجبة عن طول القفطان بمقدار شبرين تقريبا • ويتخذ الناس فوق الجبة فراء أو يتخذون بدلا منه البنيش الذى يتدلى عادة حتى يصل الى الأرض • وهناك صورة للفراء فىاللوحة الخامسة عشرة بكتاب روسل فى وصف حلب ، وصورة للبنيش فى اللوحة السادسة عشرة من كتابى وصف بلاد العرب تحت رقم ١٥ • وليست أكمام العنترى والقفطان والبنيش أكماما واسعة ، ولكنها طويلة جدا تتدلى فوق اليدين ، ولهذا يشمرونها ، واذا اشتد البرد فى الشتاء يزررون كمى العنترى فوق اليدين •

ولما كان استخدام كل هذه الملابس معا يكلف الكثير مما لا يتحمله العوام ــ هذا الى أنه يعرقلهم ويعوقهم عن أداء أعمالهم ــ فقد اكتفى الكثيرون بالسراويل المصنوعة من التيل والقميص والعنترى والبنيش • وأغلبهم يلبسون السراويل والقمصان فقط ويتمنطقون دائما بحزام • واذا كان الأتراك على سفر فانهم لا يحبون لبس الشكشير ، ويلبسون بدلا منه الشروال الفضفاض الأزرق المجرد من المست • ويلف الشرقيون عندما يكونون على سفر أشرطة صوفية كبيرة حول أقدامهم وسيقانهم ، ثم يلبسون فوقها حذاء واسعا ذا رقبة • ولهذا كانت أرجلهم فى المشى ثقيلة جدا • والحق أن هذه الشرائط الصوفية تدفىء الرجلين أكثر من جواربنا بكثير ، الا اذا ابتلت فانها لا تحدث من الدفء الا الشىء القليل ، ثم انها تمتاز بأن الانسان يستطيع فى كل صباح تغيير وضعها حول

الرجلين • وكثيرا ما يدسون الملابس الخارجيــة كلها تحت الشروال اذا كانوا على سفر ، ويصبح منظرهم على هيئة السباهى المصور فى اللوحة ٣٤ فى مجموعة Receuil de cent Estampes أو صور البــلاط التركى • وكثيرا ما يلبس الانكشــارية العنترى والقفطان فى الشروال ، ومن فوق ذلك ســترة صغيرة بلا أكمام ، وفى أرجلهــم بغير جوارب مركوبا أحمر له كعب من الجلد •

والمسيحيون واليهود ممنوعون فى القسطنطينية من اختيار الألوان الفاقعة لملابسهم ، بل ممنوعون من استخدامها فى طلاء بيوتهم من الخارج حيث ينبغى عليهم طلاؤها بألوان غامقة • أما فى مصر فلكل انســان أن يختار لملابسه اللون الذى يتفق مع مزاجه ، على ألا يختار اللون الأخضر ، فقد احتفظ المسلمون تحت الحكم التركى بهذا اللون لأبناء ملتهم • ومن المحتمل ألا يكون هناك قانون صريح من الســلطات العليا يختص بهذا الموضوع ، ولكن الانسان اذا لبس ثيابا خضراء قد يعرض نفسه لتوبيخ العامة واهاناتهم ، ولهذا فان أقرب شىء الى التعقل هو ألا يركب الانسان رأسه بالنســبة لهذه الطفائف ، خاصة وأن المسلمين أنفسهم يتخــذون لملابسهم الكثير من الألوان • وللأوروبيين أن يلبسوا المركوب والمست الأصفر ، أما المسيحيون واليهود الشرقيون فممنوعون من استخدام هذا اللون باعتبارهم من رعايــا السلطان ، وعليهم أن يستخدموا الجلــود الحمراء أو الزرقاء أو السوداء •

وليس من بين ملابس الشرقيين الكثيرة ما يتعرض للتغيير فيما يبدو قدر غطاء الرأس ، وللشرقيين ثلاثة أنواع رئيسية من أغطية الرأس تختلف

بعضها عن البعض اختلافا شديدا • فهنـاك من يلبسون طاقيـة عالية مغطـاة بالقماش ومبطنة بالقطن ويلفون حولهـا منديلا كبيرا من التيل الرقيق ، ويسمون هذا اللون من أغطيـة الرأس قاووق ، ويبدو أنه من أصل تركمانى أى تركى • وهناك من يلبسون طاقية صغيرة يلفون حولها قطعة طويلة من التيل،ويسمونها ساش (= شاش) أو عمامة Turban ، ويبدو ان أصلها عربى • والنوع الثالث عبـارة عن طاقية عالية مبطنة بالقطن ، وعليها من أعلاها قماش ، ومن أسفلها كسوة من جلد الحور ، ويسمونها قلبق وهى غطاء الرأس الشائع للمسيحيين الشرقيين والتتار •

والوجهاء فى القسـطنطينية يستخدمون أنواعا معينة من أغطيـة الرأس ترتبط بوظائفهم ، وهكذا يلبس كبار وصـغار الخدم فى سراى السلطان ، وكذلك الجنود فى الفرق المختلفة قلانس مختلفة • والخلاصة ان من كانت لديه الرغبة وأتيحت له فرصة مشاهدة أغطية الرأس الشرقية كلها على اختلافها وأوتى متسـعا من الوقت ، استطاع أن يجمع مـادة لكتاب بأكمله •

ولما كانت أغطية الرأس هى الجزء من الزى الذى يتبين منه الانسان فى البلاد التركيـة الأمم المختلفـة ، بل والمستويات المختلفة للنـاس ، ولما كانت علاوة على ذلك أكثر أجزاء الملبس تعرضا للتغيير ، فقد ركزت اهتمامى خاصة على تسجيل أشكالها المختلفة • وليست المجموعة التى جمعتها مجموعة كاملة لأغطية الرأس الموجـودة كلها ، ولست فوق هذا متأكدا مما اذا كانت بعض أغطيـة الرأس التى رأيتها على هـام بعض الطبقات مقصورة عليها أم أن هناك من يلبسونها سواهم •

والشرقيون جميعا (باستثناء بعض طوائف الدراويش والأولياء فى مصر) يحلقون رؤوسهم بالموسى ، ولا يتركون الا ذؤابة الى أعلى كما نرى فى كثير من الرسوم .. ولست أعرف معنى لهذه الذؤابة . ولكنى كنت ذات يوم فى دكان أحد المزينين فوجدت فى المكان المهيأ للجلوس خيطا يتدلى الى الأرض ، ربط فيه المزين ذؤابة أحد الأتراك حتى يسهل عليه مسك رأسه فوق الحوض وهو يغسلها ، فالشرقيون يجدون متعة فى الجلوس طويلا بين يدى المزين . ويلبس كل واحد منهم على رأسه مباشرة تحت القاووق أو العمة أو القلبق طاقية حمراء صغيرة يسمونها طربوشا Fäs .

وكان الأوروبيون فيما مضى يلبسون عمامة بيضاء لا تختلف عن عمامة المسلمين الا فى الشريط الأحمر الرفيع الذى يتخذ مائلا على جانب من جانبيها . وكان التجار يرتاحون الى هذه العمامة لأن العامة ــ الذين يخافونهم ــ لم يكونوا يستطيعون تمييزهم عن المسلمين على الفور . أما الآن فيلبسون فى الطرقات القلبق أو قبعة خشنة من النوع المبين تحت رقم ٣ على (اللوحة التاسعة عشرة) . وهذه القبعة هى العلامة المميزة للمترجمين فى القسطنطينية ، وهم يرفعونها عن رؤوسهم للتحية كما يفعل الأوروبيون بقبعاتهم ، وتلك عادة يستغربها الشرقيون الذين لا يعرون رؤوسهم حتى أمام الباشا أو السلطان . ويلبس الأوروبيون فى بيوتهم طربوشا كبيرا يلفون حوله منديلا كبيرا أو شاشا أو عمامة . ويلف كل انسان العمامة على هواه ، وكانت عمامتى أنا على الهيئة المبينة فى شكل٢ من اللوحة المذكورة . وكان بعض الايطاليين الذين أمضوا فى مصر وقتا



لوحة رقم (١٨)

طويلا يلبسون عمامة من الموضة القديمة المبينة فى الشكل ١ والمسماة بالقارب ، يلبسونها فى الشارع وفى البيت على السواء • ورأيت بعض المسلمين يلبسون مثل هذه العمامة ، الا أنها كانت بيضاء ، بينما عمامة الأوروبيين تميل الى اللون البنى • والشكل ٤ والشكل ٥ نوعان من القاووق الذى يلبسه وجهاء الترك فى تركيا كلها والقاووق يكسوه قماش أصفر ، واذا لم يكن من يلبسه شريفا كان المنديل الذى يغشاه أبيض اللون • فالأشراف يلبسون دائما منديلا أخضر حول رؤوسهم ، سواء كان ما يغطون به رؤوسهم من نوع القاووق أو العمامة • الا أن الانسان لا يلقى فى الديوان التركى شريفا الا نادرا ، وبخاصة فى القاهرة حيث ينحدر غالبية البكوات وكثير من الوجهاء والعيون من أصل مسيحى ثم جئ بهم فى صباهم الى مصر كعبيد • والشكل ٦ هو قاووق وجهاء الترك الذين يعملون فى خدمة الباشا • والشكل ٧ هو قاووق صغار العاملين لدى باشوات وبكوات مصر ، والشكل٨ قبعة كبيرة يلبسها الجاويشية وغيرهم من كبار العاملين بالقاهرة • ويغشى حافة هذا القاووق تيل رقيق • والشكل ٩ هو قاووق ضباط الانكشارية •

ويبين الشكل ١٠ على اللوحة العشرين شكل عمامة عامة الانكشارية فى مصر • ويتعمم هؤلاء أحيانا بعمامة سوداء • ويبين الشكل ١١ عمامة الانكشارية فى القسطنطينية ، والشكل ١٢ القلنسوة التى يلبسها الانكشارية فى القسطنطينية أثناء الاحتفالات ، فهم يلبسونها عندما يركب السلطان جواده الى المسجد ، وفى أثناء المواكب الرسمية الأخرى ، ويلبس ضباط الانكشارية فى هذه المناسبات قلانس لها ريش

كبير جميل ينحنى الى الأمام والخلف على نحو ما يرى الانسان فى الشكل المرسوم على اللوحة الثلاثين فى كتاب « السيد فيريول » تصوير البلاط التركى ، والشكل ١٣ يبين قلنسوة البستانجية وهى مكسوة تماما بقماش أحمر سميك ؛ والبستانجية هم حرس السلطان ، وكانوا فيما مضى يختصون بالاشراف على البيوت الريفية والبساتين السلطانية ومنها اتخذوا اسمهم • ويقال ان طهاة السلطان كانوا فيما مضى يلبسون مثل هذه القلنسوة ، ثم أعطوهم فيما بعد قلنسوة من اللباد أصغر منها على ما يظهر فى الشكل ١٤ • ولما كانت كل طائفة من الخدم تتميز بقلنسوتها ، فان اشتراك طائفتين فى لبس قلنسوة واحدة يعتبر تحررا من القاعدة • ويبين الرسم ١٥ قلبقا يستخدمه بعض خدم الباشا ، وطرفه الأعلى مبطن جامد ومغشى بالقماش ، ويبين الرسم قلبق براطلى وهم طائفة من المشاة التابعين لباشا بغداد ، وقد رأيت هذه القلنسوة فى ولايات أخرى ، ولكنها كانت نادرة ، مما يدل على أنها كانت علامة مميزة لبعض الخدم ، وفى الشكل ١٧ قاووق بعض فرسان باشا بغداد والموصل وديار بكر ، ويسمونهم فى هذه المناطق اللاوند • كذلك يلبس التركمان الجائلون فى ربوع سوريا هذا القاووق أيضا • وفى الشكل ١٨ قلبق بعض فرسان حلب ويسمونهم دلى ، وفى الشكل ١٩ عمامة بحارة أسطول السلطان ، وملابس هؤلاء البحارة قصيرة كملابس عامة اليونانيين فى جزر الأرخبيل . وفى الشكل ٢٠ قلبق التتار ، وبقية ملابسهم أقرب فى الشكل الى الملابس البولونية والفارسية منها الى التركية •

ويبين الشكل ٢١ على اللوحة الواحدة والعشرين على وجه التقريب

عمامة المفتى فى المدن التركية . ويبين الشكل ٢٢ قاووق بعض العلماء الذين يجلسون فى الديوان فى القسطنطينية ، وهذا القاووق واسع ومبطن بالقطن . وفى الشكل ٢٣ عمامة العلماء فى القاهرة ، وفى الشكل ٢٤ قاووق أعيان رجال الذين فى تركيـــا كلها ، وفى الشكل ٢٦ قاووق بعض رجال الدين فى الأناضول . ورجال الدين الأتراك يلبســـون ملابس على هيئة ملابس العلمانيين ، الا أنهم يتخـــذون مثل العرب فى الملابس الفوقانية أكماما فضفاضة . وما ينبغى أن يدخل الانسان الأولياء المصريين أو الذين يدعون أنهم قديسون مسلمون فى عداد رجال الدين ، وهؤلاء المهابيل يلبسون على هواهم ، ومنهم من لا يلبس شيئا على الاطلاق . وفى الشكل ٢٧ قلنسوة طوائف مختلفة من الدراويش ، وهى من الجوخ الرمادى . ويلف القائمون على التكايا حول هذه القلنســـوة منديلا على ما يظهر فى الشكل ٢٨ ، والمسيحيون فى قيصرية يلبسون غطـاء للرأس على هذه الهيئة ، فاذا كان المنديل أبيض تحتم عليهم أن يضعوا عليه علامة زرقاء حتى يعرفهم عمال الخراج وهم يجمعون الضريبة وفى الشكل ٢٩ قلنسوة عالية مدببة من الجوخ الرمادى لف حولهـــا منديل كبير ، وهى العلامة المميزة للأكراد المقيمين فى سوريا .

وفى الشكل ٣٠ من (اللوحة الثانية والعشرين) قاووق من الجوخ شائع فى منطقة كوتاهيـــه ، وفى الشكل ٣١ عمامة شاب هندى مسلم ، ولم أر عمامة ملفوفة على هذا النحو فى غير هذه المرة ، وفى الشكل ٣٢ عمامة الأقباط فى القاهرة ، وفى الشكل ٣٣ قاووق هذه الأمة . ويتخذ المسيحيون جميعا فى مصر للعمامة أو القاووق تقريبا التيل الأزرق المقلم

بالأبيض وكذلك الأقباط. ويلبس اليسوعيون وآباء طائفة Patres de propaganda fide فى مصر هذا القاووق و نفس الملابس التى يتخذهـا المسيحيون بالبلاد . أما الفرنسيسكان والكبوشيون فانهم يلبسون فى ربوع الدولة التركية كلها ملابس الطائفة ويسيرون بصفة عامة بأيد وأرجل قذرة . والمسلمون ــ الذى يلزمهم دينهم فى فروضه الرئيسية بالنظافة ــ يستقبحون هذا المنظر كل الاستقباح ، ويقولون عن هؤلاء الآباء الطيبين ما يقوله الأوروبيون عن الدراويش المصريين . وفى الشـكل ٣٤ قلنسوة رجال الدين اليونانيين ، وتصنع بصفة عامة من الجوخ الأسود ، ويرسل رجال الدين هؤلاء شعورهم .

أما القساوسة الأرمن والشرقيون فيحلقون رءوسهم . وفى الشكل ٣٥ عمامة بعض التجار اليونانيين فى جزر الأرخبيل ، وقد رأيتها فى مصر . وفى الشكل ٣٦ عمامة بعض المسيحيين السوريين فى القاهرة . ولا يكاد الانسـان يسـتطيع أن يفرق بين شـكل عمامة قاووق اليهودى المصرى وشـكل عمـامة قاووق المسيحيين المصريين ، فالفرق الوحيـد هو أن المسيحيين يتخذون التيل الأزرق المقلم بالأبيض واليهود يتخـذون بصفة عامـة التيل الداكن . وقد أشرت فى كتـابى « وصف بلاد العـرب » ص٦٦ و ٦٧ الى أن اليهود الشرقيين يرسلون شعرهم فى الجزء الأعلى من اللحية دلالة على أنهم من نسـل ابراهيم . وفى الشـكل ٣٧ قلبق اليونانيين . وفى الشكل ٣٨ قلبق الأرمن . والأرمن واليونانيون يلبسون قلنسوتهم الخشنة تارة كبيرة الحجم وتارة صغيرة وذلك بحسب الموضة السائدة فى العواصم .

أما القلنسوة المبينة فى الشكل ٣٩ من (اللوحة الثـالثة والعشرين)

فهى قلبق الأرمن فى قره هيسار بالأناضول . وفى الشكل ٤٠ قلبق على الطريقة التتارية من النوع الذى يلبسه خدم المسيحيين . وفى الشكل ٤١ قلنسوة من قماش أحمر وحافة سوداء من القطيفة ، يلبسها الأرمن القادمون من فارس والمقيمون فى الأناضول علامة مميزة لهم . فى الشكلين ٤٢ و٤٤ نوعان من القاووق يلبسهما المسيحيون فى حلب ودمشق . وهذا القاووق مغشى بالقماش الأحمر وقد لف عليه من أسفل تيل مخطط . والشكل ٤٣ فيه قاووق عامة المسيحيين فى الأناضول .

وتختلف ملابس النساء الشرقيات فى المناطق المختلفة بعضها عن البعض اختلافا شديداً أيضا . ففى ديار بكر تلبس نساء المسيحيين واليهود حلية على رؤوسهن من النحاس الأصفر أو من الفضة المدقوقة على ما يظهر فى الرسم رقم ٤٥ . أما نساء الدروز فيلبسن قلنسوة من النوع الذى يظهر فى الشكل ٤٦ وهى أيضا من النحاس الأصفر أو الفضة المدقوقة ، وتلبس بنات الفلاحين مثل هذه القلنسوة ولكن من الورق المقوى . أما الشكل ٤٧ فيبدو أقرب الى ذوق النساء الأوروبيات ، ولكن القبعة المبينة مصنوعة من النحاس الأصفر أو الفضة ، وقد رأيتها على رؤوس اليونانيات فى الأناضول ، ولكن فى داخل البيوت ، لأنهن يغطين رؤوسهن كلها بخمار كبير مثلهن فى ذلك مثل نساء المسلمين جميعا والدروز والمسيحيين فى ديار بكر . ويبين الشكل ٤٨ غطاء الرأس الذى اتخذته امرأة شيخ من وادى فاران عند جبل سيناء ، وكان بين ثيابها وثياب المصريات شبه كبير . كانت المرأة المذكورة تلبس طرحة سوداء كبيرة على رأسها مثل النساء فى القاهرة ، وكذلك فى بعض المدن الألمانية . وكانت تدلى فوق جبينها خصلة مضفورة من الشعر فيها قطعة من

المرجـان الأحمر ، وتغطى وجهها — مثل كل المصريات — ببرقع طويل ضيق يمسكه شريط فى ثلاثة مواضع بحلقات فضية صغيرة من الجانبين وفوق الأنف ، بحيث تظهر العينان فقط • وكان الحلق الفضى الذى تحلى به أذنيها كبيرا جدا يتسع ليد الانسان أن تمر من خلاله • كذلك كانت تحيط جيدها بحلقة كبيرة قوية من سـلك فضى ، وتتخذ حول قدميهـا خلخالين سميكين جدا من الفضة أيضا • واتخذت حول جيدها علاوة على ذلك شريطا حريريا مضفرا مختلف الألوان ، وعلى جانبى الرأس شريطين صغيرين من هـذا النوع ينتهى كل منهما بقطعة من المرجـان الأحمر • وحلت أصـابعها الصغيرة فى كلتا اليدين بخواتم فضـية عليها أحجار بسيطة • أما الحلى التى اتخذتها حول ذراعيها فقد بدت لى متعبة مثل تلك التى اتخذتها حول قدميها ، فقد لبسـت حول ذراعها اليمنى خيطا سلكت فيه عظاما مخروطة (تستخدم بعض النسـاء اسورة من النوع نفسه ولكن من الكهرمان بدلا من العظم) ، ثم سلسلة فضية ، واسورة من عظم مخروط ثم سلسلة أخرى • ولبست فى الذراع اليسرى اسورة من النحاس الأصـفر ، وخيطا سلكت فيه عظاما مخروطة ، واسـورة عريضة من الزجاج الملون ، وسلسلة فضية • أما بقية الملابس التى كانت تلبسها فلم أرها جيداً فى تلك اللحظة ولهذا لا أستطيع أن أقـدم وصفا دقيقا لها هنا •

وتلبس الشرقيات جميعا سراويل واسعة على اللحم ، وتلبس نساء الفلاحين فى مصر ، وعامة النساء فى القاهرة فوق هذه السراويل قميصا أزرق فضـفاضا له كمـان طويلان واسـعان يتدليان من الكتفين الى الردفين • وكثيرا ما يعلق النسوة فى شعورهن المضفورة شخاشيخ وغيرها

من الحلى التى تتدلى على ظهورهن ، وتضــع البنات الصغيرات أحيــانا شخاشيخ حول أقدامهن ٠ ويلفون حول رؤوس البنات صفوفا متتالية من العملات الفضية الصغيرة ، بل ومن الدوكات ، ولكن الانســان لا يرى شيئا من هــذا اذا قابل البنــات فى الطريق ، بل لا يرى من وجوههن* الا ما يظهر فى الرسم ٤٨ ٠ وتتزين عامة النساء بحلقان يعلقنها فى الأذنين أو الأنف ، وبأساور كبيرة يلبسنها فى أذرعهن وخلاخيل يلبسنها حــول أقدامهن ٠ ومن النساء من يتحلين برسوم سوداء أو زرقاء فى جلدهن من نوع العلامات التى يصطنعها المسيحيون الذين زاروا بيت المقــدس على أذرعهم ٠ وتعتبر النسـاء هنا من الجمال صبغ الأيــدى والأرجل باللون الأصفر وصبغ الأظافر باللون الأحمر (٤٥) ٠

ويبدو أن النساء المسلمات لا يعلقن على قطعة أخرى من ملابسهن أهميــة أكثر من تلك التى يعلقنها على قطعــة القماش التى يغطين بها وجوههن اذا اقترب منهن رجل ٠ وقد فاجأ أحد الانجليز ذات مرة امرأة كانت تستحم فى الفرات قرب البصرة فوضعت يديها على وجهها ولم تهتم بغيره مما أتيح للغريب رؤيته ٠ ولا تستتر النساء فى الحمامات الا بفوطة حول الردفين أو « احرام » ** من النوع الذى بينته فى كتابى « وصف

(*) سمعت من واحد من أهالى طرابلس انهم يحبون تعليق مثل هذه العملات الذهبية التى عليها آية من القرآن حول رؤوس البنات ، ولهذا يجد الانسان من بينها عملات كوفية كثيرة من الانواع التى اعيد صهرها منذ زمن طـويل ، ويمكن للاوروبيين الذين يبحثـون عن الدنانير وغيرها من العملات الكوفية على ما ارجح ان يزيدوا مجموعة عملاتهم من حلى البنات المسلمات ٠

** هكذا فى الاصل ٠ (المترجم) ٠

البلاد العربية » ص٣٦٤ • وقد حكت لى احدى الآنسات الأجنبيات فى القسطنطينية أنها كانت بباب حجرة الاستقبال فى الحمام وأتت صاحبة الحمام لاستقبالها ، واذا برجل يظهر فجأة ، فما كان من المرأة التركية الا أن أخفت وجهها بالاحرام • والفلاحون فى مصر نادرا ما يلبسون بناتهم قبل السابعة أو الثامنة من عمرهن قميصا ، ولكنهم يعطونهن دائما منديلا طويلا ضيقا يلففنه حول رؤوسهن ويسحبنه على وجوههن اذا اقترب منهن رجل غريب • ولقد رأيت بنفسى فى مصر بنات فلاحات أقبلن نحونا ليروننا وكن عاريات تماما ،ولكنهن غطين وجوههن قبل أن يأتين •

ومن كان يريد وصفا لملابس نساء المسلمين فأنا أحيله الى الرسائل الممتازة لليدى مونتاجو Lady Montagu ، وقد أتيح للسيدة الانجليزية الشهيرة أن تدخل حريم البيوتات التركيــة الراقية ، وهو ما لم يتح لى كرجل • والمسلمون يعتبرون من ســوء الأخلاق أن يحملق رجل فى امرأة تسير فى الطريق مهما كانت من التحجب • ولهذا فأنا لم أر واحـدة من نساء وجهاء المسلمين الا متلصصا ان جاز هذا التعبير • ولما كان البعض قد مال الى الشك فى صحة المعلومات التى تضمنتها الرسائل المذكورة عن روعة الحمامات الشرقية والحريم ، فاننى أود أن أقول ان هذه المعلومات لا تبدو لى مبالغا فيها بعد أن رأيت وسمعت ما سمعت فى بيوت المسلمين والمسيحيين • والرأى عندى أن كاتبة الرسـائل الممتازة أبرزت الروعة والأبهة عند الأتراك على خير ما استطاعت ، وحرصت فى الوقت نفســه أحيانا على اخفاء العيوب • ولما كان هناك رحـالة آخرون قد حرصوا خاصة على بيان الأشياء التى اذا قيست بعاداتنا وتقاليدنا بدت معيبة ، فان أخبار الليدى مونتـاجو جاءت مختلفة غاية الاختلاف عن أخبـار

الرحالة الآخرين.والمرأة التركية تلبس فى الشارع فىالقسطنطينية ثياباً على النحو الذى تبينه الأشكال فى (اللوحة الثامنة والعشرين) ، وهى تغطى رأسها وتلف وجهها ورقبتها بطرح بيضاء كبيرة فلا يرى الانسان منها الا العينين • وهى تلبس ثوبا فوقانيا ضيقا تتدلى منه طرحة مربعة من الكتفين تغطى الجسم كله من الرقبة الى القدمين • والمرأة من الطبقة الراقية فى القاهرة تلبس فوق ثيابها الغالية ثوبا فضفاضا من التيل العادى وتضع على رأسها طرحة كبيرة ، وعلى وجهها حجابا طويلا ضيقا على النحو الذى سبق وصفه • وتطرحه المرأة عندما تدخل الحمام أو عندما تدخل بيت صديقة لها حتى تبين جواهرها وثيابها الثمينة •

ولما كان كثير من الأوروبيين يتزوجون فى المشرق بيونانيات أو بنساء من أصل يونانى فليس من الصعب الاختلاط بنساء هذه الأمة • والحق أن ملابسهن ، وان لم تكن مطابقة لملابس التركيات ، لا تختلف عنها اختلافا أساسيا • ولهذا سأصفها على خير ما أستطيع وعلى قدر ما رأيت بنفسى ، وسأرفق هنا صورة لملابس سيدة يونانية رسمها السيد باورينفايند فى الاسكندرية • ويمكن لمعرفة المزيد عن ملابس التركيات أن يراجع القارىء اللوحة السادسة عشرة من كتاب روسل فى وصف حلب • وتلبس التركيات جميعا سراويل طويلة تصل الى القدمين ، ويلبسن جوارب من الجلد الرقيق ، وفوقها بوابيج واسعة • ويتخذن فوق القميص صديرية لها كمان واسعان ويتمنطقن عليها بحزام عريض ، والتركيات يدعن الصديرية مفتوحة من الأمام قدر شبر تقريبا ، أما اليونانيات فيضممن من الأمام قلابة فوق الأخرى • ويرتدين فوق

الصديرية ثوبا آخر أو فراءا بكمين قصيرين طول الواحد منهما شبران تقريبا . وكثيرا ما تدخل على أشكال هذه الثياب تغييرات ليست بالكبيرة . أما أكثر شيء تعرضا للتغيير فهو غطاء الرأس الثمين الذى تهتم به الشرقيات اهتماما يفوق اهتمام الأوروبيات بالموضة . ولابد للانسان من أن يعترف بأن ثياب الشرقيات أفخر بكثير من ثياب الأوروبيات ، وأن بعض أشكال غطاء الرأس عندهن أجمل فى نظرى مما تلبسه الأوروبيات . وانما ينبغى أن يرى الانسان هؤلاء النساء جالسات على الأريكة حتى تتكون فى مخيلته عن هيئتهن وملبسهن صورة جميلة . ولما كن قد اعتدن على جلوس القرفصاء دواما ، وعلى لبس الجوارب الجلدية والبوابيج الواسعة ، فانهن يمشين مشية رديئة للغاية . وتلبس بعض النساء من نسل الأوروبيين فى القسطنطينية — الى ما يرتدينه من ملابس اليونانيات — أحذية أوروبية ، ولكن الناظر اليهن يتبين من مشيتهن بصفة عامة اذا كن يجلسن على الطريقة الأوروبية أو الشرقية .

وفى مقدور نساء وجهاء القسطنطينية أن يركبن عربات الحنطور وان كن لا يفعلن ذلك الا فيما ندر . أما فى القاهرة التى لايوجد بها عربات على الاطلاق فتركب النساء الراقيات الحمير ، اذا لم تردن السير على الأقدام . ونساء المسيحيين واليهود يتمتعن بامتياز على الرجال ، فليس عليهن أن ينزلن من فوق الركائب اذا مر بهن واحد من وجهاء القاهريين . والعربة الحنطور التركية على شكل الأوروبية ، ولكنهم يجلسون فيها القرفصاء أيضا ، ولهذا ففيها أريكة ، وليس لها أبواب عالية ، بل يركبها الناس مستعينين بسلم صغير يراه الانسان عادة معلقا

الى الخلف ، ويدخلون من خلال فتحات النوافذ • وحيث تتحلى عربات الحنطور عندنا بالزجاج الجميل ، لا يوجد بالعربة الحنطور التركية من حلية سوى قضبان رديئة •

وتستخدم سيدات الطبقة الراقية الشرقيات فى السفر مايشبه الهودج الذى تحمله البغال أو الجمال •

العاب وتسالى الشرقيين فى ساعات الفراغ

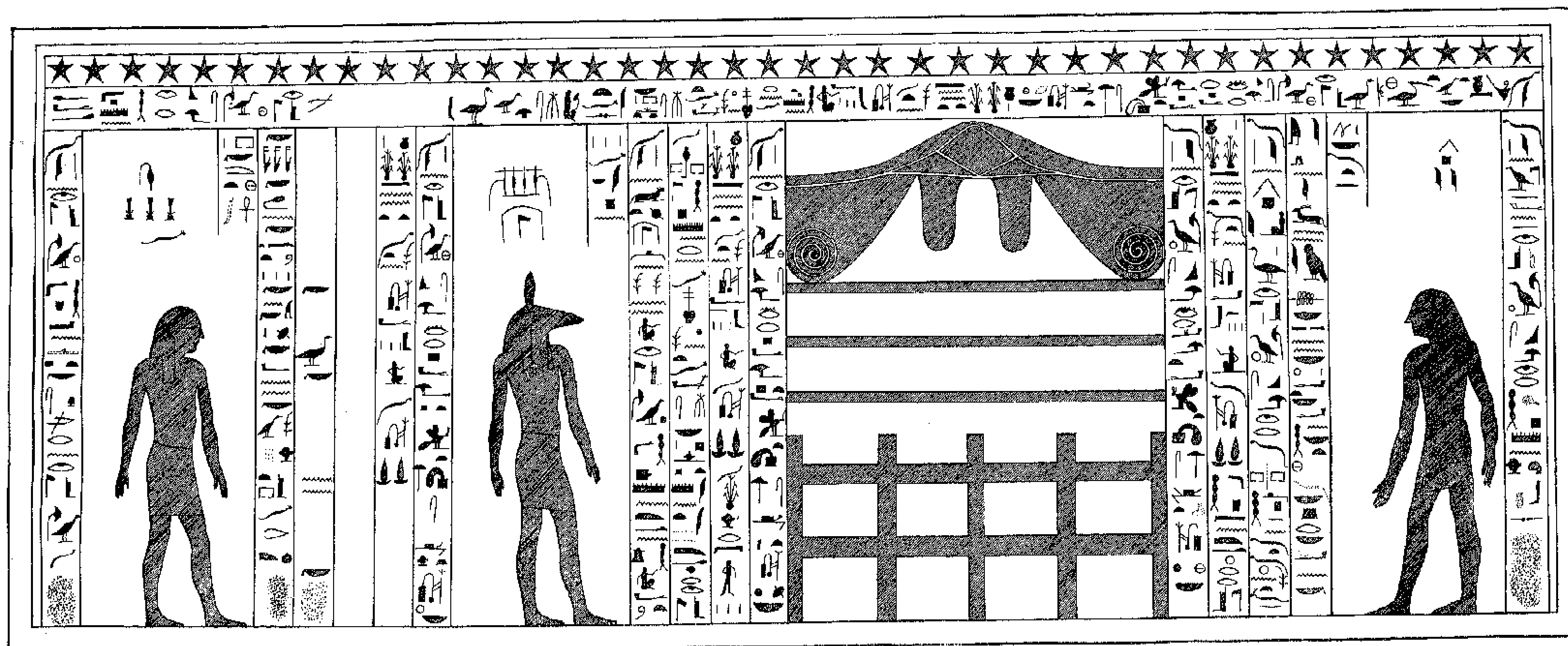
ليست معرفة ما يتسلى به الشرقيون فى ساعات الفراغ أمرا ذا أهمية كبرى ، الا أن الألعاب الصغيرة الشائعة بين عامة الناس قديمة جدا بصفة عامة ، ولما كان من الممكن أن تؤدى الى تفسير بعض عبارات المؤلفين القدامى ، فسأبين فيما يلى ما سجلته عابرا عن الألعاب البدنية وضروب التسلية البسيطة . ولابد من أن أعترف بأننى لم أبذل جهدا فى الحصول على معلومات كاملة عنها .

يبدو أن وجهاء الأتراك ـ العثمانلى ـ يجدون متعة كبيرة فى ركوب الخيل ، وممارسة ركوب الخيل تعتبر عندهم أرفع صنوف التدريب العسكرى . ويجتمع أعيان القاهرة مرتين أسبوعيا فى ساحة كبيرة اسمها المسطبة بينتها على خريطة القاهرة تحت رقم ٤١ ، ويصطحبون معهم عددا كبيرا من العبيد والخدم يمتطون جميعا صهوات الخيول . ثم يشرع بعضهم فى ممارسة لعبة الجريد،وفيها يتطاردون اثنين اثنين بسرعة كبيرة وقد أمسك كل واحد جريدة طولها نحو أربعة أقدام (على نحو شبيه بمنظر الرجلين التركيين اللذين يتلاحقان بالرمح فى اللوحة السادسة التى تمثل مدينة رشيد) ويجتهد فى القائها أفقيا على الآخر بعنف يحطم العظام اذا لم

يأخذ الانسان حذره • وقد تعرفت الى واحد من الأعيان تحطمت ذراعه وساقه فى شبابه أثناء القذف بالجريد • — والبعض الآخر يلعبون لعبة أخرى ، فيضعون اناء ماء — بربخ — على كومة رمل ، ويطلقون عليه النار من أسلحتهم النارية وهم يندفعون بجانبه سريعا • والأسلحة النارية التى لدى المصريين مزودة بقوس زناد ، ولكن اللاعبين الذين يندفعون بسرعة الى الهدف يستخدمون سلاحا ناريا ذا فتيل ، لأن الهواء المتدافع يحول بين الشرارة الصغيرة المنطلقة من الحجر وبين الوصول الى البارود • ويمارس الأعيان أحيانا فى مكان معين الرمى بالقوس ، وقد أقيمت أنصبة هنـاك لمن أظهر قوة فائقة فى هذه الرياضة •

ويتسلى أعيان القاهرة عندما يرتفع النيل بركوب قواربهم الصـغيرة البديعة الفاخرة على صفحات البرك الكبيرة بالقـاهرة • وكثيرا ما يرى الانسان اذ ذاك ألعـابا نارية ويسمع الموسيقى التى لا تغيب عن هـذه المناسبات • وفيما عدا هذا يقضى أعيان القاهرة الليل ، كل فى حريمـه ، ولا يتاح لأحد من الرحالة الأوروبيين أن يرى أصناف المتعة التى ينالها فيه •

وقد قص على رجل من طرابلس فى بلاد البربر أن الباشا هناك كان يقيم فى يوم معلوم من العام صقالتين يمكن شـد قوارب صغيرة مزودة بمدافع من حجم مناسب اليها بالاستعانة بالحبال • وكانت هذه القوارب تشتبك فى معارك بحرية بعضها مع البعض الآخر فى البحر المكشـوف • فيقف قبطان بحرى عند كل صقالة ويتولى القيادة ويأمر بشد قاربه الى هذه الناحية أو تلك على خير ما يحلو له ، والمنتصر فى هذه المعارك هو



لوحة رقم (١٩)

الذى تصيب مدافعه القارب الآخر وتعطبه . وقال الذى حدثنى عن هذه اللعبـة انها كانت لعبـة جميلة . الا أن النزاع شب بين القباطنة ، على الرغم من أن المعارك كانت تجرى بقصد التسلية ، وحدث ذات مرة أن الطرفين حولا اللعبة الى معركة جـدية اشـتبك فيها من تحت امرتهما من جنود ، ولهذا تقرر حظرها .

وقد رأيت فى بعض الأحيان خدم أعيان القاهرة يمارسون لعبـة بنشابة طولها بين ٥ و ٦ أقدام يقذفونها أفقيا على ما يبدو تحت رقم A فى (اللوحة الخامسة والعشرين) ، وهذه اللعبة هى التمهيد اللازم للعبة الجريد على ظهور الجياد . ويمارس عامة المصريين حتى الفلاحين مبـارزة بالعصى الكبيرة حسب قواعد معينة على ما يظهر فى الرسم B . ويتطلب فن هذه اللعبة (٤٦) فى البـداية بعض حركات بالعصا أعتبرها أنا من قبيل التحية ، ثم يبدأ كل لاعب فى توجيه الضربات نحو رأس غريمه الذى يعرف كيف يرد بسلاحه كل ضربة . وقد صورت فى الشكل C مبارزين مصريين آخرين ممن يلعبون التحطيب ، ويحمل الواحد منهم فى يمناه عصا ، وفى يسراه مخدة لها مقبض ، وهما يوجهـان الضربات الى الذراعين دون ما سواهما . وتسمى هذه اللعبة « لعبة الحاكم » .

ورأيت فى الشوارع العامة مصـارعين لا يلبسون سوى سراويل ضيقة من الجلد تاركين بقية جسمهم عاريا تماما وقد دهنـوه بالزيت ، ويحاول الواحـد منهم أن يبين كيف يستطيع أن يطرح الآخر أرضـا الا أن هؤلاء المصارعين يؤدون فنهم تأدية رديئة . وأغلب الظن أنهم لن يتجاسروا على عرض مهارتهم فى بلاد فارس ، وقد رأيت هناك فى شيراز

بيتا يجتمع فيه الكثيرون كل صباح فى ساعة معلومة،ومن بينهم بعض الأعيان والوجهاء أيضـا ، ويتدربون على المصـارعة وعلى غيرها من التمرينات الرياضية التى يرجون من ممارستها المحافظة على صحتهم وزيادة قوتهم • وسأضمن المجلد الثانى من رحلتى صورة لهم •

وقد تناول الآخرون من قبل وصف الأفراح العامة التى تقـام فى القاهرة عند رحيل الحجاج وعند كسر الخليج لتنساب ميـاه النيل بعـد الفيضان الى مدينة القاهرة وأسهبوا فى الوصف وفصلوا • كذلك يحتفلون فى القاهرة بمؤسس كل مسجد فى يوم محدد من العـام ، فيسير بعض المشايخ وكثير من العامة فى موكب الى المسجد ، ويلهو الناس فى ساحة بجوار المسجد • واذا سار الموكب ليلا ، فان عامة المصريين يحملون آنية مثبتة على عصا ويشعلون فيها قطعا صغيرة من الخشب الراتنجى بدلا من المشاعل • ومنهم من يحملون أوانى على هيئة رأس السـكر القـاهرية التى تجاوز سعة قاعدتها سعة قمتها ، وتغشى هـذه الأوانى من الخـارج بخشب خفيف وورق وتعلق على عصا ، وتتسع قاعدتها لنحو ٢٠ من القناديل ، وكثيرا ما يكون سقفها مخرما ومحلى بغير ذلك من الزخرفة ، مما يتيح لها الاحاطة بمزيد من القناديل • ويقيم بعض الناس بمناسبة أعياد الأقباط والمسلمين فى الساحات الواسعة ألعابا من الأنواع الموضحة تحت الحروف D.E.F. ليست للصغار فحسب بل للكبار أيضا الذين يتأرجحون ويدورون بها لقاء أجر زهيد •

والشكل D يبين أرجوحة عادية بثلاثة حبال ، لها مقعد عبارة عن لوح مثلث الشكل ، وهذه الأرجوحة تفوق الأرجوحات الأوروبية ذات

الحبلين فى الراحة والأمان . والشكل E يمثل أرجوحة شبيهاً يمكن أن يجلس فيها طفلان أو ثلاثة فى وقت واحد . والشكل F عبارة عن محور رأسى له أعمدة رأسية تتدلى فى نهاياتها صناديق صغيرة تدور بمن يجلس فيها كما تدور الأحصنة الخشبية فى مثل هذه اللعبة بأوروبا . واللعبة المبينة فى الشكل G شائعة جدا فى قرى الجزء الأوروبى من تركيا ، ويجلس اللاعب فيها فى صندوق صغير ، أو على مقعد يدور حول محوره ، فيرتفع تارة الى أعلى ويهبط بعد ذلك الى أسفل حسب موضعه من الدائرة التى تدورها العجلة .

ويبدو أن ألعاب أولاد الفلاحين هى هى فى كل بلاد الدنيا ، وأنا أذكر على سبيل المثال اننى رأيت أولادا يلعبون على نهر الفرات بين البصرة والحلة ، بخمس حجرات صغيرات ، يلقون الواحدة منها الى أعلى ، ثم يلقفونها بعد أن يكونوا قد التقطوا من فوق الأرض حجرة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع حجرات . ويسمى العرب هذه اللعبة « لكود » . وعندهم لعبة أخرى يسمونها « تختين وخمسة » يمارسها الشباب فيجرون عدة خطوات ثم يقفزون قفزة واسعة . ورأيت فى بلاد فارس صغار أولاد الفلاحين يلعبون الكرة ، وسمعت عن وجود لعبة « زوج أو فرد » عند الأتراك والعرب .

ويعرف الشرقيون لعبة النرد « الطاولة » والضامه أيضا ، ويحبون لعبة الشطرنج حبا شديدا وقد رأيت رجالا يجلسون اليها أياما بطولها ، والقطع التى يلعبون بها الشطرنج كلها بسيطة جدا ، وليس السبب فى ذلك أن المسلمين ينفرون من الشخوص ، وانما لأن فنانيهم لا يستطيعون

صناعتها على هيئة أفضل أو لأنهم لا يريدون انفاق مال كثير عليها . ويستخدمون بدلا من اللوح المكفت بالخشب الثمين المعروف عند الأوروبيين ، منديلا خاطوا عليه مربعات من قماش مختلف الألوان ، فاذا فرغوا من اللعبة صروا القطع فى هذا المنديل لحفظها . — وهناك لعبة «المنقلة» التى ترى صورتها على (اللوحة الخامسة والعشرين) تحت حرف H وتتكون من لوحين ، فى كل لوح ستة خروق أو بيوت ، ويضع كل من اللاعبين فى كل بيت من بيوته الستة ٦ حجرات صغيرة أو ٦ ودعات . ثم يستخرج اللاعب من أى بيت يعجبه جميع الحجرات ويضع ناحية اليمين فى كل بيت حجرة حتى يفرغ ما معه منها . فاذا كان عدد الحجرات فى البيت الذى وضع فيه الحجرة الأخيرة ٢ أو ٤ أو ٦ ، فانه لا يكون فقط قد كسبها ، بل كسب أيضا كل الحجرات فى البيوت التالية محسوبة من الخلف اذا كان فيها العدد المذكور من الحجرات . فاذا أخرجت الحجرات جميعها يعدونها ، والفائز هو الذى جمع العدد الأكبر منها* . وتحمل اللعبة المعروفة فى سكسونيا السفلى باسم « تريب ، تراب ، ترول Trip, Trap, Trul » المبينة فى الرسم K عند العرب اسم دريس الثلاثة . ويستخدمون فى هذه اللعبة عادة كسرا من الفخار بلونين . أما اللعبة L أو M فيسمونها دريس التسعة . وهناك لعبة يسمونها لعبة الكعب يلعبونها بعظام صغيرة مأخوذة من مفاصل أرجل الغنم أو الماعز ، ولها قواعد معينة تضبط اللعب من الجوانب الأربعة . وربما كانت هذه اللعبة هى التى حفزت على اختراع الزهر .

---

* Th. Hyde Syntagma Dissért. Vol. II. p. 374.
Voyage de Mons. le Bruyn

ولا تزال لعبة « طاب ودك » ـ التى وصفها العالم ت • هيده Th. Hyde وصفا تفصيليا ـ منتشرة حاليا فى بلاد الشرق انتشارا كبيرا • ويلعبونها بقطع من الفخار مختلفة الألوان ، ويستخدمون لها فى سوريا ٢١ قطعة ، وفى مصر ١٩ أو ١٧ قطعة فقط وهى على أية حال قطع فردية العدد يضعها جميعها كل لاعب عند البداية فى الصف الخارجى • وكان المارونيون ـ الذين رأيت هذه اللعبة عندهم فى القاهرة ـ يتخذون لها لوحة ذات أربعة صفوف فى كل صف ٢١ بيتا على نحو ما يتضح فى الرسم N• ويستخدم اللاعبون علاوة على ذلك أربع قطع صغيرة مسطحة لونها من هذه الناحية أسود ومن الناحية الأخرى أبيض • هذه القطع المسطحه يقذفون بها اذا كانوا يلعبون على الأرض فوق سكين يدسونها فى الأرض ، أو اذا كان الذين يلعبونها فى البيت ، فانهم يقذفون بها على مسلة يدسونها فى الأريكة • ويبدأ أحد اللاعبين لعبته من اليمين والآخر من اليسار حتى تتقابل القطع • فاذا كان عند اللاعب الأول «طاب» يعنى ٣ أبيض و ١ أسود (*) كان له أن يحرك قطعة من الصف الأول الى الصف الثانى ـ فاذا لم يكن عنده طاب ، انتظر وألقى الآخر ، الى أن يحصل أحدهما على طاب ، فلا يمكن تحريك قطعة من الصف الأول حركتها الأولى الا بطاب • أما الرميات الأخرى فهى : Dük itnejn دك اتنين = ٢ أبيض و ٢ أسود ، وتتيح هذه الرمية تحريك قطعة (بعد الحركة الأولى بطاب) بيتين الى الأمام • دك التلاته Duk ettalâte = ٣ أسود و ١ أبيض وتتيح هذه الرمية تحريك قطعة ثلاثة بيوت •

* يكتب ت . هايده « ٣ اسود و ١ ابيض » . ومعنى هذا ان احدنا جمع معلومات خاطئة ، او ان الناس يلعبون هذا اللعبة فى المدن المختلفة حسب قواعد مختلفة .

أربعة Arba = ٤ أسود ، وتتيح تحريك القطعة أربعة بيوت • Sette ستة = ٤ أبيض ، وتتيح تحريك القطعة ستة بيوت • وطالما كانت رميــات اللاعب طاب أو أربعة أو ستة ، كان له أن يستمر فى الرمى من جديد وأن يستمر فى تحريك قطعه • فاذا وصــل أحد اللاعبين الى آخر الصف الثانى ، أكمل فى الصف الثالث فى الاتجاه المضاد ، فاذا عبر بقطعه هــذا الصف دون أن تؤخذ منه ، استمر الى الصف الرابع طالما كان لغريمه قطعة واحدة فى هذا الصف والا كان عليه أن يعود من الصف الثالث الى الصف الثانى وأن يظل اللعب صاعدا من ناحية ، هابطا من الناحية المقابلة الى أن تضيع القطع كلها • كذلك رأيت عند المسيحيين الشرقيين فى القاهرة أنهم يخبئون نقودا فى الأرض ويرمون عليها كرة مصمتة ، ولهــذه اللعبة قواعد تنظم على سبيل المثال ما يحدث اذا لامست كرة هذا اللاعب كرة الآخر • ولقد أهملت تسجيل كل ما يتعلق بهذا اللعب وأظن أن القليلين من قرائى كانوا سيجدون لديهم الصبر الذى يتيح لهم قراءة كل قواعــد مثل هذه الألعاب •

ولقد رأيت ورق اللعب الأوروبى (الكوتشمينة) عند اليونانيين فى القاهرة وفى قونيه ، ولكنى لم أره عند المسلمين • ويسمون هذه اللعبــة باللغة العربية « لعبة القمار » ــ ووجدت فى بومباى بعض التجار العرب المتقدمين فى السن يلعبون بالورق الصينى ، وهو ورق سميك جدا وغير مريح • وأذكر أننى رأيت أربعة يلعبون بهذا الورق وتلقى كل شخص نصيبه فكانت كمية لم يستطع حملها بيديه معا الا بصعوبة • والقرآن يحرم اللعب بالمال ، ولهــذا فان المسلمين الذين يلعبون الورق يلعبونه للتسلية فقط • واذا كان هناك كثيرون من المسيحيين يعمدون الى الخروج

على أوامر الدين ، فهذه الظاهرة معروفة أيضا بين المسلمين • وأذكر أننى ذهبت ذات مرة لزيارة بعض معارفى من شباب المسلمين فى بومباى وكانوا منهمكين فى اللعب ، فما أخبرهم الخادم بأن غريبا قادم حتى أخفوا النقود التى كانوا يضعونها أمامهم خوفا من أن يفاجئهم واحد من المسلمين المسنين. وما كدت أجلس حتى أبرزوا النقود من جديد واستمروا فى اللعب فى حضورى ولكنهم كانوا يلعبون على قليل من المال لا يكاد يتعدى فى يوم كامل تالر واحدا •

ومن أعظم ألوان التسلية التى يعرفها المصريون والسوريون والعرب الجلوس فى المقاهى مساء ، وتدخين نارجيلة تبغ والاستماع الى رواتهم وموسيقييهم ومغنيهم الذين يترددون على هذه الأماكن بحثا عن كسب زهيد • ويجد الشرقيون ــ الذين كثيرا ما يجلسون ساعات طوالا فى جماعة دون أن يكلم الواحد منهم جاره كلمة واحدة ــ متعة كبيرة جدا فى ذلك على نحو ما ذكرت من قبل فى كتابى « وصف بلاد العرب » ص ١٠٦ • ويدخن المصريون عادة نارجيلات طويلة خشبية تكتسى أنابيبها الخشبية أحيانا بالحرير أو بالقماش الرقيق • ويرشون عليها ماء فى فصل الحرارة حتى يسير الدخان خلال أنبوبة باردة ويصبح أرق مذاقا • وكثيرا ما تكون الأنبوبة غابة رقيقة رديئة ، أما كرسى التبغ فيتخذ دائما من الفخار • والنارجيلة الفارسية التى يمر الدخان فيها خلال الماء شائعة فى هذه البلاد • والرجل العادى يصنع نارجيلته بأرخص وسائل ممكنة ، فيتخذ جوزة هند يضع الكرسى الفخارى فوقها وبينهما أنبوبة من الخشب ويستخدم بدلا من اللىغابة غليظة على نحو ما يظهر فى الرسم

(باللوحة الخامسة والعشرين) • وطريقة استخدام هذه النارجيلة معروفة : فالطباق يبلل قليلا ثم يوضع فى الكرسى a ، وتملأ الجوزة عند تعمير النارجيلة الى نصفها بالماء بحيث تكون الأنبوبة b فى الماء دون أن تمس القاع . فاذا امتص المدخن الهواء الموجود فوق الماء عن طريق الأنبوبة c ، دفع الهواء الخارجى الدخان داخل الأنبوبة b ومن خلال الماء ليملأ الفراغ . ولا يدخن العامة هذه النارجيلة للتسلية فحسب بل للتدفئة أيضا • وكنت فى أثناء رحلتى على صفحة الفرات اذا أردت أن أكافىء البحارة على نزولهم مرارا الى الماء فى الشتاء لتخليص سفينتنا الصغيرة من الجنوح، لا أجد خيرا من تعميرة طباق تدخل الرضا كل الرضا الى نفوسهم ، فهم لا يشربون الخمور • ومن يدخن مثل هذه النارجيلة يستنشق الدخان فاتحا حلقة ، ان صح هذا التعبير ، فيدخل الهواء الدافىء الى الرئة • وهناك صور أخرى للنارجيلة كثيرا ما يراها الانسان حاليا فى فارس ، وهى المبينة تحت الحرف P وتختلف هذه النارجيلة عن السابقة فى أن الجزء السفلى منها عند الجوزة له طرف من النحاس الأصفر أو الفضة • ولما كان من الصعب ركن هذه النارجيلة ، اذا لم يرغب الانسان فى حملها بيده ، فقد أعدت لها حمالة ذات ثلاث أرجل لتوضع فوقها • ويبين الشكل Q النارجيلة الشائعة الآن فى بلاد فارس ، ولما كانت هذه النارجيلة خفيفة أثناء السفر وكان لها شرف الانتساب الى الوالى كريم خان ، فقد أطلق عليها اسم كريم خانى • ويتخذ أعيان الفرس هذه النارجيلة كلها أحيانا من الفضة ، ولكن الشائع أن تكون من سبيكة مكفتة بشىء من الفضة ومحلاة بالميناء ، أو تكون من الزجاج ، وتكون الأنبوبة فى الحالتين من الخشب •

والنارجيلة الفارسية شائعة فى الهند أيضا ، ولكنها هناك أقصر وأعرض جدا عند القاعدة حتى لا تقع بسهولة ، ذلك أن وجهاء الهنود مثلهم مثل وجهاء الترك لا يمسكون النارجيلة بيدهم بل يستخدمون ليا طويلا مغطى بالجلد الرقيق . والأساس فى كل هذه النارجيلات واحد ، وانما يختلف الغلاف الخارجى بحسب الموضة وخيال الفنانين والمدخنين . وهنالك صورة للنارجيلة الشائعة بين وجهاء الأتراك على اللوحة الخامسة عشرة من كتاب روسل فى وصف حلب . ويصنع هذا النمط وكذلك الكريم خانى فى شيراز صناعة نظيفة من الزجاج وكثيرا ما تكون فيها زهور مختلفة الألوان مثبتة فى القاع من الداخل .

يعتبر وجهاء الترك أو العرب من غير اللائق فهم الموسيقى وممارسة الرقص . ولما لم يكن وجهاء الشرقيين أنفسهم من كبار العارفين بفن الأنغام، ولم يكن المشتغلون بهذا الفن ينالون ما يناله أمثالهم عندنا من الأجر الجيد ، فليس من عجب ألا يتقدم هذا الفن هنا مثلما تقدم فى أوروبا . ولم أجد لا فى مصر ولا فى بلاد العرب ولا فى الهند ما يشير الى أن فى هذه البلاد من تعلم تسجيل لحن موسيقى على الورق . وعلى الرغم من أننى سمعت فى الولايات التركية أن بعض الفنانين العظام فى القسطنطينية لديهم رموز سرية يستخدمونها فى تسجيل الأنغام،فاننى لم أعثر على واحد، ولا بين دراويش الطريقة المولوية المشهود لهم بين الأتراك بأنهم أبرع الموسيقيين ، عرف شيئا عن النوتة الموسيقية . وليس معنى ذلك أن كافة المغنين والموسيقيين الشرقيين متساوون فى الرداءة ، فكثيرا ما سمعت شيوخا يتلون آيات من القرآن فأعجبتنى التلاوة جدا لموسيقاها الطبيعية التى لا يكره فيها الصوت على الارتفاع الى أعلى مما ينبغى ، كذلك

شهدت بعض الحفلات الموسيقية فى بغداد والقسطنطينية لا أقول ان من الممكن مقارنتها بالحفلات الموسيقية عندنا ، ولكنى أرى أن أى أوروبى كان يمكنه الاستماع اليها والتمتع بها اذا علم أنه ليس ذاهبا الى حفل لن تؤدى فيه أعمال من الأنواع الكبيرة •

والرحالة الأوروبى لا يسمع فى مصر الا فيما ندر موسيقى أخرى غير تلك التى تؤدى فى الشوارع ، وهى موسيقى رديئة جدا • وأذكر فى ليلة سفرنا من القاهرة الى دمياط أن بحارتنا غنوا بعض أغانى الحب وصفوا فيها الحبيبة بأنها مثل « خيار دمشق » وأن عيونها السوداء الواسعة مثل عيون الغزال ، وأبرزوا جمال يديها المصطبغتين بصفرة الحناء ، وأظافرها المصطبغة باللون الأحمر وما الى ذلك • وكانت ألحان أغانيهم جميعا منوعة ، يؤدى المغنى المنفرد فقرة ، فيرددها الآخرون بألفاظها وبلحنها ولكن على نحو يقل عنه ٣ أو ٤ أو ٥ نغمات (تون) • وهكذا دواليك • ولما لم يكن لديهم طبلة لضرب الايقاع فقد استخدموا التصفيق بالأيدى •

وليس هناك من الأوروبيين الذين يزورون مصر من يمكن أن يجد جمالا فى صراخ الغوازى المصريات ، كذلك الأتراك والعرب لا يستحسنون موسيقانا • والألحان الشرقية كلها عبوسة وبسيطة ، والشرقيون يطالبون المغنين بأن يكونوا واضحين بحيث تخرج كل كلمة مفهومة • يكاد الانسان اذا اشتركت فى العزف آلات مختلفة وصحبها غناء ، ألا يسمع منها جميعا الا لحنا واحدا ، الا اذا أدى أحدهم بالغناء أو العزف باصا مستمرا عبارة عن نغمة واحدة مكررة • واذا كان هذا

الأسلوب على غير ذوق الأوروبيين ، فان الشرقيين كذلك لا يجــدون الكثير من الجمال فى موسيقى الأوروبيين • ولقد أوتيت أمثلة على ذلك أثناء وجودى فى البلاد الشرقية • فقد أقمنا فى القاهرة حفلا موسيقيــا شارك فيه بالعزف بعض التجار والرهبان والسيد باورينفايند وأنا • وبينما كنا عائدين مسرورين الى البيت ، نظن أننا قد عزفنا عزفا جميلا جدا بالنسبة لهذه المنطقة ، التقينا فى الطريق وسط الظلام بمصرى ينشد أغنية ومعه آخر يصفر على الناى • وقد أعجب هذا الغناء واحدا من خدمنا وكان من أهل سنار اعجابا دفعه الى الهتاف : « جميل والله ، ربنا يبارك لكم ! » • ودهشنا لذلك دهشة شديدة وسألناه هل أعجبه حفلنا الموسيقى ؟ فقال : ان موسيقاكم صراخ متوحش قبيح لا يمكن أن يجد فيه انســان جاد متعة • ــ وقد عزفنا ، أنا والسيد باورينفايند ، أكثر من مرة فى حضور بعض أعيان العرب عندما كانوا يزوروننا ، وكنا نتبين ــ على الرغم من أنهم لم يجاهروا بالانتقاص من شأن موسيقانا ــ أنهم يعتبرون موسيقاهم أكثر رجولة وجمالا من موسيقانا •

ولمــا كانت معرفتى بفن الأنغام متوســطة ، ولم أجــد لا الوقت ولا الفرصة لسؤال الشرقيين عن أسلوبهم فى عزف الموسيقى ، فقد رأيت أن أفضل وسيلة لتعريف الأوروبيين بمستوى الموسيقى فى تلك البلاد تعريفا واضحا ، هو أن أرسم لهم الآلات الموسيقية الشائعة هناك ، وترى صورة المجموعة التى أتيح لى جمعها فى (اللوحة السادسة والعشرين) • وأكثر ما يرى الانســان الآلة A بين الاغريق الذين يأتون الى مصر من جزر الأرخبيل ، واسم هذه الآلة ايسيتالى Icitali بلغتهم ، واسمها باللغة العربية « طمبورة » ، ولها وتران من الصلب يضبطان على تون واحد •

ويطلق اليونانيون على الآلة B اسم سيفورى Sewûri ، ولها فى المعتاد أربعة أوتار من الصلب ووتر مزدوج من النحاس الأصفر • وكانت الآلة التى رأيتها من هذا النوع ينقصها وتران ، وقد ضبطت الأوتار الثلاثة المتبقية على النغمات التى سجلتها بجانبها • ويسمى اليونانيون فى القاهرة الآلة C بجلمه و « طمبورة » ، ويبدو أن الاسم الأول يونانى وأن الاسم الثانى هو الاسم العربى العام للآلات الوترية اليونانية ، ولا تختلف هذه الآلة عن سـابقتها الا فى الحجم ، أما أوتارها فثلاثة أحـدهما من الصلب والاثنان الآخران من النحاس الأصفر ، وتضبط هذه الأوتار حسب النوتة المبينة بجانبها • وقد ربطت حول رقبة هذه الآلات أوتـار من المصارين حتى يمكنها أن تصدر الأنغام الحادة المختلفة • وتعزف هـذه الآلات بالريشة ، ويصاحب العزف بها جميعا الغناء عادة • ويصنع صـندوقها من خشب رقيق ، ويكاد وجهها ألا يكون منحنيا على الاطلاق ، وليست الملاوى كلها على جانبى الرقبة ، بل منها ما يقوم رأسيا عليها كما يتضح من الرسم •

والآلة المبينـة تحت رقم D آلة تعزف بالقوس ، وهى التى يسميها اليونانيون ليرا • ولها ثلاثة أوتار من المصارين ، الخارجيان منها عاليان والأوسط أعلى ، ولا يضغط العازف عليها من أعلى ، بل يلمسها من الجانب بالأظافر كما تلمس الأوتار الأوروبية باللماسات • ويلمس القوس هذه الأوتار الثلاثة جميعا فيما أعتقد ــ الا أن أكون قد أخطأت ــ ويعطى أحد هذه الأوتار الباص بصفة مستمرة • وليست هـذه الآلة عالية النغم ، بل يجرى العزف عليها على مستوى كمان الباص عندنا • والقوس المستخدم للعزف عليها بسيط جدا شأنه شأن القوس المستخدم

فى كل الآلات العربية ذات الأوتار المصنوعة من المصارين : فهو يتكون من عصا صغيرة عبارة عن فرع من شجرة ترك على حاله ، ثبت فيها شعر الخيل مرخيا بحيث يتحتم على العازف أن يشده بأصبعه الخنصر أثناء العزف . أما صندوق هذه الآلة فكان مصنوعا من خشب قوى ، فى قاعه خرق صغير . أما الرقبة التى تعلوها الأوتار فقد ركبت فى القاع ونفذت اليه من خلال خرقين فى وجه الصندوق .

وأما الآلة المرسومة تحت حرف E فالبونانيون يسمونها « رباب » ويسميها العرب « زمنجـة » (كمنجـة ؟) ، والمفروض أن يكون عـدد أوتارها ثلاثـة ولكن الآلات التى رأيتهـا من هذا النـوع فى القاهرة كانت بوترين فقط متخذين من المصارين أو من شعر الخيل ، اذا لم تكن هناك أوتار من المصـارين ، ويضبط أحد الوترين أعلى من الآخر بمقـدار نغمتين كبيرتين . وقوس هذه الآلة فى مثل رداءة قوس الليرا . وللآلة ساق من حديد تنفذ من خلال الصندوق الى الرقبـة على نحو ما يظهر فى الرسم . والصندوق عادة عبـارة عن جوزة هند ، وقد يصنع من خشب صلب ، وله فى القاع خرق صغير ، ووجهـه عبارة عن جلد مشدود على الصندوق كما هى الحال فى الطبلة عندنا . وهذه الآلة هى الآلة الشائعة بين الموسيقيين الذين يصاحبون الراقصـات ، والنوتة الموسيقية التى سجلتها بجانب الآلة هى الأغنيـة التى كانت الغوازى تغنيها بمصاحبة هذه الكمنجـة (الربابة) وتكررنها مرارا وتكرارا . ويتبين الانسان من صورة العازف فى اللوحة (السابعة والعشرين) أن الوضع الذى تتخذه الربابة فى العزف هو نفس وضع كمان الباص عندنا .

والآلة الموسيقية ذات القوس المبينة فى الرسم F باللوحة السادسة والعشرين يسمونها المربعة والمفروض أن يكون لها وتران ، ولكن الآلة التى رأيتها فى مقهى بالقاهرة ثم استقدمتها الى البيت بعد ذلك لنرسمها لم يكن بهـا سوى وتر واحد من شعر الخيل ، ولا يزيد سمكها على بوصتين ، ولهـا من فوقها وتحتها جلد مشدود ، والى أعلى الى جانب قرب الرقبة خرق للرنين • وهـذه الآلة تشبه فى وقت واحد الفيولين والطبلة • وكان العازف يتقن استخدام هذه الآلة على الطريقتين ، فكان يضرب أحيانا فى أثناء العـزف بالقوس على وجه الآلة كالطبلة على نحو ايقاعى • وتتفق المربعة جيـدا مع صوت عامة الموسيقيين العرب الذين يغنون بصوت عال (بكل حلقهم) •

والآلة G آلة تعزف بالقوس ، ولها وتر واحد وجلد مشدود على وجه صندوقها ،وقد رسمت هذه الآلة فى البصرة • وقد رأيت فى الهند وبغـداد والقسطنطينية آلات موسيقية أخرى غير هذه ، ولكننى كنت آنذاك مشغولا بأمور أخرى غير رسمها ، هذا الى اننى كنت قد ألفت العادات الشرقية فلم تعد الآلات الشرقية تبدو لى غريبة •

ويحب عامة المصريين الآلات الصارخة • أما سكـان الجنوب من أفريقيا فيبدو لى أنهم يفضلون الموسيقى الهادئة ، أو على الأقل كانت هذه هى حال من يسـمونهم البرابرة ، وهم رجال سـود البشرة يأتون من دنقلة الى القـاهرة • وقد رأيت معهم آلة تشبه الهـارب يسمونهـا فى لغتهم كوسير ويسميها العرب ــ كما يسمون جميع الآلات الاجنبية التى يعزف عليها بالريشة ــ طمبورة وهى آلة لا تحدث بكل تأكيد كثيرا من

الضوضاء • وصندوقها عبارة عن طاسة خشبية لها خرق صغير فى القاع، ومن فوقها جلد مشدود يعلو فى الوسط أكثر من الحواف • ولها عصاتان تنفذان مائلتين من خلال الجلد وعصا ثالثة تصل بين نهايتيهما • وتمتد خمسة أوتار من المصارين فوق الجلد على تكئة الى العصا الأفقية • وليس لهذه الآلة ملاو ، بل يضبط كل وتر بلف بعض التيل حول العصا الأفقية • وتبين النوتة التى أثبتتها بجانب الرسم كيف ضبطت أنغام الآلة ، أو على الأقل كيف ضبط البربرى الذى عزف أمامى أنغامها • ويمكن العزف عليها بطريقتين ، أما بقرص الأوتار أو بشدها بالاستعانة بقطعة من الجلد تتـدلى الى جانبها • وكان البربرى يرقص أثناء العزف • أما الخيط الذى خلف الآلة فيعين اليد أو على الأحرى يعين الأصابع على الاستناد الى الأوتار على نحو مريح • أليس بين هذه الآلة وهارب داوود الكثير من الشبه ؟

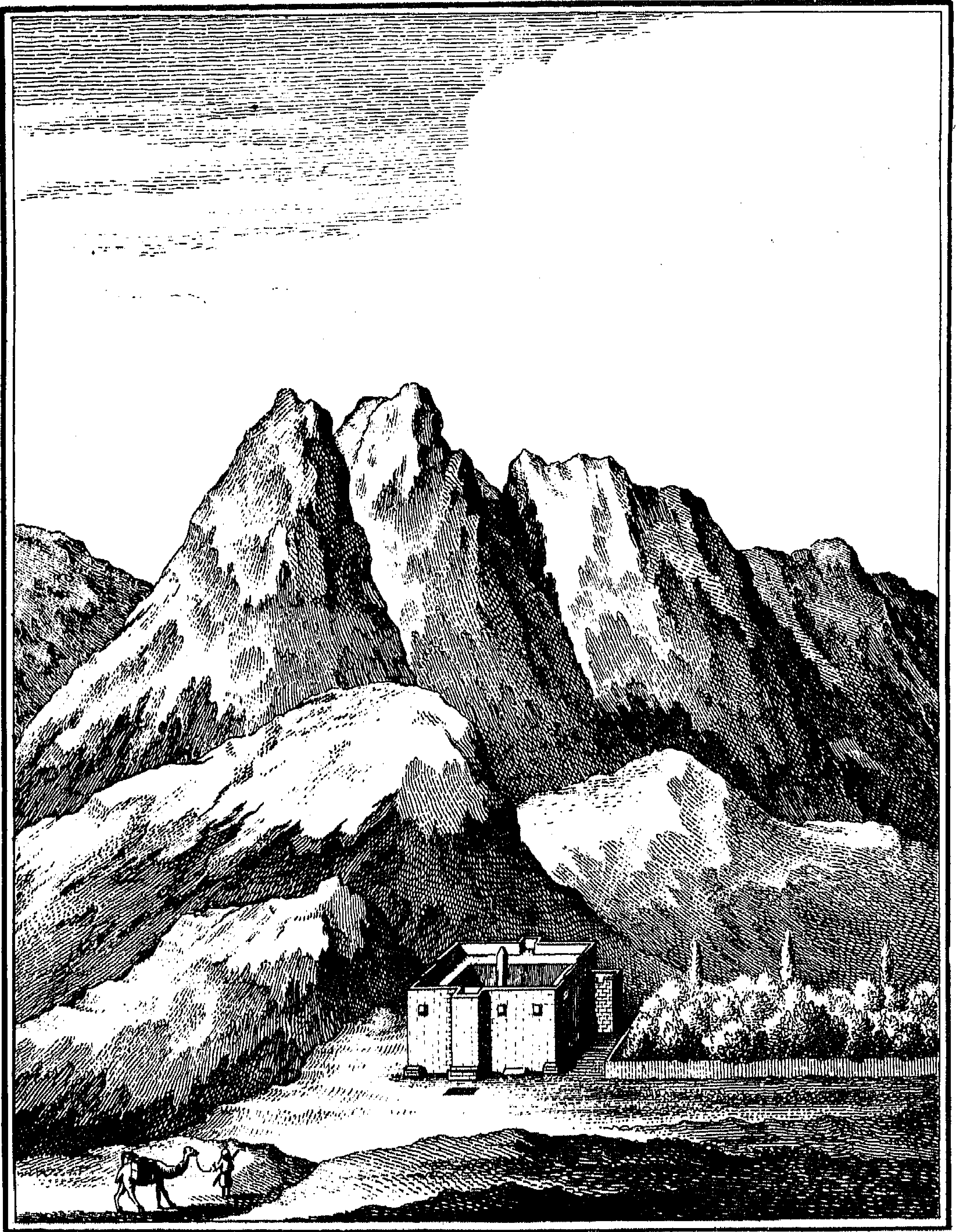
والآلة التى يسمونها فى مصر « الزورنا » (*) هى أكثر آلات النفخ التركية صخبا ، وهى تتكون من سبع قطع وبينها وبين آلة الترومبيتة عندنا شبه كبير ، على ما يتضح من الرسم I • كذلك الآلة المبينة فى الرسم K يسمونها فى مصر زورنا ، وهى نوع من الأبوا لها سبعة خروق وخرق للابهام • وهنـاك آلة أخرى على نفس الهيئة يبلغ طولها ٢١ بوصة • ولعلها تقوم عند الشرقيين لعمق نغماتها مقام الفاجوت عندنا • وآلات الترومبيتة والأبوا ومختلف أنواع الطبول هى الآلات الأسـاسية فى الموسيقى العسكرية ، وهى تحـدث صخبا يضيق به الأوروبيون • وهى من بين علامات التمييز بين الرتب ، فالباشـا ذو الذيول الثلاثة يتخـذ

---

* فى الأصل « زورما » . (المترجم) .

من كل نوع أكثر من الباشـــا ذى الذيلين والباشـــا ذو الذيلين أكثر من البك •

والرسم L يصور سلمانية وهى ناى تركى من الغاب ، أعلاه حلقة من الرصاص أو قد يكون كله من الخشب الرقيق • ويضع العازف هذه السلمانية عند العزف فى الوضع الذى توضع فيه « الفلوت دوس Flötedouce » عندنا ، ومن الصعب أن يحصل الانسان على نغمة البداية فيها ، لأنها بلا مبسم رنان ، بل هى مفتوحة من أعلى تماما • وقد رأيت هذه السلمانية مع رعاة كثيرين من التركمان فى فارس ، ويبدو أن الأتراك ورثوها عن أجدادهم التركمان . وأحسن من يعزف على هذه الآلة دراويش المولوية الذين يسميهم الأوروبيون عادة بالدراويش الراقصين • ولما كان هؤلاء الدراويش يستخدمون الموسيقى فى عباداتهم ، كان خيرة الموسيقيين من بينهم ، ويبدو أن هذه السلمانية هى الآلة المحببة الى نفوسهم • ويشمل الرسم M زمارة وهى آلة نفخ تتكون من أنبوبتين ، ومن مبسمين • ويؤدى اللحن على الجزء القصير ، أما الجزء الطويل فيخرج الأنغام الباص المستمرة المصـــاحبة ، وهو فى ذلك يشبه الأنبوبة الطويلة على القربة الموسيقية البلغارية • والجزء الطويل من الزمارة يمكن أن يزيد أو يقل طولا باضافة أو رفع القطع المعلقة فى نهايته ، وذلك بحسب الأنغام المطلوب تأديتها • والرسم N يمثل زمارة القرب المـــألوفة فى مصر ، وتصنع الصفارة العلوية فيها من الخشب الصلب ،أما الفتحات السفلية الواسعة فهى قرون • وهذه الزمارة بسيطة جدا بالمقارنة بزمارةالقرب البلغارية • وأنا لم أجد فى البلاد الشرقية آلة موسيقية أعجبتنى فى الخلاء كما أعجبتنى



لوحة رقم (٢٠)

زمارة القرب فى بلغــاريا ، ولست أعرف هل كان السبب فى ذلك الفن الذى يؤدون به الموسيقى هنــاك ، أو الألحــان التى تقترب من ذوق الأوروبيين أكثر من ألحان الترك والعرب .

والطبل الشرقيــة مختلفة الهيئة والحجم ، والرســمO يبين الطبلة التركية الكبيرة التى يسمونها الطبلة . وتحمل هذه الطبلة أفقيا ويدق على جانب من جانبيها بقطعة من الخشب مخروطة لهذا الغرض ، وعــلى الجانب الآخر بمقرعة رنانة صغيرة (غير مربوطة) . وتدخل الطبلة فى عداد آلات المواكب عند عظمــاء الأتراك ، وتستخدم كذلك فى زفة الأفراح بالقاهرة . والرسم P يمثل اطارا عريض الجانب شد فوقه جلد، وفى الاطار عادة صنوج مستديرة رقيقة من المعدن تخرج نغمات هى الأخرى عنــدما يرفع العــازف هــذه الطبلة بيد الى أعلى ويضرب عليها بأصــابع اليد الأخرى . وليست هناك آلة موسيقية أكثر ذيوعا فى تركيا من هذه الآلة التى تسمى بالدف ، والتى تدق بها النساء الايقاع فى الحريم عندما يغنين أو يرقصن .

ويبين الرسم Q طبلة صغيرة جسمها من الخشب عادة ، وقد يكون من النحاس الأحمر . ويمثل الشكل R طبلة تتكون من جسم من الفخار يصنع على الهيئة المبينة ويشد عليه جلد ، وتحمل هذه الطبلة تحت احــدى الذراعين ويضرب عليهــا باليد الأخرى . ويسمون هذه الطبلة الدربكة . ويرى بعض الشحاذين فى اليمن خيرا فى الاعلان عن وجودهم فى الشارع عن طريق انشــاد أغنية دينية يدقون معها الطبلة ، ولما لم يكن حمل مثل هذه الآلة بيد والضرب عليها باليد الأخرى شيئا مريحا ، فقد

صنعوا طبلة صغيرة من النوع المبين فى الرسم S وعلقوا على جانبيها كرة صغيرة ، فاذا أديرت الطبلة باليد بسرعة ، قرعت الكرتان جانبي الطبلة وبلغ الشحاذ مرامه وهو مرتاح راحة عظيمة . وأذكر أنني رأيت فى البصرة بعض دراويش الطريقة القالندارية أو القارندالية ، ينفخون فى بوق كبير أمام بيوت المسلمين مبينين بذلك انهم يطلبون الصدقة .

وتعتبر الصنوج المعدنية الصغيرة (الكاستانييت) التى تستخدم الراقصات الشرقيات منها اثنين فى كل يد ، تعلق واحدا فى أصبع والآخر فى الابهام ، من الآلات الموسيقية المستخدمة فى هذه البلاد . ويستخدمون فى موسيقى المواكب صنوجا كبيرة من نفس الشكل . ولقد رأيت الناى أو صفارة الأرغن — التى يصورون الاله پان ممسكا بها عادة — فى يد فلاح بالقاهرة وكان الناى مصنوعا من الغاب . ورأيت آلة السنطور (الهاكبريت) مع فرقة تركية لموسيقى الحجرة فى بغداد ، وكان العازف يعزف عليها بالطريقة المعروفة عندنا . ورأيت سيدة فى الاسكندرية تلمس الأوتار بأصابعها وقد وضعت عليها أظافر فضية ، بدلا من العزف باستخدام النقارات الصغيرة .

واذا كان الرجل المسلم المحترم يؤاخذ اذا أراد أن يبين مهارته فى الرقص ، فان المرأة المسلمة تسعى عن طريق هذا الفن الى نيل المزيد من اعجاب زوجها ، فاذا اجتمعت النساء معا حرصت الواحدة منهن على اظهار تفوقها فى الرقص أمام الأخريات . وقد حكى لى رجل من أهل طرابلس فى كوبنهاجن عن طريقة النساء فى التمتع بالرقص أثناء أفراح الزواج فى مدينته ، وأعتقد أن هذه الطريقة شائعة فى تركيا كلها وفى بلاد العرب . وهو لم ير ما وصفه لى رأى العين ، ولكن زوجته حكت له كل

ذلك بالتفصيل • قال لى : انه ليس هناك امرأة تجرؤ على الظهور فى حفل عظيم كحفل الزفاف الا اذا كانت جميلة ، أو كانت على الأقل تظن نفسها جميلة ، حسنة الخلقة ، متحلية بأفخر الثياب • واذا كان حفل الزواج كبيرا اجتمعت له نحو ٥٠ من أجمل الجميلات فى المدينة ، يرتدين كلهن أفخر الملابس • تأتى كل واحدة منهن بعدد من وصيفاتها أو جواريها ذوات الحسن الفائق يحملن صندوقا ممتلئا بالثياب وينتظرن به فى حجرة أخرى وتجلس السيدات معا حينا من الوقت ، ويتناولن الكثير من المشروبات التى تقدم للضيف ، ثم تأتى طائفة من البنات والجوارى الجميلات فتدخل البهجة على نفوس السيدات بما يقدمنه من غناء وموسيقى الآلات • عند ذاك تظهر أرفع النساء رتبة مهارتها فى الرقص ، ولكنها لا ترقص الا فترة قصيرة ، تذهب بعدها الى الحجرة المجاورة لتغير ملابسها كلها حتى المرمونجة الجميلة الموشاة بالذهب والفضة ، ولا تستبقى من زينتها الا غطاء رأسها وأساورها المرصعة بالكثير من الجواهر واللآلئ • وبينما هى تغير ثيابها ، ترقص الأخريات واحدة تلو الأخرى ، ويتركن الجماعة لتغيير ثيابهن ، وهكذا تظهر السيدة فى الحفل بثمانية أو عشرة من الثياب المختلفة ، يفوق كل منها الآخر ثمنا وقيمة • وكل واحدة تسعى الى اجتذاب اعجاب الباقيات بها ، ولهذا فليس من النادر أن تترك الكثيرات الحفل وقد ألم بهن النكد •

واليونانيات أيضا يغيرن ثيابهن المرة تلو المرة عندما يأتى اليهن زائر • وقد حكى لى رجل أوروبى فى القسطنطينية أنه ذهب يوما لزيارة صديق يونانى ، وأكد لى أن زوجته غيرت ملابسها ــ وخاصة قراعها

فى فترة ساعتين أكثر من خمس مرات • وليس لهذا من وصف الا أنه المبالغة فى الرفاهية • ويمكن للأوروبيين الذين يشكون من انفاق نسائهم الكثير على الثياب أن يجدوا على الأقل عزاء لهم فى أن النساء الشرقيات يزدن على نسائهم فى هذه الخصلة زيادة كبيرة •

ويجد الرجال فى مناسبة الأفراح أو الاحتفالات الأخرى متعة كبيرة فى مشاهدة الراقصات • وهؤلاء الراقصات المأجورات فى القسطنطينية من الجنكان أى الغجر ، ويطلق فى القاهرة على الراقصة من هذا النوع غازية • وتعيش الغوازى حياة منعزلة عن المسلمين ، ولا يتزوجن من الأغراب الا فى حالات بالغة الندرة حتى اذا كان هؤلاء الأغراب من المسلمين • أما الرجال منهم فيحترفون بصفة عامة الحدادة ، وأما النساء والبنات فيذهبن للرقص والغناء أمام أى جماعة من الناس تدفع الأجرة ، ويصحبهن رجل يعزف على آلة الكمنجة ، وامرأتان عجوزان توشك مهمتهما أن تكون المراقبة فحسب • ولا يظنن أحد أن هؤلاء الراقصات أكثر المسلمات تعلقا بالفضيلة ، ويستطيع كل مسلم مع ذلك أن يأتى بهن الى بيته . وللمسيحيين الشرقيين والأوروبيين المتزوجين أن يمنحوا أنفسهم متعة مشاهدتهن وهن يرقصن •

ولكن هذه المتعة محرمة كل التحريم على الرجل الأوروبى اذا لم يكن متزوجا وكذلك على التاجر الفرنسى ، لأن ملك فرنسا أصدر أمرا بمنع التجار الفرنسيين من الزواج فى المشرق كما هو معلوم • وكان علينا لهذا أن نرضى برقصهن فى الطريق العام ، اذا لم تتح لنا فرصة مشاهدتهن عند أصدقائنا المتزوجين ، أو فى بيت عام خارج المدينة • ولما

كان كثير من التجار الأوروبيين بالقاهرة يتخذون بيوتا على شط الخليج الذى يخترق المدينة ، فان الغوازى ينلن من الأوروبيين أعظم ربح فى الأيام القليلة التى يكون الخليج فيها قد تم تطهيره ولم يبلغ الفيضان الارتفاع اللازم لفتح السد • وجاءت هذه الفترة قبيل رحلتنا الى الصحراء ، وكنا اذ ذاك نتلهى عن الأفكار المخيفة التى تملكتنا بسبب هذه الرحلة الوشيكة بتكليف هذه الفرقة أو تلك من الغوازى بالرقص والعزف والغناء لنا فى الخليج الجاف الذى كان يستخدم كشارع • وعلى الرغم من أننا لم نكن نجد فى البداية متعة فى التطلع الى هذه المشاهد لأن أداء الآلات وأداء المغنيات كانا رديئين كل الرداءة ، ولأن الغوازى كن يأتين بحركات فاضحة تأباها عين الانسان الشريف • وعلى الرغم من أننا كنا نجدهن جميعا قبيحات بأيديهن المصبوغة بالصفرة وأظافرهن المصبوغة بحمرة تحاكى حمرة الدم ، وبالوشم الأسود أو الأزرق على وجوههن وأذرعهن وصدورهن ، وبالخلاخيل الضخمة حول أرجلهن ، والحلقان فى آذانهن وأنوفهن ، ودهان شعورهن الكثير الذى كنا نشمه من بعيد ، وغير ذلك مما لا يتفق مع ذوقنا على الاطلاق ، فقد تصورنا فى النهاية أن هذه أو تلك تغنى غناء جميلا ، وتخيلناها جميلة المنظر • وانتهى بنا الأمر الى أن أحببنا الاستماع والنظر اليهن حبنا للاستماع والنظر الى أحسن المغنيات والراقصات ، وقد رسم السيد باورينفايند فرقة من هذه الفرق فى (اللوحة السابعة والعشرين) . ولاتختلف ملابسهن الخارجية عن ملابس عامة المصريات ، ولكنهن يزحزحن أثناء الرقص منديل الرأس الى الخلف ، ويخلعن الثوب الخارجى ويبقين بالملابس الداخلية التى تلبسها نساء الأتراك، وهى عبارة عن قميص أبيض ومن تحته سراويل طويلة فضفاضة وسترة

كثيرا ما تكون مفتوحة من الأمام وحولها حزام له كبتان كبيرتان قد تكونان من الفضة . وترقص نساء الجنكان فى القسطنطينية على نفس النحو الذى وصفته بالنسبة للغوازى فى مصر . وقد رأيت فى بعض خمارات اليونانيين فى غلاطة ـ التى كثيرا ما يتردد عليها حثالة الأتراك ـ صبية يرقصون وقد تزيوا بطريقة خاصة . وهؤلاء المسيحيون الذين يتيحون للمسلمين مثل هذه المتعة وما يترتب عليها من رذيلة مع أبناء ملتهم الأبرياء يستحقون أن يضعهم الانسان دون درجة الغجر .

وللأمم المسيحية الشرقية المختلفة رقصاتها المختلفة وطرائقها الخاصة فى اللعب مثلها فى ذلك مثل الانجليز والفرنسيين والألمان والبولونيين وغيرهم . وأنا أذكر أننى رأيت اليعاقبة والنساطرة فى الموصل فى يوم عيد يرقصون على هيئة دائرة . واليونانيون أيضا يرقصون فى دائرة حيث يمسك الراقص بجاره ، الا أن الدائرة تظل بصفة عامة مفتوحة ، ويمكن اعتبار الراقص الواحد بمثابة الراقص الأول . وليست هناك أمة شرقية تحب الرقص حب اليونانيين له ، ورقص اليونانيين جميل وبخاصة عندما تقوم بتأديته يونانيات جميلات . وللمجر والبلغار رقصاتهم الخاصة ، ولكنها لم تعجبنى قدر ما أعجبتنى رقصات اليونانيين . وأنا لم أر الكوزاك الأصليين يرقصون ، أما الرقصة التى يسميها البولونيون بالكوزاكية ، والتى يرقصها اثنان فقط فهى كثيرة القفز حتى انها لاحت لى وكأنها عكس كل الرقصات التى ذكرتها .

ولما كان الأتراك لا يرقصون البتة ، فقد يظن البعض أن الأوروبيين فى القسطنطينية يعملون لذلك حسابا ، الا أن الأوروبيين يريدون ، على

ما يبدو ، أن يحملوا المسلمين على استحسان كل عاداتنا وتقاليدنا • فهم يعيشون فى بيوتهم هناك تماما كما يعيشون فى الديار المسيحية ، واذ لم يكن فى پيرا دور للأوبرا وللتمثيل ، فان الاوروبيين يقيمون حفلات الرقص والحفلات التنكرية وبخاصة فى وقت الكرنڤال ، ويطلقون لحياتهم العنان • ومع ذلك فأنا أعتقد أن الأفضل أن يمتنع الأوروبيون فى تلك البلاد عما يستهجنه المسلمون ــ فالمسلمون لا يرون فى أمتهم من يرقص سوى الأسافل ، فلا ينبغى أن ندهش اذا ما قارننا المسلمون بهم • ولقد سمعتهم لهذا السبب مرارا يتحدثون حديث السوء عن الأوروبيين ، وبخاصة عن حرية النساء عندنا ، وما كانوا الا محترمين لهن لو أنهم لم يسمعوا عن رقصهن فى المجتمعات العامة مع رجال أغراب • أما فيما يختص بالحفلات التنكرية فأود أن أحكى نكتة سمعتها فى بلاد الشرق • عاد رجل تركى من أوروبا فسأله بعضهم عن العجائب التى لقيها فى الديار المسيحية ، فقال ان غالبية الأهالى فى مدينة البندقية تصاب فى وقت معين من السنة بالجنون فيسيرون متنكرين فى الطرقات ، ويزداد هذا الجنون بدرجة تدعو رجال الدين الى التدخل لوقفه ، ومن بين رجال الدين من برعوا فى التعويذ ، فهم يأتون بالناس فى يوم معلوم (أربعاء الرماد) الى الكنيسة ، وينثرون فوقهم شيئا من الرماد فيعود الأهالى جميعا الى العقل توا ، ويذهب كل الى عمله •

وتبين (اللوحة الثامنة والعشرون) زفة اسلامية بالقاهرة كما رسمها السيد باورينفايند ، وأثبت فيها الأشياء الغريبة التى يتضمنها هذا الاحتفال • ويشير حرف A الى العروس التى تسير محجبة من أم رأسها الى أخمص قدمها ، وقد تدلت عملات ذهبية على وجهها • ويشير الحرف B

الى الجوارى أو الخدم فى الثياب الاسطمبولية ، ويقتاد بعضهن العروس ، ومنهن واحدة تمسك منشة ، وأخريات يقرعن الدفوف • ويشير الحرف C الى الثياب التى ترتديها عامة النساء فى القاهرة ، والحرف D الى بعض الموسيقيين يركبون الحمير ، والحرف E الى عـدد من عامة الرجال فى القاهرة ، ويحمل أربعة منهم مظلة العروس فوقها ، ويرش آخر ماء معطرا • ويشير الحرف F الى رجال من العامة من أهل القاهرة يؤدون بعض الألعاب البسيطة ، وتسير وراء الزفة جماعة من النساء يطلقن صيحة الفرح المعروفة بين النســاء العرب (الزغرودة) لو •• لو •• لو • وقد رأيت خارج الاسكندرية امرأة عربية يزفونها على ظهر جمل ، ومن ورائها البهـائم وأدوات البيت وما اليه من أمتعة تلقتها ضمن الشـوار • وكان الموكب يسير بطيئا جدا ، ويقف علاوة على ذلك بين الفينة والفينة ساكنا ، بينما انطلقت أنغام الموسيقى ، والطلقات النـارية من بنادق العربان وزغاريد النساء نشيطة كل النشاط •

ولما كانت قريبات الميت عند المسلمين يعتقـدن انهن غير كافيـات وحدهن للبكاء على موت الصديق ، أو يعتقـدن أن من الصعب عليهن الولولة بغير انقطاع ، فانهن يستأجرن ندابات متمكنات من حرفة البكاء • وتطلق الندابات صرخات تقطع نياط القلوب من اللحظة التى يلفظ فيها الميت أنفاسه الى اللحظة التى يوارى فيـها التراب • وقد أفادت هـذه الندابات من عادة تغطية الوجه عند الظهور فى الأماكن العامة ، فليس فى مقدور أحد أن يتبين ما اذا كانت الدموع تنهمر من عيونهن • وكما أن الناس فى أوروبا لديهم وقت معين للحزن العميق ، ووقت معين للحزن

المتوسط يعبرون فيه عن مدى حزنهم ، كذلك الحال فى البلاد الشرقية ، حيث تحسب المرأة اليوم والساعة من النهار التى ينبغى عليها فيهـا أن تبكى على القريب الميت فى البيت أو فى المسجد أو عند القبر . وليس من الأشياء غير المألوفة فى هذه البلاد أن يرى الانسان بعض النسوة فى ساعة معينة ، فى يوم معين من الأسبوع يسرن باشات نشيطات فى الطريق الى قبر قريبهن المتوفى أو الى مسجد ما ، وما ان يصلن الى موضع بعينـه حتى ينطلقن فى البـكاء والصراخ ساعة بطولها ، ثم يراهن بعـد ذلك ينصرفن دون أن تبـدو عليهن أدنى علامة على الحزن . الا أن هـذه التقاليد لا يراعيها الا النساء فقط . فالرجال من هذه الناحية أقل نفاقا ، حتى انهم أحيانا يحضضن النسـاء على التعقل اذا ما هن بالغن فى الصراخ وليست نساء المسلمين هن وحدهن اللائى يبكين أمواتهن ولكن المسيحيين الشرقيين أيضا يكترون الندابات أيضا فى بعض الأحيان .

وقد لا يتوقع الانسـان أن يكون فى مصر تمثيليات ، والحق أن القاهرة فيها فرقة تمثيلية كبيرة تتكون من مسلمين ومسيحيين ويهود ، يدل منظرهم على أن مثل هؤلاء الناس لا يربحون الا القليل فى هـذه البلاد . وكان هؤلاء الممثلون يأتون الى بيت كل من يستطيع دفع أجورهم على نحو ما ، ويتخذون من الفناء الواسع بالبيت مسرحا لهم ، يصنعون فى ركن منه ساترا يغيرون وراءه ملابسهم . ولما كان بعض الأوروبيين الذين أمضوا فى مصر سنوات كثيرة لم يروا قط تمثيلية عربية ، فقد اتفقوا مع هؤلاء الممثلين على أن يأتوا الى بيت ايطالى متزوج ليعرضوا تمثيليتهم هناك . ولكن لا الموسيقى ولا الممثلون كانوا على ذوقنا . ولم أكن فى

ذلك الوقت أفهم ما يكفى من اللغة العربية ، ولم أجد هناك جدوى فى أن أطلب من البعض شرح مضمون التمثيلية لى لأنها كانت فعلا رديئة جدا • وكان الدور الرئيسى فيها لأعرابية (كان يمثل الدور فى الحقيقة رجل فى ثياب النساء وكان يبذل جهدا كبيرا فى تغطية لحيته الكثة) كانت تحتال على المارة جميعا حتى يدخلوا خيمتها ، ثم تستخدم أكثر الوسائل أدبا فى تجريد الأجنبى من ثروته ، ثم تأمر به أن يضرب وتطرده شر طردة • وكانت قد نهبت العديدين وبدا عليها أنها تتأهب لنهب طائفة كبيرة أخرى وإذا بأحد التجار الفرنسيين الشباب يضيق بهذه المناظر المضحكة ، ويعبر عن رغبته فى ألا يستمر فى مشاهدتها • فلما بدأ واحد بالتعبير عن استهجانه لهذه الفرقة الرديئة ، أراد بعض الباقين ألا يظهروا بمظهر من كان ذوقهم دون ذوقه ، فأمروا الممثلين بالتوقف ولم تكن التمثيلية قد وصلت الا الى منتصفها أو أقل قليلا •

والعرائس أكثر انتشارا فى القاهرة من التمثيل ، وقد شاهدت عدة مرات تمثيليات صغيرة بالعرائس فى الطريق العام ، ويتخذ لها مسرح على هيئة صندوق كالمبين تحت حرف T فى اللوحة السادسة عشرة ، لا يزيد حجمه على الحجم الذى يستطيع رجل واحد أن يحمله ــ ويلاحظ أن صورة هذه الصندوق فى اللوحة رسمت بمقياس أقل بكثير من المقياس الذى رسمت به الآلات الموسيقية • ويجلس الممثل وراء أو على الأحرى داخل الصندوق بحيث يرى من خلال الثقوب المتخذة فى اللوح [a]المسرح والمشاهدين ولكن بدون أن يستطيع المشاهدون رؤيته • ثم يخرج العرائس من خلال الفتحات [b]الى المسرح ، ويحركها بيديه على سلك من الحديد

الى الأمام والى الخلف ، وكذلك من الوسط الى الجانبين كما يحلو له • وعندما تتحدث العرائس بعضها مع البعض لا يكون من المنـاسب أن يستخدم الممثل صوته الطبيعى ، ولهذا فانه يتكلم بصوت رقيق مستعينا فى ذلك بعدة يضعها فى فمه • ولقد كانت العروض التى شهدتها جميلة فى مجموعها ، ويا ليت التمثيليات كانت أفضل • والتمثيلية تبدأ عادة بكلمات استحسان ومدح كثيرة تقولها العرائس ، ثم تتشاجر وتنتهى التمثيلية بالكثير من الضرب • والممثل يتبع ذوق مشاهديه ، وأغلبهم يتمتعون بمثل هذه الأشياء غاية المتعة • ـــ كذلك خيال الظل[٤٨] منتشر فى البـــلاد الشرقية جدا ، ولم أكن أحب حضور تمثيليات خيـال الظل لأن ملابس الأوروبيين وعاداتهم فيها مادة للسخرية والاستهزاء الى أبعد الحدود •

ومن بين الفنانين الصغار الذين يهيمون فى طرقات القاهرة رأيت واحدا معه نافورة الحواة الحجرية (Fons intermittens) التى ينساب منها الماء حينا ، ثم يتوقف ، ويعود الى الانسياب من جديد • ولمـا كان الرجل يعرف خاصية هذه النافورة ، فقد تظاهر بأنه يأمرها باخراج الماء فتخرج ويأمرها بالتوقف فتتوقف حسب الحاجة ، وكان الناس من العامة ينقدونه من المال النزر اليسير الذى يعيش به عيشة بائسة • ـــ ورأيت واحدا آخر من هؤلاء الحواة يلقى ترابا فى اناء به ما ويخرجه جافا مرة أخرى ، ورجلا معه كوز له قاعان وغطاء واحد ، يضع على القاع العلوى بيضة ، وعلى القاع السفلى كتكوتين ويطيل الكلام أمام الناس ويكثر من الحركات البهلوانية ، ثم ينفخ فى نفير ملتو كبير ويرفع الغطاء مرة ويبين للناس البيضـــة ، ثم يعود الى الحركات البهلوانية ، ويبعـد

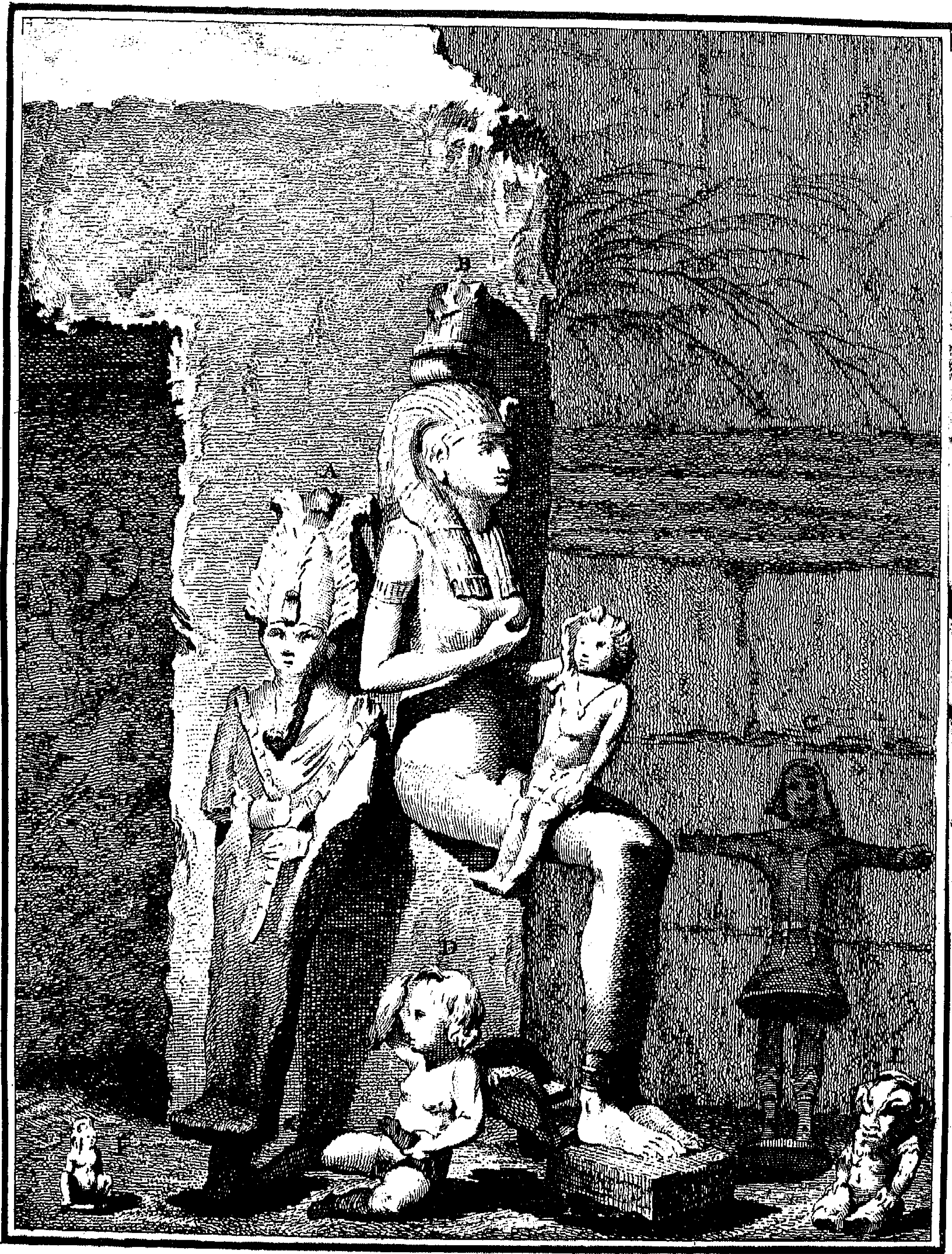
الكوز العلوى مع الغطاء ، ويرى الناس تحول البيضة الى كتكوتين • ويعيد اللعبة مرة أخرى بكوزين آخرين فى العلوى منهما رمل وفى السفلى أكل الكتاكيت • وهؤلاء الحواة يحتالون على العامة للحصول على النقود منهم ، ولكنهم لا يطالبون بالأجر مقدما ، بل يتركون لكل انسان بعد الفراغ من اللعبة أن يقرر هل يدفع شيئا أو لا يدفع •

والقرود تطعم بعض الناس فى مصر ، وهى قرود من النوع الذى يراه الانسان كثيرا يجرى وحشيا فى الغابات باليمن ، وهو النوع الذى يمتاز بأفضل الاستعداد للتعلم • والشائع أن يكون مع صاحب القرد حيوانات أخرى مثل حمار ومعزة وكلب ، كلها تضطر الى اظهار فنونها اضطرارا • ومن الحواة من يرقصون الحيات • وقد يبدو هذا لمن لا يعرف طباع هذه الحيوانات بعيدا عن التصديق ، الا أن هناك أنوعا معينة من الحيات تحب الموسيقى فيما يبدو ، وترفع رأسها الى أعلى عندما تسمع طبلة ، ويسمى الناس رفع الحية لمقدم جسمها وتلويها عدة مرات رقصا • وكذلك من السهل تعليم القرود الرقص • وقد أكد لى ضابط يعمل فى خدمة الشركة الانجليزية الهندية الشرقية للتجارة أنه رأى على ساحل كارماندل معابد كبيرة عظيمة يسكن فيها قرود لا يزعجها الأهالى الجاهليون وأنه أخذ معه عدة مرات طبوله الى هذه المعابد القديمة المهجورة من البشر ، ودقها فخرج نحو مائة من القرود من جحورها ومن بينها أحيانا القردة الأم وأولادها على ذراعيها ، وأنها كانت ترقص على دق الطبول • ولما كانت الثياب الشرقية الطويلة لا تصلح للقرد لأنه فى أغلب الأحيان يسير على الأربع ، فانهم كثيرا ما يلبسون فى مصر القرود

المدربة على الرقص الملابس الأوروبية ، ويحفز هذا العوام من المسلمين على مقارنتنا بهذه الحيوانات ، خاصة عندما يرون رجلا أوروبيا حسن الهندام يسير عارى الرأس ، وقد تدلى سيفه رأسيا على نحو يذكرهم بذيل القرد الذى يبرز من بين الثياب •

واذا كان العوام من الأوروبيين يسمعون من البحارة ومن غيرهم من السابلة الذين يكونون قد قضوا بضعة أعوام أسرى فى بلاد البربر تصويرا مفرطا فى القبح لمسلك المسلمين مع المسيحيين عامة ، فهناك فى مصر أيضا أناس يحكون عن الأوروبيين وفظاعتهم ما لا يقل عن ذلك • ولست أريد أن أذكر الا على نحو عابر اننى شاهدت عدة مرات رجلا اعتاد أن يجلس فى الطريق العام ويعرض للناس أغلاله الغليظة التى كان يرسف فيها فى مالطة ، ويحكى لمواطنيه بصوت مؤثر على هيئة الانشاد عما تعرض له فى أثناء الأسر هناك من أمور منها مثلا انهم كانوا يضطرونه الى رعى الخنازير نهارا ، وكانوا يدفعون به فى الليل الى الحظيرة مع الخنازير ، وغير ذلك كثير • وكان العقلاء من المسلمين ينظرون الى هذا المتسول كارهين ، أما العامة فكان كثيرون منهم يحيطون به ويتأثرون غاية التأثر ويغدقون عليه النفحات ويصبون اللعنات على الهمج الأوروبيين فى رأيهم •

الآثـــار فى مصر



لوحة رقم (٢١)

ليس هناك بين الآثار المصرية ما يلفت النظر أكثر من الأهرامات التى تقوم الطائفة القريبة منها مواجهة للقاهرة على خط مائل ، على الشاطىء الغربى للنيل فوق أول تل على تلك الناحية من النهر . وليس هناك أوروبى وصل فى رحلته الى القاهرة وأحب أن يبرح مصر قبل أن يتأمل هذه المبانى العجيبة عن كثب . ولهذا فقد سبق الكثيرون من الرحالة الى وصفها وصفا مسهبا ، ولكننى أعتقد أنه ربما لم يكن من الافاضة التى لا طائل وراءها أن أعرض هنا ملاحظاتى .

عندما أردت أن أزور الأهرامات للمرة الأولى ، ذهبت على ظهر مطيتى مع جماعة من الأوروبيين المقيمين بالقاهرة يتخذون فى الجيزة سكنا صيفيا لهم ، كانوا يزمعون الصيد ، ووصلت الى جسر فوق فرع عظيم من أفرع النيل على الطريق من الجيزة الى الأهرامات . وعادت الصحبة كلها من ذلك الموضع الى حيث أتت ، وقرر السيد فورسكال أن يصطحبنى الى الأهرام . واتخذنا اثنين من البدو كمرافقين لنا ، ولم نكن نعرف عنهما أكثر من أننا التقينا بهما عند الجسر المذكور . وكان الرجلان البدويان يركبان حصانين ، أما نحن فكنا نركب بجوارهما فى كل تواضع

حمارين • وأخذت معى اسطرلابى لأستخدمه اذا سنحت لذلك فرصة • وما ان وصلنا الى قاع التل الذى تقوم الأهرام فوقه حتى بدأت فى القياس ، واتخذت القاعدة a.b. بطول ٢٠٣ قدما (أنظر اللوحة الخامسة ، الرسم D) ، ووجدت فى الوضع الأول ان الزاوية الأفقية بين القاعدة والركن الشمالى الشرقى للهرم d a b = ٢٠ َ ٣٧° ، وأن الزاوية العمودية d b c = ٣٤ َ ١° • ووجدت فى الوضع الآخر أن الزاوية d b a = ٣٠ َ ١٤١° ، والزاوية d b c = ٣٦ َ ١° • فاذا حسبنا فى المثلث d a b الضلع a d ثم فى المثلث d a c الضلع d c ، وجدنا ارتفاع قاعدة الهرم الأول على أفقى الآلة = ١٧٠ قدما • فاذا فرضنا ان هذه كانت أعلى من شاطىء النيل بنحو ٣٠ قدما ، فتكون قاعدة الهرم الأول أعلى بنحو ٢٠٠ قدم من شاطىء هذا النهر •

ولو اننى استطعت أن أرصد من موضع واحد فقط قمة الهرم لكان من السهل على حساب مقدار ارتفاع الهرم • ولكننا رأينا أعرابيا يهرع الينا على ظهر حصانه ، فرأينا أن الأصوب أن نضع الآلة على الفور فى متاعنا ، فلم نكن قد تعودنا بعد على معاملة العربان الهائمين على وجوههم • وكان هذا الأعرابى ابن أحد الشيوخ ، وكان على ما بدا لنا أرفع قدرا من الرجلين اللذين كانا برفقتنا • وسألنا بأدب جم عن سبب وجودنا فى هذه المنطقة المقطوعة عن العمار وحدنا ، فأجبنا على سؤاله ، فعرض علينا أن يصحبنا الى الأهرام والى أى مكان نحب الذهاب اليه • فرفضنا عرضه لأننا لم نر أننا بحاجة الى مزيد من المرافقين • ولكنه صمم على البقاء معنا ، وأجاب فى جد ظاهر ، بأننا لن نذهب الى حد منعه من

السير معنا ،وأكد لنا أنه لن يعوقنا عن أى شيء • وهنا استأنفنا سيرنا الى الأهرام • فلما نزلنا وراء أحد التلال الصغيرة سمح هذا الشاب الأرعن لنفسه بأن يرشق رمحه فى الأرض أمام السيد فورسكال وبأن يمنعه من المسير اذا لم يعطه بقشيشا •

ورفض السيد فورسكال أن يعطيه شيئا أو أن يعده بشيء • ولكننا كنا ــ ونحن العزل راكبى الحمير ــ ضعافا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا وبخاصة لأننا لم نكن نستطيع الاعتماد على رفيقينا • وهنا طلعت أنا بسرعة على التل ، وصحت فى السيد فورسكال اننى أرى رجالا فى السهل يعملون فى الحقل • فلما لاحظ الشيخ ذلك عاد الى أدبه • ولكننا لم نشأ الاستمرار فى السير ، بل قفلنا راجعين الى قرية تبعد نحو نصف ميل ألمانى من الجيزة وعدنا الاعرابيان بمرافقتنا اليها ، وكان الشيخ الأرعن يسترسل فى الصلف أحيانا ، فنأخذ نحن أنفسنا حياله بالصبر الشديد • وما حان وقت الافتراق حتى عاد الى مطالبتنا بالبقشيش ، ولعلنا لو أعطيناه شيئا قليلا ، لرضى به ، ولكن السيد فورسكال كان قد صمم على ألا يعطيه شيئا على الاطلاق • فلما تأكد له أنه لن يحصل بالحسنى على شيء ، أمسك بناصية زميلى وخطف عمته • وتصرف صديقى على نحو رائع ، فقد لزم الهدوء ، وقال للاعرابيين الآخرين : « يا رجال البدو ، ان الناس فى بلادنا يعتقدون أن الفرنجة فى أمن طالما كانوا فى حمايتكم ، وهأنذا فى حمايتكم • فاذا كنتم ترضون بأن ينهبنى هذا الرجل الذى تعرفونه ، فسوف أحكى لأهل بلادنا حتى يعلموا ان الانسان لا يلقى منكم الاخلاص والثقة » • وهنا تحرك احساس الرجلين بالكرامة ، فأجبروا الثالث على رد العمامة على الفور.فتحول الاعرابى الأرعن الى أنا ،

فلم أعطه شيئا • وهنا مد يده الى اسطرلابى الذى كنت أحمله أمامى على الحمار ، فلم ألزم الهدوء كما فعل السـيد فورسكال ، بل أمسكت بعباءته التى التف بها • ووخز هو حصانه فى هذه اللحظة ، دون أن يمسك باللجام ، فهوى من فوره على الأرض • وكان من الممكن أن يؤدى هذا بى الى خطر مستطير ، فقد اعتبر الشاب القاء رجل مسيحى اياه من فوق ظهر الحصان أمام أعين الكثيرين من الفلاحين الذين اجتمعوا حولنا شيئا فشيئا بمثابة اهانة كبيرة ، وأخرج من فوره مسدسه وصوبه الى صدرى •

ولست أنكر اننى اعتقدت فى البـداية أننى مشرف على الهلاك • ولكن المسدس لم يكن على ما أظن مشحونا • وحاول الرجلان الاعرابيان أن يهدئا من ثورته ، ثم راضيته أنا أخيرا بنصـف تالر • فلما عدنا الى أصحابنا فى الجيزة سخروا منا ، لأنهم كانوا قد قالوا لنا من قبل ألا نعتمد على العربان ، وحـذرونا من أننا سنتعرض للنهب • على أننى أعتقـد يقينا أننا كنا سنستطيع القيـام برحلتنا الى الأهرام آمنين مطمئنين ، لو أننا وعـدنا الأعرابى الثالث منـذ البـداية بأن نعطيه شـيئا من المـال • وليس العربان مخيفين الى الحد الذى تتصوره نحن الأوروبيين عـادة عندما نكون جاهلين بطريقـة تفكيرهم ، غير قـادرين على الحديث بلغتهم •

ويقوم على فرع النيل بين الجيزة والأهرام ، ذلك الذى أشرت اليه سابقا ، جسران جميلان ، أحدهما طوله ٦٠ والثانى ٥٠ خطوة مزدوجة • وبكل جسر ١٠ قناطر ، تسع منها كانت اما ممتلئة جزئيـا بالطين ، أو موصدة الى ارتفاع معين بجدار حتى لا تمـر مياه الفيضان من خلالهـا

بسرعة ، ولا تعــود اذا هبطت الى مستوى بعينه • وهنــاك على جانبى الجسرين وفيما بينهما سد طوله نحو ١٥٠٠ خطوة مزدوجة مبتنى من الطوب الأحمر تارة ومن الحجر المنحوت تارة أخرى •ويبدو أن هذا العمل من بناء المسلمين ، أو لعلهم قد قاموا بتجديده على الأقل ، فالناظر الى الجسرين يجد عليهما نقوشا كبيرة بالحــروف العربية الحديثة • كذلك رأيت قرب الجيزة جسرين آخرين أحدهما له ٥ والآخر ٣ قناطر ، وعليهما نقوش عربية (*) •

(*) فى الوقت الذى كنا فيه بالقاهرة كان السيد فون هافن لا يزال حيا ، وكان هو المكلف اســاسا بدراسة تاريخ هــذه البلاد ولغتها ، ولذلك فلم اهتم انا بالنقوش العربية التى يجد الانسان منها هنا الكثير جدا مما يمكن من تصحيح اشياء كثيرة فى تاريخ مصر . وقد عكفت انا على نسخ النقوش الهيروغليفية وحدها ، لان نسخها كان يتطلب معرفة بالرسم وهو ما لم يتدرب عليه السيد فون هافن . وقد وجــد السيد فون هافن على واحــد من الجسرين قرب الجيزة النقش التالى :

« باسم الله الرحمن الرحيم اخذ بتجديد هذه القناطرة المباركة بامر مولانا الوزير المعظم حسين باشا ابن ..... فى شهر ربيع الاول سنة 1087 » .

ويتضح من هذا النقش ان هذا الجسر قد انشاه من يسمى حسين باشا فى عام ١٠٨٧ اى فى عام ١٦٧٦ ميلاديا . وقد نقل زميلى فى الرحلة هذا النقش بيده . ثم قام فيما بعد برحلة فى صحبة عالم قاهرى الى الجسر الكبير قرب الأهرام ، ونقل منه فى حضرة هذا العالم النقوش التالية :

(١) على الناحية الشرقية من الجسر الكبير قرب الأهرام :

« اللهم ادمن النصر مولانا السلطان الملك الاشرف ابو الخير قايتباى السلطان الملك بثاني شهر ذى العقدة سنة ثمانماية ومايه » .

ويعتقد الدكتور رايسكة الذى ارسلت اليه هذه المنتسخات جميعا ان صحة السطر الثانى « ثمانين وثمانماية » اى ٨٨٠ ، لان قايتباى الذى ابتنى الجسر تولى الحــكم فى عام ٨٧٢ ، ومات فى عام ٩٠١ .

(٢) على الناحية الغربية من هذا الجسر نفسه :

ثم قمنا فيما بعد برحلة أخرى مع بعض التجار الى الأهرام ، وكان مرشدنا فى هذه الرحلة السيد مينار Meynard وهو تاجر فرنسي أمضى فى مصر أعواما كثيرة ، وزار الاهرام مرارا ، ولقد دبر لنا كل ما كنا نصبو اليه من أمن . ومع ذلك فقد تعرض أحدنا للنهب ، وهو رجل ايطالى كان قد وصل الي مصر منذ قليل . وكان عدد كبير من العربان الآتين من القرى ومن البدو المقيمين فى هذه المنطقة قد اندسوا وسط خدمنا وحمارينا العرب الكثيرين . فلما خلعنا ملابسنا لندخل الهرم ، أعطى كل واحد منا ملابسه لخادمه الخاص ، أو لخادم يعرفه ، أما الرجل الايطالى المذكور فقد أعطى ملابسه لأقرب عربى سارع الى خدمته ، فأخذها هذا واختفى . كذلك اكتشفنا عند رحيلنا أن أحدنا ضاع منه

= « باسم الله الرحمن الرحيم اللهم أدمن لنا مدة السلطان بن مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون تغمده الله برحمته امين فى شهور سنة ستة عشر وسبعماية من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام » .

كذلك نقل السيد فون هافن من الجسر الاخر النقش التالى :

« من مولانا المعافر الشريف السلطان المالك الملك الاشرف ابو النصر قايتباى الذى تاريخه على طول الأرض خادم الحرمين الشريفين انشاها العشر قناطر المجددة العالى الاشرف بارباب العساكر المنصورة وبنا هذه القناطر فى مدة عشرين يوما فى ثانى ذى الحجة الحرام سنة ثمانماية وثمانين وتممها فى مدة ثلاثين يوما ثانى شهر الله المحرم الحرام فى ثمانين اربع وثمانين من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام » .

ويرى فيه السيد الدكتور رايسكه اخطاء وتناقضات كثيرة لعلها من الناسخ ، ولكنه يقول ان النقش يدلنا على ان هذا الجسر ذا القناطر العشر قد انشىء بامر السلطان قايتباى صاحب الأمر الأعلى على العساكر ، وانه تم فى عشرين يوما . وان البناء بدا فى الثانى من شهر ذى الحجة ٨٨٣ وان الجسر جرى افتتاحه بعد ثلاثين يوما فى الثانى من شهر المحرم ٨٨٤ ، حيث سمح لكل انسان بان يسير فوقه على قدميه او راكبا مطيته (٥٠) .

مسدس ، والآخر ضاع منه حذاء ... الى آخر ذلك . ولست أريد لهذا أن أقول ان العربان لصوص ، على الرغم من أن بعض الرحالة الآخرين الذين وصفوهم بهذه الصفة لم يكن لديهم من الأسباب أكثر مما لدى . ان هذا الذى فعلوه لا يزيد عما يحدث عادة عندما يتزاحم حشد من العامة فى أوروبا . وقد رسم السيد باورينفايند اليوم ملابس عربان هذه المنطقة فى اللوحة (التاسعة والعشرين) .

وكان هدفى الأول فى هذه الرحلة يتلخص فى حساب ارتفاع الهرمين الكبيرين . وتقع أضلاعهما ، على قدر ما مكنتنى البوصلة الصغيرة من الحكم ، فى اتجاه الشرق ، والغرب ، والجنوب والشمال ، وعلى كل جانب تل كبير من الردم والرمل الذى تجمع شيئا فشيئا أو الذى ذرته الرياح وجمعته هنا . أما عند أركان الأهرامات فيرى الانسان الحجر الذى ابتنيت فوقه عاريا ، لأن الرياح تهب عند الأركان قوية وتنسف الرمال ، كذلك لا يتجمع عندها الردم الذى يتساقط من الأهرامات . فاذا أراد الانسان أن يقيس ارتفاع الاهرامات ، فأيسر سبيل الى ذلك قياس الزاوية التى تصنعها القمة على الركن (أو على الأخرى امتداد الركن — لأن الانسان اذا وقف عند الركن لم ير طرف القمة) مع الخط الأفقى ، وقياس الأضلاع على بعد مواز . الا أن الانسان اذا لم يكن لديه الا القليل من الوقت لتأمل هذه العمائر الرائعة ، وكان محاطا بأناس يظنهم من اللصوص ، لم يستطع أن يختار فى كل الأحوال أقصر الطرق وآمنها ، ومن هنا لم يجتمع لقياسى ما كنت أتمناه له من الدقة . فلم أقس أضلاع الأهرامات الا بالخطى ، ثم اننى اعتبرت الخط الواصل بين a b (اللوحة الخامسة ، الشكل E) بين الركنين القريبين

للهرمين امتدادا مستقيما للخط الواصل بين الركن ومركز مسطح القاعدة (am , bl) ، على الرغم من انه ينحرف عن المستقيم قليلا • ومع ذلك فليس قياسى مجردا من الفائدة ، ولهذا سأذكر تفصيلاته فيما يلى :

تبينت أن المستقيم .a.b أو البعد بين الركنين القريبين من الهرمين الكبيرين يساوى ٥٦٥ قدما ، وقد استخدمت فى القياس خيطا كنت قد أعددته لهذا الغرض • ووجدت الزاوية العمودية b a c •١´ ٣° ، وارتفاع الآلة ٣ أقدام • فاذا بحثنا فى المثلث bac وجدنا المستقيم b c مساويا ٣٤ قدما ، ومعنى هذا أن مسطح قاعدة الهرم الثانى أعلى بمقدار ٣٤ قدما من القاعدة التى يقوم عليها الهرم الأول •

أما الضلع الشمالى للهرم الثانى ، أو الخط b.k فطوله ١٤١ خطوة مزدوجة أو ٧٠٥ قدما • وبناء على هذا يمكن معرفة الخط b.l. أو بعد ركن الهرم عن المركز ، اذا ما افترضنا أن أضلاع الهرم الأربعة متساوية فى الطول ، كذلك يمكن حساب ارتفاع الهرم الثانى اعتمادا على رصد قمته عند ركن الهرم الأول • وقد دلنى قياسى على أن b k = ٧٠٥ قدما فيكون b.l = ٤٩٨ قدما ، ويكون الخط a c أعنى القاعدة a.b = ٥٦٢ قدما • والزاوية d.a.c. = ٦´ ٣٤° والخط d.l = ١٠٦٠ قدما ، والخط d.n. أو ارتفاع قمة الهرم الثانى على أفقى الهرم الأول = ٤٧٧ قدما • وبناء على ما سبق فان الهرم الثانى يرتفع مستواه ٣٤ قدما على مستوى الاول ويبلغ ارتفاع الهرم الثانى طبقا لهذا الحساب ٤٤٣ قدما •

ويبلغ الضلع الجنوبى للهرم الأول أو الخط a i ١٤٢ خطوة

مزدوجة ــ أو ما يزيد قليلا ــ وهو ما يساوى نحو ٧١٠ قدما ، أى أن
a m = ٥٠٢ قدما أو على الأصح ٥٠٠ قدم تقريبا لأن هذا الهرم قمته
ناقصة . ويبلغ طول c.a. ٥٦١ قدما نظرا لأننى لم أستطع أن أضع
الاسطرلاب ملاصقا للركن b . والزاوية ebf = ٤٨ ´ ٢٠ ° ،
أما الخط المستقيم bm فطوله ١٠٦١ قدما ، وبناء على هذا يكون
المستقيم ef ــ أى ارتفاع قمة الهرم الأكبر على أفقى الآلة ــ
٤٠٣ قدما ، فاذا كان bc أو ارتفاع الآلة على مستوى أرضية الهرم
الأول بناء على ما ذكرناه من قبل ٣٧ قدما فان الارتفاع الكلى للهرم
الأول = ٤٤٠ قدما . ولما كان ارتفاع التل الذى يقوم عليه هذا الهرم
بناء على ما سبق نحو ٢٠٠ قدم ، فان الطرف الأعلى لهذا الهرم يرتفع عن
سطح النيل نحو ٦٤٠ قدما . والكتب التى تتعرض لوصف مصر ،
القديمة منها والجديدة ، تذكر ارتفاع الهرم الأول ، ولكننى لم أجد بينها
كتابا هبط به الى الرقم الذى وصلت اليه بقياسى ، والحق أن قياسات
الآخرين ، وبخاصة العالم جريفس Greaves كادت أن تفزعنى وأن
تصدنى عن اعلان نتيجة قياسى(*) . وعلى الرغم من أننى لم أجد
فرصة لقياس الارتفاع قياسا بالغ الدقة ، فقد فضلت أن أورد نتيجة قياسى
على أن أضع سجلا كاملا لارتفاع الأهرام كما ورد فى كتب الرحالة
الآخرين (**) .

(*) Miscellaneous Works of Mr. John Greaves Vol. I p. 94. Vol. II. p. 392.

(**) بعد أن كتبت هذا النص قرأت فى كتاب « وصف بطاح هليوبوليس وممفيس » Description des plaines d'Heliopolis & Memphis par Mons. Fourmont p. 234. بقلم السيد فورمون ص ٢٣٤

ذكر لى اللورد شارلمون Mylord Charlemont الذى أتى الى مصر عندما كنت بها أنه قاس الارتفاع العمودى له (للهرم الأول) وأكد لى أنه ٤٤٤ قدما فقط » . ــ ويتفق هذا القياس تماما مع قياسى .

وتغطى الرمال جزءا كبيرا من أبى الهول ، وقد وجدت أن ارتفاع ذقنه = ١٠ أقدام و ٦ بوصات ، وطول الرأس = ١٧ قدما ، وعلى هذا يكون ارتفـاع الرأس والرقبة على مسـتوى الرمال = ٢٧ قدمـا و ٦ بوصات .

ولا يختلف نوع الحجر الذى بنى منه الهرمـان الكبيران عن نوع الحجر الذى يقومان فوقه ، فهو حجر جيرى ناعم فى الحالتين . ولهذا فليس هناك شك فى أن الأحجار التى استخدمت فى بناء الهرمين قد جلبت من منطقة قريبة ، ربما حول أبى الهول ، الذى يبدو أنه قد نحت كله من الصخر . أما الصخرة التى يقوم عليها الهرم الثانى فلم تسو فحسب ، بل ضم جزء منها الى الهرم . ولقد ذهب البعض ، بدافع تعظيم العمل المدهش وتضخيم تكاليف البناءين أو الجبلين المبتنيين من الحجـر ، الى القول بأنهما كانا مغطيين بالمرمر ، ويؤكد پاول لوكاس Paul Lucas أنهمـا كانا مكسوين بالملاط . ولكن هذا القول خطأ تماما بالنسبة للهرم الثانى على الأقل ، فما يزال النـاظر اليه يرى عنـد قمته جزءا غير صغير من سطحه (*) ، وهو يلمع حقيقة عن بعد خاصة عندما يسقط عليـه ضوء الشمس ، فهو أملس ويلوح كأنما كان من حجر صلب ، الا أنه من نفس الحجـر الجيرى الناعم الذى بنى منه باقى الهـرم . ولقد تسلقت هذا الهرم حتى السطح لا لشىء الا لكى أختبر هذا الموضوع بالذات ، وعدت ببعض قطع منه . ولقد بذلت فى ذلك جهـدا ربما لم يبذله قبلى أوروبى.

(*) Norden, Voyage d'Egypte Tab. 42. 45.

آخر ، لأن الرحالة يتسلقون عادة الهرم الأول ، ولا يهتمون بالهرم الثانى خاصة وأنهم لا يستطيعون بلوغ قمتـــه • ويبدو أن آخر عمل قام به المهندس الذى بنى الهرم هو شطف جميع الأحجـــار التى كانت بارزة ، وتسوية السطوح الأربعة للهرم من القمة الى الأرض تسوية كاملة • ولقد قاوم السطح الأملس الزمن مقاومـــة أفضل مما لو كانت الأحجار بارزة كالسلم واحدة فوق الأخرى • ثم أتت عوامل التعرية على الجـــزء الأكبر من هذا السطح فوقع أو حملته الرياح الى بعيـــد • ويمكن أن نستنتج مما حدث أن الزمن وحده سيأتى فى المستقبل على الأهرام ، ولكن آلافا كثيرة من السنين ستمضى قبل أن تبيد هذه العمائر البديعة المدهشة تماما على فرض أن الزمن سيخلى بينه وبينها • وما السبب الذى كان سيدفع المصريين الى أن يرهقوا أنفسهم فى الصعود الى أعلى الهرمين العظيمين للحصول على الحجر وعندهم جبل المقطم يستطيعون الحصول منه عليها على نحو أكثر سهولة ، وعندهم كذلك التل الذى يقوم عليه الهرمـــان ؟ ولم أجد على الهرم الأول أثرا لسطح كان عليـــه ، وربما كان السبب فى ذلك أنه أقدم من الثانى بعدة مئات من السنين ، أو ربما كان الحجر الذى كان يكسوه أكثر رخاوة فنسفته عوامل التعـــرية أكثر مما فعلت بسطح الهرم الثانى • ويبـــدو أن صاحب الهرم لم يقصـــد به أن يتيح للناس الصعود عليه ، فدرجات الهرم الأول غير متساوية الارتفاع مثلها فى ذلك مثل درجات الهـــرم الثانى ، واذا ما أراد انسان أن يجشم نفســـه مشقة الصعود من مواضع مختلفة ، فانه سيتبين ان عدد الدرجات التى يرتقيها من كل موضع تختلف عن عددها من الموضع الآخر •

أما الهرم الثالث الذى ابتنى هو أيضا بالحجر الجيرى ، فعنده كمية من أحجار الجرانيت لا تزال موجودة ، ويجوز أن يستنتج الانسان من ذلك أن الهرم الثالث كان فيما مضى مكسوا جزئيا بهذا الحجر على نحو ما يقرر المؤرخون القدامى • ولم يتح لى الوقت القصير الذى بقى لى لمشاهدة هذا الهرم أن أجد دليلا على أن طبقة واحدة من الحجارة الخارجية كانت تأتلف كلها من الجرانيت • ولكننى رأيت بين الحجر الجيرى أحيانا كتلا من الحجارة الجرانيتية الكبيرة ، ولم تكن هذه الكتل مشطوفة كأحجار سطح الهرم الثانى • ولا أعرف هل يمكن أن يجد الانسان على الهرم الثالث نقوشا مصرية قديمة لا تزال باقية أم لا ، أما الهرمان الأكبران فلم أجد عليهما نقوشا ، بل لم أتوقع أن تكون عليهما نقوش لأن الحجارة الخارجية لم تعد موجودة ، وليس هناك من يعلم كم من الأقدام سمكها •

ثم اننى ارتقيت الهرم الأول لأرى من فوقه المنظر المترامى الأطراف الذى وصفه الكثيرون من قبل ، كذلك دخلت هذا الهرم ورأيت ما رسمه البعض ، وما نقلوه عمن سبقوهم • ولم أسعد باكتشاف غرفة مجهولة حتى ذلك الحين،كما سعد بذلك بعد رحيلى السيد داڤيزون Davison الذى كان فى مصر مع السيد مونتاجو Montagu ، وليس فى ذلك ما تشرف به قوة ملاحظتى ، ولكن من الممكن أن يغفر لى الغافرون اذا علموا أن السيد مايه Maillet (*) دخل الهرم أكثر من أربعين مرة ولم يلحظها ، فما كنت أتوقع أن أجد غرفة مجهولة بل كنت عاكفا على اجراء

(*) Description de l'Egypte Tom. I, p. 325.

ملاحظات أخرى . وتقع الغرفة المذكورة — على ما وصف لى السيد مينار Maynard — فوق الغرفة الكبيرة المعروفة ذات التابوت. وهى فى مثل سعتها ، ولكنها ليست فى مثل ارتفاعها ، ويقع المدخل الموصل اليها على ارتفاع ٣٠ قدما فوق مستوى المنزلق المؤدى الى الغرفة الكبيرة المعروفة .

ويجد الانسان فى الحجر الجيرى الذى ابتنيت منه الأهرامات ، وفى الصخر الذى أقيمت فوقه نوعا من التحجرات بحجم الدوكات وان كانت أكثر كثافة ، يسميها العرب « فضة أبو الهول » أى قروش أبى الهول ، وكذلك تحجرات صغيرة على هيئة العدس يبدو أنها من نوع الحلزونات الصغيرة التى جمعت أنواعا مختلفة منها فى أبى قير على الساحل المصرى . ولقد تحدث سترابون عن هذه التحجرات وقال انها نشأت عن فتات الطعام الذى وقع من أولئك الذين عملوا فى بناء الأهرام (*) . الا أن مثل هذه التحجرات منتشرة فى الصخر الذى يتكون منه جبل المقطم بالقاهرة .

(*)

Sed unum de miris rebus a nobis in Pyramdibus visum, haudquaquam praetereundum est. Acervi quidam lapidum frustulis do ando detritis ante Pyramides jacent, in his lapilli & forma & magnitudine lentis inveniuntur, quidam ut hordei grana, quae semi decorticata eminent. Narrant reliquias ciborum, qui operariis dati fuerant, in lapidem induruisse: quod quidem satis videtur verisimile. Nam & apud nos collis quidam est oblongus, in campo situs, qui tofi calculis in modum lentis plenus est.

واحب أن اذكر هنا اننى عثرت فى قايتباى فى منطقة رملية على خشب متحجر ، وبخاصة على قطعة كبيرة من جذع شجرة متحجرة .

وقد لاحظ جرانجر Granger أيضـا أن الصخور عند الشيخ حارى (٥١) Schech Harrie في صعيد مصر مليئـة بالتحجرات الصغيرة التى على هيئة العدس • والظاهر أن كل الصخور فى مصر حتى ارتفاع قطبى معين تتكون من هذا النوع من التحجرات ، فالمعروف بناء على مـا ورد فى كتب الرحـلات أن الصخور فى أقصى الجنـوب من الجرانيت.ويمكن أن يفتح هذا الحديث المجال أمام تأملات فى حساب عمر مصر • فكم مـرت من الأعوام حتى تولدت هذه الكميـة الضخمة من الحلزونات الصغيرة ثم ماتت قبل أن ترتفع هذه الجبال الى عنان السماء ؟ وكم من الأعوام مرت حتى جفت مصر ، خاصة وأن المياه فى العصـور القديمة انحسرت عن الساحل ببطء شديد يفوق البطء الذى انحسرت به فى الألـف سنة الأخيرة ؟ وكم من الأعـوام مرت حتى ازدحمت مصر بالسكان ازدحاما يتيح التفكير فى بناء الهرم الأول ؟ وكم من الأعوام مرت حتى أقيمت الأهـرام الكبيرة الكثيرة التى يراها الانسـان فى مصر الى يومنا هذا ، وما نعلم الآن عن يقين فى أى قرن وعلى يد من أقيم آخرها •

ولو كنا نستطيع قراءة كتـابات قدماء المصريين لعرفنا الكثير عن التاريخ القديم لهذا البلد العجيب ، فليس هناك بلد فى الدنيا به ما يدانى هذه الثروة الكبيرة من الآثار ذات الكتابات القديمة التى فى مصر • ولكن الجهد الذى بذله سكان هذا البلد فى تسجيل أخبارهم على أحجار صلبة وكأنهم كانوا يحفظونها الى الأبد ، لا يفيدنا الا قليـلا لأننا لا نفهمها • والحق أننا نجد بين جمهرة العلماء فى أوروبا طائفة قليلة ممن أوتوا الصبر والمهارة لدراسة الآثار ، ولكن هؤلاء لايميلون بصـفة عامة الى اجراء

البحوث خارج حجرة الدرس التى يقبعون فيها ، ولا يجدون سبيلا الى الآثار نفسها ، وربما كانوا بحاجة الى منتسخات من نقوش قدماء المصريين • فاذا حمل اليهم الرحالة عددا كافيا منها ، فانني واثق من أنهم سيستطيعون عما قريب أن يستجلوا الكثير من مكنونها ، خاصة اذا كان أولئك الذين سيعكفون عليها على علم باللغة القبطية الحقيقية التى كان الناس يتكلمونها قبل نزول الاغريق مصر ، فهذه اللغة تبدو ضرورية لشرح النقوش الهيروغليفية (٥٢) •

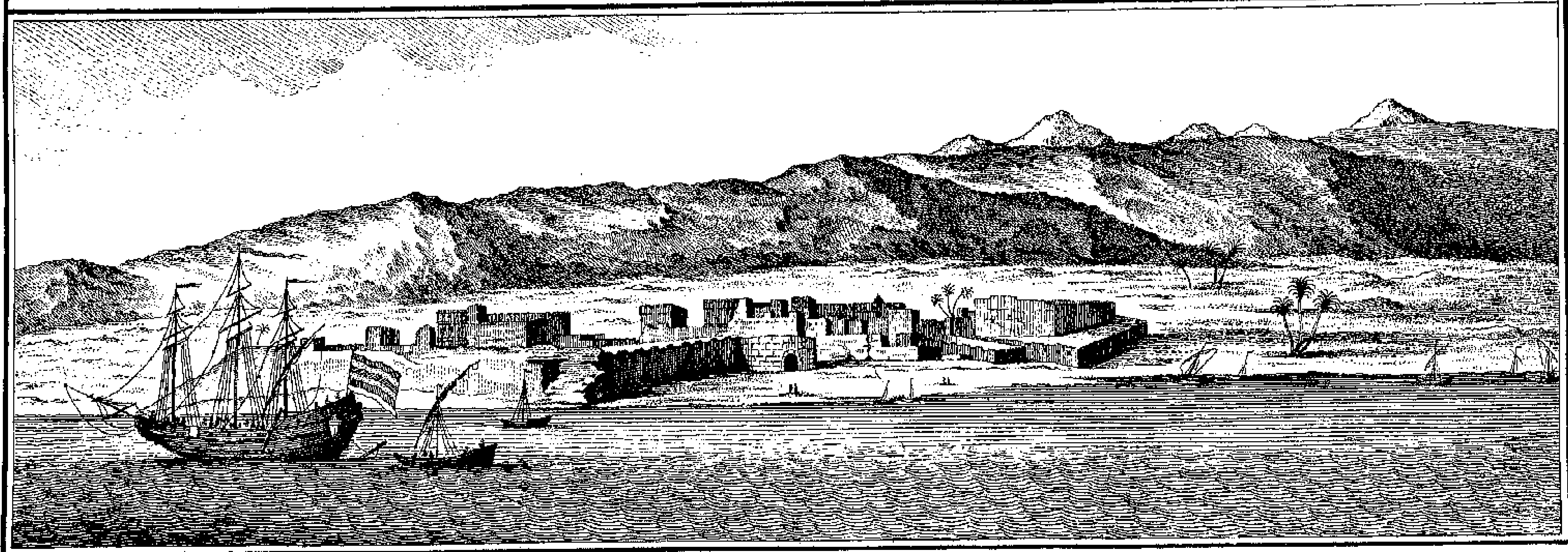
ومن المحتمل أن يكون الأقباط الأول قد احتفظوا بكتابة أجدادهم الكافرين كما احتفظ المسلمون الأول بالكتابة الكوفية • ويبدو أن مصر لم تتعرض فى ذلك العصر للمصير الذى تعرضت له بلاد أخرى ، والذى تعرضت هى له فى زمن لاحق ، ألا وهو الخضوع لأمم غريبة تدخل دياناتها ومعها لغاتها الأجنبية (*) • والبلد الذى يتعرض لهذا المصير تضيع فيه كتابات القدماء من أهله ، خاصة اذا كان المنتصرون يظنون أنهم تلقوا من الرب أمرا باقتلاع جذور الديانة القديمة بالحديد والنار • ومن الاغريق العقلاء الذين أتوا الى مصر من مجدوا حكمة القدماء من أهل هذا البلد • والحق أن المصريين القدماء قد خلفوا الكثير من الأعمال العظيمة والنقوش البديعة التى يدهش لها الانسان حتى يومنا هذا • ولولا هذا لظن الظانون ــ كما فعلوا بكثير من الأمم الكافرة فى العصور الضاربة فى القدم ــ أن المصريين القدماء لم يكن لهم علم بالكتابة كما أنهم لم يكن لهم علم بالاله الحقيقى •

(*) Beschreibung von Arabien, S. 85.

وينبغى للحصول على مجموعة كاملة من الكتابات الهيروغليفية تتيح للعلماء أن يستجلوا كنهها ، أن يقضى رحالة فترة طويلة من الزمن فى صعيد مصر وينسخ كل النقوش الكاملة (أعنى غير المشوهة) وأعتقد أنها كثيرة على جدران المعابد القديمة • وسيجد له عملا كثيرا فى قبور المومياات عند سقارة أيضا • ومن يعلم ، فقد يسعد بالعثور على مزيد من العجائب ، وربما وجد بعض الكتب فى هذه المساكن الجافة التى اتخذت للموتى فى باطن الأرض ، ولم يقف فى اكتشافه عند حد المومياات والأوانى التى تحمل النقوش القديمة • وأين هو الأوروبى الذى استطاع حتى الآن أن يحزم أمره على أن يبذل الجهد الواجب ليكسب صداقة عامة العرب حتى يتقصى على راحته كل شىء بنفسه ؟ والمألوف أن يهرع الواحد عائدا الى القاهرة عندما يتبين أنه لا يستطيع الحصول فورا لقاء المال على كل ما يرجو •

ويبدو أن الرحالة كانوا حتى وقتنا هذا يهتمون بشكل الأحجار ووضعها أكثر من النقوش التى يجدونها عليها ، وأكثرهم يسارعون الى الشكوى من الصعاب التى قابلوها فى سبيل رسم صور للخرائب ، وهو أمر لا يتطلب من الوقت ما يتطلبه نسخ النقوش الهيروغليفية التى تحتاج من الانسان التنبه الى كل خط صغير حتى يستطيع تقديمها الى العلماء الباحثين على أنها نسخ مطابقة للأصل تماما • وكان من الممكن أن يؤدى الجهد المضنى الذى بذلته أنا والصعاب التى تعرضت لها فى مصر أثناء قيامى بمثل هذا العمل الى الحيلولة بينى وبين نقل الرموز والكتابات الهيروغليفية . خاصة وأن القاهرة ليست هى المكان الذى يجد فيه





لوحة رقم (٢٢)

الانســان كمية كبيرة منها ، واننى لم أكن مكلفا أصلا بدراسة الآثار . ولكننى عندما رسمت خريطة للقاهرة ورأيت بعض النقوش الهيروغليفية عدة مـرات ، قررت أن أقوم بنسخ بعضها سعيا وراء متعة شخصـية خاصة . ولقد تطلب منى النقش الأول وقتا طويلا لأن الرمــوز جميعها كانت غريبة على . أما النقش الثانى فتطلب منى جهدا أقل ، وانتهى بى الأمر فى النهاية الى معرفة الرموز الفرعونية معرفة وثيقـة بحيث كنت أنسخهـا كما أنسخ الكتابة اليونانية أو الكوفية . ولم أحجم النقوش الهيروغليفية التى انتسختها فى مصر كلها الى الكتاب ، ولا أشك فى أن كثيرا مما رسمته من أشكال سيعين على شرح ما خلفه الكتاب القدامى ، كمـا أعانت الأشــكال الواردة على Mensa Isiaka لبيجنوريوس Pignorius وغيره .

وكان أكبر نقش هيروغليفى وجدته فى مصر مسجلا على تابـوت كبير من الجرانيت الأســود عند مسجد ابن طولون قرب قلعة الكبش ، وهو النقش الوارد على (اللوحة الثلاثين) . وقد رسم بوكوك Pococke هذا الصندوق الذى أسماه فسـقية الكنز على اللوحة الحـادية عشرة الملحقة بكتابه « وصف الشرق » Description of the east كذلك رسم بيرى Perry تابوتا مشابها بما عليه من نقوش هيروغليفية على اللوحة الثالثة والثلاثين الملحقة بكتابه منظر الشرق View of the Levant والتابوت المشار اليه طوله نحو ٧ أقدام ، وهو فى أعـلاه أعرض منه فى أسفله ولهذا يجوز للانســان أن يخمن أنه كان يستخدم نعشا لواحـد من عظمـــاء المصريين . والتـــابوت موضـــوع فى تجـــويف

بجدار ولهذا لا يستطيع الانسان أن يرى سوى نقوشه التى على الواجهة الأمامية ، وربما كانت الجوانب الأخرى حاملة لنقوش أيضا . ولقد كانت هناك نقوش بداخله ، ولكنها طليت بالجير لأن التابوت يستخدم حاليا مزودا تأكل منه البهائم . ويظن مابيه ــ فى المجلد الأول ص ٢٤٥ ــ ان هذا التابوت الذى يسمونه فسقية العشاق ، قد جلب من أحد الأهرامات . الا أن التابوت الذى نراه فى الهرم الكبير ، ليس مستديرا من أعلى وليست عليه نقوش هيروغليفية . ولهذا أعتقد أن عظماء المصريين الذين كانوا لا يستطيعون أن ينفقوا على انشاء هرم ، أو الذين كانوا فى عصر لم يكن بناء الأهرامات فيه موضة ، كانوا يدفنون فى مثل هذه التوابيت الفاخرة .

ولقد سجل بعض الاغريق الذين كانوا فى مصر أيام كان علماء هذا البلد لايزالون يستطيعون قراءة الكتابات الهيروغليفية معنى بعض الأشكال الهيروغليفية، ولكنى لا أدرى اذا كان ما أثبتوه يمكن أن يعين على استجلاء الكتابة الهيروغليفية الأصلية . وكانت ملاحظاتهم منصبة ــ مثلها مثل ملاحظات بعض الرحالة المحدثين ــ على الأشكال الكبيرة وحدها التى تلفت النظر لأول وهلة ، ولست أرى ان هذه الأشكال تتصل بكتابة المصريين القدماء . ويبدو أنها مجرد رموز تهدف الى تمثيل بعض الأشخاص أو الأحداث . وأعتقد أن غالبية النقوش التى لا تزال موجودة الى اليوم تشير الى هذا بوضوح كامل . ونحن نرى فى النقش المذكور على التابوت عند قلعة الكبش ثلاثة من هذه الأشكال ومن فوقها بعض العلامات الصغيرة التى أسميها أنا الكتابة الهيروغليفية وأظن أنها تشرح

الأشكال الكبيرة . وتبين هذه اللوحة أيضا أن المصريين كانوا يسجلون حروفهم ــ اذا صح أن أسميها هكذا ــ معتدلة أو مقلوبة فالطيور على سبيل المثال تنظر فى جزء من النقش الى ناحية اليمين وفى الجــزء الآخر الى ناحية اليسار . كذلك من الملاحظ أن هناك بعض الخطوط العمودية تكاد تكون متســاوية ، وأن الأشكال تكون مقلوبــة على النحو الذى سبق أن أشرت اليه . ويوشك الانسان أن يظن لهذا السبب أن المصريين القدماء كانوا يحفرون على الحجر نقوشا مختلفة ذات مضمون واحــد حتى يبقى واحد على الأقل واضحا مقروءا اذا تلف الآخر . ولكننى أقدم على أية حال الى العلماء صورة للواجهــة الكاملة للتابوت وأتــرك لهم مهمة شرحها .

وحتى لا يفكر مفكر أننى جمعت النقوش الهيروغليفية التى أقدمها هنا دون ما جهد سأشير هنا باختصار الى الصعوبــات التى واجهتها فى أثناء رسم هذه اللوحة . كان رأيى أننى أكون آمنا غاية الأمن فى غضون هذا العمل اذا كنت بصحبة عالم مسلم ، ولهذا توجهت ممتطيا ظهر حمارى برفقة أحد الشيوخ الى قلعة الكبش . ولما كان التابوت موضــوعا فى شارع يمر بــه خلق كثيرون بغير انقطاع فقد اجتمع حولى حشــد من المتفرجين بعد قليل ، ولكننى لم أسمع من أحد منهم كلمة قبيحة ، وكانوا متدهشين لفضول الأوروبيين ولمقدرتى على نقل جميع الأشكال كما كانت على التابوت ، لا أستعمل سوى قلم لا أغمسه فى حبر (قلم رصاص) . وما كدت أفرغ من ربع النقش حتى جاء سراج الينا ، وهو واحــد من حجاب البكوات الذين يحبون أن يكون لهم نفوذ كبير فى وجود العامة ،

خاصة اذا استطاعوا أن يهينوا واحد من الأجانب المسيحيين أو اليهود ، فليس لهؤلاء أن يردوا اهانة أو ضرب المسلمين حتى لو تعرضوا لسوء المعاملة من جانبهم .

ولست أعرف هل كان هذا السراج مكلفا بحفظ النظام فى هــذا الحى ، أم انه تبرم بتجمهر الأهالى ، أم أراد أن يبين عظمتــه أمام هذا الحشــد من المتفرجين . المهم أنه وجه الى كلاما بذيئـا ، ورأى الشيخ الذى كان يرافقنى أن من الأفضل أن نعود أدراجنا والا تعرضت للضرب . ولهذا ركبنـا الحمير وعدنا من حيث أتينا ، ولكننى كنت غاضـبا على السراج غضبا شديدا ، وأردت أن أستعلم عن سيده وأن أشكوه اليه . الا أن صديقى الشيخ الذى كان يعرف هؤلاء الناس أفضل منى نصحنى بألا أفعل وخفف عنى مستعينا ببعض الأمثال لأنه لم يكن ليصــل الى غايته بتصوير الواقع . فقال لى : هل تستطيع أن تمنع كلبا من أن ينبح عليك ؟ أو اذا ضربك حمار ، فهل تجد شرفا أو شفاء فى ضربه ؟ يمكنك أن تأتى مرة ثانية وأن ترسم فى سكون ما تريد . وذهبت بعد بضعة أيام مع صديقى مرة أخرى الى قلعة الكبش ، ونقدت سراجا من الحى قليلا من المال حتى يحمينى من رفاقه . واجتمع حولى فى هذه المرة أيضا كثير من المتفرجين وكان من بينهم سراج آخر سألنى عمن أعطانى تصريحا بنقل ما على التابوت من كتابة ؟ ورد عليه سراجى قائلا : ان سيده هو الذى أعطانى التصريح . فقال الآخر : ولكن سيدى لن يسمح له بذلك . وكان أن عدنا أدراجنا مرة أخرى . ورجعت للمرة الثالثة بعد عدة أيام ، ولم أكن قد فرغت تماما من النسخ عندما رآنى امام فى مبنى مجاور للمسجد

فأخذ يرغي ويزبد . وهنا رأيت أنه ليس من المجدى أن أجلب لنفسى المزيد من المنغصات ، وعدت أدراجي مسرعا . وهكذا فقد نسخت النقش كله باستثناء بعض الرموز ، ولم يكلفنى هذا العمل مالا كثيرا . ولعلى لو كنت قد توجهت منذ البداية الى امام المسجد أو الى أحد البكوات لنلت لقاء هدية عظيمة تصريحا برسم كل شيء على راحتى ، ولعلى لو فعلت ذلك كنت قد منعت من رسم أى شيء على الاطلاق . ولهذا فأفضل سبيل يسلكه الرحالة الأوربى فى كل وقت ليسترسل فى البحث والتنقيب أن يعمل دون أن يتعرف الى المسلمين أصحاب السلطان ، وانما يتطلب هذا شجاعة ورباطة جأش . ولو اننى قد فزعت من فورى عندما اعترض السراج الأول سبيلى ، لما حصل قرائى الا على القليل من منتسخات النقوش وغيرها من الرسوم . ويجب أن يحسب الانسان فى البلاد الشرقية حساب الصعوبات التى كثيرا ما تعترضه عندما يرسم الآثار . ولكنها ليست بالصعوبات الخطيرة ولا ينبغى أن يحفل بها ما دام سيصل الى هدفه النهائى .

ولقد علمت أن فى أفنية مساجد القاهرة توابيت مختلفة عليها كتابات هيروغليفية تستخدم أحواضا للماء . وكان رجل اسمه عثمان كخيا قد استخرج قبل عشرين عاما تابوتا مشابها من صالحجر وحمله بطريق النيل ليستخدمه فى مسجده كحوض للماء ، ولكن التابوت تحطم عند اخراجه من السفينة فى بولاق ، فوضع الناس الحطام حول شجرة لتكون ساترا مريحا للجذور المغطاة بالطين . وقد انتسخت النقوش الهيروغليفية التى على القطع المختلفة وجعلتها على (اللوحات ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥) .

ويجد الانسان بينها بعض الأشكال الرمزية أيضـــا ، أما الصف الأعلى فيلوح لى مجرد زينة ، وان لم يكن من المستبعد أن يكون للأشكال التى كثيرا ما تتكرر فى النقش معناها • ويلاحـــظ أن الرموز الهيروغليفيـــة صحيحة الوضع فى اللوحات الثلاث الأولى ، وأنها مقلوبـــة فى اللوحتين الباقيتين • أما الشكل الكبير الذى نراه فى (اللوحة الثالثة والثلاثين) فنراه أيضـــا فى اللوحة ٣٣ الملحقـــة بكتاب بيرى « منظر الشرق » ، الا أن الكتابة الصغيرة التى بجانبها والتى أعتقد أنها تشرحها ، ليست هى هى فى اللوحتين • ولكن الرموز الهيروغليفية المدونة على اللوحة المذكورة فى كتاب بيرى تستحق أن تقارن بتلك الواردة فى لوحاتى • وقطع التابوت التى نقلت نقوشها تقع فى وسط ميدان كبير أمام بيت الكاشف • وقمت بالرسم أكثر من ساعتين فى حضور كثير من المتفرجين لم يزعجنى منهم أحد أدنى ازعاج •

وذات يوم أطلت الرســم فأتى الى سراج وطلب الى أن أذهب الى سيده الكاشف • فذهبت فسألنى الكاشف عن سبب قيامى بنقل الكتابات الفرعونية ، وأمرنى بأن أظهره على ورقتى فأعطاها لوجهاء آخرين كانوا يجلسون عنده فضحكوا جميعا لفضول الأوروبيين الذى لاح لهم عاريا عن الفائدة • وأخيرا تلقف السراج ورقتى وخرج بها من الحجرة ، فطلبت من الكاشـــف أن يأمر باعادتها الى ، فرد على بأن لى أن أطلبهـــا من السراج ، وكان معنى هذا أنه سمح لخادمه بأن يتلقى منى بقشـــيشا ، فنقدته تالر ولم أسترد ورقتى فحسب ، بل تلقيت تصريحا بأن أستمر فى رسم الأشكال المنقوشة على التابوت المحطم ما شئت •

وتضم (اللوحة السادسة والثلاثون) جانبا من الكتابات الفرعونية المدونة على مسلتين صغيرتين محطمتين ، القطعة A من الرخام الأسود وهى الآن عتبة مسجد بالقلعة فى القاهرة . وقد وضعت علامة ✻ عند بعض الأشكال لأنها عالية فى وسط التجويف الغائر أما القطعة B فهى من الجرانيت ، وهى الآن درجة سلم فى بيت غير بعيد عن قنطرة جديد [٥٣] ، ويبلغ طولها ٥ ١/٢ أقدام ، ويمكن للقارىء أن يتصور بناء على هذا حجم الأشكال المدونة عليها . والشكلان اللذان وضعت بجانبهما علامة ✻ يشبهان الأشكال الأخرى بصفة عامة ، الا أنهما وقد حفرا غائرين يرتفعان فى الوسط .

ومن الآثار التى يجد الانسان عليها نقوشا هيروغليفية فى حالة جيدة جدا أوان صغيرة أو أوعية من الألبستر ، وقد رسم نوردن صورتها رسما جيدا جدا فى اللوحة ٥٥ بكتابه ، ولهذا اكتفيت برسم الكتابات الهيروغليفية المدونة على خمسة أوان من هذا النوع رأيتها فى القاهرة وضمنتها (اللوحتين السابعة والثلاثين والثامنة والثلاثين) . وكان على غطاء الاناء الذى نقلت من عليه النقش A رأس امرأة ، وعلى غطاء الاناء الذى نقلت من عليه النقش C رأس كلب ، وعلى غطاء الاناء الذى نقلت من عليه النقش D رأس طائر ، أما الآنيتان الباقيتان فقد ضاع غطاؤهما . أما النقش A فكان ارتفاعه ٦ ١/٢ بوصة ، والنقشان C و D فكان ارتفاع كل منهما ٧ ٣/٤ بوصة .

ومن النادر أن يجد الانسان فى بلاد أخرى غير مصر نقوشا ضاربة فى القدم احتفرت فى أشد الصخور صلابة مثل الهيروغليفيات . الا أن

الانسان يجد فى مصر علاوة على ذلك صورا مرسومة وكتابة مدونة على الخشب والتيل ضاربة فى القدم أيضا وما تزال باقية فى حالة جيدة . وقد رأيت من هذا القبيل فى بيت القنصل الفرنسى بالقاهرة غطاء تابوت مومياء خشبى عليه كل الأشكال المصدرة فى (اللوحة التاسعة والثلاثين)، وهذا الأثر جدير باهتمام كبير لأنه يبين بوضوح كامل أن النقش الهيروغليفى الممتد فى الوسط فى صف من أعلى الى أسفل لابد أنه كان كتابة المصريين القدماء ، أما الأشكال التى تملأ البقية الباقية من الغطاء على الجانبين ــ والتى كانت كبيرة جدا بالقياس الى النقش الهيروغليفى أكبر مما تبينه لوحتى حيث أننى لم أر داعيا لرسمها أكبر من ذلك ــ فلابد أنها كانت رموزا ، ولعلها أخذت من قصة عن الآلهة . ويجد القارىء نقوشا هيروغليفية أخرى فى (اللوحة الأربعين) ، وقد نقلت الصف A من تمثال خشبى صغير لمومياء . والصف B من فوق غطاء تابوت مومياء ، ووجدت النقش الصغير C على آنية صغيرة رديئة وكان على غطائها رأس طائر . أما الصفوف الثلاثة D فقد رأيتها على تماثيل خشبية صغيرة لمومياء طول الواحد نحو ١٠ بوصات ، وكانت رديئة الكتابة ، وأما النقوش E فقد نقلتها بسبب الشكلين السفليين اللذين يلوحان لى بمثابة رمزين ، وكانت هذه النقوش محتفرة ــ ليست مرسومة ــ فى حجر جيرى رخو من مقابر الموميات فى سقارة .

ويبدو أن الساعين الى استجلاء غموض الهيروغليفيات قد وقفوا عند الأشكال الكبيرة أو الرموز فحسب،وأرجو أن يوجه العلماء اهتمامهم خاصة الى الكتابات الهيروغليفية ــ وعلى من يريدون الاشتغال بها أن

يجمعــوا فى البداية جميع الحــروف والأشكال التى تأتلف منها هــذه الكتابة . ولما لم تكن جميع النقوش التى نســختها فى حالة جيدة فقد جمعت جميع الحــروف أو العلامات التى تضــمها منتسخاتى وضمنتها (اللوحة الحادية والأربعين) . وســيكون من السهل زيادة عددها من المنتسخات الأخرى الجيدة للنقوش الهيروغليفية ــ واذا اجتهد الرحالة الذين تتاح لهم فرصة زيارة صعيد مصر فى نسخ النقوش القديمة فلن يمر وقت طويل حتى يكتمل ســجل الحروف المختلفــة التى استخدمت فى الكتابة الهيروغليفية . عند ذاك سيجد الباحثون أن بعض الحروف يكثر ورودها على المسلات وبعضها الآخر على القبريات وهكذا ، وسيقترب هذا بالعلماء من الهدف ألا وهو شرح الهيروغليفيات .

وعلى (اللوحة الثالثة والأربعين) أخيرا بعض التماثيل الصغيرة التى حملتها معى من مصر . والتمثال A مصــبوب من النحاس الأحمر ويصل طوله من القدمين الى أعلى غطاء الرأس ٣/٤ ٥ بوصات . ويمكن بناء على هذا استنتاج حجم التماثيل الأخرى بالنسبة اليه . والتمثال B من النحــاس الأحمر كذلك وهو مصــبوب صبا نظيفا جدا . وله مثل التمثال A امتداد تحت القدمين ، وهو فى وضــع الجلوس ، ويبــدو أن المقعد الذى كان يجلس عليه كان من مادة أخرى لأنــه لا أثر له فى التمثال ، وله أساور حول الذراع وخلاخيل حــول القدمين من النوع الذى لا تزال نساء شرقيات كثيرات يستخدمنه الى الآن . والمــرأة التى يمثلها التمثال لا تلبس سراويل ــ من تلك التى تلبسها الشرقيــات فى عصرنا الحالى ــ بل تلف قماشــا حول الردفين بالطريقة التى أذكر أنى رأيت الغسالات يتخذنها على ساحل البحر أو الأنهــار . وللطفل الذى

على حجرها عقد حول رقبته تتدلى منه حليـة على صدره ، ثم ان الطفل قد جمع شعره على الناحية اليمنى من رأسـه فى ضفيرة كبيرة تصل الى كتفه ، ويبدو أن الأم والطفل لهما ذؤابة مضفورة على الجبهة من النوع الذى تحلت به امرأة وادى فاران التى وصفت حلية رأسها من قبل • والطرف العلوى لحلية الرأس على هذا التمثال معطوب • أما التمثال C فقد ضاع ما كان يمسـكه فى يده • وهو تمثال مصـبوب من النحاس الأحمر ، ويبدو أنه قديم جدا ، الا أن تكوينه ردىء • والتمثـال D الذى عثر عليه فى مصر من النحاس كذلك ، ويبدو أن الذى صنعه فنان اغريقى ، ولعله يمثل كوبيد يمسك بيده حمامـة مزدوجة الجناحين أو لعلها تثنى جناحيها الى أسفل • والتمثالان E و F من الفخـار ، وللتمثال الأخير حلقة على الرأس ، وكان للتمثال الأول حلقـة مثلها ، وربما كانا يستخدمان كحلية على الصـدر ، والتمثال F عليه طبقة صقيلة يميل لونها الى الخضرة •

الرحلة من القاهرة الى السويس وجبل سيناء

اغسطس ١٧٦٢

كانت بلاد العرب ، وبخاصة الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية ، هى الهدف الحقيقى لرحلتنا ، ولكننا نحن المسيحيين ، غير مسموح لنا بأن نسافر الى هناك بطريق البر مع الحجاج من القاهرة الى مكة . بل اننا لم نستطع حتى أن نسلك فى رحلتنا الى جبل سيناء الطريق حول جبل المكتب ــ أو جبل المكاتيب ــ [٥٤] الذى كثر الحديث عنه ، وكثرت الكتابة بشأنه فى أوروبا فى السنوات الأخيرة . وكان علينا أن ننتظر وقت رحيل السفن من السويس الى جدة . وقد اشتعلت الحرب طوال الصيف بين أهل القاهرة وقبيلة صغيرة من العربان فى منطقة الطور . ويرجع السبب فى ذلك الى واحدة من السفن التى يرسلها القاهريون كل عام محملة بالقمح من السويس الى جدة ، تجاوزت ميناء السويس لتتحمل كالمعتاد بالماء ، لأن الماء هنا جيد جدا ، ولأن البحارة يحصلون عليه فى هذه المنطقة القريبة بدون مقابل تقريبا ، ويفضلونه على الماء الغالى الردىء الذى بالسويس .

ولم يستطع الأعراب الهائمون على وجوههم فى منطقة الطور أن يروا سفينة محملة بالقمح دون أن تتملكهم الرغبة فيها ، ولما لم يكن قد

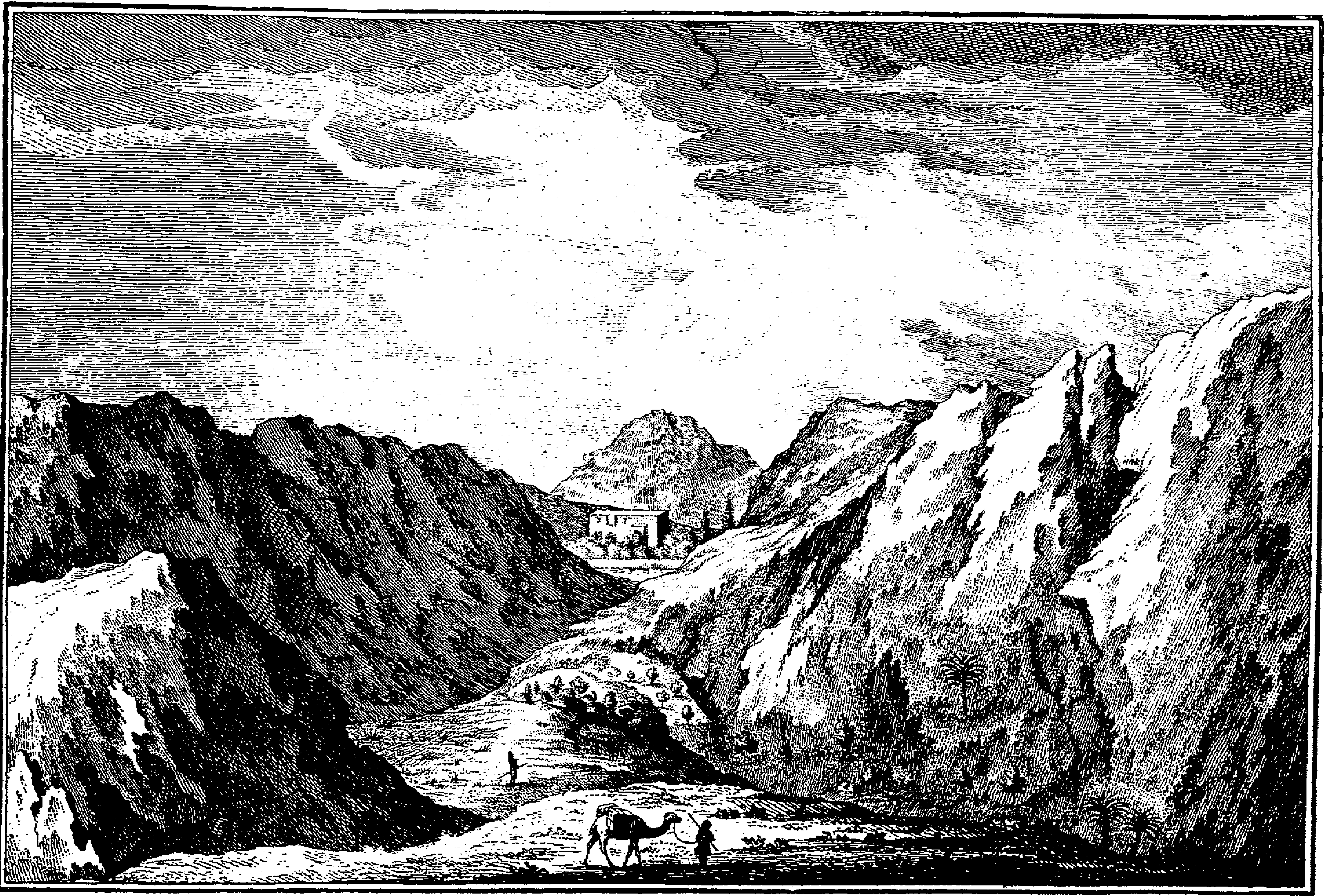
مقدورهم أن يأملوا فى أن يعطيهم الأتراك طواعية نصيبا من هذا القمح ، استبدوا بقبطان السفينة وبأغلب الملاحين والمسافرين الذين كانوا قد نزلوا الى البر ليحضروا ماء أو ليزوروا أصدقاء لهم أو ليلتمسوا لأنفسهم فى غير ذلك شيئا من التسلية . واستولى العربان على قوارب السفينة وقوارب الصيادين من أهل الطور ونهبوا سفينة القمح . ولم يعد فى مقدور القبيلة الصغيرة المذكورة ـ التى كانت تشارك بقية عربان المنطقة عامة فى نقل البضائع بين هذه المدينة والسويس ـ أن تعود الى مصر مرة ثانية والا تعرضت للحساب على ما قامت به من نهب . ولم تهتم القبيلة بذلك طالما كانت تجد فيما نهبته من قمح ما تستقيم به حياتها ، ثم كان أن سعت بعد ذلك الى السلام بأحسن السبل المألوفة لدى العربان . فلم يترك هؤلاء العربان قيروانة (ويسمون فى هذه المنطقة المجموعة الصغيرة من المسافرين قافلة Kafle) (٥٥) تمر مطمئنة بين السويس والقاهرة ، ولكنهم كانوا يأخذون أنفسهم بالحذر فلم يقتلوا ولم ينهبوا الا الجمال غير المحملة ، وكانوا ينبهون بذلك القاهريين الى أنهم قد أزمعوا على نهب القوافل كلها اذا لم يعودوا الى تشغيلهم فى النقل ، والى تهيئة أسباب العيش لهم مرة أخرى . ولقد كانت حكومة مصر الغنية بالسكان وسيدها العظيم السلطان ـ الذى يسمى نفسه سيد بلاد العرب ـ من الضعف بحيث سمحت هذه القبيلة الصغيرة كل الصغر لنفسها بأن تقطع الطريق فى هذه المنطقة بين مدينة وأخرى .

وهكذا اضطررنا الى البقاء فى مصر نحو عام كامل . وكانت حكومة القاهرة التى عجزت عن تأديب العربان فى الصحراء تخشى أن

يتعرض مزيد من القمح الذى ترسله الى مكة الى النهب • كذلك كان التجار فى خوف على بضائعهم ، والأعراب العاملون فى النقل حتى ذلك الحين خائفين على جمالهم ، وكان الجميع باختصار يريدون السلام • وسألنا التجار من أبناء البلد عن ترتيب أمر رحلتنا الوشيكة ، وكان الرأى عند هؤلاء أن الأمن لن يتوافر الا بعد أن تأتى القيروانة من مكة ، وكانوا يعلمون أيضا أن أمير الحج تلقى أمرا بأن يعقد صلحا مع الأعراب فى مكان بعينه • وحتى ذلك الحين أجل رحيل قافلة كانت متجهة الى السويس ، وكان علينا أن ننتظر •

اذا كان الأوروبى الذى يقوم برحلة الى البلاد الشرقية يعرف طرفا من لغة هذه البلاد فقد كسب الكثير ، واذا أراد أن يوفر لرحلته شيئا من الراحة ، احتاج الى خدم يكونون قد قاموا برحلات مختلفة فى هذه البلاد ، والا تعرض للكثير من الصعاب • أما نحن فلم نكن مزودين بالخدم الا على نحو ردىء ، فلم يكن خادمنا الأوروبى — وكان رجلا من أهل السويد — الذى أتى معنا من كوبنهاجن ، قد نزل البلاد الشرقية من قبل مثله فى ذلك مثلنا ، أما طباخنا — وكان رجلا يونانيا من أهل الأرخبيل — فالحقيقة أنه عمل سنوات كثيرة عند التجار الأوروبيين فى القاهرة ، ولكنه لم يكن قد توغل فى الصحراء من قبل • وكان لدينا علاوة على هذين يهودى من صنعاء يعمل فى خدمتنا ، وكان انسانا لطيفا يبلغ من العمر ٢٦ عاما ، لم ير مصر وحدها ، بل قام بالرحلة التى كنا نوشك على القيام بها من قبل ، ونزل الهند وفارس أيضا ، الا أنه كان يلقى من المسلمين الذين كان أغلب عملنا معهم الازدراء المفرط • ورأى السيد كرامر من الخير أن نصطحب معنا مترجما لأنه لم يكن قد بلغ فى اللغة العربية مبلغا

كبيرا ، وكان مطالبا من حيث هو طبيب بالتعامل الكثير مع المسلمين . وكان المترجم من أصل يونانى تحول لسلوكه الردىء الى الاسلام ، وكان جاهلا كل الجهل فى أمور الرحلات.وتزودنا خير التزود بكل ما اعتقدنا أننا سنحتاج اليه فى رحلتنا الوشيكة.فأخذنا الكثير من الطعام وخيمة وفرشا.وقد سبق رحالة آخرون الى وصف وتصوير غالبية الأدوات التى يحتاج اليها الانسان فى رحلاته فى هذه البلاد ، والحق أن كثيرا منها مريح الى حد أننى أعتقد أن الجيوش الأوروبية يمكنها أن تستخدمه وأن تنتفع به . كانت أدوات المطبخ القليلة التى حملناها معنا مصنوعة من النحاس الأحمر المبيض من الخارج والداخل بالقصدير على نحو جيد . أما الزبد فقد حملناه فى آنية من الجلد السميك . ولم تكن بنا حاجة الى مفارش للمائدة ، فقد حملنا معنا قطعة كبيرة مستديرة من الجلد لتكون مائدة لنا ، وكان لهذه القطعة المستديرة من الجلد فى حافتها الخارجية حلقات حديدية فيها حبل نعلقها به ــ عند الفراغ من تناول الطعام ــ الى الجمل وكأنها كيس . ووضعنا أقداح القهوة (ولم نكن بحاجة الى أطباق تحتها) فى صندوق خشبى مبطن بالجلد ، ووضعنا الشموع فى صندوق مماثل داخل كيس من الجلد ، وكان غطاء هذا الصندوق مزودا من الداخل بغليون لنضع فيه الضوء وهكذا كان كالمصباح بالنسبة لنا . وأخذنا الملح والفلفل والبهارات فى صندوق صغير من الخشب له أغطية كثيرة يدار بعضها فوق البعض الآخر ، وأخذنا عوضا عن الأكواب أكوازا صغيرة من النحاس الأحمر المبيضة على نحو جميل من الداخل والخارج بالقصدير . وكان مصباحنا مصنوعا من التيل الذى يمكن تطبيقه كالفوانيس الورقية الصغيرة التى يلعب بها الأولاد فى أوروبا ، مع فارق وهو أن مصباحنا كان



لوحة رقم (٢٣)

أكبر منها كثيرا وكان له غطاء وقاع من الصاج . وكان لكل واحد منا آنية ماء مصنوعة من الجلد السميك ليشرب منها ، ولما كنا نعـرف اننا سنقضى بضعة أيام دون أن نعثر على ماء ، فقد أخذنا معنا قربا كثيرة من جلد الماعز ممتلئة بالماء . بل اننا حملنا معنا جرتين فخاريتين كبيرتين لنضع فيهما الماء فى أثناء الرحلة من السويس الى جدة . أما نبيذنا فوضعناه فى قوارير زجاجية كبيرة (دمجانات) تتسع الواحدة منها لعشرين زجاجة . ورأينا أن هذه القوارير الكبيرة هى أنسب شىء لهدفنا ، الا أن الجمل اذ اوقع ، أو اذا اصطدم وهو محمل بجمل آخـر ، تعرضت القوارير الزجاجية بسهولة للكسر ولهذا فان أفضل ما يحمل فيه النبيذ والعرق فى أثناء الرحلات ببلاد الشرق القرب المتخذة من جلود الماعز . أما القرب التى تستخدم لنقل الماء فيجعلون الشعر فيها الى الخارج ، وأما القـرب التى تستخدم لنقل النبيذ فالشعر فيها الى الداخل ، وقد دبغت الجلود بحيث لا يكتسب الشراب طعما كريها على الاطلاق . واذا كان الأوروبى فى البداية يحس بشىء من القرف لحفـظ الشراب فى مثل هذه القرب ، فانه يأمن على أية حال على النبيذ فى أثناء الطريق من أن يراق كما حدث لجزء مما كان معنا . والرحالة لا يأخذون معهم خشبا أو فحما الا نادرا . وهم يجدون عادة فى محط القوافل روثا جـافا يصلح للاستخدام وقودا اذا لم يجدوا خشبا أو حطبا فى المنطقة .

وسمعنا فى ٢٧ أغسطس طلقة مدفع من القلعة بالقاهرة علامة على وصول جاويش من القيروانـة الكبيرة يحمل خبرا عن موعد وصـول الحجاج الى بركة الحج حتى يتهيأ كل من يريد الذهاب لملاقاة أصـدقائه هنالك . ورجحنا أن يكون العربان فى منطقـة الطور قد أرضوا ، وأن

قيرواتنا ستبدأ السير يقينا • وذهبنا فى اليوم نفســه الى مخيم شيخنا الذى ضرب بعض الخيام مع أقاربه وخدمــه عند قرية سرياقوس ، ومن هناك رأينا قلعة القاهرة ناحية الجنوب الغربى ، ورأينــا تلالا كبيرة من الخراب يسميها العرب « تل اليهود » أو « تربة اليهود » ناحية الشمال تماما على بعد ساعتين • ولم نلتق بقوافل كما اعتقدنا ، لأن العرب كانوا قد سلكوا ببضائعهم وببضــائع أولئك الذين اكتروا الجمــال منهم الى مساكنهم المتفرقة هنا وهناك •

ولم نكن فى الثــامن والعشرين صباحا متــأكدين من أن القيروانة ستجتمع فى هذا اليوم أم لا ، الا أننا رأينا فى العصر من حين لآخر بعض المجموعات الصغيرة تتحرك فأخذنا أهبتنا للرحيل • وسلكنا سبيلنا من سرياقوس ناحية الجنوب الشرقى مارين قرب قرية كبيرة اسمها الخانكة وتركنا بركة الحج ناحيــة اليمين على بعد كبير ، حتى اذا بلغنا الطريق المستقيمة من القاهرة الى السويس مرة أخرى اتجهنا الى الشرق تماما ، ثم ملنا قليلا ناحية الجنوب • ولا يجد الانسان من هنا الى عجرود (٥٧) بيتا أو ماء أو شيئا من كلأ أخضر فى هذا الوقت من العــام • والطريق ممهدة صنعت فيها الجمال المحملة عدة طرقات أو مدقات متجاورة ، ورأينا بعد مسيرة ساعتين و ١٠ دقائق الى الشرق من بركــة الحج مكانا مربعا مبنيا يرتفع عدة أقدام يسمونه مصطبة يأتى اليه وجهاء القاهرة للترحيب بأمير الحج عند عودته من مكة • وبعد خمس ساعات أخرى حططنا ليلا نحو الساعة الحادية عشرة بالقافلة كلها فى منطقة يسميها العرب الفرنبباد El firn bebâd والقافلة الأخيرة التى تخرج الى السويس قبيل رحيل

السفن قافلة كبيرة جدا عادة • ولما كنا قد رحلنا من القاهرة مبكرين ، فلم يزد عدد جمال قيروانتنا عن ٤٠٠ كانت كلها تقريبا محملة بالقمح وبالمواد اللازمة للسفن التى تبنى فى السويس ومن بينها المراسى (الأهلاب) التى كانت تحمل على ظهور عدد من الجمال بين اثنين وأربعة • وأنا لم أر عربات لا فى مصر و لافى بلاد العرب • وللقيروانات الكبيرة التى تسير الى مكة أو تسير بين البصرة وحلب أو تخترق غير ذلك من الصحارى الكبيرة وتمر نتيجة لهذا فى منطقة بها عربان مستقلون مختلفون — رئيس هو القيروانباشى الذى يدفع ضرائب جماعية الى العربان نظير استخدام الطريق أو يقدم اليهم الهدايا ، ثم يطالب كل مسافر بالقيروانة بنصيبه فيها • أما القيروانات الأخرى التى تقوم برحلات صغيرة فلم نسمع أن لها رئيسا كهذا • والمسافرون فيها جميعا يتبعون كبار التجار فى كل ما يعملون ، أو يتبعون — كما كانت الحال فى قيروانتنا التى لم يكن بها تجار كبار — الأعراب الذين ينقلون أكثر الحمولات.فاذا حط هؤلاء حط الباقون جميعا ، واذا شرعوا فى التحميل أسرع المسافرون الآخرون جميعا الى التحميل دون أن تكون هناك حاجة الى اشارات أخرى تنبه الى الرحيل • وليس بالقيروانة من يحب أن يكون الأخير والا تعب فى اللحاق بالجماعة اذا ما اضطر فى الطريق الى نقل الحمولة من جمل الى آخر •

ونحن لم نكن نخشى أن تتعرض القيروانة كلها للهجوم ، ولكن بعض من جازفوا بالسبق أو التأخر عن القيروانة تعرضوا أحيانا للنهب ، ولهذا كنا نحرص دائما على أن نلزم الوسط • وكنت فى بعض الأماكن الآمنة أركب الحصان وأعدو مع التجار فنسبق القيروانة بساعة كاملة لنأخذ راحتنا عند نبع ماء وتتناول طعامنا على سجيتنا • ولم يكن فى

صحبة جمال قيروانتنا الا قلة من السواقين ، كان بعضهم يحملون أسلحة نارية بدون مدك ، أو بدون شعيل ، أو يحملون جراب بارود فارغا ، وكان البعض الآخر يحمل سيوفا مكسرة أو صدئة • أما الشيوخ الذين كانت لهم جمال كثيرة فى القيروانة فكان بعضهم يركبون الجمال ويتسلحون جيدا بالرماح والسيوف والأسلحة النارية • ولكننا لم نكن نعتمد على هؤلاء كثيرا ، ولم يكن العربان يجازفون بحياتهم فى التعرض لبضائع التجار الأتراك • فاذا كانت القيروانة تغص بالتجار ، كان هؤلاء أفضل حماية لها لأنهم جميعا يتسلحون جيدا ، ومنهم الشجعان الذين يحمون بضائعهم على خير وجه •

واتخذ رفاقى الأربعة فى هذه الرحلة الخيول ، أما أنا فاخترت الجمل عن شغف بمعرفة الجديد ، ووجدت فى ذلك خيرا كثيرا وان كنت قد خشيت فى البداية ألا أجد الراحة المرجوة فوق هذا الحيوان العالى • والجمل ذو السنم الواحد يحط تماما كالجمل ذى السنمين عندما يبرك ليحمل راكبه ، وهو عندما ينهض يرفع مؤخرته أولا ، وينبغى على الراكب أن يأخذ حذره حتى لا يسقط من الأمام •والجمل ذو السنم الواحد يسير بخطوة منتظمة مثل خطوة الجمل ذى السنمين ، بينما تسير الخيول تارة مسرعة ، وتارة مبطئة حتى تكون مع القيروانة • ولا ينبغى للانسان أن يوقف الجمل عندما يهم بركوبه ، لأنه معتاد على أن يميل برأسه الى الأرض عند اشارة معينة حتى يضع الراكب قدمه على رقبته ، فاذا رفع رأسه الى أعلى استطاع الانسان فى يسر أن يصل الى السرج لا يحتاج فى ذلك الا الى القليل من الدربة • والسرج الذى يوضع فوق الجمل لحمل أشياء ثقيلة مفتوح من أعلى ، تتدلى الأحمال على

جانبيه بحيث لا تتعرض الكتلة الدهنية التى بظهر الحيـوان الى ضغط شديد • أما سرج الركوب الذى يوضع على جمل ذى سنم واحد أو ذى سنمين فلا يختلف عن سروج الركوب العادية اختلافا كبيرا ، فهو يغطى الكتلة الدهنية الكبيرة (السنم) بظهر الجمل • وقد مـددت على هذا السرج مراتبى ، وكنت أقعد تارة الى هذه الناحية ، وتارة الى تلك ، أو أقعد فى الوسط حتى أتفادى أشعة الشمس التى كانت شـديدة فى ذلك الوقـت من العام • أما رفاقى فكان عليهـم أن يبقوا طوال الوقت على خيولهم فى وضع واحد ، وكانوا عند حلول المساء يحسـون بالارهاق الشديد بينما لم يكن ما أحس به من تعب اذ ذاك يزيد على ما يحس به الانسـان اذا جلس اليوم بطوله على كرسى • وليس من شـك فى أن الراكب اذا أراد أن يسرع بمثل هذا الحيوان المرتفع سيجد فى ذلك مشقة شديدة • ولكن الجمال تسير عادة بخطى بطيئة واسعة ويتحرك الراكب فوقها حركة شبيهة بالحركة فى المهد •

ورحلنا فى التاسع والعشرين من أغسطس فى الساعة الرابعة صباحا ، وحططنا بعد خمس سـاعات ونصف فى منطقـة يسميها الأعراب جفرة Dsjafra وكنا نرجو أن نرتاح هنا بضع ساعات ، ولكنهم لم يتركوا لنا وقتا يكاد يكفى لتناول الطعام • وأعيد تحميل الجمـال ، وسرنا بعد ساعتين وخمس عشرة دقيقة الى جبل يسمونه وهبه Wehbe الى الجنوب من الطريق • وقطعنـا حتى العصر من الطريق مسافة خمس سـاعات ، وحططنا قبيل الغروب عند جبل الطيه Taja ، وكانت القيروانة القادمة من مكة قد حطت فى الليلة السابقة رحالها فى هذا الموضع ذاته • ولو اننـا رأيناها فى أثناء سيرها لكان ذلك خيرا لنا ، ولكنها كانت قد اتخـذت

طريقا تميل الى الجنوب أكثر من طريقنـا التى سلكناها قادمين . وكان العربان قد أزعجوا القوافل القاهرية الصغيرة عدة مرات فى هذا الموضع ، وبالأمس أكد أمير الحج للعربان باسم الحكومة فى القـاهرة انهم اذا عادوا الى القاهرة بجمالهم فليس لهم أن يخشوا شيئا .

وفى الثلاثين من أغسطس سرنا فى الواحدة صـباحا ، وقطعنا فى ٤ ساعات و ٤٥ دقيقة المسافة من طيه الى قلعة تركية متهـدمة خربة هى قلعة عجرود Adsjerûd أو أكرود Akrûd يجد الانسان عندها ماء صـالحا للشرب ، وهذا المكان يمكن أن نقول عنـه انه نهاية الصحراء بالنسـبة للقـادمين من القـاهرة (سـفر العـدد ٣٠ ، ٦) وأنه بالنسبة للقادمين من السويس يقع عنـد مقـدم الصحراء (سفر التثنية ١٣ ، ٢٠) (*) .

وتتجه القيروانات التى ترحل من القاهرة الى جبل سيناء من عجرود الى الشرق حول الطرف الأقصى للبحر الأحمر ــ أما نحن فقد قمنا بدورة (التثنية ١٤ ، ٢) وتوغلنا منحرفين الى الجنوب (ناحية الجنوب الشرقى تقريبا) وسرنا ثلاث ساعات حتى بير السويس . وفى هذه المنطقة بئران

(*) يذكر بيترو ديللا فاللى هذه القلعة فى رسالته الحادية عشرة . انظر الرسـائل Briefe ص ٢٥٢ : « وفى مساء ١٧ ديسمبر ١٦١٥ سرنا بالليل قليلا لنحـاول ضرب الخيام اسفل اسوار صرح يسمونه Agirud (= عجرود) بناه الاتراك قبل بضعة أعوام لتامين الطريق وللحفاظ على بئر كبيرة غنية بالماء فى هذه المنطقةالتى يذكرها بيلون Belon دون اشارة الى الصرح الذى لم يكن قائما فى زمانه » ــ والحجاج يحطون الى يومنا هذا عند عجرود بسبب هذه البئر ، ولست متاكدا مما اذا كان هناك حرس تركى ، فقد رأيت القلعة المتهدمة جزئيا على بعد ربع ميل ، ورأيت منارة مسجد . ويذكر بوكوك ــ وهو مناكثر الرحالة يقظة ــ ان حرسا كان هناك حتى عام ١٧٣٩ .

عميقتان يخرجون الماء منهما بدلاء من الجلد أو على الأصح بأكياس من الجلد يشدونها بأيديهم • والماء المستخرج رديء لا يصلح لشرب الانسان الا عند الضرورة القصوى • وحول البئرين جدار مرتفع قوى له بساب مصفح بالحديد ، يقفلونه من الداخل اذا ظهر فى الناحية عربان يسلكون مسلك الأعداء • وكان الخليج العربى منذ أن رحلنسا من عجرود يقع فى ناحية الشرق ، ولم يكن من سبيل الى بلوغ الناحية الأخسرى الا بعبور الماء ، الا اذا سرنا الى الشمال والتففنا حسول الخليج • وسرنا من بير السويس الى مدينة السويس ساعة •

والمسافة طبقا لحسابى على النحو التالى :

من القاهرة الى بركة الحج	٤ ساعات	
من بركة الحج الى المصطبة	٢ ساعتان	١٠ دقائق
من المصطبة الى الفرنبياد	٥ ساعات	١٠ دقائق
من الفرنبياد الى جفرة	٥ ساعات	٣٠ دقيقة
من جفرة الى وهبه	٢ ساعتان	١٥ دقيقة
من وهبه الى الطيه	٥ ساعات	١٥ دقيقة
من الطية الى عجرود	٤ ساعات	٤٥ دقيقة
من عجرود الى السويس	٤ ساعات	

وهكذا تكون المسافة من القاهرة الى السويس ٣٢ ساعة و ٤٠ دقيقة (*)

(*) يذكر الشريف الادريسى فى جغرافية النوبى ص ١٠٧ Geogr. Nub. p. 107 بركة الحج lacus algiob وعجرود Puteus Agerud وبير السويس Puteus Agius ويسمى خراب السويس Calzem . ويقول فى ص ١٠٨ :
inter mare rubrum & Metsr intercipitur spatium monaginta milliarium.

فاذا حسبنا لكل ساعة ما يقل عن ٣/٤ ميل ألمـانى ، فيكون البعد بين المدينتين ٢٣ ميلا ألمانيـا • وتقع السويس بمقـدار ١١/٢ ميل الى الجنوب من القاهرة وتحت ارتفاع قطبى مقداره ٢٩°٥٧´ ، وكان الفرق فى الخط الطولى طبقا لأرصادى الفلكية ٨ دقائق و ٣٠ ثانية •

أما الموضـع الذى أنشئت فيه مدينة السويس فكان يتاخمـه فى الزمان القديم الذى كانت فيه السفن تستطيع التوغل بعيدا داخل الخليج العربى موضع مدينة القلزم ذات الشهرة بين المؤلفين العرب • ولم يعد الناظر الى موضع القلزم يري الا تلالا كبيرة من الردم ليس بها شيء من معالم أثرية تستحق الاهتمام ــ ولكن الاسم بقى ، لأن أهالى السويس يسمون خرابها حتى اليوم خراب القلزم • وربما حملت هذه المدينـة فى عصور قديمة أسماء قليسما Clysma وكليوباتره Cleopatra وأرسينويه Arsinoe لأننا نجد فى الكلمة اليونانية قليسما نفس الحروف الساكنة التى نجدها فى الاسم العربى «القلزم» .واذا كان اليونان قد أعطوا هذه المدينة فى سجلاتهم أسماء أخرى ، فلا يمنع هذا أن يكون الأهالى قد احتفظوا لمدينتهم باسمها القديم • ولقد أطلق اليونان على مدينة عكا على سبيل المثال اسم پطولومايس Ptolomais ، الا أن المدينـة لا تزال تتسمى باسم عكا ، ولعل أهلها لم يطلقوا عليها قط اسما آخر غير هذا الاسم • ويبدو أن مدينة السويس قد أنشئت حديثـا ، فقد وصل السيد فون برايدنباخ فى عام ١٨٤٨ الى الساحل الشرقى للخليج فى موضع متـاخم لموقعها ولم يذكرها ويبدو أن تفريغ البضائع بين القاهرة وجدة كان يجرى انذاك فى الطور • ويقول أ • كورسال Corsal ان بناء الشينيات كان

قائما فى عام ١٥١٧ منذ ثمانى سنوات • ويذكر مؤلف كتاب رحلة سليمان باشا Soliman Pascha أن السفن أيضا كانت فى عام ١٥٣٨ تبنى فى السويس •

وبناء السفن هنا اليوم عظيم على الرغم من أن كل ما تحتاج اليه من خشب وحديد وغيره يجلب على ظهور الجمال من القاهرة مما يجعل ثمنه باهظا • والسفن التى تبنى هنا لا تتجاوز فى رحلاتها جدة ، ويسمونها السفن القاهرية لأن أصحابها جميعا يقيمون فى القاهرة • وقد فاتنى أن أعد السفن الراسية فى السويس وفى الموانىء الأخرى • ولكننى علمت أن أربع أو خمس سفن تسافر فى كل عام على حساب السلطان حاملة القمح من السويس والقصير الى ينبع وجدة لمكة والمدينة ، وأن أربع عشر سفينة تجارية محملة بالبضائع والركاب تسير عادة بين السويس وجدة • وأغلبها مصنوعة فى السويس •

وأعجب ما رأيته فى هذه السفن الرأسية فى السويس هو السكان الذى له من أسفل عارضة قوية تخرج من الوراء الى أعلى بميل • (انظر السفينة المرسومة فى منظر مدينة الطور ، اللوحة الحادية والخمسين) وهناك عارضة تخرج من المقصورة بعرض السفينة لها فى نهايتها كتلتان تمتد منهما حبال عظيمة الى عارضة السكان للتحكم فيه • وهذه الحبال مثبتة فوق الماء ، ولكن ثقلها يجعلها تمس سطح البحر ولذلك فهى تعوق السفينة فى أثناء الملاحة ، هذا الى أن السكان صعب التوجيه وأنه لا يكاد يفيد بشىء على الاطلاق اذا هبت ريح معاكسة بعض الشىء • أما الهنود والأتراك فقد صنعوا سكان سفنهم على النمط

الأوروبى ، ولكن الملاحين هنا متمسكون بتقاليدهم القديمة تمسكا كبيرا حتى ان أحد القاهريين اشترى سفينة بنيت فى سورات (بالهند) بسكان على النمط الأوروبى فغيره طبقا للنمط المصرى (*) . ولم أر مضخات على هذه السفن ، ويستخدمون أكياسا جلدية لرفع المياه القذرة كما ترفع المياه من الآبار . ويستعيضون عن براميل المياه فى هذه السفن وكذلك فى السفن الهندية بخزان كبير للماء عند الصارى الكبير ، وليس من شك فى أن هذه الطريقة مريحة وأنها لا تشغل مكانا كبيرا مثل البراميل الكثيرة على سفننا . أما اذا أصيب مثل هذا الخزان بثقب فان البضاعة المجاورة له تبتل ، ويضطرب الأمر لضياع المياه العذبة خاصة اذا كانت السفينة بعيدة عن الميناء . ولقد تعرفت الى واحد من الانجليز تعرض لخطر كبير فى رحلة من سورات الى جدة لهذا السبب وحده .

وتقع مدينة السويس على الساحل الغربى ، ولذلك فهى ليست على الطرف الأقصى للخليج العربى . وليس لها سور ، ولكن البيوت محصنة من ناحية البر ضد هجوم العربان بأسوار تربطها بعضها بالبعض الآخر بحيث لا يستطيع الانسان أن ينفذ الى المدينة الا من شارعين . وأحد هذين الشارعين الى ناحية شاطىء البحر الواقع غربا ، شارع مفتوح تماما ، أما الشارع الرئيسى وهو الى ناحية الشمال ، فيمكن اغلاقه بباب ردىء . ولا يكاد الانسان يجد أثرا للقلعة التى أنشأها الأتراك

(*) الخشب الذى يصنعون منه السفن فى سورات أصلب أنواع الخشب التى سمعت عنها فى حياتى ، ويقولون ان السفينة المذكورة تبلغ من العمر ، على ما سمعت ، ٩٦ سنة ، وتعمل بين السويس وجدة .

على خراب مدينة القلزم • وبيوت المدينة كلها بيوت رديئة باستثناء بعض الخانات والوكالات فهى ثابتة متينة البنيان • وليس عدد سكان المدينة كبيرا ـ وفيهم كثيرون من الأقباط يسكنون فى ثلاثة أو أربعة من البيوت • على أن النشاط يشتد كل الشدة فى الوقت الذى ترحل فيه السفن من هنا الى جدة أو تأتى فيه من جدة الى هنا •

والمنطقة المحيطة منطقة صخرية لا يغطيها الا القليل من الرمل ، وتبدو فى بعض المواضع كأنها فرشت بالحصباء • وهى لهذا جرداء جافة ، لا يكاد الانسان يجد فيها عشبا فما بالك بالأشجار أو الحدائق أو المراعى أو الحقول (*) • ويتلقى أهالى المنطقة أغلب المواد الغذائية من مصر التى تبعد سفر ثلاثة أيام ، أو من جبل سيناء الذى يبعد سفر خمسة أو ستة أيام ، أو من غزة التى تبعد سفر سبعة أو ثمانية أيام • أما الأسماك والأصداف المنوعة فمتوفرة جدا ينعم بها المسيحيون الشرقيون الساكنون فى المدينة أثناء فترات صيامهم • وتفتقر المدينة الى الماء الجيد افتقارا شديدا ، فالمياه المغترفة من بير السويس رديئة كما ذكرت من قبل ، ولكنها قريبة المنال ، والأهالى يسعون اليها يسقون منها حيوانهم ، ويعودون بشىء من مائها لما خلفوه فى دورهم من حيوان •

ويكاد الماء الذى يستخرجونه من عيون موسى أو من آبار موسى

(*) راينا فى الطريق بين القاهرة والسويس بين الأعشاب الجافة العشب الذى يسمونه وردة اريحا (كف مريم) Rose von Jericho منتشرا جدا ، وتستخدمه النساء الشرقيات فى اعمال من الخرافات ولهذا يباع فى المدن . وتضع الحوامل هذه الوردة فى الماء عند الولادة ويعتقدن ان الولادة ستكون يسيرة اذا تفتحت الوردة بسرعة وعسيرة اذا تفتحت ببطء .

ـ وهـكذا يسمونهـا ـ أن يـكون فى مثـل رداءة مـاء بـير السويس ، هذا الى أن هذه الآبار أكثر بعدا عن المدينة من الناحية الأخرى للخليج • وأحسن ماء يمكن أن يشتريه الانسـان فى السويس يأتى من بئر « النبع » ، وتساوى قربة الماعز المملوءة بهذا المـاء ـ وهو ردىء أيضا ـ ثلاثة الى أربعة شلنات لوبيكية • وتقع هـذه البئر على مسيرة ساعتين الى الشرق من المدينة وعلى الناحية الأخرى من الخليج •

وكان صاحب الأمر فى المدينة فى وقتنا سـنجقا من القـاهرة (بك) له قوات خاصة كثيرة ، ولكن يبدو أن العـربان لم يكونوا يحفلون به كثيرا • فاذا غضب العربان على السنجق التركى أو على الأهـالى ، لم يحملوا اليهم الماء ، وسدوا عليهم الطريق الى جميع الآبار المذكورة حتى لا يذهبوا هم اليها لاحضار الماء • ولعلهم يحطمون المدينة عن آخرها فى الوقت الذى لا يكون فيها مسافرون ، ولا يكون أمامهم ما يكسبونه من وراء نقل البضائع بين القاهرة والسويس ، وتزويد المدينة بالماء •

ولما كان العربان الذين اتخذناهم لمرافقتنا الى جبل سيناء قد أخلوا بوعدهم ، وكنا قد امتنعنا بعد عودتنـا عن دفع كل ما كانوا قد طالبونا به ، فقد شهدنا ألوانا من تهورهم • كانوا قد عرفوا أننا نجرؤ أحيانا على الخروج بعيدا عن المدينة ، فهددونا بالقتل اذا لاقونا فى الخـلاء • فأرينـاهم أسلحتنا التى كانت أفضـل بكثير من رماحهم وسكاكينهم وبنادقهم ، وأكدنا لهم أننا سنعرف كيف ندافع بها عن أنفسنا • وفى مرة أخرى هـددنا كبير العربان بأننا لن نحصل على مـاء من النبع ، وأننا سنموت عطشا اذا لم ندفع • فأجاب السيد فون هافن على الشيخ بأن

الأوروبيين ليسوا من شاربى الماء ، بل النبيذ ، وأن تهديده لا يستند الى تفكير سليم • ودفعت هذه الاجابة المفاجئة الأوروبيين والمسيحيين الحاضرين الى الضحك ، وخجل العربان • وفى اليوم التالى رجانا بعض وجهاء المسلمين أن نسوى أمرنا مع العربان وأن نعجل فى ذلك ، وقالوا لنا ان السنجق نفسه أبلغهم بأن العربان هددوا بأن يقطعوا الماء بسببنا عن المدينة ، ولم نر من الخير أن ندفع بالأحداث الى منتهاها ، فقبلنا الدفع صاغرين •

وسارعنا بعد وصولنا الى السويس الى سؤال بعض اليونانيين الذين زاروا جبل سيناء مرارا عن جبل المكتب الذى ذاعت أخباره فى أوروبا ، ولكنى لم أجد بينهم من يذكر أنه سمع هذا الاسم من قبل • وآتونا بشيخ من قبيلة سعيد أمضى حياته ـ ان صح هذا التعبير ـ فى رحلات بين السويس وجبل سيناء ـ ولم يكن هو الآخر قد سمع باسم الجبل المذكور • ولكنه لما علم ان هناك مكافأة مجزية لمن يرشدنا الى هذا الجبل ، أتانا فى اليوم التالى ومعه شيخ من قبيلة الصوالحة قال انه يعرف الجبل المذكور ويعرف كل ما بالصحراء من مواضع فيها نقوش معرفة دقيقة • الا اننا اكتشفنا بعد بعض الأسئلة والأجوبة أنه أيضا لا يعرف الموضع الذى كنا نريد مشاهدته • وأخيرا جاءونا بشيخ من قبيلة الأغوات اقتنعنا بعد الحديث معه بأنه يعرف فعلا كتابات مجهولة منقوشة على الحجر • ولما كان قد عرف من الآخرين أن الجبل الذى نريد رؤيته المفروض أن يكون اسمه جبل المكتب فقد أفاء على جبله بهذا الاسم مؤكدا أن العربان الذين يعرفونه يسمونه بهذا الاسم •

وفرحنا على الأقل لأننا وجدنا واحدا من سكان الصحراء له

القدرة على ارشادنا الى موضع فى موطنه فيه نقوش قديمة مجهولة • وتمنينا لو استطعنا أن نتوجه جميعا من فورنا الى هذه المنطقة ، ولكن السيد باورينفايند ، رسامنا الذى لا يستغنى العالم اللغوى عن مساعدته راضيا ، كان قد عانى الكثير أثناء الرحلة الماضية وأصابته بعد وصولنا الى السويس بقليل سخونة اشتدت فى الأيام التالية حتى كدنا نفقد الأمل فى شفائه • وكنا فى هذه الأثناء مضطرين الى التعجيل حتى نعود الى السويس قبل رحيل السفن الاولى أى فى غضون شهر واحد ، لأن السفر بالسفن التى ترحل متجهة الى جدة فى نهاية سبتمبر أو مطلع أكتوبر يكون آمنا أعظم الأمن • أما السفر بالسفن التى اعتادت على الرحيل فى نوفمبر أو ديسمبر فهو محفوف عادة بخطر كثير لأن الريح تتغير فلا تهب باستمرار من المناطق الشمالية • (*) ولما لم نكن نستطيع انتظار شفاء الرسام ، فقد اضطر الطبيب السيد كرامر الى البقاء هو أيضا ، وقرر السيد فورسكال أن يبقى هو أيضا مع صديقنا المريض الذى كان يمكن أن يساعده مساعدة ضرورية فى رسم الأشياء الطبيعية • وهكذا لم يخرج لرحلة جبل المكتب الا أنا والسيد فون هافن •

ولما كان هذا الجبل يقع ، على ما علمنا ، قريبا من موطن شيخنا ، فقد ظننا أننا نستطيع أن نتفق معه وحده على مرافقتنا الى هناك ، الا أن الشيوخ الآخرين الذين أتوا به الينا اعترضوا ، وقالوا لنا — ما أكده أهالى السويس أيضا — ان قبائل العربان فى المنطقة بين السويس

(*) كانت الرحلة فى زمن اديانى تبدا ايضا فى سبتمبر ، وقبل ذلك أيضا الرحلة من مصر الى باب المندب . ص ١٤. Periplus maris Erythraei p. 14.

والعقبة والطور هى القبائل الثلاث : سعيد والصوالحة والأغواط ، على الطريق الى جبل سيناء ، وان علينا أن نأخذ خفراء من القبائل الثلاث جميعا اذا كنا نريد أن نسير آمنين فى هذه المنطقة .

وسمعت بهذه المناسبة أن الخفراء ضروريون هنا حتى ان كثيرين من الملاحين المسلمين واليونانيين الذين يسافرون من السويس الى جدة ، وغالبية اليونانيين الذين يقيمون فى السويس يختارون لهم حماة من هذا النوع بين العربان يقدمون اليهم الهدايا الصغيرة فى بعض المناسبات أو عند العودة من رحلة ناجحة . فاذا جنحت سفينة فى المنطقة بين السويس ورأس محمد وأنقذت بعض البضائع التى عليها ، اتصل كل منهم بخفيره ، فاذا كان هذا الخفير بين العربان الذين أسرعوا الى السفينة لنهبها ، فان بضائع من يحميه تنقل الى السويس أو القاهرة دون أن يتعرض لها غريب من العربان . فاذا لم يكن الخفير حاضرا ، فان البضاعة توضع الى جانب ويجعل حولها خط فى الرمل ، وتترك دون أن يمسها أحد الى أن يبلغ بالخبر . أما اذا لم يستطع المسافر أن يذكر اسم خفيره أو ذكر اسم خفير زائف ، فمن المؤكد أنه سيتعرض للنهب كل النهب سواء كان مسيحيا أو مسلما .

على أن عددا قليلا فقط من بين المسافرين بطريق البحر يتخذون لهم خفراء من العربان ، ولذلك أسباب منها : ثمن الهدايا البسيطة التى يطالب بها هؤلاء الخفراء أحيانا ، وكبرياء التجار الأتراك الذين يجدون أن من العار عليهم أن يتخذوا لهم صديقا بين شيوخ العربان ، والأمل فى أن تسير الرحلة البحرية فى هذه المسافة الصغيرة موفقة ، ولأن العربان فى

المنطقة من خليج العقبة وجدة لا يعملون حسابا للعربان بين رأس محمد والسويس • أما نحن فقد كنا بحاجة الى الخفراء ، واتفقنا مع الشيوخ الثلاثــة المنتمين الى القبائل الثلاث على أن يرافقونا الى جبــل المكتب وجبل سيناء ، واكترينا منهم الجمال لنا ولخادمينا : الرجــل اليهودى ، وملاح أخذنــاه معنا فى هذه الرحلــة ليعمل طاهيا ، لنترك طباخنا عند صديقنا المريض •

وسجلنا اتفاقا مع العربــان على يد قاضى السويس فى حضــور السنجق كتابة لمزيد من الاطمئنان • وكان هذا السنجق المصرى منفيا من القــاهرة اذا صــح هذا التعبير كما ذكرت من قبل • ويبدو أنه كان عظيم الثقة فى الفنون التى يدعى الشرقيون أنهم يســتطيعون بواسطتها التنبؤ بالمستقبل • وطلب منى جادا كل الجد أن أبحــث له فى الكتابات التى لا يعرفها المسلمون والتى كنا نعتقد اننا سنجدها فى الصحــراء كم من الوقت سيطول بقاؤه فى المنفى ؟ وكنت أريد أن أكاشفه بالرأى الذى يراه الأوروبيون فى مثل هذه التنبوءات،ولكنه عاجلنى مؤكدا أن واحدا من كبار علماء المسلمين قد تنبأ له بهــذا الوقت ، وأنه يريد أن يعرف هل يطابق هذا الوقت الوقت الذى سأجده فى الكتابات بالصحراء • ولابد من أن أعترف بأننى لم أكن أنتظر هذه الخــرافات من مثل هذا الرجل الرفيع المقــام • ولما لم أكن قد بعثت الى هذه البلاد لأقتلع مثــل هذه الآراء ، فقد اعتذرت بأننى عديم الخبرة بهذا العلم العظيم •

وعبرنا ، أنا والســيد فون هافن ، ذراع الخليج العربى فى قاربه مساء يوم السادس من سبتمبر ، وأمضينا الليلة التــالية على الشاطىء

Von Rosette nach Kâhira.

1) شيخ ابومنصور † Schech Abumandûr. 2) سلميه Salmiæ. 3) محلة الامير Mehâllet el emîr. 4) ديبي † Dibæ. 5) تفينه † Tfæjni. Der rosettische Nilarm. 6) امطوبس † Mtûbis. 7) شمشيره Schimschæjre. 8) سنديون Sændiûn, der halbe Weg zwischen Rosette und Mehallet el kbîre. 9) فوه Fûa. 10) محلة العلوي Mehallet el alâvi, etwas vom Nil. 11) محلة مالك † Mehallet Mâlek. 12) سلميه Sælmiæ, am Nil. 13) شرفا Schérafæ, oder Mehallet mâleg, am Nil. 14) سيدي ابراهيم الدسوقي Sid Ibrahim eddasûqi. 15) دجامون † Degamûn oder Gimeimûn. 16) محلة ابو علي الغربيه Mehallet abuali el gharbiæ, am Nil. 17) جميئته Gemeinte. Von hier schreg durch Delta nach 18) شباس الشهده Schabâse Schóhadæ, O. S. O. etwas vom Wege. 19) شباس الامير Schabâsæt el emîr, O. S. O. etwas vom Wege. 20) طويله Tauîle, O. S. O. etwas vom Wege. شيخ حارس البدوي Schech Hâras el bedui. 21) روينه Roêne. النطاح Ennatâh, O. z. S. etwas vom Wege. 22) سخا Sácha, O. S. O. Hier ist der halbe Weg zwischen Mehallet abuali und Mehallet el kbire. 23) مسير Mesir, S. O. ½ O. etwas vom Wege. 24) نمره Nimri, O. z. S. etwas vom Wege. 25) مهتنديه Mæhtendiæ, S. z. O. 26) سندسيس Syndeseis, O. S. O. 27) محلة الكبيره Mehallet el kebîre, S. z. O. 28) شرنبابل Scherumbabel, S. z. W. 29) العجاريه Aggesîæ, S. z. O. 30) متحاسي Methasîæ, S. z. O. 31) شبره † Schöbra, S. S. O. an der Westseite des Nils. سنباط † Sumbât. 32) دهتورا Dahtûra. حانوت Hanût. 33) دمسيس Dæmsîs, an der Ostseite des Nils. 34) ابو النبهان Abu næbhân, S. z. O. 35) عشنه Æsjne, S. z. O. am Nil. 36) نعمان Nææmân. 37) كفر نعمان Kafr Nææman, am Nil und gegen Sumbât über. 38) سرنكه Sarnage, am Nil und gegen Dahtora über. 39) كفر سرنكه Kafr Sárnag, etwas vom Nil.

الشرقى فى مواجهة السويس ، ونمنا فى العــراء فى المكان الذى اجتمعت فيــه صحبتنا العربية الجديدة • وفى صبــاح السابع من سبتمبر بدأنا رحلتنا الى جبل المكتب ، ولم يكن برفقتنا الشــيوخ الثلاثة المذكورون فحسب ، بل انضم الينا عدد من أصدقائهم وخدمهم الذين كانوا منذ بعض الوقت يحملون الماء من النبع الى السويس ، والذين ساروا الآن لزيارة أهلهم فى الصحراء ، وأرادوا أن يعيشوا على حسابنا فى بعض نفقتهم • والمألوف ، اذا سافر واحد من وجهاء العرب ، أن يأكل الجميع من طعامه ــ ولما كنا قد دفعنا مالا كثيرا لا لشىء الا لنرى بعض الكتابات القديمة فقد اعتقد الناس اننا من الأغنياء •

وتسير الطريق فى السهل ثلاثة أرباع الميل ناحية الجنوب الشرقى ثم بعد ذلك بين تلال صغيرة ناحية الجنوب ــ الجنوب الشرقى مســافة ميل وربع الميل الى عيون موسى • وحططنا هنا لنرتاح تحت نخلــة على تل صغير • وتقع السويس من هنا ناحية الشمال الغربى ٣٠° شمالا ، ويقع ساحل الخليج العربى على مسيرة نحو نصف ساعة الى الغرب • ويلوح عرض الخليج هنا فى مثل المسافة من السويس الى جبل عتــاقة أى نحو ميل وثلث ميل • ويجد المسافر هنا ماء فى مواضع مختلفة اذا حفر الى عمق قدم فقط ، ولم تكن الآبار المسماة بعيون موسى ــ والتى عــددت منها خمسا ــ بأعمق من ذلك ، وليست محاطة بأسوار، ولهذا كانت اذا أخذ الانسان منها قليلا من الماء تبدو مليئة بالرمل والقــاذورات • وهى لا تنساب الى بعيد، بل تضيع من فورها فى الرمال.وقال لنا العربان ان ماء بئر واحدة منها يمكن عند الضرورة شربها أما ماء الآبار الأخرى فردىء جدا • ولما كانت هذه العيون تسمى باسم موسى فقد اعتقد العربان أن

بنى اسرائيل اجتازوا الخليج العربى هنا وأن العيون اتخذت اسم موسى هذا . وفى هذه المنطقة كثير من الأصداف والحلزونات فى الرمال ويبدو لهذا ان البحر كان يصل الى هنا .

وسرنا من عيون موسى عبر سهول الطويريق ووردان والتيه ، أولا فى اتجاه الجنوب الشرقى مسافة ثلاثة أرباع الميل ثم بعد ذلك فى اتجـاه الجنوب ـ الجنوب الشرقى مسافة ميلين ونصف ميل . ويسمى العربان هذه السهول وديانا ... ربما لأن شيئا من الماء يتجمع فيها بعد سـقوط المطر الغزير . وضربنا مخيمنا فى سهل التيه فى الرمل بعـد أن كنـا قد قطعنا اليوم خمسة أميال ألمانية وربع الميل ، وكانت الريح بالليل شديدة وتثير رمالا تسبب للانسان ضيقا شديدا ، وان لم يزد عن مثيله فى أوروبا فى ظروف مشابهة . وليست المناطق التى يخشى الرحالة أن تدفنـه فيها الكثبان الرملية كثيرة فى الدنيا ، ويبدو أنها لا توجد فى ربوع البلاد العربية الحجرية .

وتعتبر المنطقة التى أخذنا فى اجتيازها من أجدر المناطق بالاهتمام فى الشرق لأن موسى سجل لنا رحلـة بنى اسرائيل فى صحرائها ، ولهذا حرصت على أن أقيس الطريق أثناء رحلتى بأكثر ما أستطيع من الدقة ، وعلى أن ألاحـظ كل شىء يعين على تصحيح الخـرائط وكذلك على تفسير الكتاب المقـدس . وكان أصعب شىء لقيته فى هذا الشـأن هو الحصول على الأسماء الصحيحة للجبال والوديان ، لأن العربـان كانوا على ما يبدو قد عقـدوا النية على اعطائنا دائما أسماء زائفة ، لأنهم لم يفهموا أسباب اهتمامنا بها فلم يشهدوا من قبل مسافرين يسألون عنها .

ولكننى اكتسبت ثقة أحد العربان بما قدمته اليه من هدايا صغيرة ، وبما دعوته من حين لآخر للجلوس ورائى على الجمل . وسألته عن هذه الأسماء فى رحلة الذهاب وفى رحلة الاياب فكانت هى هى بصفة عامة.ولم يكن زميلى فى الرحلة (فون هافن) يرضى باهانة نفسه والتباسط مع البدو ، ولهذا كان كثيرا ما يتلقى ردا خاطئا أو سخيفا .

وكنت أحدد اتجاه الطريق مستعينا ببوصلة صغيرة دون أن يلحظ العربان ودون أن أثير شكوكهم . فعلى الرغم من أن علماء المسلمين يستخدمون بوصلات ليحددوا بها مكان بناء القبلة فى مساجدهم ، فقد بدا على العربان الهائمين فى الصحراء الذين رأوا بوصلتى انهم لا يعرفون فيم تستخدم . ولهذا فليس من الصدق تماما ما نقرؤه فى كتب وصف البلاد العربية من أن القوافل فيها تستخدم البوصلة فى رحلاتها . وليس تحديد طول الطريق فى هذه البلاد فى صعوبة تحديده فى أوروبا التى يسرع فيها سائق العربة اذا اقترب من حانة ، ويبطىء فيما عدا ذلك . فالقوافل تسير على وتيرة واحدة . وقد عددت يوميا صباحا ومساء فى ساعات البرودة ، ثم عصرا فى ساعات القيظ الشديد خطواتى فى مدة نصف ساعة سرتها على قدمى بجانب القافلة ، وتبينت أننى فى ساعات الحرارة أقطع ١٥٨٠ خطوة مزدوجة ، وفى ساعات البرودة ١٦٢٠ . وحسبت المتوسط فجاء ١٦٠٠ خطوة مزدوجة فى نصف ساعة اذا كانت الطريق مستوية،ولقد كانت كذلك بصفة دائمة تقريبا .وبهذا لم أكن بحاجة الا الى تحديد اتجاه الطريق ، وحساب الزمن فى كل مرحلة . وحسبت طول الطريق بالخطوات ثم بالأميال الألمانية : ١١٨٠ خطوة من خطواتى = ربع ميل . ولقد استخدمت فى وصفى هذا المقياس الأخير . ولما كان

الكثيرون من قرائى سيجدونه متعبا غاية التعب، فاننى أحيلهم الى (اللوحة الثالثة والعشرين) الملحقة بكتابى « وصف البلاد العربية » حيث يجدون عرضا شاملا لرحلتى الى جبل سيناء ٠ ولا أريد أن أضيف من الملاحظات الا أن العلامة ▽ التى تظهر فى بعض مواضع الخريطة تعنى عين ماء .

والحق أن الحديث عن خطوات الجمل لا يدخل فى هذا المجال ، الا اننى سجلت ملاحظاتى عليهـا من أجل أولئك الذين لم تتح لهـم فرصة قط للتعرف الى سرعة هذا الحيوان ، وقد تبينت أن أحد جمـال قافلتنا أو قيروانتنا الصـغيرة كان يخطو فى نصف سـاعة ١٤٠٠ خطوة مزدوجة،وأنه كان يلوى احدى رجليه فى هذه الفترة مرارا ٠ويجوز للانسان أن يقول فى غير مجافاة للحقيقة ان الجمال لا تخطو جميعها خطوة متساوية الطول ٠ كذلك لا يفوتننى أن أذكر أن الجمال التى حملتنا فى هذه الصحراء كانت من اردأ ما شهدت طوال رحلتى كلها ٠

وفى الثامن من سبتمبر رحلنا قبل مطلع الشمس وسرنا خلال وادى غردان ثلاثة أميال وربعا ناحية الجنوب الشرقى الى حجر الركابة ، وهو حجر يبدو انه وقع من الصخر العالى ، واعتاد العربـان أن يقفوا عنده وأن يحتسوا القهوة ٠

وارتقيـت فى منتصـف الطريق تقريبا تلا عاليـا نسبيا ولكننى لم أستطع أن أرى من فوقـه الخليج العربى الا لمحا ملفيفا ٠ واتجهنا من حجر الركابه ناحية الجنوب الشرقى ـ الجنوب مسافة ميل ألمـانى حتى وصلنا الى وادى غرندل الكبير ، ثم مسافة ميل آخـر ناحية الجنوب ـ الجنوب الغربى فى هذا الوادى حتى اقتربنا من جبل حمام فرعون ٠ وهكذا

نكون قد قطعنا اليوم خمسة أميال وربع الميل ، ونكون قد ابتعدنا عن السويس عشرة أميال ونصف . ويتكون فى وادى غرندل فى موسم المطر غدير قوى يصب فى الخليج العربى . وكان الوادى عندما اجتزناه جافا ، ولكننا حصلنا فيه على ماء جيد ، أو لنقل انه كان أفضل بكثير من الماء الذى يتلقاه الانسان عادة فى السويس ، ولم نكن بحاجة الى أن نحفر فى الأرض الى أكثر من قدم ونصف أو قدمين لنجد الماء وذلك لأن المطر لم يسقط منذ مدة طويلة . ولما لم يكن وادى غرندل يفتقر الى الماء فقد نمت فيه أشجار كثيرة تكون أمام القادم من القاهرة منظرا جميلا . ولقد ذكرت فى « وصف البلاد العربية » ص٤٠٣ اننى أعتقد أنه يجوز للانسان أن يلتمس هنا « ايليم » التى يرد ذكرها فى الكتاب المقدس (*) . ويسكن فى هذه المنطقة كثير من العربان الرحل ، ولكنهم لا يحبون نصب خيامهم قريبا من الطريق . ولم أسمع هنا بجبل مرح الذى يذكره بعض الرحالة ، ولم أشأ أن أسأل من معنا من العربان عما اذا كانوا قد سمعوا هذا أو ذلك الاسم من أسماء الجبال أو الآبار ، لاننى لاحظت أنهم يجيبون على مثل هذه الأسئلة بنعم ويسارعون الى اظهارنا على أماكن يدعون انها تحمل هذه الأسماء . ويبدو أن الصخور التى رأيناها فى الطريق من الحجر الجيرى ، ولكنها كانت بيضاء ملساء كالتلك .

(*)

Porro inclinata jam die in torrentem incidimus dictum Orondem, ubi figentes tentoria propter aquas quae illic reperiebantur nocte mansimus illa. Sunt enim in loco isto plures fontes vivi, aquas claras scaturientes. Sunt & palmae multae ibi, unde suspicabamur illic esse desertum Helym.

وفى صباح التاسع من سبتمبر أرسلنا خدمنا مبكرين ليسلكوا الطريق مباشرة الى جبل سيناء ومعهم الأطعمة ، وسرت مع السيد فون هافن ومعنا شيخان فى وادى غرندل نصف ميل خلال الخمائل ، عبر التلال والوديان ، ناحية الجنوب الغربى ، ثم بعد ذلك ثلاثة أرباع الميل فى اتجاه الجنوب عبر سهل بامتداد البحر الى حمام فرعون ، ولهذا الحمام فتحتان متجاورتان ، ويقع على نحو عشرة أقدام فوق مستوى سطح البحر . ويخرج من هذا الحمام بخار كبريتى ساخن قوى ، والمياه التى تتدفق من أسفل فى مواضع مختلفة من الصخر ساخنة لا يكاد الانسان يستطيع أن يترك اصبعه فيها . ويقولون ان المرضى كثيرا ما يأتون الى هذا الحمام فيربطونهم بأحبال ويدلونهم فى الفتحتين المذكورتين ، ويستحمون هكذا فى الماء الساخن أربعين يوما متتالية ، ولا يأكلون الا ثمرة اللصف (٥٨) التى تكثر فى هذا المكان . ولست أعرف شيئا عن تأثير هذا العلاج . ولكننى رأيت قرافة كبيرة الى حد ما على مقربة من الحمام .

وكان من لقيت من العربان الذين قالوا لى ان بنى اسرائيل عبروا البحر الأحمر عند عيون موسى ، يعتقدون موضع العبور كان على مقربة من غرندل ، ويظنون أن فرعون ، الذى طارد بنى اسرائيل ومات فى البحر ، هلك فى هذه الهوة التى تبث الماء الساخن وبخار الكبريت المتصاعد من الحمام المذكور . وليس الحمام هو وحده الذى يتسمى باسم فرعون ، بل ان جزءا من الخليج العربى ينتسب الى فرعون ويسمونه الآن بركة فرعون وتلك منطقة يعتورها الهياج فى فصول معلومة .

والساحل على الضفة الشرقية من السويس الى جبل حمام فرعون مستو اذا غضضنا النظر عن بعض التلال الصغيرة هنا وهناك • أما الضفة الغربية فيجد الانسان عليها جبالا عالية يتخللها واديان كبيران فقط أحدهما فى مواجهـة سهل التيه ، والثانى فى مواجهـة غرندل • وقد حلا لبعض العلماء أن يقولوا ان بنى اسرائيل مروا من خلال الوادى الأول ، وذهب البعض الآخر الى القول بأنهم مروا من خـلال الوادى الثانى واجتازوا البحر من هناك مباشرة • والرأى عندى أن المذهبين بعيدان عن الاحتمال كما أشرت فى كتاب « وصف البلاد العربية » ، فعلى الرغم من أن البحر شمالى بركة فرعون ضيق على ما يبدو ، فاننى أراه أوسع وأعمق من أن يمر موسى خلاله ببنى اسرائيل •

وكان أحد الشيخين طوال الرحلـة متبرما لا يريد أن يجيب على الأسئلة كما ينبغى ، فاقتاده السيد فون هافن الى وراء جبـل حتى يتيح لى وقتا كافيا لقيـاس عرض البحر ، فنصبت اسطرلابى مسرعا وغرست رمح الاعرابى فى الارض وقسـت طول القاعدة بالخطوات ، وقسـت الزوايا المطلوبة قبل أن يعود الشيخ ويلقى الرمح فوق الأرض • ويدل هذا القياس على أن عرض بركة فرعون عند حمام فرعون نحو خمسـة أميال ، ولكن حسابى يفتقر الى الدقة • فقد كانت القاعدة صغيرة جـدا بالنسبة للمسافة الطويلة المطلوب حساب طولها • ولم تكن الظروف تتيح لى أن أتخذ قاعدة أكبر منها • وقد دونت ملاحظاتى على المد والجزر فى هذا المكان ونشرتها فى « وصف البلاد العربيـة » ص٤٢٣ • ولم يترك الأعرابيان لى الوقت اللازم لهذه الملاحظات ، بل أسرعا للحاق بالقافلة ، وكان علينا أن نتبعهما •

وسرنا خلال واد ضيق عميق يبدو أنه تكون نتيجة لنحر مياه المطر المنهمر فى الصخور الجيرية ، تارة ناحية الشمال ، وتـارة ناحية الشرق ، أو الجنوب أو الغرب ، وحططنا عند وسـايطة حيث كان خدمنا والرفاق العرب فى انتظارنا • وكان وادى وسايطة ينحرف عن الموضع الذى قضينا فيه الليلة الماضية بنحو ميل ناحية الجنوب الشرقى • ويجد الانسان هنا نخلا كثيرا وماء رديئا • وفى العصر رحلنا فى اتجـاه الجنوب ـ الجنوب الشرقى ميلا واحدا ، ثم فى اتجاه الشرق ـ الجنوب الشرقى نصف ميل حتى وصلنا الى جبل الطل ووجدنا بجواره ماء • وسرنا بعد ذلك نصف ميل تقريبا فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وثلاثة أرباع الميل فى اتجاه الشرق ـ الجنوب الشرقى ، ونصف ميل ناحية الشرق ، وحططنا فى سهل الحمر على مقربة من جبل يسمونه التيه • ومعنى هذا ان الموضع الذى قضينا فيه الليلة كان يبعد عن مكان الليلة الماضية أربعة أميال وربع الميل ، وعن السويس أربعة عشر ميلا وثلاثة أرباع الميل •

وقبل أن نحط بساعة ابتعد بعض الصحاب شمالى الطريق ليحضروا ملحا ، وكنا نود أن نذهب معهم ، ولكننا كنا خاضعين تمام الخضـوع لأوامر شيوخنا الذين لم يجدوا داعيا لتركنا نقوم برحلات جانبية شأنهم فى ذلك شأن السائقين فى أوروبا مع المسافرين الذين يقررون فجـأة فى وسط الطريق أن يسلكوا طرقا جانبية مطولة ، ولهـذا اكتفينا بما علمناه من أن الملح ينحت من جبل ما فى هذه المنطقة • والجبال من السـويس الى هنا تتكون غالبيتها من الحجر الجيرى • فلما توغلنا شرقا رأيت خطا من الجبال يمتلىء بالظلط ، وتحجرات صدفية من نوع الأصـداف التى

يجدها الانسان حيـة الى اليوم فى الخليج العربى • ثم يزداد الصـخر صلابة واسودادا ويرى الانسان عروقا من الجرانيت هنا وهناك ثم تتزايد باستمرار كلما اقتربنا من جبل سيناء •

وفى العـاشر من سبتمبر حلا لأعرابنا أن ننطلق قبل مطلع الشمس بخمس ساعات ولم أستطع تحديد الطريق واتجـاهه الا بحسب وضـع النجوم ، وكنا قياسا على ذلك نسير تقريبا فى اتجاه الشرق ـ الجنوب الشرقى حيث قطعنا ميلين ونصف ميل • وحططنا بعد مشرق الشمس بقليل فى سهل ورسان تحت صخرة صغيرة خربش عليها كثير من اليونانيين فى أثناء رحلة الحج الى جبل سيناء أسماءهم • ولما كانت الصخرة ذات منظر خاص فقد رسـمتها فى رحلة العودة فى (اللوحة الثـالثة والأربعين) • و (نصبة) هى مقر بعض بدو هذه المنطقة • وكلف الخفير الذى اتخذناه من قبيلة الأغواط خدمنا الذين كانوا يجلبون لنـا المـاء بابلاغ هؤلاء الأعراب بمقدمه ، ولهذا أتى عدد من أصدقائه لزيارته ، وكان تقـديم القهوة اليهم شيئا واجبا ، فلم نستطع السير الا فى الساعة الواحدة بعـد الظهر • وسرعان ما انتهت مرحلة اليوم ، فقد سرنا خلال منحنيات كثيرة لو كانت طريقا مستقيمة لما بعدت بنا الى الشرق مسافة تزيد على نصف ميل • وهنا تركنا الطريق الى جبل سيناء وحططنا الى الجنوب من الطريق على مقربة من مساكن شيخنا الذى كان من قبيلة بنى الأغواط ، وهـكذا لم نكن بعيدين عن الجبل الذى حلا لهذا الشيخ أن يسميه جبل المكتب • وكنا فى هذا الموضع نبعد عن موضع الأمس بنحو ثلاثة أميال وعن السويس مسافة ١٨ ميلا ألمانيا •

وكنت أرجو عن يقين أن ننعم فى هذا اليوم أخيرا برؤية النقوش الشهيرة التى دفعتنا الى القيام بهذه الرحلة الى الصحراء ، خاصــة وأننى كنت أتمنى أن تكون هذه النقوش قريبة من الطريق ، وأن تكون كثيرة تغطى الجبال من كافة نواحيها • الا أن الأحاديث الأخيرة التى تفوه بهــا الأعرابى جعلتنى أخشى أن تنتهى رحلتنا بدون جدوى • فقــد ذكر انه لا يعرف من النقوش الا ما على قمة جبل شديد الارتفاع والوعورة • ولم يشأ ولم يستطع أن يصطحبنا الى هناك الا فى اليوم التالى ، لأنه كان ينتظر زيارة بعض أصدقائه الذين علموا بعودته من عرب نصبة ، وقال ان هؤلاء الأصدقاء سيأتون ليرحبوا بمقدمنا الى الصحراء • ولم أكن أتوقع هذه المراسم ــ التى ضقت بها فى ذلك اليوم بالذات أشد الضيق ــ عنــد البدو • الا أن الأعراب على الرغم من تفرقهم فى السكنى ، لا يقفون من الحياة الاجتماعية موقف العداء ولا يتجردون من التحضر (٥٩) • واذا التقى منهم صديقان بعد طول فراق ، فانهما يتصافحان عدة مرات مقربين وجنتيهما ، أو على الأصح الجانب الأيمن من رأسيهما ، ويكرران الأسئلة : كيف حالك ؟ هل كل شىء على ما يرام ؟ وما الى ذلك • واذا أتى شــيخ الى جماعة فرض الأدب على الجميع النهوض له ، ودار الغريب على الجميع أو على أعز أصدقائه فقط مادا يده ورأسه للتحية مكررا الأسئلة المعهودة والأمنيــات • وجرب السيد فون هافن مرة الســؤال الذى ذكره بعض الأوروبيين الذين وصــفوا عادات العرب : كيف حال جمــالكم الخ ••

واستنتجت من الاجابة ان مثل هذه الأسئلة لا تدخل فى عداد المجاملة(*) •

ولما لم يكن عند الشرقيين جرائد فانهم لا يستطيعون فى لقاءاتهم أن يتحدثوا فى السياسة مثل الأوروبيين • كذلك الجو عندهم أكثر ثباتا منه عندنا ، ولهذا فانهم لا يتحدثون عنه كما يفعل الأوروبيون • أما العرب الرحل فانهم يتحدثون عن عملهم ، فاذا التقى اثنـان من العربان يعرف أحدهما جمال أو حيوانات الآخر ، فانهما يتبادلان الأسئلة عن هذه الجمال أو الحيوانات ، وليس ذلك بالشيء الغريب فهكذا يفعل الفلاحون فى أوروبا عندما يلتقون فيسأل سائلهم عن القمح وحاله وعن البهائم وسمنتها وما الى ذلك •

واجتمع فى وقت قصير ما بين ١٠ و ١٢ شخصا ، ينادى أغلبهم بكلمة شيخ ، على الرغم من أن أقل القليل منهم كانت له هيئـة مهيبة ، أو كان يلبس ثيابا أفضـل من عامة العربان • ولهذا فاننى أظن أن لقب شـيخ لا يعنى عندهم أكثر مما تعنيه كلمة مسيو عنـد الفرنسيين • وكان من الواجب الاحتفاء بضيوفنا وتقديم القهوة والطعام اليهم • وفى المسـاء نفسه ذبحوا عنزة وأكلوها على الفور • وفى اليوم التالى ذبحوا عنزة أخرى عند الظهر وثالثة عند مسـاء اليوم • وليس العرب وحـدهم هم الذين يكرمون الضيف اذا كان هذا الاكرام على حساب آخر • وقد دعا شيخنا

(*) فى كتاب تاريخ بلاد البربر وصناديدها Histoire de Barbarie de ses Corsaires من تاليف بيير دو R.P. Pierre Dau ص ٢٩٣ : « ويسال الواحد منهم صـاحبه كيف حال نسائكم ، واولادكم وخيولكم وابقاركم وثيرانكم بل ودجاجكم ، ولا ينسون بخاصة ان يسالوا فى فضول عن صحة كلبهم وقطتهم » •

الذى كان من قبيلة سعيد ـــ والذى تمتع فيما بعد بطعام لذيذ فى حدائق وادى فاران مع شيخينـــا الآخرين ـــ أولئـــك الذين كانوا قد أولموا له ليجتمعوا فى موضع معين غير بعيد عن الطريق أثناء رحلة عودتنا من جبل سيناء ، فذبحوا عنزاً وأكلوها .

ويعيش هؤلاء الأعراب عيشة من نفس نمط معيشة العرب الرحل الآخرين والأكراد والتركمان . وخيامهم مثل خيام عربان مصر التى رسمها توردن فى لوحته رقم ٦٥ . وتحتاج الخيمة الى ٧ أو ٩ عمد عادة ، ثلاثة منها أكثر طولا من الأخرى ، وأوسطها أطولها . وتكسى هـــذه العمـــد بقماشة سوداء سميكة غليظة ، أو مخططة بخطوط ســـوداء وبيضـــاء ، تصنعها النساء فى الصحراء . وقد تنقسم الخيمة الى قســـمين أو ثلاثة أقسام حتى ينفصل الرجال عن النساء ، أو البشر عن الحيوان ، فما يعجبهم الحياة معا . ويضع أولئك الذين لا يستطيعون دفع ثمن خيمة كبيرة ملاءة على أربعة أو ستة من الأوتاد ، أو يشدون الملاءة الى شـــجرة على قدر ما يحتاجون من مكان ، أو يلتمسون الجحور فى الصخور ليحتموا من الحرارة والمطر . والأشجار مستحبة جدا فى المناطق الحارة عامة للنسيم الطرى الذى يهب عندها ، ولهذا يحب العرب أن يحطوا رحالهم تحت الشجر أو بجواره .

وليس فى الخيمة العربية من أدوات البيت شىء كثير . فى الخيمة دائما حصيرة تغنى عن المناضد والكراسى والسرر . وتوضع الثيـــاب ـــ أو ما يكون للشيخ العربى من متاع غيرها ـــ فى أكياس مقفلة تتدلى على جدار الخيمة . وقد جعلوا أدوات المطبخ بحيث يمكن نقلهـــا بسهولة . فالقدور

من النحاس الأحمر المبيض بالقصدير ، والأطباق من المعدن نفسه أو من الخشب • وهم يبنون المواقد بسرعة فيضعون قدورهم على أحجار منفصلة أو على حفرة يتخذونها فى الأرض • ولا يستخدمون فى تناول الطعام سكينا ولا ملعقة ولا شوكة • ومفرش المنضدة عند الأعراب قطعة مستديرة من الجلد يحفظون فيها أيضا ما يتبقى من طعام • ويضعون الزبد ــ الذى ينصهر بسرعة فى البلاد الحارة ــ فى أوان من الجلد يحملونها معهم • ويأتون بالماء فى قرب من جلد الماعز ، ويشربون من طاسات نحاسية مبيضة جيدا من الخارج والداخل بالقصدير • وهم لا يعرفون الطواحين الهوائية والمائية بل يطحنون القمح برحى يدوية صغيرة • وليس لديهم فى الصحراء فرن للخبز واذا أراد العرب أن يصنعوا من العجين فطيرة رقيقة كبيرة ، خبزوها على قرص حديدى مستدير ، أو ــ اذا لم يكن لديهم هذا القرص ــ جعلوا العجين على هيئة كتل أو كور كبيرة ووضعوها فى الفحم المتوهج ، وغطوها به حتى ينضج العجين • والطعام الأساسى للشرقيين بصفة عامة هو الخبز الطازج ، ولهذا فهم يتزودون فى رحلاتهم فى الصحراء بالدقيق خاصة •

ولقد كنت مشتاقا على الأقل الى رؤية عينة من النقوش القديمة ، ولم أستطع أن أحث واحدا من العرب على أن يرينى اياها • ولما لم أكن أخشى شيئا نظرا لوجودى فى أرض خفيرى ، فقد سرت بمفردى فى الوديان المحيطة وارتقيت التلال الوعرة • وعدت فى المساء مرهقا دون أن أرى شيئا من نقوش • ورأيت فى أثناء تجوالى مصادفة خيمة رديئة منفردة وراء تل من التلال ، كانت فيها زوجة شيخنا واخته اللتان كانتا مشغولتين بطحن

القمح على رحى يدوية صغيرة تمهيدا لاعداد الخبز ، والمألوف بين نساء عامة العرب فى القرى أنهن لا يتغطين بدقة كبيرة اذا اقترب منهن مصادفة رجل غريب . وقد خرجت الى احدى المرأتين خارج الخيمة وقد سترت وجهها ، وقدمت الى شيئا من اللادن . ولعلها فعلت ذلك رغبة فى الحصـــول على هدية مقابلة أفضل لأنها لم ترد النقود القليلة التى قدمتها اليها . وربمـــا كانت عادات العرب تفرض عليهم ملاقاة الغريب بهدية . وفى موضع آخر التقيت بالابن الصغير لشيخنا يقف عند الماعز . وكان يعلم أن أباه يرافقنى فى رحلة الى الصحراء ، وتحـــدثت معـــه طويلا ، وأعجبت بجده وباجاباته الجريئة . وعلى الرغم من أننى كنت أتكلم لغة عربية رديئة جدا ، وأنه لم يلتق من قبل قط برجل غريب من أمة أجنبية ، فلم يتردد ولم يبد عليـــه ما يبدو عادة على أبناء الفلاحين من خجل ، وطلب الى أن أذهب معه الى بيته لأشرب ماء باردا جميلا وصل اليوم من النبع ، وكان فى ذلك صادقا سليم النية ، ولو لم يكن الوقت متأخرا ، لما رفضت دعوته . وللعرب كلمة خاصة يطلقونها على الخيمة هى كلمة خيمة ، ولكننى لاحظت انهم فى هذه المنطقة يسمونها دائما « بيتا » .

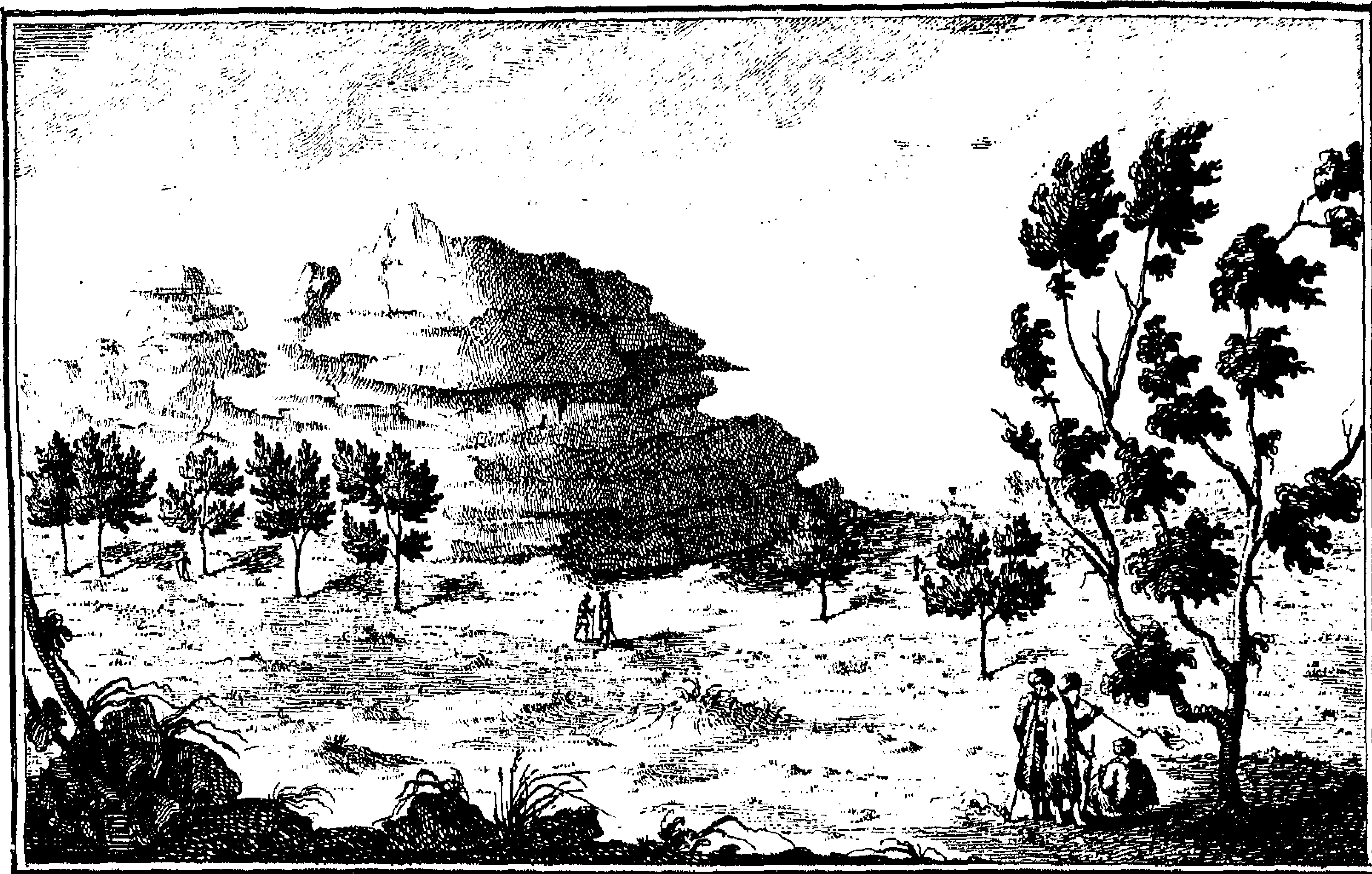
وفى الحادى عشر من سبتمبر سرنا مبكرين أنا والسيد فون هافن برفقة بعض الأعراب وقد تسلحنا جميعا جيدا كما لو كنا نخشى عـــدوا ، وسلكنا على ظهور مطايانا سبلا معوجة ناحية الجنوب الشرقى حتى وصلنا الى أسفل الجبل الذى أسموه جبل المكتب . وهو جبل شديد الانحدار والارتفاع مما اضطرنا الى ترك جمالنا أسفل الجبل وأمضينا ما يزيد على ساعة ونصف فى تسلقه . فلما ارتقينا الجبل الوعر لاحت لنـــا النقوش

على الصخر ، رأيناها دون حاجة الى أن ينبهنا اليها أحـد • ولم تكن دهشتنا هينة عندما وجدنا هنا فى قلب الصحراء على الجبل شديد الارتفاع على جانب منه شديد الانحدار قرافة مصرية رائعة ــ وهذا هو الاسم الذى سيطلقه عليها كل أوروبى حتى ان لم يكن قد رأى قرافة من هذا النوع فى مصر التى غطت الأرض بمرور الزمن فيها غالبية الآثار القديمة • ويرى الناظر هنا كمية كبيرة من الأحجار بعضها قائمة وبعضها مقلوبة أو محطمة طولها بين خمسة وسبعة أقدام وعرضها بين قدم ونصف وقدمين ، مليئة بالهيروغليفيات المصرية • ولا يمكن أن تكون هذه الأحجار شيئا آخر سوى شواهد قبور • ولم يبق من بناء ــ رسمت شكله فى (اللوحة الرابعة والأربعين) ــ شىء سوى الجدران التى يبدو أنهـا كانت مبنية جزئيـــا فى داخل الأرض ، لأن الأرض من الداخل أقل عمقا منهـا فى الخارج ، ويرى الانســان فى هــذا البناء أحجــارا كثيرة عليها نقوش هيروغليفية • وهناك فى الطرف العريض حجرة صغيرة لا تزال مســقوفة الى الآن ومدعمة بعمود مربع ، وفى هذه الحجرة كتابات هيروغليفية كثيرة على الجدران وعلى العمود • وفى البناء تماثيل نصفية من النمط المطابق لذوق المصريين القدامى ، وزخارف معمارية من النوع الذى رسمه نوردن فى مصر العليا ، وعمود مربع صغير له أربعة رؤوس من أعلى • وشواهـد القبور والتماثيل النصفية من الحجر الرملى الناعم الصلب • والمعروف أن الآثار المصرية القديمة ذات الهيروغليفيات من الجرانيت الصلب •

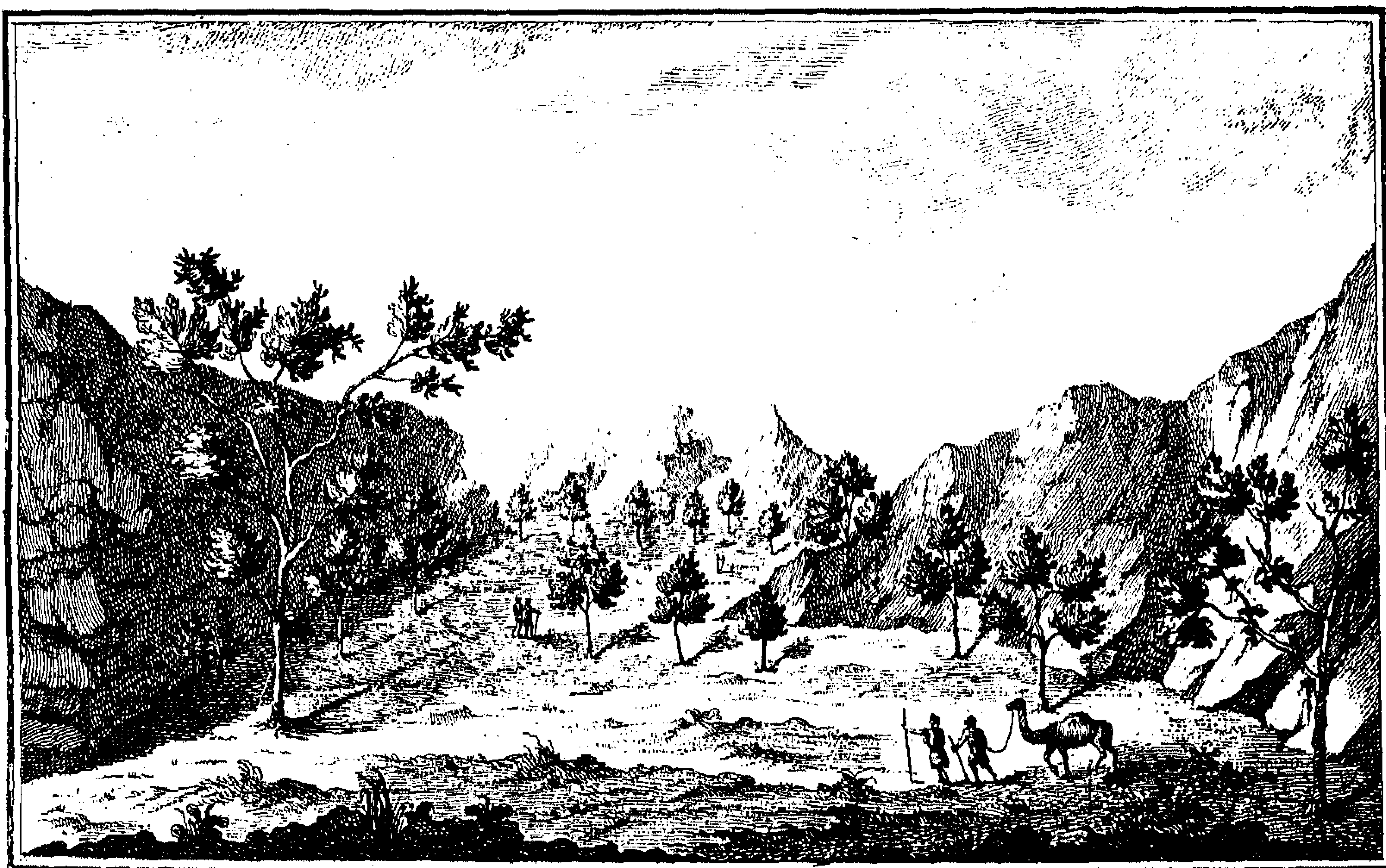
وسمح لنا العربان بأن تتطلع فى دقة الى كل شىء وبأن ندون بعض البيانات • ولكنى كنت بحاجة ، عندما أعود الى أوروبا ، الى دليل على أن

النقوش الموجودة هنا هيروغليفيات مصرية حقيقية ، ولهـذا أردت أن أنسخ بعض الأحجار . ويبدو أن العربان كانوا ينتظرون هـذه اللحظة ، فقد هرعوا جميعا الى ومنعونى من أن أنسخ أدنى شيء بغير تصريح من شيخ هذا الجبل . ولما كان خفراؤنا يعلمون أننا لم نأت الى هنا لمجرد التطلع الى النقوش ، بل اننا كنا نريد الرجوع بصورة منتسخة لهـا ، فقد قرروا فى أثناء وليمة الأمس أن يربح واحد من أصدقائهم — ربمـا كان أرفع قدرا من خفيرنا — شيئا منا ، وتسمى هذا الشخص باسم شيخ جبل المكتب . وكان هذا الرجل على الجبل عندما وصلنا ، ولم يعترض بشيء على تطلعنا الى كل ما أردنا التطلع اليه بدقة . واذا به يعلن علينـا الآن بأنه لن يسمح بأن نرسم حجرا واحدا حتى لو دفعنا مائة تالر ، مبررا ذلك بالتبرير المألوف وهو انه لا يرضى بأن يستخرج الأجانب الـكنوز المدفونة هنا .

ويبدو أن العربان يعتقـدون فعلا أن الفرنجـة والمغـاربة يعثرون على الكنوز المدفونة وأنهم يستطيعون بمـا يعرفون من فنون معينة أن ينقلوا هذه الكنوز الى أوطانهم لا يحتاجون فى ذلك الا الى النقوش . الا أن مثل هذا الحديث لا يزيد فى الواقع عن أن يكون تحايلا للحصول على بقشيش سخى.وأنا على الأقل لا أعتقد أن واحدا من العربان يضيع على نفسـه مكسبا صـغيرا مضمونا من أجل كنوز كبيرة لا أمل له فى الحصول على شيء منها . وينبغى على الانسان أن يكون على علم بلغتهم وطريقة تفكيرهم وأن يمهد لهم السبيل الى مسلك متواضع ، فاذا صمموا على التمسك بالكنوز المخبأة فى الأرض ، كان عليه أن يصرفهم الى أفكار



لوحة رقم (٢٥)



لوحة رقم (٢٦)

أخرى بطريقة مهذبة • وقدموا الى مقترحات مختلفة منها أن أعد شـيخ الجبل بثلث الكنز الذى سأعثر عليه ، والخفراء بالثلث الثانى ، اذا لم أقبل بدفع المائة تالر اليه والاحتفاظ بالكنز لنفسى • ولم أكن حتى ذلك الحين قد تعلمت أن أرد على مثل هذا الكلام الرد المفحم • فضحكت على المقترحات وأكدت للعربان أننى لا أريد لنفسى شـيئا من الـكنز المدفون ، وأننى لا أريد الا نقل النقش ، وعليهم أن يهتموا هم بالكنز عندما يظهر • ولما رأيت أننى لن أستطيع أن أنجز شيئا فى ذلك اليوم ، اتفقت سرا مع واحد من خفرائنا ــ كان دائما يظهر لى الاخلاص والهمة ــ على أن يرشدنى الى هذا المكان مرة أخرى ونحن فى طريق العودة من جبل سيناء وأن يترك لى الوقت لأرسم بعض الصخور • ووعدته بأن أمنحه لقاء ذلك ٤ تالر •

ولعلى لو كنت قد عرضت هـذا المبـلغ نفسه على شيخ الجبل ، كان قد قبله ، ولكننى لم أشأ أن أدفع اليه شيئا ، حتى يكون قد جاء الى الجبل وارتقاه دون فائدة ــ وكانت النتيجة على أية حال أننى تجشمت فيما بعد مشقة ارتقاء هذا الجبل المنحدر المرتفع مرة أخرى • ووفى خفيرى بوعده فى أثناء رحلة العودة ،ونقلت غالبية الهيروغليفيات من ثلاثة أحجار على (اللوحة الخامسة والأربعين و السادسة والأربعين) . ويتبين منهما أن الكتابة كتابة هيروغليفية حقيقية ، فالرموز الواردة بها هى نفس الرموز التى نراها على الآثار المصرية القديمة • وقد لاحظت منذ البداية شـيئا خاصا ، وهو أن كافة الأحجار التى فى هذه المنطقة التى يكثر فيها الماعز تحمل فى نقوشها كلها تقريبا صورة عنز ، وأن المسلات فى مصر ، حيث

تكثر فيها الحيوانات ذات القرون ، كثيرا ما تحمل فى نقوشها صـــورة ثور • واذا كان بعض الرحالة سيجدون جدوى فى زيارة هذه الآثار فى الصحراء ، فاننى أتمنى أن يقوموا بالحفر والبحث عما اذا كانت هنـــاك آثار لموتى مدفونين • وربمـــا عجز الرجل الأوروبى القـــادم الى البلاد حديثـــا عن اقناع العربان بذلك ، ولعله يستطيع أن يكلف خدمة بذلك خاصة اذا لم يكن لديه من الخفر سوى شيخ متفاهم من بنى الأغواط الذين يقع الجبل فى منطقتهم •

وليس بين جبل المكتنب هذا وما وصفه رئيس الفرنسيسكان بالقاهرة شبه • ومن الواضح أن الجبل الذى زرته أعظم أهمية من تلك الجبـــال التى تحدث عنها والتى قام البرهان تقريبا على أن ما عليها من كتـــابة لا يتصل بالقـــدم والجمال بسبب ، وأنه على الأرجح من خربشة بعض المسافرين • أما الهيروغليفيات التى وجدتها فهى جميلة مثل الهيروغليفيات المصرية • وهى تقوم دليلا على أن الفنون ازدهرت هنا أيضا وأن مدينة ثرية السكان كانت على مقربة من هذا المكان ، الا اذا أتى من اســـتطاع أن يثبت أن بعض المصريين مثلا لم يحفظوا موتاهم على هيئة موميـــات ، وكانوا يقدسون هذا الموضع بالصحراء تقديسا خاصـــا ولهـــذا حملوا موتاهم الى خارج البلاد •

والماء ليس نادرا فى هذه الصحراء ، كما أن هذه المناطق الجبليـــة ليست خالية من السكان على النحو الذى يتصـــوره الرحالة عادة لأن العربان يسيرون به فى مناطق لا خيام فيها • وربما كانت هـــذه البلدة فيما مضى أكثف سكانا ، وربما أسهمت التجارة النشيطة بطريق البر بين البلاد

العربية ومصر فى العصور القديمة فى نماء المدن فى هذه المنطقة .

أما يجوز للانسان أن يبحث هنا عن « قبروت هتاوة » (سفر العدد ١١ ، ٣٤) أو « جبل هور » (سفر العدد ٣٣ ، ٣٨) ؟ واذا كانت هذه التراقة تنتسب الى بنى اسرائيل أو الى السكان القدامى لهذه البلاد ، فانها على أية حال تتيح فرصة للعلماء ليقوموا بدراسات واسعة . والمرجح أن بنى اسرائيل لم يكن محرما عليهم أن يستخدموا الرسوم الواردة فى الكتابة الهيروغليفية ، وغيرها من رسوم البشر والحيوان ، انما كانت عبادة الصور هى المحرمة عليهم . ولا يزال اليهود اليوم يثبتون فى بصمياتهم رسوما بل صورا نصفية .

فلما نزلنا من فوق الجبل المذكور رأيت حجرا خشنا عليه بعض الرسوم التى يبدو أن راعيا خالى البال قد رسمها عليه بيده ، وهى رسوم رديئة غاية الرداءة كما يتضح من الشكل فى (اللوحة الخمسين) . ولا ينبغى أن يتوقع الانسان أفضل منها من الذين أقاموا فى هذه المنطقة منذ ألف سنة أو أكثر .

كان الوصف الذى صور به الناس لنا جبلا آخر ــ قالوا عنه إن عليه مكتوبات فأتينا أصلا بحثا عنه فى هذه المنطقة ــ قد حملنا على الاعتقاد فى أننا سنحتاج على الأقل الى شهر كامل لننقل ماعليه من نقوش ــ وها نحن أولاء قد فرغنا من تسجيل ملاحظاتنا فى يوم واحد . ولما لم تكن السفن وشيكة الرحيل من السويس ، فقد قررنا أن نقوم برحلة الى جبل سيناء . وفى الثانى عشر من سبتمبر رحلنا وسرنا مجاوزين الجانب الشمالى من

الجبل السابق وصفه • وتبينا أن التضاريس تزداد سماتها الجبلية شيئا فشيئا ، حتى اذا قطعنا ساعتين لاح لنا جبل سيناء أو على الأحرى جبل موسى فى اتجاه الجنوب الشرقى ـ الجنوب • ووجدنا هنا قرافة للعربان يأتون اليها بجثث موتاهم من مسافات قد تبعد مسيرة عدة أيام • ثم سرنا فى واد منبسط هو وادى خميلة الذى تكتنفه من الجانبين جبال وعرة من الحجر الرملى فيها اذا صحت ذاكرتى بعض عروق من الجرانيت • وكانت الطريق التى قطعناها حتى الآن تمتد ميلا ونصف ميل من الأميال الألمانية تقريبا فى اتجاه بين الشرق والجنوب • وفى العصر سلكنا وادى دبور ووادى برك ، وحططنا للراحة فى الوادى الأخير عند جبل اتمان • ورأينا فى هذه المنطقة أيضا قرافتين ـ احداهما تتكوم الأحجار على قبورها وترجع فيما يقولون الى مئات عديدة من السنين • ثم سلكنا بعد ذلك طريقا صعبة عبر جبل من الجبال ، وصلنا بعدها الى وادى السرايطه حيث وجدنا مياها جيدة جدا • وفى المساء حططنا رحالنا فى وادى جنة ، ووجدنا على بعد نصف ساعة ماء جيدا • وكانت الطريق التى قطعناها عصرا تساوى ميلين وثلاثة أرباع الميل فى اتجاه الجنوب الشرقى ، ومعنى هذا أن مرحلة اليوم كانت فى مجموعها خمسة أميال وربعا ، وأن بعدنا عن السويس كان ٢٣ ميلا •

لا يحفل العلماء بمناظر الجبال والوديان ، ولكننى أردت أن أعطى عينة تدل على جمال المناظر التى يجدها الانسان أحيانا فى الصحراء ، فرسمت فى أثناء رحلة العودة صورة للمنظر فى وادى السرايطة ، على اللوحة (الثالثة والأربعين) • وقد التقينا فى هذا الوادى بأعرابية من علية

القوم ومعها خادمها ، فابتعدت عن الطريق احتراما للشيوخ الذين كانوا يرافقوننا ، ونزلت من فوق جملها ومرت بنا سائرة على الأقدام على النحو الذى ذكرته فى « وصف البلاد العربية » ص ٥٠ • ورأتنا امرأة أخرى ـ كانت متحجبة تماما كالأعرابيات فى السويس والقاهرة ـ فى منطقة ضيقة بوادى جنه ، وكانت قادمة سيرا على الأقدام ، فجلست على جانب الطريق مشيحة بوجهها بعيدا حتى مررنا • وتذكرت فى هذا المقام قصة تمر • فلما ألقيت عليها السلام ولاحظ رفاقى العرب من مسلكى هذا أننى غريب عن عاداتهم ، شرحوا لى أن هذه المرأة أدارت ظهرها احتراما للرجال الأجانب ، واننى ما كان ينبغى لى طبقا لتقاليدهم أن أسلم عليها •

كان مسكن خفيرنا من بنى سعيد فى وادى فاران (فيران) غير بعيد عن الطريق المؤدية الى جبل سيناء • ولهذا لم يشأ أن يتوغل بعيدا داخل الصحراء دون أن يرى أسرته ، وسبقنا اليوم عى ظهر جمل • وتبعناه فى اليوم الثالث عشر من سبتمبر ميلا وربع ميل ناحية الجنوب ـ الجنوب الشرقى من خلال وادى ارتامه ، وعلى هذا تبعد هذه المنطقة ٢٤ ميلا وربع الميل عن السويس • وهنا تركنا الطريق الموصلة الى جبل سيناء وسرنا أكثر من نصف ميل ناحية الغرب عابرين على جبل سربال حتى اقتربنا من منازل أو خيام شيخنا • وضرب العرب خيمتنا عند شجرة هناك ، وتركونا نرتاح وحدنا لأنهم ذهبوا لزيارة أصدقائهم فى حدائق النخيل بالمنطقة المحيطة • وسمعت أن هنا بقايا مدينة قديمة ، واشتقت لرؤيتها • وما ان لاحظ العربان ذلك حتى رحلوا عنا دون أن يذكروا لى شيئا عن أخبارها • وكان مخيم شيخنا يتكون من تسع خيمات أو عشر • ورأينا

هنا عددا كبيرا من الماعز والجمـال وبعض الحمير والقليل من الدجاج والكلاب .

كنا اذن فى وادى فاران ، تلك المنطقة الصحراوية التى لم يتغير اسمها منذ موسى . ويذكر الاعراب أن هذا الوادى يبدأ من الشمال الشرقى على مسافة نصف يوم من محطنا ويمتد مسافة يوم ناحية الجنوب الغربى فيصب فى الخليج العربى . والجبال التى تكتنف الوادى من جانبيه شديدة الانحدار ، تارة من الحجر الرملى ، وتارة من الحجر الرملى المختلط بالجرانيت الخشن المنقط بالأحمر والأسود.وكان الجو فى ذلك الفصل من العام جافا ــ ولكن المطر عندما يتساقط لمدة طويلة تتجمع المياه من الجبال المحيطة فى الوادى فيضطر العربان فى بعض المناطق الى الهرب بخيامهم الى المناطق المرتفعة . ونحن لم نر من هذا الوادى الا جزءا صغيرا فقط ، ولعل هذا الجزء كان فرعا مجدبا ، فما زالت الألسن الى اليوم تمجد خصوبة وادى فاران . وقد حدثنا الأعراب عن المنطقة التى ذهب اليها خفراؤنا فقالوا انها غنية بالنخيل ، وان الآلاف الكثيرة من الناس يمكن أن تعيش عليها . ويحمل من بها من عربان وكذلك عربان السفح الغربى من جبل موسى ، الى السويس والقاهرة عاما بعد عام الكثير من البلح والعنب والتفاح والكمثرى وغيرها من الفاكهة الجميلة . أما غير هؤلاء من العربان الذين يعيشون فى مناطق أخرى فيبيعون فى المدينتين المذكورتين الماعز واللادن والفحم النباتى وأحجار الرحى الصغيرة ويعودون الى الصحراء حاملين المواد الغذائية والملابس .

معروف أن العرب مسموح لهم بالجمع بين أربع زوجات ، الا أن

الغالبية تكتفي بواحـدة يحتفظون بها طوال حيـاتهم اذا رضخت نوعا ما لارادة الرجل . أما شيخنا من بني زيد فقد كانت له زوجتان ، كانت احداهما تسكن حيث ضربنا خيمتنا وكانت مكلفة بملاحظة الخدم الذين يرعون الماشية . أما الأخرى فكانت تقيم فى منطقة أخرى وكانت تشرف على بستان نخيل . وهكذا تقوم الزوجتان بتدبير أعمال الدار اذا كان هو فى زيارة لأصدقائه أو كان فى السويس يكسب المال من نقل الماء أو كان عاملا فى حمل البضائع الى السويس والقاهرة . وقد شرفتنا السيدة جارتنا ، وهى أرفع سيدات المخيم رتبة ، بالزيارة عصر اليوم وصحبت معها بعض النساء العربيات الأخريات ، وأهدت الينا دجاجة وبعض البيض . وكنت فى ذلك الحين قد أمضيت وقتا ليس بالقصير فى البلاد الشرقيـة ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى يدور فيها بينى وبين امرأة مسلمة حديث اذا استثنينا راقصات القاهرة . ولم تقبل العربيات الدخول فى خيمتنا ، بل جلسن جميعا فى الخارج فى مكان ظليل قريب بحيث استطعنا أن نتحادث فى غير مشقة . وأعجبها خاصة ما حكيناه عن أوروبا من أن الرجل المسيحى لا يتزوج الا بامرأة واحدة . وشكت زوجة شـيخنا من أن لها ضرة ، وشكت خاصة من أن زوجها يحب ضرتها أكثر منها على الرغم من أنهـا الأولى وأنها كانت فى كل وقت حسنة السلوك . وتركت لرفيقى فى الرحلة أمر الحديث مع هذه السيدة ، فحكت له ان زوجها يقضى أغلب وقته فى رحلات الى السويس والقاهرة ، وكانت تشير الى مصر بهذه المنـاسبة بكلمة « ريف » . وهكذا فكلمة ريف لا تعنى « الوجه البحرى » أو « الدلتا » فحسب كما يظن بعض العلمـاء . وقد سـمع دون كاسترو

Don Castro والأب لوبو P. Lobo هذا الاسم يطلق على صعيد مصر أيضا(*) . وبينما كان السيد فون هافن يتكلم مع هذه الاعرابية رسمت أنا صورة لثيابها التى وصفتها فى فصل سابق،وصورتها فى (اللوحة الثالثة والعشرين) تحت رقم ٤٨ . وتستحق هـذه الملابس ــ وبخاصة الحلقان الكبيران فى الأذنين ، والطوق الكبير حول الرقبة ، والأساور حول الذراعين والخلاخيل حول الساقين ــ اهتمام العلماء لأن بنى اسرائيل كانوا فى هذه المنطقة ، وربما ظلت الموضة كما هى لم تتغير لدى نساء العرب الرحل منذ ذلك الحين تغيرا كبيرا .

وأود أن أتعرض هنا باختصار للابس العربان . يلبس العربان الذين لهم أعمال كثيرة فى المدن مثل أهالى المدن تقريبا ، فيلبسون عمامة وقميصا واسعا ومن فوقه جلباب له حزام حول الوسط ، وسراويل فضفاضة من التيل تحت القميص . والرأى عندى أن أحذية هؤلاء الأعراب ــ والتى رسمت شكلها فى اللوحة الثانية بكتاب « وصف بلاد العرب » ــ تستحق اهتماما خاصا لأنها ليست معقدة الصناعة وليس لها الأشرطة الطويلة التى اعتاد الرسامون الأوروبيون على رسمها ، وهى تصنع فى أحيان كثيرة من الجلد الخام . ولم أر فى هـذه المنطقة المعطف العربى الفضفاض ــ العباءة ــ الذى يعتبر فى الجزء الشرقى من البلاد العربية عامة الكساء المألوف للأهالى ، ويلبس العربان بدلا من العباءة شالا طويلا يلتفون به كما يتبين من الشكل على اللوحة (التاسعة والعشرين) ، وقد أشرت اليه

(*)
Reise des Don Stephano de Gama in der Sammlung aller Reisebeschreibungen Vol. I. p. 214. Voyage d'Abyssinie du R.P. Lobo, par le Grand p. 37.

من قبل فى فصل سابق • وسيدهش القارىء الأوروبى عندما ينظر الى هذا الشكل لغرابة هيئة الركاب ، فهو متخذ من الصاج القوى ، ويستخدم الخيالة جوانبه الحادة كما نستخدم نحن المهماز • ويحمل الأعرابى دائما معه سكينا عريضة مدببة من الامام اسمها يامبيا Jambea يدسها فى حزامه على بطنه • ويزيد من تسليحه عندما يتوغل فى الصحراء • فيعلق سيفه الى جانبه الأيسر مستعينا بسير جلدى يضعه على كتفه اليمنى اذا كان معتادا على استخدام يده اليمنى ، والقلائل الذين يستخدمون اليد اليسرى يعلقون السيف الى جنبهم الأيمن • ويحمل الأعرابى عادة بندقية ذات فتيل ، ويعلق قرن البارود فى الناحية التى ليس بها السيف • ويربط حقيبة الطلقات حول بطنه • وعلى الرغم من أن العربان يحملون أسلحة نارية الا أنهم يفتقرون عادة الى الرصاص والبارود • وهم يحملون الرماح دائما عندما يركبون الخيول والجمال ــ ويحمل المشاة منهم أحيانا سلاحا من هذا النوع ولكنه أكثر قصراً • ولم أر عند العربان أقواسا أو سهاما أو مقاليع •

وزارنا اليوم أعراب حملوا الينا بلحا أصفر طازجا لم يكن قد نضج تماما فى هذا الوقت من السنة • وعاد خفراؤنا قرب المساء ، فانطلقنا فى صباح الرابع عشر من سبتمبر وسرنا ما يزيد قليلا على نصف ميل فى الطريق التى أتينا منها حتى وصلنا الى الطريق التى تؤدى الى جبل سيناء • ثم سرنا بعد ذلك فى سهل يسمونه وادى فاران أيضا ميلين ألمانيين فى اتجاه الجنوب الشرقى حتى وصلنا الى أسفل جبل موسى • وسرنا من هنا ميلا وربع ميل ناحية الجنوب صاعدين الجبل ، سالكين طرقا رديئة ،

وحططنا ليلا على بعد ٢٧ ميلا ونصف ميل من السويس عند صخرة يبلغ قطاعها العرضى ١٦ قدما . وهذه الصخرة فى رأيى قد انفلقت من النصف ، ولكن العربان يعتقدون أن موسى شقها بضربة من سيفه شقين . ووجدنا على هذا الجبل ينابيع مختلفة أعجبنى طعم الماء القراح الذى اغترفته منها ــ وبعد وقت طويل قضيته فى مصر وفى منطقة السويس لم أشرب خلاله ماء جيدا من نبع عذب ــ ولاح لى أجمل مذاقا من أنفس الأنبذة فى أوروبا .

ورأيت اليوم نقوشا مختلفة بحروف لا علم لى بها ، ونقلت بعضا منها فى أثناء رحلة العودة على (اللوحة التاسعة والأربعين) . كانت النقوش A, B, C, على أحجار كبيرة خشنة ، وكان النقش D على الصخر نفسه محفورا أو على الأصح مدقوقا . والصخرة شديدة الانحدار فى المواضع القريبة من الطريق ، وقد نحر الماء الذى ينهمر فى أعقاب المطر العنيف جوانب من الصخرة نفسها أو القطع المنفصلة عنها .

وفى الخامس عشر من سبتمبر كنا فوق جبل موسى نبعد ميلا وربع ميل فى اتجاه الجنوب الشرقى عن دير سانت كاترينا . ومعنى هذا أن هذا الدير يقع طبقا لحساباتى على بعد ثمانية وعشرين ميلا ألمانيا من السويس . ويرى القارىء موقعه على (اللوحة الرابعة والأربعين) . وتتسم الأرض التى يقوم فوقها الدير بأنها مائلة ميل السفح فهى فى الناحية الجنوبية الغربية أعلى منها فى الناحية الشرقية . ويبلغ طول المبنى الرئيسى نحو ٦٠ خطوة مزدوجة ، وعرضه ٥٥ خطوة ، وقد أنشىء فى أغلبه من الحجر المنحوت

ولابد أن مثل هذا العمل قد تكلف فى الصحراء البعيدة جهدا كبيرا ومالا كثيرا • والى الامام من هـذا المبنى الرئيسى مبنى آخر صـغير ردىء فيه الباب الوحيد للدير ، وهـذا البـاب يقفل بجـدار من الحجر أغلب الوقت • ويستخدم من بالدير حبلا وبكرة يرفعون بها الى سقف الدير كل ما يريدون ادخاله سواء فى ذلك البشر أو المواد الغذائية • وتلتصق بالدير من الأمام حديقة كبيرة بها أجمل أشجار الفاكهة ، ويذهب الرهبان الى هذه الحديقة عن طريق دهليز تحت الأرض على ما سمعت من العربان •

ولا يدخل الدير أجنبى ، أو على الأقل أوروبى ، اذا لم يكن مزودا بخطاب من مطران جبل سيناء الذى يقيم عادة فى القاهرة • وقد سمعنا ذلك من قبل فى القاهرة ، وتكلمنا بهذا الشأن مع المطران ولكنه سـافر فجأة على عجل الى القسطنطينية دون أن نعلم ، ولهذا لم تتلق مكتوبا منه الى الرهبان هنا • الا أننا كنا قد حصلنا عن طريق السفير الانجليزى فى القسطنطينية على خطاب من المطران المخلوع الذى كان قد أمضى فى هـذا الدير ثلاثة أعوام ، ولم يعد الا مؤخرا ، ولم يكن يساورنا شك فى أن الخطاب سيأتينا بتصريح لدخول الدير • وكان علينا أن ننتظر طويلا حتى أرسل الينا الرهبان من يتحدث الينا ، فلما سمع هذا اننا فرنجة سأل من فوره عن خطاب المطران • فلما لم نستطع أن نقدم اليه الخطاب المطلوب ، وشرحنا له السبب ، وعرضنا استعدادنا لتقديم خطاب المطران السـابق ، عاد انتظارنا فطال الى أن جاء من طلب منا أن ندس الخطاب من خلال خرق فى الجدار •

وتجمع فى هذه الأثناء كثير من العربان كانوا قد رأوا من الجبال المحيطة أن بعض الأجانب أتوا الى الدير • والعربان جيران سوء بالنسبة للرهبان اليونانيين • ويقولون انهم يطلقون النار من أسلحتهم النارية أحيانا من فوق الجبال القريبة ويصوبونها الى داخل الدير(٦٠) • فاذا ابتعد اليونانيون قليلا عن الدير قبضوا عليهم ولم يطلقوا سراحهم الا بعد أن يدفعوا مالا كثيرا • ويتلقى العربان مبلغا معلوما على كل حاج يأتى الى الدير • وعندما يكون المطران نفسه حاضرا هنا ، يظل الباب دائما مفتوحا ، وينال العربان الذين يأتون فى هذا الوقت ما ينال الضيف من طعام وشراب • ويتكلف الرهبان اليونانيون ــ وهم الذين يعيشون كليا أو جزئيا على الصدقة ــ الكثير خاصة وانهم مضطرون الى جلب طعامهم من مصر ، وأن قوافلهم تتعرض أحيانا فى الطريق الى النهب • ورأينا نحن عينة من مسلك الأعراب حيال الرهبان • فقد أغلظ أحد العربان ــ وكان قد جاء بدوافع أخرى غير الرغبة الفضولية فى رؤية الأجانب الواصلين ــ للرهبان مطالبا اياهم بالخبز • فلما حاولت أن أهدئه وصف الرهبان بأنهم ليسوا بشرا لأنهم لا يقدمون الطعام الى انسان جائع أتى الى دارهم •

ولما كنا مكرهين على الانتظار وقتا طويلا جدا ، فقد رسمت فى أثناء ذلك منظر المبنى ، وجزءا من الجبل الذى يسمى اليونان احدى قممه جبل سيناء ، على (اللوحة السابعة والأربعين) • ولست أعرف ما اذا كنت قد استطعت أن ألمح هذه القمة قريبا فى الوادى الضيق • ثم رسمت بعد ذلك صورة هذا الدير من جانب آخر ومن على بعد أكبر ، على اللوحة

(الثامنة والأربعين) (*) .

وبعد أن تشاور الرهبان بشأننا طويلا ، أعيد الينا الخطاب دون أن يفتح ، وأبلغنا بعضهم على سبيل الاعتذار أنهم متأكدون من أن البطريق هو الذى كتب هذا الخطاب،ولكنهم لا يستطيعون فضه لأنه ليس مصحوبا بخطاب من المطران وانهم لا يستطيعون السماح لأحد بدخول الدير بدون أمر صريح صادر من المطران . عند ذاك تقهقرنا مع أعرابنا وجمالنا أكثر من ربع ساعة الى الوراء حتى لا يتجمهر مزيد من الأعراب عند الدير ، ولا يتعرض الرهبان لمزيد من الازعاج . وسارع الرهبان فأرسلوا الينا هدية من عنب جميل جدا من بستانهم ، وسعدنا بمذاقه كل السعادة بعد هذه الرحلة الطويلة خلال المناطق الوعرة .

وعلى الرغم من أننا لم نستطع الدخول الى داخل الدير ، فلم أشأ أن أكون قد توغلت فى الصحراء الى هذا المدى دون أن أرقى جبل سيناء بنفسى . وكنت بحاجة لاتمام هذه المهمة الى مرافقة من رجال يعرفون هذه المنطقة جيدا ويستطيعون ارشادى الى المواضع الجديرة بالاهتمام .

(*) اصطنع نايتشيتس Neitzschity فى كتابه Siebenjährige Weltbeschauung = سبع سنوات فى ربوع الدنيا) صورة لجبل سيناء احتفرها فى النحاس ، تختلف تماما عن صورتى ، والأرجح انه تلقى الرسم من اليونانيين ولم يرسمه بنفسه ، فقد اشتريت انا فى القاهرة رسما يونانيا مطبوعا على الخشب يصور جبل سيناء وحريب وسانت كاترينا على النحو الذى جاء فى الكتاب المذكور . ويبدو أن الرهبان اليونانيين لم يصنعوا الى الآن رسما افضل لهذه المنطقة العجيبة التى يقيمون فيها منذ مئات السنين . وقد التقيت فى دار مطران جبل سيناء برسام أسبانى كان قد أتى الى القاهرة من مانيللا مارا بشرق الهند فالخليج العربى ، ثم انضم فى القاهرة الى الجالية اليونانية ، ورأيته قد رسم الصورة نفسها كبيرة جدا وجميلة بالوان الزيت .

ولما كان عربان كثيرون من هـذه المنطقة قد أحاطوا بنا ، فقد أردت أن أختار من بينهم واحدا يرشدنى اليوم الى الطريق فوق الجبل المذكور . ولكن خفرائى ردونى عن ذلك ووعدونى بأن يطلعونى فى الغد على كل ما أريد الاطلاع عليه حتى أرضى ، وهنا أخذ بعض العربان الذين تجمعوا عند قافلتنا ولاحظوا أننى كنت أريد اختيارهم مرشدين لى فى صـعودى الى جبل سيناء – فى التشاجر العنيف مع خفرائنا لأنهم كانوا يريدون أن يكسبوا منا هم أيضا شيئا ، ولكنى لم أكن أعرف هؤلاء الرجال ، ولم أكن أريد أن أثير عداوة مرافقى ، ولهذا اتبعت رجالى .

وفى صباح السادس عشر أتانى خفراؤنا برجل قالوا عنه انه شيخ جبل سيناء ، وكان قد سار معنا فى رحلتنا عـدة أيام واتجه أيضا الى طريق العودة . وعرضوا أن يرافقنى هذا الشيخ وأن يتلقى لقاء ذلك نفحة سخية. ولم أجد من الصواب أن أعترض كثيرا حتى لا أفقد وقتا بغير طائل . وسرت مع هذا الشيخ الذى انتخبوه لى لتوهم ومع واحد من خفرائنـا من مخيمنا عائدا الى الدير . أما السيد فون هافن – الذى كان قد أتى باصابة فى قدمه من السويس ازدادت سوءا عندما ارتقينا الجبل الذى بحثنا فوقه عن النقوش – فقد قرر أن يسير مع بقية العربان ثلاثة أرباع الساعة على الطريق المؤدية الى السويس نظرا لأن العربان قالوا ان المكان الذى أمضينا فيه الليلة ليس آمنا أو ربما كانوا يتعجلون الابتعاد بنـا عن الدير .

ويقع جبل سيناء عند الضلع الجنوبى الغربى للدير كما ذكرت من

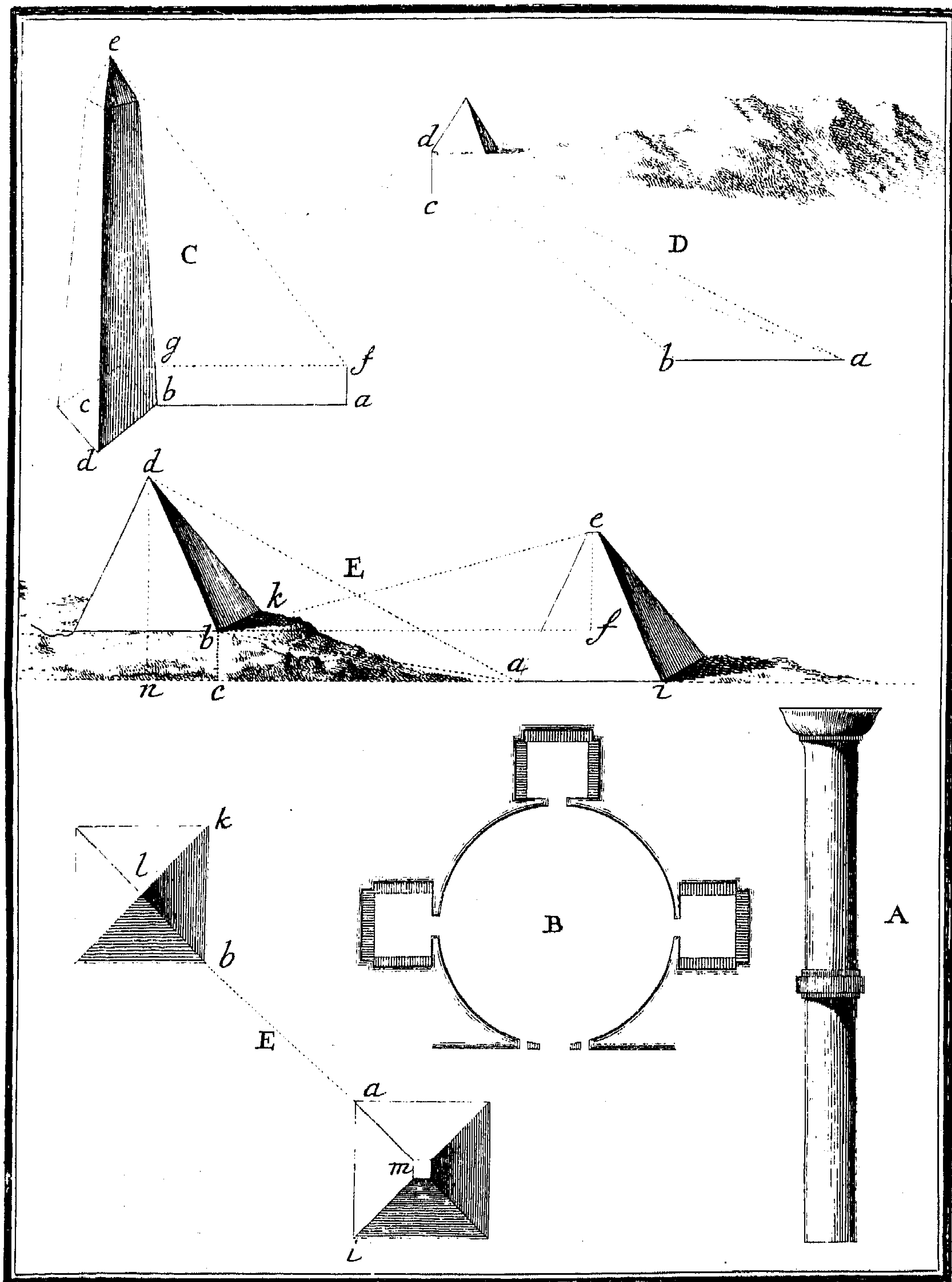
قبل . وهو شديد الانحدار ، ولا يحتمل أن يكون موسى قد ارتقاه من هذه الناحية ، الا أن اليونانيين نحتوا فى الناحية التى ينحدر فيها الصخر انحدارا يوشك أن يكون رأسيا درجا ، وصنعوا فى مواضع أخرى درجا من الحجر المنحوت ـ ولهذا فان الطريق لم تعد اليوم صعبة كل الصعوبة .

وهناك على بعد عدة مئات من الخطوات من الدير نبع جميل على الطريق فيه ماء طوال العام . ولقد هيأت الطبيعة بشىء من الفن هذا المكان فأصبح لطيفا ظريفا ، فقد امتدت صخرة كبيرة فوق النبع على هيئة السقف فهى تقى الناس فى كل وقت من حرارة الشمس والمطر . ويجد الانسان عندما يصعد بعد ذلك كنيسة صغيرة ، تلا شيخاى العربيان صلاة خاشعة ورعة أمامها ، فلما دخلنا الى داخلها قبلا صورة المسيح والعذراء مريم فى خشوع شديد على الرغم من أنهما كانا مسلمين ، ثم عادا فصليا صلاة طويلة خاشعة . ولعلهما رأيا الحجاج اليونانيين يسلكون هذا المسلك وظنوا أنهما يصنعان بى جميلا عندما يتظاهران بالصلاة الى هذه الصور . ووجدت صعوبة فى اقناعهما بمرافقتى الى أعلى الجبل ، ولم يتبعانى الا عندما رأيا اننى مصمم على الصعود بمفردى . واجتزنا بعد ذلك بابين صغيرين من البناء ، ثم دلفنا الى سهل كبير رأينا فيه بناء به مسجد وكنيسة يونانية صغيرة متجاورين . وهنا عاد الأعرابيان فصليا أمام الصورة مرة أخرى وقبلاها ، ولم يكن مرافقاى يعرفان اسم المسجد والكنيسة ، وربما امتنعا عن ذكره ،وادعيا أن تلك هى قمة جبل سيناء . ولكن بيانات السيد پوكوك تدل على أن هناك ٥٠٠ درجة بين الدير والنبع الذى سبق أن أشرت اليه ، وأن هناك ١٠٠٠ درجة أخرى من هناك الى كنيسة

العذراء مريم ، ثم ٥٠٠ درجة حتى الموضع الذى تقوم عليه كنيسة صغيرة أنشئت تكريما للنبى الياس ولا يمكن إلا أن يكون هـذا هو الموضع الذى رأيت فيه المسجد والكنيسة الصغيرة • ويعد پوكوك ١٠٠٠ درجة أخرى حتى قمة الجبل التى لم أرها • وفى السهل المذكور شجرتان عظيمتان اعتاد العربان على أن يذبحوا تحتهما الذبائح وأن يلهوا ويمرحوا فى الأعياد الكبيرة على نفقة اليونانيين • ورأيت أثناء الصعود وكذلك فوق هذا السهل بعض الأحجار عليها نقوش عربية رديئة بدا لى أنها عبارة عن أسماء متفرقة •

وأشار مرافقاى الى جبل سانت كاترينا الذى يقع من هنا ناحية الجنوب الغربى ــ الجنوب . ثم رأينا فيما بعد هذا الجبل نفسه من الطور وكان ناحية الشمال الشرقى ، وتقع الطور طبقا للأرصاد الفلكية الجيدة تحت الارتفاع القطبى ١٢َ ٢٨° • وتبلغ المسافة من الطور الى جبل سانت كاترين وجبل سيناء طبقا لأحسن بيانات الرحالة نحو ستة أميال ونصف الى سبعة أميال ألمانية • وقد ذكر شيخنا أن موضع حيلة والعقبة آو أيلة (٦١) على بعد سفر خمسة أو سبعة أيام فى اتجاه الشرق مع انحراف الى الجنوب (ولا يمكن أن يثق الانسان كثيرا فى كلام العربان فى هذه ، الموضوعات اذ أنه من المحتمل ألا يكونوا قد سافروا بعيدا عن جبل سيناء) أما أن الخليج المتجه الى العقبة ليس بالاتساع الذى نراه على خرائطنا ، فأمر أشرت اليه فى كتاب « وصف بلاد العرب » ص ٤٠٠ •

ولما لم أستطع أن أقنع مرافقى بالاستمرار فى ارتقاء جبل سيناء ،



لوحة رقم (٢٧)

ناهيك عن جبل سانت كاترينا ، فقد سلكنا سبيل العودة ووصلنا فى الساعة العاشرة والنصف الى جماعتنا . وانطلقنا بعد الظهر ، وهبطنا اليوم جبل موسى وحططنا فى وادى فاران .

ويتضح للانسان أن الجبل الذى يسميه اليونانيون سيناء لا يقع فى سهل كبير كما يظن البعض . ولا يمكن أن يستنتج الانسان أن جبل سيناء فى حديث اليونانيين ليس هو الجبل الحقيقى ، فقد كان أعرابنا يسمون هذا الجبل كله ابتداء من وادى فاران « جبل موسى » ويسمون الجزء الذى يقع فيه الدير « طور سيناء » . ويعتقد بعض العلماء الأوروبيين النابهين الذين أتيحت لهم فرصة دراسة هذه المنطقة دراسة دقيقة ، أن موسى تلقى الناموس على هذا الجبل . واذا لم يكن مخيم بنى اسرائيل قد وجد له كله فى هذا الجانب من جبل سيناء بمعناه المحدود مكانا كافيا ، فربما كانت هناك فى الجانب الآخر سهول أكبر ، أو ربما وقفوا حول جبل موسى ووقفت طائفة منهم فى وادى فاران .

وفى السابع عشر سرنا ثلاث ساعات فقط حتى مضرب خيام أسرة شيخنا من بنى زيد . وهنا تركنا خفراؤنا مرة أخرى واتجهوا الى بساتين النخيل جميعا فى وادى فاران . — وفى أثناء مرحلة اليوم أقبل علينا شاب اعرابى كان قد زار صديقا له فى بستانه وكان فى أشد حالات السكر يهذى وهو فوق ناقته ، فلما سمع أننا أوروبيون ومسيحيون ابتلى صبرنا وتهكم علينا كما يتهكم الأوروبى الأرعن عندما يكون مخمورا على واحد من اليهود . ويبدو أن البدو فى هذه المنطقة يصنعون الخمور وقد حمدت الله

على أن محمدا حرم على أمة القرآن تعاطى الخمور . واذا كان بين المسلمين فى المدن كثيرون يشربون الخمر ، فانهم يحرصون على التستر ، اما خوفا من العقاب أو خجلا من خروجهم على الشريعة . ولا أذكر اننى رأيت فيما عدا هذه المرة طوال رحلتى كلها عربيا شرب حتى السكر وسلك فى الطريق مسلكا يأباه الحياء .

ولم يعد خفراؤنا قبل التاسع عشر من سبتمبر مساء ، وفى العشرين من الشهر نفسه استأنفنا رحلة العودة على نفس الطريق التى سلكناها قادمين . وفى صباح الحادى والعشرين سبقت الجماعة لأرتقى مرة أخرى الجبل العالى الذى حلا للعربان أن يسموه لنا جبل المكتب ، ونقلت بعض النقوش كما أشرت من قبل . والتقيت فى المساء بجماعتنا عند صخرة فى سهل ورسان الذى نوهت اليه فى العاشر من هذا الشهر .

واجتزنا فى الثانى والعشرين نهارا المنطقة التى سار العربان بنا فيها ليلا عندما كنا قادمين ، ورأيت هنا فى موضع من الطريق على الجانبين صخورا شديدة الانحدار ، رأيت عليها وعلى أحجار كبيرة مقلوعة نقوشا من النوع الذى نقلته من قبل من جبل موسى ، فنزلت قافزا من فوق جملى لأتأمل الكتابات عن كثب وأنقلها ، ورأى أعرابنا فى ذلك تضييعا للوقت فيما لا طائل وراءه ، وكان السيد فون هافن يحضهم على الانتظار مستخدما تارة كلمات طيبة وتارة كلمات قبيحة ، ونقلت فى هذا الوقت القصير النقوش التى أشرت إليها بالحروف E.F.G. H. I. K. L.M.N. على اللوحتين (التاسعة والأربعين) و (الخمسين) . وكنا قد سمعنا فى القاهرة من تاجر يونانى ، ان فى ممر أم الرجلين بعض النقوش على الصخر . ولست أعرف لماذا لا يعرف العربان اسم هذا المكان ويدعون أنهم لم

يسمعوا شيئا عن النقوش الموجودة هنا على كثرة سؤالى عنها فى ذهابى وايابى • وربما لم يكن خفراؤنا يعتبرون الكتابات الموجودة هنا شيئا غريبا ، والا لاستطاعوا أن يدلونى على أم الرجلين أو الصخور التى عليها نقوش رديئة مشابهة أو جبل المكتب ، وما كنا فى هذه الحالة قد كشفنا شيئا من أمر القرافة الهامة ذات الآثار المصرية القديمة •

ويبدو أن ثمة اعتقادا بأن مطران كلوغر كان أول من لفت نظر العلماء الى النقوش الموجودة فى سيناء بنشره رحلة أحد نظار الفرنسيسكان من القاهرة الى جبل سيناء • ولكن الرحالة نايتسشيتس Neitzschitz سبقه الى الاشارة اليها فى كتابه « سبعة أعوام فى ربوع العالم » ص ١٤٥ و١٤٩ و ١٥٣ و ١٥٨ و١٦٧ • وقدم مونكونيس Monconys فى رحلاته Voyages ص ٤٤٩ وبوكوك فى اللوحتين الرابعة والخمسين والخامسة والخمسين صورا محتفرة فى النحاس لكثير منها • والمفروض ألا تكون الجبال التى وصفها الناظر الفرنسيسكانى المشار اليه فى يومياته بعيدة ناحية الجنوب الشرقى • ويبدو أن النقوش الموجودة هناك ليست أفضل من تلك التى نقلتها أنا وبوكوك ، والرأى عندى أنها لا تستحق أن يبذل العلماء الأوروبيون جهودا من أجل شرحها • وهى ليست منحوتة بيد فنان ، بل خربشها كاتبها بحديدة مدببة على السطح الخشن للصخر الذى لم أجده شديد الصلابة • هذا الى أن السطور بعضها طويل وبعضها قصير ، وليست متتالية فى استقامة بعضها تحت البعض الآخر ، وأغلبها معوج • وقد يستطيع الانسان أن يستنتج من هذه النقوش أبجدية لغتها ، ولكننى لا أعتقد أنها تحتمل معنى أكثر من أن بعض الرحالة كتبوا هنا أسماءهم كما يفعل اليونانيون الى اليوم فى الجبل المشار

اليه من قبل فى وادى ورسان • أما من يريد أن يحفظ للأجيال التـالية أخبارا فانه على الأرجح يبذل مزيدا من الجهد ، وهذه هى الحال بالنسبة للقبريات ذات النقوش الجميلة التى وجدناها فوق الجبل المشـار اليه ووصفناها ، وكذلك بالنسبة للنقوش التى رأيتها فيما بعد فى پرسيپوليس على الصخر والتى نقلتها أيضا وسـأنشر صورتها فى موضعها • وصخر پرسيپوليس صلب ، جرى اعداده قبل الكتابة عليه ، وجعلت السـطور بعضها تحت البعض الآخر مستوية ، وأبرزت الحروف واضحة جلية •

والنقش O نسخه من قبلى السيد دوناتى Donati وهو رجل ايطالى ، نقله قبل عدة شهور فى الصحراء وسلمه لمطران جبل سـيناء ، وقد ضممته الى الكتاب ، لأن الحروف الواردة به تختلف اختلافا بينـا عن الحروف التى رأيتها أنا فى المنطقة ، ولأن العالم المذكور لم يؤت حظ العودة الى أوروبا وربما لا تجد الأوراق التى خلفها طريقها الى المطبعة أبدا .

وفى الرابع والعشرين من سبتمبر ابتعدت عن القـافلة نحو خمسـة أميال الى الجنوب من السويس ودخلت وادى التيه أو الطويريق كمـا يسميه البعض ، حتى أقيس عرض الخليج العربى ، فوجدت من أرصادى وحساباتى أن هذا العرض يبلغ نحو ثلاثة أميال ألمانية ، ولكن القـاعدة التى اتخذتها هنا كانت قصيرة أيضا ولهذا لا يمكن وصف قيـاسى بأنه دقيق • وفى الخامس والعشرين عدنا الى السويس ووجدنا زميلنا فى الرحلة السيد باورينفايند قد شفى الى حـد كبير من مرضه • وكان خفراؤنا ــ الذين لم يجهلوا المد والجزر فى الخليج العربى لأن عملهم كان يقوم على تزويد أهل السويس بالماء من بئر النبع ــ قد قالوا اننا قد نضطر الى

الانتظار بضع ساعات على الشاطىء المواجه للسويس ، اذا لم نكن نريد سلوك الطريق المطولة حول طرف الخليج أو العبور فى قارب • ولما لم يكن المد ساعة وصولنا قد ارتفع كثيرا ، فقد خضنا فرع البحر شمالى السويس ، وتجاوزنا جزيرتين ونزلنا عند خراب القلزم ، فالسويس تقع الى الغرب من الخليج ، وكنا ـ أنا والسيد فون هافن ـ نركب الجمال ، أما العربان فقد ساروا على أرجلهم ، ولم تصل المياه الى ركبهم •

ولست أذكر أننى قرأت أن أوروبيا عبر البحر عند السويس على قدميه ، ولعل الأوروبيين عندما كانوا يعودون من جبل سيناء كانوا يجدون الماء عاليا ، ولم يكن لديهم الصبر للانتظار فى الصحراء بضع ساعات أخرى حتى تنخفض المياه ، خاصة وأن العبور بالقوارب كان متاحا لهم على الفور • فما ترتفع المياه بحيث يعجز الانسان عن الخوض فيها ، حتى تأتى القوارب اذا رأى أصحابها أجانب قادمين من جبل سيناء أو أعرابا يأتون بماء من النبع • ولم تكن هناك قوارب على الشاطىء الشرقى للخليج عندما وصلنا * •

(*) ولعل هذا هو الموضوع الذى كتب عنه كريستوفر فورر Christopher Fürer فى رحلته Itinerario ص ٤١ :

1565 die 27 Novembr. ante refluxum maris ego & Jacobus Bajerus partem maris rubri prope littus vado transivimus magno tamen cum discrimine vitae. Jam enim mare praeter spem citius accreverat, ita ut ante egressum aqua ad axillas usque pertingeret. Sed tamen Dei gratia sospites evasimus, pauloque post ad socios nostros in oppido Sues reversi, armamentarium urbis una perlustravimus.

وقد وصف بيترو ديللا فاللى Pietro della Valle هذه النقطة تقريبا كما وجدتها • يقول : وذهبنا الى مكان يسميه الاعراب « معدية Madie » اى موضع العبور =

وقد قمت بقياس عرض الخليج عند السويس بدقة أكبر من تلك التي أتيحت لي عند حمام فرعون ووادي التيه . فقد وضعت الاسطرلاب على الشاطئ في الناحية الشرقية من البحر ، ووجدت أن الزاوية بين قاعدتي التي بلغ طولها ٨٣ خطوة مزدوجة والركن الجنوبي الشرقي للمدينة ، في الموقع الأول ٥´ ٧٦° وفي الموقع الثاني ٥٢´ ٩٧° ، وخرجت من ذلك بأن عرض هذا الفرع من البحر الأحمر ٧٥٧ خطوة مزدوجة أو على وجه التقريب ٣٤٥٠ قدما . والمد عند السويس يغمر بعض الجزر أما الجزر العالية فلا يصل اليها المد مهما ارتفع .

وهذه المنطقة لها أهمية فيما يتصل برحلة بني اسرائيل ، ولهذا وجدت من الضروري أن أرسمها بأكبر دقة تتاح لي ، ولم أنشر هنا اللوحات التي رسمتها لأنني ضمنتها من قبل كتابي « وصف البلاد العربية » حيث يرى القارئ على اللوحة العشرين رحلتنا من القاهرة الى السويس ، وعلى اللوحة الثالثة والعشرين مسارنا حتى جبل سيناء ، وعلى اللوحة الرابعة والعشرين خريطة طرف الخليج العربي ومدينة السويس . وقد أعددت اللوحتين الأوليين على أساس الملاحظات التي دونتها أثناء رحلتي . ولم أتعرض في أثناء اعدادهما لخطر كثير ، لأنني كنت

=

به بعض الزوارق للعبور بأولئك الذين يريدون الذهاب الى السويس ، وهي تقع على الشاطئ الآخر للبحر ، الشاطئ الغربي الذي يدخل في نطاق مصر ــ واذا كان الانسان يريد الانتقال بطريق البر فعليه ان يسير عددا لا اعرفه من الأميال الى طرف الخليج والدوران حوله . ولا يزيد عرض هذا المكان بطريق البحر على البعد بين رصيف نابلي وبوسيليب . وهكذا نزلت مع خدمي وامتعتي الى زورق وعبرت هذا البحر بطريقة اخرى غير طريقة العبرانيين ــ وسارت الجمال بطريق البر ولم اشغل بالي بموعد وصولها .

فى قافلة وكنت مطمئنا آمنا • أما اللوحة الأخيرة فقد تطلب منى رسمها أن أجازف بالخروج خارج المدينة سيرا على الأقدام ، وبالتعرض لخطر الالتقاء فى هذه المنطقة ببعض العربان الهائمين على وجوههم ، والتعرض بالتالى لخطر النهب كما لو كنت فى بطن الصحراء • ولقد تعبت أشد التعب فى البحث عن أعرابى يرضى بأن يتبعنى ، وأخيرا وجدت شابا رافقنى • وسرنا ذات يوم من السويس على الخط F المبين على اللوحة الرابعة والعشرين فى ناحية البحر الغربية ، سعيا للوصول الى أسفل جبل عتاقة ، ولكن الطريق طالت بى فانحرفت شمالا الى بير السويس وعدت من هناك الى المدينة • وذهبنا فى يوم آخر من السويس الى الطرف النهائى للخليج العربى ، وعدنا الى المدينة فى قارب مع العربان الذين كانوا يحملون الماء من النبع • وكان مرافقى الأعرابى يخاف أشد الخوف عندما يلمح انسانا عن بعد واتضح لنا أن أولئك الذين كنا نخشى أن يكونوا أعداء لنا ، كانوا هم أيضا يخشوننا أشد الخشية • ولقد بدا لى أحد الأعراب رأيناه عن بعد على ظهر ناقته ، وكأنما كان يسير فى الهواء على ارتفاع أعلى من الكنيسة • ولقد كان ذلك المنظر ظاهرة غريبة جدا بالنسبة الى فى البداية، ثم تبينت أن السبب فى ذلك هو انعكاس الأشعة ، فقد كانت ناقته تسير به على الأرض مثله مثل غيره من الناس • وفيما بعد رأيت فى المناطق الجافة عدة مرات ظواهر من هذا النوع ومعنى هذا أنها ليست من الأعاجيب • وأيا كان الأمر فقد أخذت الملاحظات اللازمة لرسم خريطة الطرف النهائى للخليج العربى ، ورأيت على الأقل من هذه المنطقة أكثر مما رأى أى أوروبى آخر • وتتضمن (اللوحة الحادية والخمسون) منظرا لمدينة السويس رسمه السيد باورينفايند •

وقد لاح لى فرع الخليج عند السويس ضيقا جدا ، بالقياس الى الخليج نفسه ، بحيث لا يمكن أن يكون الله قد اختاره ليغرق فيه فرعون وجيشه كله ، ولهذا لم تخطر ببالى أثناء اقامتى فى السويس فكرة أن بنى اسرائيل يمكن أن يكونوا قد مروا خلال البحر الأحمر عند القلزم ، ولهذا فاتنى أن ألاحظ الساعة التى خضنا فيها البحر عند عودتنا من جبل سيناء . ولكننى بعد أن درست خرائطى التى صنعتها لهـذه المنطقـة دراسة دقيقة ، وقرأت كذلك بعض المؤلفين الآخرين الذين كتبوا عن هذه الواقعة ، أصبحت أعتقد أنه لا يمكن أن يلتمس الانسان موضع عبور بنى اسرائيل فى منطقة غير هـذه ، وعبرت عن هـذا الرأى فى كتـابى « وصف البلاد العربية » ص ٤٠٤ . وأرجو أن يقوم الرحالة فى المستقبل بدراسة دقيقة لهذه المنطقة التى يستطيع الانسان أن يخوض فيها البحر عند خراب القلزم . وقد ضمنت ملاحظاتى عن المد والجزر فى الخليج العربى كتاب « وصف البلاد العربية » ص ٤٢١ .

أما القناة التى كانت تربط النيل ــ وبالتالى البحر المتوسـط ــ بالخليج العربى ، فلم أستطع جمع أخبار أكيدة عنها ، ولم أستطع علاوة على ذلك العثور على أعرابى واحد يرضى بمرافقتى عدة أميال الى هذه المنطقة ، لأنها فى زعمهم مكمن أعراب غلاظ عتاة . ولم أر فى هذه الناحية من السويس شيئا من هذه القناة الا أن يكون الوادى الطويل الضيق بين بير السويس والمدينة المسماة مسبيحة أو دعيسره جزءا تبقى منها . ويتجمع فى هـذا الوادى بعد هطول الأمطار ماء كثير ، يأتى أهـالى المدينة ليغترفوا منه ، فاذا جف الماء نمت هنا بعض الحشائش .

الرحلة من السويس الى جدة

أكتوبر ١٧٦٢

وبينما كنا قائمين برحلتنا الى جبل سيناء وصلت قوافل صغيرة مختلفة الى السويس ، وقد اعتاد أغلب التجار والحجاج الذين يفكرون فى السفر الى جدة بطريق البحر ، أن يقوموا من القاهرة ــ قبل رحيل السفن من القاهرة بقليل ــ مكونين قيروانة كبيرة • وقد وصلت هذه القيروانة الكبيرة فى التاسع والعشرين وتحولت السويس نتيجة لها فجأة الى مدينة أكثر اكتظاظا بالسكان من القاهرة اذا أخذنا فى الاعتبار سعتها . وعلى الرغم من أن أحدا لا يتحدث عن وجود قراصنة فى الخليج العربى ، فقد جرت العادة على أن تسير السفن على البحر على هيئة تشبه القافلة • وهكذا كان المقرر أن تنطلق الآن أربع سفن فى وقت واحد ، وربما كان السبب فى ذلك اتاحة الفرصة لتكوين قيروانات أكبر تسير من القاهرة الى السويس ، وتستطيع لهذا أن تدافع عن نفسها على نحو أفضل ضد العربان ــ وربما كان الناس يخافون من البدو المقيمين فى منطقة الطور الذين قاموا مؤخرا بنهب سفينة منفردة وصلت الطور ، على ما ذكرت فى موضع آخر •

ويستأجر المسافرون أماكن معينة على المراكب ، وكنا قد أتينا من بعض التجار بالقاهرة بخطابات توصية الى ريسين ، ونظرنا الى ما عرضاه علينا ، واستأجرنا القمرة العلوية على السفينة الكبرى لنا وحدنا حتى نستطيع الحياة منفصلين عن المسلمين • وكنا قد سافرنا مع المسلمين بطريق البر والبحر من قبل ، واعتدنا على التعامل معهم ، ولكننا لم نكن نخشى شيئا قدر خشيتنا الرحلة الوشيكة من السويس الى جدة لأننا كنا نعتقد حتى ذلك الحين أن المسلمين لا يعتبرون المسيحيين جديرين بسلوك هذه الطريق التى يعتبرونها مقدسة • ونبهنا اليونانيون الى أننا لا يصح ، لهذا السبب ، أن نسير على السفينة ونحن نلبس فى أرجلنا أى شىء حتى الشبشب • وكنا اذا خرجنا من قمرتنا ، أشاروا الينا على الفور انه ينبغى علينا أن نخلع النعال • على أننى لا أعتقد أن السبب فى ذلك هو ما أشرت اليه ، بل اعتقد ان السبب هو أن المسلمين يعتبرون سطح السفينة كله بمثابة حجرة ينبغى على كل انسان أن يخلع فيها نعله • وكان هناك فوق السفينة كثير من الحجاج البسطاء الذين كانوا ينظرون الى المسيحيين نظرة التحفز والغضب التى ينظر بها الرهبان الفرنسيسكان المتعصبون الى من يعتبرونهم كفارا ملحدين وهم مسافرون للحج الى القدس •

ولما لاحظ المسلمون خوفنا ، ظهر من بينهم من وجدوا متعة فى الاستهزاء بنا ، يدفعهم الى ذلك ما يدفع عامة المسيحيين كثيرا الى الاستهزاء باليهود ، عن علم من العامة بأن اليهودى لا يجوز له أن يرد ، وأن عقلاء المسيحيين لا يتدخلون لحماية اليهودى طالما لزم العامة حدود التمتع

بالضحك منه ولم يتجاوزوا ذلك الى ما هو أشد حدة وخطرا . والحق أننا كنا فى أثناء هذه الرحلة سيئى الحظ من هذه الناحية ، ولكننا مع ذلك كنا سعداء بقمرتنا الكبيرة التى اتخذناها لنا وحدنا والتى لم يكن لأحد أن يدخلها ضد رغبتنا . وكنت أنا بالذات مرتاحا غاية الراحة أجرى أرصادِى الفلكية منها لا يكاد يلحظنى أحد ، والحق أن سفينتنا كانت تتجه جنوبا ولكنها كانت فى أغلب الوقت تنحرف الى الشرق بحيث سهل على رؤية الشمس فى دائرة خط الزوال عندما أقف فى ممر الحرس . وكانت السفينة عند القـاء المراسى توجه مؤخرتهـا الى الجنوب بسبب الرياح الشمالية المستمرة .

وكانت سفينتنا مكتظة بالناس والبضائع . احتلت القمرة السفلية الكبيرة جماعة من النساء والجوارى تزيد على الأربعين معهن عيالهن . واحتل المكان المقابل لقمرتنا طواشى أسود غنى مسافر الى المدينة المنورة ، والغريب أنه كان يتخذ له حريما مثل وجهاء الأتراك . وكان كل واحـد من التجار قد احتل الموضع الذى استأجره لنفسه على سطح السـفينة وأحاطه بالصناديق والأمتعة ، ولم يدع لنفسه فى وسطه الا مساحة ضيقة يدبر أمر حياته فيها ، ويعد القهوة ، ويطبخ الأرز ، ويدخن التبغ ويقعد وينام . ولم يكن ظهر السفينة هو وحده الذى ازدحم بالناس والبضائع ، بل لقد ربطت الى السفينة من الخارج جرار كبيرة وأحمال خفيفة . ولما كانت هذه السفن لا تقوم فى العام الا برحلة واحـدة من السويس الى جدة فقد كان حظ بحارتنا جميعا من الدربة رديئا كل الرداءة ، ولم يكن لديهم فوق السفينة مكان كاف للعمل . فاذا أرادوا ضم القلوع أنزلوا

عارضة الصارى ، واضطر البحارة ـــ وكان أغلبهم من اليونانيين ـــ الى الجرى فوق أمتعة المسافرين ، وكثيرا ما نشب الشـجار بين البحـارة والمسافرين لهذا السبب • أما ريس سفينتنا ـــ واسمه شريبة ـــ فكان تاجرا من تجار القاهرة ، ولم يكن يفهم فى فن ادارة السـفن الا أقل القليل • وكانت ادارة السفينة موكولة فى الحقيقة الى مرشديه اللذين اتخذا مكانهما فى أقصى مقدمة المركب حتى يكون فى مقدورهما الملاحظة على خير وجه ورؤية الصخور المتوارية تحت المياه قبل الارتطام بها ، وكانا يظنـان أنهما أكثر مهارة ونباهة من الملاحين الأوروبيين الذين يبحرون دائما فى عرض البحر بينما هما يبحران قريبا من البر بين السويس وجدة ويلتمسان الطريق بين الصخور الكثيرة فى الماء • ولم تكن القوارب موضوعة فوق سطح السفينة كما هى الحال عند الأوروبيين بل كانت كلها مربوطة الى مؤخرة السفينة ، ولم تكن لسفينتنا الكبيرة ـــ التى كانت تتسع لأربعين أو خمسة وأربعين مدفعا ـــ الا أربعة قوارب لا أكثر ، أكبرها له شراع يسـيرها والثلاثة الباقية قد ربطت الى السفينة لتجرها على الدوام ، وكانت القوارب كلها ، باستثناء أصغرها ، محملة بالركاب والخيول والغنم وبعض النسـاء من العامة الساعيات الى مكة للعودة بلقب « حاجة » ، أو اللاتى كن يكسبن قوتهن أثناء الرحلة • ومن حسن الحظ أن الريح فى الخليج العربى منتظمة مستمرة ، ولو لم تكن كذلك لما علمت هل يجوز للانسـان أن يجازف بالسفر على هذه السفن فى مثل هذه الظروف •

ولو كنا قد اتخذنا سفينة أوروبية فى رحلتنا لمـا كان علينا أن نسرع بالركوب كما أسرعنا ، ولكن الصناديق والبالات كانت تتـأهب لشـغل

سطح المركب كله ، ولهذا طلعنا فوق سطح المركب فى الخامس من أكتوبر حتى لا ينشب نزاع بين الركاب المسافرين وبيننا اذا ما مررنا بأمتعتنا من أمامهم • ودفعنا أجرة السفر من السويس الى جـدة كاملة بعد أن تم الاتفاق مباشرة ، وكان علينا أن ندفع أيضا على الفور وهبة الملاحين قبل أن يرفعوا أدنى شيء من أحمالنا وقد اندهشنا لهذا أكثر من اندهاشـنا لمطالبة الملاحين بأجرهم كاملا مقدما ، وكان علينا على أية حال أن نتبـع عادات البلاد • والحق يقال اننا لم نجد فيما بعد سببا للشكوى ـ وهناك فى بلاد الشرق وفى البلاد الأوروبية على السواء ركاب يعدون باعطاء وهبة عظيمة فى نهاية الرحلة فاذا انتهت الرحلة لم يعطوا شيئا ـ ولهـذا فان البحارة هنا يتقاضون الوهبة مقدما ولا يطالبون الركاب عند وصـولهم الى جدة بشيء آخر •

وفى اليوم السادس واليوم السابع من أكتوبر ركب غالبية التجار السفينة، ورصدت فى هذين اليومين ارتفاع الشمس فى الزوال ووجدت أن الارتفاع القطبى لسفينتنا هو ٥٥َ ٢٩° فى ميناء السويس ، أما عمق الماء فـكان ٤ ١/٣ قامة (٦٢) • ولم يأت ريس المركب ـ وهو القمندان ـ الا فى الثامن من الشهر ، ولم يكن ثمة مانع من الابحار الا التقليد المتبع بأن يأتى سنجق من السويس للتفتيش على السفن المبحرة جميعا ليرى هل زادت حمولتها عن الحد ، أو على الأحرى ليتلقى الأموال التى رصـدت مقابل هـذا العمل • وتم هذا فى صباح يوم التاسع • وما برح السنجق السفن حتى نشرت قافلة السفن القلوع وأبحرت فى رحلة تجريبية لمدة ساعة ونصف الساعة الغرض منها التأكد من سلامة شحن السفن ، ثم ألقينا براسـينا

بعد ذلك فى مياه عمقها ١٤ قامة ، وأمر الريس بنقل البضائع من هـذا الجانب الى ذلك فى كل سفينة حتى يسهل عليه الابحار طبقا لتصوره .

وليس فى المنطقة بين السويس و غرندل تحت الماء ما يخشاه البحارة من صخور ، ولهذا تحركت السفن جميعا فى العاشر من الشهر بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، ووصلنا الى ناحية غرندل قبل الظهر ، ولما لم تـكن السفن معتادة على السير الى أبعد من هذا فى اليوم الأول ، فقد ألقينـا مراسينا غير بعيد عن الشاطىء فى مياه عمقها ١٣ قامة تحت ارتفاع قطبى قدره ١٠َ ٢٩° . وذهب السـيد فورسـكال والسـيد كرامر الى البر ليشاهدوا حمام فرعون (انظر الباب السابق) الذى يقع جنوبى هـذه المنطقة ـ ولكنهما وجدا الطريق نائية فعادا أدراجهما قبل الوصول الى الهدف . والجزء من الخليج العربى الذى يسمونه بركة فرعون ، والذى كنا نتأهب لاجتيازه ، أعرض من الخليج بين السويس و غرندل ، ولكنه لا يتسم بشىء من خطورة فى هذا الوقت من العام بالنسبة للمسـافرين المتجهين الى الجنوب . ولهذا رفعنا المراسى بالليل فى السـاعة التاسـعة وأبحرنا طوال الليل .

وفى اليوم الحـادى عشر رأينا الكثير من الشـعاب المرجانيـة ، لو هبت ريح معاكسة لما سلكنا سبيلنا بينها الا فى خطر شديد . ولكن الريح هبت مواتية ، فوصلنا فى الساعة الثالثة بعد الظهر عند الطور الى صخرة أو الى ما يسمونه بالشعاب المرجانية التى لا تنحسر عنهـا الميـاه الا بقدر ما يغمرها عند أدنى درجات الجزر ، وألقينا مراسينا حيث كان عمق المياه ٦ $^2/_3$ قامة . وهناك على الطرف الأقصى لهذه الشعاب علامة بارزة من



لوحة رقم (٢٨)

الحجر لتنبيه البحارة . والساحل هنا كله ملىء بالشعاب المرجانية . ويبلغ عرض البحر هنا فى تقديرى الجزاف بين ٥ و ٦ أميال ألمانية ، وتتجه ابرة البوصلة من السويس الى الطور تقريبا ما بين الجنوب والجنوب الشرقى أو الجنوب الشرقى بانحراف الى الجنوب . ويمتد الجبل الكبير ــ الذى يقترب من البحر اقترابا شديدا ابتداء من حمام فرعون ويظل هكذا بصفة توشك أن تكون دائمة ــ الى داخل البر على مسافة ساعة ونصف ســاعة شمالى الطور ، ثم يميل بعد ذلك جنوبا وتظهر منه ناحية البحر ســهول كبيرة ذات تلال حتى رأس محمد . وكان الارتفاع القطبى لمكان رسونا ١٢´ ٢٨° على ما تبينته من رصدين دقيقين . ويقع جبل سانت كاترينا ــ الذى يظهر من هنا أعلى من الجبال المحيطة ، أى أعلى من جبل سيناء ــ الى الشمال الشرقى.وقد رسم السيد باورينفايند المنظر وتتضمنه (اللوحة الحادية والخمسون) .

وتحيط بميناء الطور قرى صغيرة مختلفة : قلعة الطور وكانت فيما مضى قلعة ثم تهدمت ولم يعد بها منذ أعوام كثيرة جنود ــ وبلد النصارى ويقيم فيها يونانيون فقط وقد اتخذ رهبانهم ديرا فى هــذه المنطقة التى يــدعون أن بــلدة ايليم كانت بها ــ . وقرية الشـــادليه التى تقــع متاخمة لبلد النصارى ويسكنها المسلمون . ويعيش هؤلاء المســلمون وكذلك اليونانيون على صيد الأسماك خاصة . أما البير ــ البئر التى تأتى منها السفن بالماء ــ فقريبة من مكان الرسو . والماء الذى يأتون به منها أفضل من ماء نبع السويس ، ولكنه ليس أفضل من الماء الذى يأتى به الأعراب من المناطق الجبلية الى هنا على ظهور الجمال فى الوقت الذى

ترسو فيه السفن هنا • وتمتاز قرية الجبيل بأن المرشدين الذين يرشدون السفن من السويس الى جدة والعكس يقيمون جميعا فيها • ويتلقى المرشد لقاء رحلة من هذا النوع ٥٠٠ تالر بخلاف الوهبة وما يربحه من صبيانه ، وهم شباب يركبون السفن ليتعلموا فن الملاحة أو على الأصح ليعرفوا علامات الأرض وأماكن الشعاب المرجانية •

وقد رسمت فى (اللوحة الثانية والخمسين) خريطة للمنطقة حول الطور لم أتبع فيها الا ما رأيته بعينى وما حكاه لى البحارة ، أى لم أقمها على قياس هندسى • ولو اننى سعيت هنا الى القيــاس لتعرضت لخطر محقق • وكان السيد فورسكال هو الوحيد الذى وصل من مجموعتنــا الى الطور والى البير ، ولم يجد فى بلد النصارى الا قسيسا واحــدا أحاطه فى بيته بلطف كثير وأرسل معه بعض الرجال الى مكان ايليم فيمــا يظنون حيث وجد كثيرا من بساتين النخل بعضها يمتلكه المسلمون وبعضها يمتلكه اليونانيون • وقد أحدث غيابه الطويل ضجة بين العرب ، وسمع بذلك بعض انكشارية القاهرة فقرروا أن يبحثوا عن هذا الأفرنجى الذى نزل الى البر ليرسم جبالهم ، وأن يوقفوه عنــد حــده • وأسرع هؤلاء الانكشارية الى بلد النصارى فالتقوا بالسيد فورســكال وهو فى طريق العودة فعادوا به من فورهم الى ظهر السفينة آمنا • ولو كان هذا الموقف عندنا وكان المتوغل فى الأرض رجلا يهوديا فهل كان مثل هذا العــدد الكبير من المسيحيين سيفعل ما فعل الانكشارية ويذهب مسافة نصف ميل الى الرجل اليهودى الذى لا يعلمون من أمره أكثر مما كان الانكشارية يعلمون من أمر زميلنا لنجدته من خطر محدق ؟ والحق أننى لم أكن أتوقع

هذا من الأتراك ، بل كنت أستبعد أن يفعله الانكشارية . الا أن هؤلاء الناس كانوا فى الوقت نفسه تجارا عقلاء ، وكانوا معتادين على معـاملة الأمم الأجنبية ، فرأوا أن من واجبهم أن يحمونا وقد لجأنا من حيث نحن أجانب الى جماعتهم نستظل بأمنها .

وبعد أن أخرجتنا فى الرابع عشر من سبتمبر فى الصباح البـاكر ريح قارية من ميناء الطور ، أبحرنا ناحية الجنوب أولا ، ثم ناحية الجنوب الشرقى بعد ذلك بين الشعاب المرجانية بصفة مستمرة تقريبا . وألقينا مراسينا عصر اليوم عند رأس محمد — والبعض يقولون رأس محمود — وكان عمق الماء ١٠ قامة ، وكان الارتفاع القطبى لسفينتنا على أسـاس رصـد ارتفاع نجمين ٥٤´ ٢٧° ، وقد لا يكون تقديرى للارتفاع القطبى دقيقـا تماما لأن الأفق كان يشوبه شىء من الظلمة ، الا اننى أرى على أية حال أن تقديرى هذا يصلح لاصلاح الخرائط البحرية بكل تأكيد . والبحر هنا أكثر اتساعا منه عند الطور . ويمتد الساحل مسافة الى الجنوب ثم يتحول الى الشرق مع الذراع الثانية للخليج العربى المتجهة الى العقبة . وكنا حتى هذا الحين قد سرنا بصفة دائمة قريبا من البر ، وكنا نلقى المراسى فى المساء . أما فى المسافة بين رأس محمد والسـاحل العربى فقد أصـبح علينا أن نتعود على البحر الكبير الواسع أياما وليالى . وعلى الرغم من أن أى أوروبى سيجد أن هذه الطريق هى أكثر مراحل الرحلة بين السويس وجدة أمنا لأنها خالية من الصخر ومن الشعاب المرجانية ، الا أن المسلمين كانوا يخافون منها كل الخوف لأن أعينهم لم تر الأرض خلالها ، وكأنى بهم يفضلون أن يبحروا من رأس محمد الى جزيرة تيران ، ومنها الى الساحل

العربى ، وانما منعنا عن هذا الطريق الأمل العظيم فى أن تصاحبنا ريح مواتية عندما نسلك الطريق المستقيمة • وكانت الريح حتى ذلك الحين شمالية تنحرف الى شمالية غربية ، وكان فى مقدورنا أن نبحر بها الى الميناء الذى كنا نقصده •

كان الارتفاع القطبى فى الخامس عشر ظهرا ٢٩َ ٢٧° • وكنا فى الضحى قد مررنا بجزر سفانى البحر ، وأصبحت جزيرة شدوان الى الغرب منا على بعد أربعة أميال ألمانية أى أنها كانت تحت الارتفاع القطبى نفسه • أما جزيرة تيران — أمام بحر العقبة أو أمام الخليج الأيلاتى — فكانت على بعد خمسة أميال ألمانية تقريبا ناحية الشمال الشرقى (بعد اسقاط انحراف الابرة المغناطيسية) وتحت ارتفاع قطبى قدره ٤٣َ ٢٧° • وفى السماء رأينا عند الغروب الساحل المصرى ولم نر من البلاد العربية شيئا •

وفى السادس عشر من أكتوبر كان ارتفاعنا القطبى ظهرا ٩َ ٢٦° • ورأينا عند الغروب — تحت ارتفاع قطبى قدره ٥٤َ ٢٥° تقريبا — جبل الزمرد على الساحل المصرى ذلك الجبل الذى كثيرا ما تحدث عنه المؤلفون اليونانيون والعرب القدامى • وقد حسبت متوسط اتجاهاتنا على أساس بوصلتى ، فوجدت أننا أبحرنا من رأس محمد الى هنا فى اتجاه بين الجنوب — الجنوب الشرقى تقريبا • ولم يكن بحارتنا حتى عند هبوب أجمل ريح يلتزمون بخط واحد طوال الوقت • وكان الريس يضع بين بوصلتيه ، فى المكان الذى يضع فيه الأوروبيون الضوء عادة ، قطعة كبيرة من حجر المغناطيس ظنا منه أن تلك وسيلة تحول دون فقدان البوصلتين

قوتهما ، لأنه سمع أن هــذا الحجر يعيد الى البوصلات الضعيفة قوتها • ومن هذا التصرف نستنتج أمورا منها قلة معلومات البحارة هنا .ولكن الريس عندما سمع أن وضع الحجر فى هذا الموضع يمكن أن يضلل البوصــلتين اقتنع بسهولة وأبعد الحجر •

وفى السابع عشر تهيأت لرصــد كســوف شمسى من ممر الحراس الصغير خلف قمرتنا • ورأيت بالفعل نهاية الكسوف بمنظارى الجيد الذى يبلغ طوله أربعة أقدام وفى الوقت المعلوم ٣٨″ ٠′ ١٢° • والحق أن حركة السفينة كانت هينة ، ولكنها كانت كبيرة بحيث صعب على أن أحدد الطول خاصة واننى كنت فى اللحظة نفسها أرصد الارتفاع القطبى وأســتخدم الثمانية تارة والمنظار تارة أخرى • وكان ارتفاعنا القطبى فى ذلك الوقت ٣٣′ ٢٥° ، وكنا بعيدين عن الساحل العربى لا نرى منه بوضوح الا جبل الغراب • وكنا فى الساعات الأربع والعشرين الماضية نســير فى اتجاه بين الجنوب والجنوب الشرقى •

وكان السيد فورسكال قد قال لريسنا من قبل بأن كسوفا سيحدث اليوم ، وسودت بعض قطع الزجاج وأعطيتها للسيد فورسكال حتى يمكن الريس وكبار التجار من رؤية هذه الظاهرة ، وكان هدفى من وراء ذلك استمالة الريس حتى نستطيع اجراء الأرصــاد فى سلام آمنين • وقد سر الريس والتجار بذلك سرورا بالغا • ويعتبر المسلمون الذين يستطيعون التنبؤ بالكسوف من العلماء العظام فى الشريعــة وفى أمور الدنيــا على السواء ، بل يعتبرونهم أيضا من الأطباء المهرة • فلما حدث الكسوف الذى

تنبأ به السيد فورسكال اعتقد المسلمون أنه لابد أن يكون طبيبا عظيما أيضا • واذا بالأمراض تظهر عليهم فجأة ، وأخذ كل واحد منهم يطلب دواء يشفيه من دائه ، وأخذ الطبيب الجديد يصف لهم خير ما تعالج به عللهم • وكان يوصي غالبيتهم بأن يزيدوا أو يقللوا من نومهم ، وبأن يتناولوا أطعمة أفضل وأيسر • وأخيرا شكا أحد الحجاج من أنه لا يرى بالليل ، فنصحه بأن يضيء نورا بالليل ! وقد أثارت هذه النصيحة الكثير من الضحك ، واذا بمن كانوا لتوهم مرضى يشفون بهذا الضحك من أسقامهم • وليس اعتقاد المسلمين بأن الأوروبي الذي يتعامل معهم على علم واسع هو الذي يقربه الى قلوبهم في كل الأحوال ، انما يقربه من قلوبهم اتباعه لتقاليدهم وعاداتهم • ولقد اتخذ السيد فورسكال بعلمه القليل في الأدوية أصدقاء بين العرب أكثر مما قد يتاح لبعض الأطباء العظام •

وفي الثامن عشر من أكتوبر كنا ظهرا تحت ارتفاع قطبي قدره ٤َ ٢٥° وكان جبل حوانه على الساحل العربي في اتجاه الشرق يميل الى الشمال على بعد خمسة أميال تقريبا ، أي أن ارتفاعه القطبي كان ٥َ ٢٥° • وكان اتجاه سيرنا العام في الساعات الأربع والعشرين الماضية وكذلك التالية هو الجنوب الشرقي بانحراف الى الجنوب • وفي التاسع عشر ظهرا كان ارتفاعنا القطبي ٤٠َ ٢٤° • وكانت كبرى جزيرتي حساني التي تقع الى الجنوب والتي اعتادت السفن الآتية من رأس محمد أن تلقى عندها مراسيها على بعد ثلاثة أميال ونصف شمالنا ، ومعنى هذا أن الارتفاع القطبي لحساني ٥٤َ ٢٤° • واتجهنا بعد الظهر بقليل ناحية الساحل حول شعابه مرجانية كبيرة ورسونا عند مهر • واستدعى ريسنا على الفور أحد

الأعراب رآه يسير على الشاطىء وسأله هل بين قبـائل المنطقة حرب أم سلام • ووصلت اليوم أيضا احدى السفن التى كانت قد انطلقت معنـا من رأس محمد ، أما السفينتان الباقيتان فلم تستطيعا اتباعنا •

ولما كانت الريح قد هبت علينا مواتية دائما فقـد نجونا من الخطر الذى كان يمكن أن يحيق بنا والذى كان محتملا كل الاحتمال • فقـد جنحت فى العام الماضى فى هذه الناحية سفينتان من ثلاث سـفن أبحرت من السويس متأخرة قليلا • وكان من بين ركاب سفينتنا عدد من المسافرين الذين كانوا فوق السفينتين الجانحتين ، وقد حكوا أن عاصفة هبت عليهم عندما كانوا غير بعيدين عن حسانى ، فحدث اضطراب كبير على السفينة ، وقفز الى القوارب الركاب والقائمون بأمر السفينة ، وذهبوا الى البر ، ومن هناك رأوا السفينة الأولى ترتطم بصخرة وتجنح • ثم هدأت الريح قرب حلول المساء ، ورأى الناس عند مطلع اليوم التالى السفينة الثانية تتحرك فوق الأمواج ، وقرر الريس أن يعود الى السفينة بملاحيه ، ولكن السفينة غرقت قبل أن يتحرك الريس وملاحوه من البر • أما الريس الثالث فقد قام بواجبه على نحو أفضل ، فما أن أحس بأن ملاحيه قد يهربون منه ، حتى أمر عند ظهور أول بوادر الاضطراب بحل الأحبال التى تجر بها السفينة الكبيرة القوارب وراءها • وتعرض الريس فى البداية نتيجة لذلك لخطر الموت على يد الركاب الذين كانوا يرون فى هذه القوارب وسيلة النجاة الى البر • ولكنه أوضح لهم مخلصا الخطر الذى تتعرض له السفينة اذا خلت من ريس، وأكد لهم أنه يرجو أن ينقذ حياتهم وبضائعهم أيضا ، لا يريد لذلك الا أن يتيحوا له ولرجاله مكانا للعمل ، فخـلد الركاب الى الهـدوء وقرروا أن

يساعدوه ، وأفادوا من ذلك ان رحلتهم بلغت غايتها سعيدة موفقة •

ولقد أوشكت كارثة أن تحيق بنا فى المسافة بين رأس محمد وحسانى ، أكبر من كارثة الغرق ، فقد أدى اهمال النساء فى القمرة السفلية ــ وكن يسببن لنا الازعاج المستمر بشجار وصراخ لا ينتهى ــ الى اشتعال النار مرتين فى بعض قطع القماش مما هدد السفينة كلها بالحريق ، لو لم تكن لأصوات النساء قدرة عظيمة على طلب النجدة مثل القدرة على الصراخ والشجار • فلما اشتعلت النار للمرة الثانية بدا الخوف على المسلمين ، وأرسل الريس واحدا من عماله بعصا جيدة الى الحريم ، وتعالت الأصوات فى البداية مكونة موسيقى فظيعة ، ثم حل الهدوء والسكينة ، ولم يسمع أحد صوت النساء طوال أربع وعشرين ساعة !

ولما كنا فى رأى الأتراك قد تجاوزنا الرحلة المخيفة من رأس محمد الى حسانى فقد شاعت الفرحة فى كل مكان ، وأطلقت المدافع بعض الطلقات ، وزينت السفن بالمصابيح والفوانيس ، وتوالت طلقات البنادق والمسدسات تعبيرا عن الفرح حتى منتصف الليل ، وأطلقت النساء الزغاريد وهى صيحات الفرح المعروفة بين النساء الشرقيات لو لو لو لو ! وطلب المرشد لقاء خدماته الكبيرة وهبة من جميع الركاب ، وطلب الملاحون شيئا قليلا هم أيضا فى مقابل الجهود التى بذلوها عندما ظلوا طوال الليل يقظين • وصنع الملاحون سفينة صغيرة كتلك التى يصنعها الصبية عندنا للعب ، وساروا يجمعون فيها الوهبة ثم ألقوها بعد ذلك فى البحر • ولم يكن ما جمعوه من المال كثيرا ، فقد ترك لكل انسان أن يدفع ما تجود به نفسه •

ملاحظات و تعليقات

١ ــ يوهان داڤيد ميشائيليس Johann David Michaelis

(١٧١٧ ــ ١٧٩٧) مؤسس المنهج التاريخى النقدى فى تفسير الكتاب المقدس وأستاذ الاستشراق بجامعة جوتينجن ، يعتبره مؤرخو الاستشراق من أصحاب الاتجاه التقليدى الذى كان يحصر الاستشراق فى مجال خدمة تفسير الكتاب المقدس ، ويوجهون اليه اللوم على تنكره للمستشرق العظيم يوهان ياكوب رايسكه الذى كان زميلا له فى الدراسة . ويرجع الفضل الى ميشائيليس على أية حال فى ارسال بعثة كارستن نيبور الى البلاد العربية . وعلى الرغم من أن معرفة ميشائيليس باللغة العربية كانت محدودة فقد نشر كتابا لتعليم اللغة العربية وكتبا فى اللغة السريانية والعبرية . وجاء فى « المستشرقون » لنجيب عفيفى ص ٦٩٤ : « ونشر من تقويم البدان لأبى الفداء ذكر ديار مصر (جوتينجن ١٧٧٦) ومنتخبات من اخوان الصفا » .

أما المستشرق يوهان ياكوب رايسكه Johann Jakob Reiske

(١٧١٦ ــ ١٧٧٤) الذى لجأ اليه كارستن نيبوز فى مراجعة النصوص

التي وجدها على بعض القناطر فى مصر . فيعتبر — على رأى يوهان فوك — مؤسس المدرسة الجديدة فى الاستشراق التى تفصل بين دراسة اللغة العربية وآدابها وموضوعات تفسير الكتاب المقدس . وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول الى كرسى أستاذية باحدى الجامعات فقد كان كثير الانتاج فى أدب اللغة العربية وفى الحضارة العربية عامة . نشير من بين أعماله التى تتصل بموضوع الرحلة هنا الى : « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفدا ، متنا وترجمة الى اللاتينية ، الجزء الأول (١٧٥٤) و « نزهة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » لمرعى بن يوسف (١٧٥٥) ومقدمة فى تاريخ الديار الاسلامية (١٧٤٧) . ومن الطريف فى قصة حياة رايسكه أن البلاط النمساوى فكر فى ارساله سفيرا له لدى الباب العالى واشترط لذلك أن يخرج من مذهبه البروتستنتى ويتحول الى المذهب الكاثوليكى ، فلما رفض رايسكه سحب البلاط النمساوى العرض .

٢ — كان بطليموس الجغرافى الفلكى الرياضى السكندرى المعروف (حول عام ١٤٠ ميلادية) قد قسم البلاد العربية فى جغرافيته الى ثلاث مناطق : البلاد العربية الحجرية أو البطرية petraea « وهى الأرض الواقعة جنوب غربى بادية الشام » — والبلاد العربية المجدبة deserta وتشمل بادية الشام — والبلاد العربية السعيدة felix وهى اليمن . — وقد لاحظ العلماء أن فهم كلمة « بيترى petraea على أنها « حجرية » يشوبه الخطأ ، وأن بطليموس اشتق هذه الكلمة من « بطره » عاصمة هذا الجزء من البلاد العرب ، وهى ثمود حاضرة بلاد النبط . أما

اليمن فله تاريخ قديم متصل فى بعض فتراته بالكتاب المقدس بعهديه • ونشير هنا على سبيل المثال الى مملكة سبا وملكتها بلقيس وما كان لها من شأن مع سيدنا سليمان • كذلك يهتم الباحثون فى تاريخ الأديان باليمن وتقلبه بين اليهودية والمسيحية قبل أن ينتهى الى الاسلام ، والمعروف أن أحد ملوك حمير واسمه يوسف ذو نواس كان على اليهودية وأنه أحرق المسيحيين فى عام ٥٣٤ ميلادية — وهى الواقعة التى يستنكرها القرآن الكريم فى سورة البروج « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود • اذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود • وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » • وكان لهذا الاضطهاد دويه فى العالم المسيحى آنذاك فحث الامبراطور يوستنيان ملك الحبشة المسيحى على غزو اليمن والانتصار للمسيحيين المضطهدين •

٣ — الارتفاع القطبى هو ارتفاع القطب الشمالى على الأفق وهو المقابل لخط العرض الجغرافى وكان حسابه معروفا لقدماء الفلكيين العرب واستخدموه فى حسابهم لمحيط الأرض فقد جاء فى تقويم البلدان لأبى الفداء « ان الأرض كرية وانها فى الوسط ، فسطح الأرض وهو محدبها ، مواز لمقعر السماء ، فالدوائر العظام التى على سطح الأرض موازية للعظام الفلكية ، وتنقسم كانقسامها على ثلثمائة وستين درجة ••• » وقد شرح نالينو هذه الحسابات الفلكية الأساسية قائلا : « والمراد ارتفاع نصف النهار ، أى ارتفاع الشمس فى أفق البلد وقت الزوال • ومن المعلوم ان ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار هو أعظم ارتفاعاتها فى اليوم المفروض، والبلد المفروض ، وانه اذا كانت الشمس فى البروج الشمالية يساوى

مجموع تمام عرض البلد وميل الشمس وقت زوال اليوم المفروض واذا كانت الشمس فى البروج الجنوبية يســاوى تمام عرض البلد الا الميل . ... » ويذكر ناللينو فى كتابه « علم الفلك عند العرب » تفصيلات كثيرة ورسوما مفيدة ، ص ٢٨٢ » .

ويلاحظ أن خطوط الطول كانت فيما مضى وحتى عام ١٨٨٣ تنسب الى باريس باعتبار أن خط طولها هو الصفر ، ثم أصبح خط الطول ينسب الى جرينتش باعتبــارها خط الصفر . وعلى هــذا فخطوط الطول التى يذكرها كارستن نيبور هنا كلها شرقى باريس .

وقد استخدم كارستن نيبور أو ذكر من أجهزة الرصــد الفلــكى الربعية والسدسية والثمانية ، وهى أجهزة لقياس زوايا النجوم على الأفق . والاسطرلاب جهاز لقياس ارتفاعات النجوم . وفضل علماء المسلمين على تطوير أجهزة الرصد الفلكى معروف ، وكانوا يستخدمون منها اللبنــة والحلقة الاعتدالية وذات الأوتار وذات الحلق وذات الشعبتين وذات الجيب والمشبهة بالناطق والربع المسطرى . والاسطرلاب المنسوب الى الطوسى على ما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية « يشبه بهيئته مســطرة الحساب . فان مسقط الاسطرلاب العادى للكرة المسطحة ، يقع فيــه على خط من خطوط سطحه المستوى بنفسه ، فهذه الأداة تمثل اذن خط تقاطع ســطح الهاجرة من سطح مسقط اسطرلاب الكرة المسطحة ، وتشير النقط المعلمة على العصا الى الصعودات المستقيمة والمائلة ، كما تشير الى أقســـام الدائرة الكسوفية والمقنطرات ... وفى الاسطرلاب خيوط مربوطة بالعصا

وهى تصلح لقياس الزوايا » • (قدرى حافظ طوقان ، تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، ص ١٣٤) •

٤ ــ يستخدم كارستن نيبور فى تحديد المسافات القدم والخطوة والميل الألمانى • والقدم المقصود هو القدم الدنمركى وهو حوالى ٣١ سنتيمترا • والخطوة المزدوجة تساوى ٥ خمسة أقدام أى نحو ١٥٥ سنتيمترا • والميل الألمانى يساوى حوالى ٤٧٥٠ خطوة و ٧٥٠٠ مترا •

٥ ــ بلاد البربر هى مناطق أفريقيا الشمالية من برقة شرقا الى المحيط الأطلسى غربا والسودان جنوبا ، وهى المناطق التى سكنها جنس البربر ــ وهو جنس أبيض قديم توحى لغته بأنه يرتبط بالفرع السامى الحامى • ومن الطبيعى أن هذا الاسم القديم دخل الى كتب الجغرافيين المسلمين القدامى ، فنقرأ فى المسالك والممالك لابن خرداذبه مثلا « وقسمت الأرض المعمورة على أربعة أقسام ، فمنها أروفى (= أوروبا) وفيها الأندلس والصقالب والروم وفرنجه وطنجه والى حد مصر • ولوبيه (= أفريقيا) وفيها مصر والقلزم والحبشة والبربر وما والاها والبحر الجنوبى •••• » ص ١٥٥ •

٦ ــ يقولون ان اسم مالطة كان أصلا ميليتوس أى النحل فحرفه المسلمون الى مالطة • وكانت الجزيرة تخضع فى تاريخها القديم للفينيقيين ثم خضعت للرومان فى القرن الثالث قبل الميلاد وظلت تحت امرتهم ألف سنة تقريبا نزل خلالها القديس بولس الى هناك ونصر أهلها • وتعرضت الجزيرة لغزوات متعددة بعد ذلك حتى فتحها المسلمون فى نهاية القرن الثامن

الميلادى ، وثبت فيها حكم المسلمين فى عام ٨٧٠ ميلادية فى زمن أبى عبد الله محمد الأغلبى ، وظل حكم المسلمين قائما أكثر من قرنين من الزمان • وقد نشأت فى مالطة فى أثناء الحروب الصليبية طائفة « فرسان مالطة » كان لها دور فى هذه الحروب ثم اشتهرت بالوقوف أمام الغزو التركى • والمعروف أن نابليون غزا مالطة وهو فى طريقه الى مصر وأنه أتى بالأسرى معه ليبرهن بهم للمصريين على حسن نواياه تجاه المسلمين •

وأما جزيرة رودس فقد غزاها المسلمون فى منتصف القرن السابع الميلادى وغنموا منها غنائم كثيرة من بينها بعض آثار نحاسية لاله الشمس وكان تمثال رودس النحاسى من عجائب الدنيا السبع • وأقام المسلمون فيها حينا ثم رحلوا عنها ، وانتقلت السيطرة عليها الى بيزنطة ، ثم كانت الغلبة فى مطلع القرن الرابع لفرسان الاسبتارية الصليبيين ، وحاول المماليك فى منتصف القرن الخامس عشر الاستيلاء على الجزيرة فلم يفلحوا ، ثم فتحها العثمانيون فى عام ١٥٢٢ •

٧ ــ المقصود بالأرخبيل مجموعات جزر بحر ايجه وهى جزر دوديكانيز وسبوراد •

٨ ــ الطرابلسية : نسبة الى طرابلس فى ليبيا حاليا •

٩ ــ سكودى : عملة فضية ايطالية قديمة •

١٠ ــ كان روجر النورمانى قد انتزع من المسلمين جزيرتى صقلية ومالطة فى عام ١٠٩٠ • والمعروف أن ابنه واسمه روجر الثانى دعا اليه الجغرافى العربى الشهير الشريف الادريسى وطلب اليه أن يضع له خريطة

دقيقة تبين بلاد الدنيا . (انظر « العرب فى صقلية » و « شمس الله على الغرب » ص ٢٩٠) .

١١ ـ استخدام كارستن نيبور كتب الرحلات التى قام بها السابقون ومجموعة من المراجع أهمها :

— Prinz Radzivil : Principis Radzivilli Jerosolymitana peregrinatio.

— Paul Lucas : Voyage du Sieur Paul Lucas.

— P. Sicard : Mémoires des Missions dans le Levant.

— Cap. Norden : Voyage d'Egypte.

— Johann Leo: Beschreibung von Afrika. (Uebersetzung)
Jean Leon : Historiale description de l'Afrique.

— Benjamin von Tudela : Itinerarium Benjamini Tudelensis.

— B. de Maillet : Description de l'Egypte, Paris, 1735.

— Bernhard von Breydenbach ; Peregrinationes in Terram sanctam, Meguntiae, Erhard Reuwich 1486.

— Marai : Geschichte der Regenten in Egypten.

— Richard Pococke : Description of the east.
Beschreibung des Morgenlandes und einiger anderer Länder. Aus dem Englischen übersetzet durch Christian Ernst von Windheim und von Sr. Hochwürdigen dem Herrn Canzler von Mosheim mit einer Vorrede versehen, Erlangen, 1754.

— Pietro della Valle : Eines vornehmen Römischen Patritii Reiss-Beschreibung in unterschiedliche Theile der Welt usw., Teil I-IV, Genff, 1674.

— Thomas Shaw : Travels or observations.
Reisen oder Anmerkungen verschiedene Theile der Barbarey und der Levante betreffend, Leipzig, 1765.

— Granger : ......

— Heinrich Rantzow : Reisebuch.

— Lodovico di Varthema : Itinerario.

— G. de l'Isle : Voyage de l'Arabie heureuse, Par l'Ocean Oriental & le Détroit de la Mer Rouge ..., Amsterdam 1716.

— J.B. Tavernier : Les six voyages en turquie, en perse et aux Indes, Paris, 1692.

— De Ferriol : Abbildung des türkischen Hofes, Nürnberg, 1707-1708.

— Russel : Beschreibung von Háleb.

— Bruyn: Voyage de Mons. le Bruyn.

— John Greaves : Miscellaneous Works.

— Fourmont : Desciption des plaines d'Heliopolis & Memphis.

— Perry : View of the Levant.

— André Corsal : ....

— Pierre Dau : Histoire de la Barbarie et de ses Corsaires.

— Don Castro : Reisebuch.

— Don Stephano de Gama : Sammlung aller Reisebeschreibungen.

— R.P. Lobo : Voyage d'Abyssinie, par le Grand.

— Neitzschitz : Siebenjährige Weltbeschauung.

— Monconys : Voyages.

— Christopher Fürer : Itinerario.

— Sherif Ed-Drîs : Geographia Nubiensis,

= نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى .

— Abulfeda: Abulfedae descriptio Diar Masr.

= « ذكر ديار مصر » من « تقويم البلدان » لأبى الفدا .

— Strabo : Geographica

— Schultens : Vita Saladini. (Uebersetzung).

— Herodot : Historiai

— Allgemeine Welthistorie der neuern Zeiten.

— Bryant : Observations relating to various parts of ancient history.

١٢ ـ يستخدم كارستن نيبور فى الاشارة الى العرب كلمة « المسلمين » ويستخدم فى أحيان كثيرة كلمة Sarazenen التى ترجمناها بالعرب المشارقة . والمعروف أن هذه الكلمة قديمة ، عرفتها اللغة اليونانية نقلا عن العبرية ، ثم انتقلت الى اللغة اللاتينية ومنها انتقلت الى اللغات الأوروبية الحديثة . وكان الاستخدام القديم يحصرها فى العرب شمالى الجزيرة العربية وفى شبه جزيرة سيناء . والأقرب الى الصحة أن اللفظة تحريف لأصل يتصل اتصالا ما بكلمة شرق . وعلى هذا ترجمناه بالعرب المشارقة ـ وأما اللفظة الأخرى التى ترد أحيانا دلالة على العرب والمسلمين فهى كلمة Mauren التى ترجمناها بالعرب المغاربة وهى كلمة قديمة أيضا استخدمها بطليموس الجغرافى الفلكى ، (ولعلها تعنى فى الأصل « سود البشرة ») مشيرا الى أهل الجزء الغربى من شمال أفريقيا . وقد ظلت اللغات الأوروبية تطلق على المغاربة وعرب الأندلس

هذا الاسم الذى لا غرابة فيه فقد كان حظ أهل شمال أفريقيا ــ البربر ــ فى فتح الأندلس كبيرا •

(المسلمون فى أوروبا ص ٢٣ وما بعدها) •

١٣ ــ قام فون برايدنباخ بالرحلة الى بلاد العرب فى عام ١٤٨٣ •

١٤ ــ جغرافية النوبى عنوان خطأ لترجمة كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الادريسى (١١٠٠ ــ ١١٦٠) صنعها رجلان مارونيان هما يوحنا الخسرونى وجبريل الصهيونى • جاء فى « الأدب الجغرافى العربى » ص ٢٨٤ : وهى تحمل عنوان (جغرافيا النوبى Geographia Nubiensis) وهى تسمية قادت الى تثبيت خطأ فاحش بصدد المؤلف استمر لمدة قرنين فى الدوائر العلمية الأوروبية • ذلك أنه بسبب جهلهما باسم المؤلف فقد قرر المترجمان أنه نوبى الأصل ، لأنه فى الموضع الذى يرد فيه الكلام عن أن النيل يقطع أرض النوبة قرأ المترجمان (أرضنا) بدلا من (أرضها) أى أرض النوبة •

ومن المؤسف حقا ان كتاب الادريسى الأساسى « نزهة المشتاق » لم يخرج الى الآن فى طبعة يمكن الاعتماد عليها ، فلعل عالما ممتازا يتولى هذه المهمة •

١٥ ــ « أنا يعمر بن شداد ، بنيت هذه المدينة وأردت أن أجعل فيها من الآثار المعجزة ، والعجائب الباهرة ، فأرسلت البتون بن مرة العادى ومقدام بن يعمر بن أبى رغال الثمودى الى جبل بريم الأحمر ، فاقتطعوا

منه حجرين وحملاهما على أعناقهما فانكسرت ضلوع البتون ، فوددت أن أهل مملكتى كانوا فداء له ، فأقامهما القطن بن حازم المؤتفكى فى يوم السعادة « • ـ انظر معجم البلدان تحت « الاسكندرية » ففيه مجموعة من التفسيرات الخرافية الأخرى ، وانظر الجزء الثالث من صبح الأعشى ص ٣١٩ •

١٦ ـ جاء فى القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الأول : « فى سنة ٣٣٢ ق•م• احتل الاسكندر الأكبر المقدونى البلاد المصرية وأسس مدينة الاسكندرية وجعلها عاصمة البلاد ، وظلت ••• الى سنة ٦٤١ بعد الميلاد عاصمة القطر المصرى ••• وفى أكتوبر سنة ٦٤١م احتل عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية ونقل العاصمة الى مدينة الفسطاط فقل شأنها ••• وأخذت تضمحل بعد ذلك لانتقال حركتها التجارية الى مدينة رشيد حتى أصبح سكانها فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى لا يزيدون عن ستة آلاف نفس ـ ولما جدد محمد على حفر ترعة الاسكندرية وسماها الترعة المحمودية سنة ١٨١٧ م عادت الحياة الى مدينة الاسكندرية ••• الخ » ـ أما رشيد فكانت مدينة عامرة وكان بها الجمرك والقناصل والتجار الأجانب •

١٧ ـ تتضارب الأقوال فى كتب المؤرخين القدامى وفى كتب الرحالة بل وفى بعض المؤلفات المتأخرة عن العرب أو العربان أو الأعراب ، فتارة ينسبون اليهم الشغب والنهب والسلب وتارة يبرزون ما لهم من خصال أصيلة • وقد جمع كارستن نيبور ملاحظاته على هذا الموضوع

وأثبت اعجابه بعرب سيناء خاصــة وما لهم من حضــارة تظهر حتى فى حياتهم اليومية العادية • ويتعرض دكتور لويس عوض فى كتابه المؤثرات الأجنبيــة فى الأدب العربى الحديث ، الجــزء الثانى ص١٣ وما بعدها لموضــوع البدو والعربان بدراسة مفيدة حقــا • فهو ينقل رأى ڤولنى (رحلة فى سوريا ومصر ١٧٨٣) الذى يقول ان بدو مصر كانوا فئــات من الخطافين النهابين يقيمون على تخوم الوادى وأنهم كانوا مشــتتين يسودهم الانقســام • كذلك ينقل رأى ادوارد لين (عــادات المصريين المحدثين وسلوكهم ١٨٣٥) القائل ان الكثيرين من فلاحى الصعيد كانوا من البــدو ثم اشــتغلوا بالزراعة واستقروا فى ريف مصر •• الــخ • ويسترشد الدكتور عوض بابن اياس فيستنتج أن بدو مصر كانوا أيام المماليك فى مكانة أرقى من مكانة الفلاحين فكانوا لا يخالطونهم وكانوا يشتركون فى جيوش المماليك ، وكان شيوخ البدو ــ عرب الأتراك ؟ مسئولين عن حفظ الأمن فى الريف.ويستعرض المؤلف ثورة البدو التى قامت فى عام ١٢٥٣ بزعامة الشريف حصن الدين بن تعلب لاقامة سلطنة بدوية مستقلة عن السلطنة المملوكية فى مصر،والثورة الثانية التى بدأت عام ١٧٣٦ بزعامة همام أمير قبيلة الهوارة بالصعيد ، واستطاعت اقامة دولة منفصلة لسنوات قليلة • ــ ويصح أن ننوه فى هذا المقام أيضا بالملاحظات التى دونها فريدريش شڤاللى عن البــدو فى تقرير كتبه عن رحلة الى مصر فى عام ١٩١٢ بعنوان « فصول فى التعرف الى حياة المسلمين من أهل المدن والفلاحين والبدو فى مصر المعاصرة » • ص ٣١ وما بعدها •

وفى كتاب « وصف مصر » دراســات قيمة تفصيلية عن العــرب

والبدو وقوائم بأسماء القبائل وأماكنها • انظر الجزء الأول ص ٥٤٥ الى ص ٦٠٦ ، والقسم الأول من الجزء الثانى ص ٢٤٩ وما بعدها •

١٨ ــ فى القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ص ١١٢ وما بعدها عرض مسهب لتاريخ هذه القرية والتفرقة بينها وبين مصيل ومليج • ويذكر على مبارك فى الخطط التوفيقية أن السفن كانت ترسو جميعها فى فوة ثم حدث أن تراكمت الرمال فى فرع النيل عندها فلم تعد تصلح ثغرا ، وتحول النشاط التجارى الى رشيد ، كذلك يذكر على مبارك اعتمادا على بيانات الرحالة الأجانب أن فوة كانت حتى عام ١٥٣٠ أكبر من رشيد وأن تدهور فوة يرجع الى اهمال العثمانيين لبوغازها ، وأن رشيد وصلت الى أوج عظمتها فى عام ١٧٧٧ •

١٩ ــ تحدث يوهان ڤيلد الذى وقع فى الأسر التركى عام ١٦٠٤ وجاء الى مصر عبدا أسيرا ــ فى الفصل ٢٩ من الكتاب الثالث فى وصفه رحلته عن التمساح الذى رآه بعينيه فى القاهرة قال : « وبعد ذلك بفترة قصيرة أتوا الى القاهرة بتمساح حى ضخم مرعب كان الأعراب قد أمسكوه وقيدوه ، وكان طوله بين ١٥ و ١٨ قدما ، وله فم مدبب طويل ، وأربعة أرجل قصيرة وذيل طويل سميك ، وظهره أسود يمتلىء بالحراشيف القرنية ، وبطنه صفراء ولينة جدا ، وقد ربطوا فمه وأرجله بالحبال ربطا قويا ، وكانوا قد أمسكوا به عند النيل جنوبى القاهرة عند احدى القرى • ــ ويسمى هذا الحيوان بالعربية « تمساح » ، ويقال انه يؤذى البشر والحيوان أذى كبيرا • وقد ذهبت الى مكانه ودسست أصابعى فى عينيه فانسابت منها دموع ومياه كثيرة •

ويقول العرب ان التمساح اذا أمسك بانسان بكى عليه بكاء شديدا ، وبلله بدموعه ، ثم التهمه بعد ذلك وافترسه . وقد أخرجوا هذا التمساح من السفينة وحملوه على جمل ونقلوه الى الباشا فى قصره ، فأعطاهم الباشا — على ما سمعت — هدية وأمرهم بأن يقتلوا التمساح ، ففعلوا وسلخوا جلده وحشوه بالقش . وهذا الحيوان كثير جدا فى مياه النيل ، وهو يسبب أضرارا كبيرة فى الماء وعلى سطح الأرض . وبلغنى أنه يجذب الناس من السفن ويجرهم الى الماء ويعوم بهم الى بعيد .. » .

٢٠ — كان كارستن نيبور مهتما بتتبع المعلومات التى تضمنتها الكتب عن دمياط ، وكان يبحث عن السور وسلسلة البوغاز . وقد جاء فى الخطط التوفيقية الكثير من أخبار دمياد ودورها فى الحروب التى شهدتها المنطقة . ونقرأ على سبيل المثال أن الخليفة المتوكل العباسى امر ببناء حصن دمياط سنة ٨٣٩ . كذلك نقرأ فى أخبار الحرب بين صلاح الدين والفرنجة عن معركة دمياط التى « ... رتبت المقاتلة (فى أثنائها) على البرجين وشدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول بين البرجين وأصلح شعث سور المدينة وسد ثلمه وأتقنت السلسلة التى بين البرجين فبلغت النفقة على ذلك ألف دينار . » ثم يتحدث على مبارك عن برج دمياط وجغرافية المنطقة : « ... برج دمياط فانه كان برجا منيعا . فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول الى ديار مصر فى النيل ، وذلك أن النيل اذا انتهى الى فسطاط مصر ومر عليه من ناحية الشمال الى شطنوف ، فاذا سار الى شطنوف انقسم الى قسمين أحدهما يمر فى الشمال الى رشيد فيصب فى البحر الملح ، والشطر الآخر يمر من شطنوف

الى جوجر ، ثم يتفرق من عند جوجر فرقتين فرقة تمر الى أشموم فتصب فى بحيرة تنيس ، وفرقة تمر من جوجر الى دمياط فتصب فى البحر الملح هناك ، وتصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط والبر الغربى ، وهذا البر الغربى من دمياط يعرف بجزيرة دمياط يحيط بها ماء النيل والبحر الملح . » ونقرأ بعد ذلك أن المماليك البحرية قرروا تخريب دمياط حتى لا يستولى عليها الفرنجة : « فسيروا اليها الحجارين والفعلة فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٦٤٨هـ (= ١٢٥٠م) حتى خربت كلها ، ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع . » .

« وبعد ذلك بنحو عشر سنوات أرسلوا من ألقوا فى بحر النيل القرابيص حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط وهو الى الآن على ذلك لا تقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه وانما ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم واحدها جرم . » .

٢١ ــ فى المعجم الجغرافى ، القسم الأول ، ص ١٩٧ وما بعدها : « تنيس هى من المدن المصرية القديمة التى اندثرت ، تكلم عنها ياقوت فى معجمه فقال ان تنيس جزيرة فى بر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط ، وبها تعمل الثياب الملونة والفرش الأبوقلمون وبحيرتها التى هى عليها مقدار اقلاع يوم فى عرض نصف يوم ... وأما صفتها فهى جزيرة فى وسط بحيرة مفردة عن البحر الأعظم يحيط بهذه البحيرة البحر من كل جهة ... وبالبحث تبين لى أن الجزيرة التى كانت بها مدينة

تنيس لاتزال موجودة الى اليوم ببحيرة المنزلة ، ومعروفة بجزيرة تنيس وبها بعض بقايا من الطوب الأحمر المتخلف من مبانيها القديمة . وهذه الجزيرة واقعة فى الجنوب الغربى لمدينة بور سعيد وعلى بعد تسعة كيلومترات منها . » .

وفى المعجم الجغرافى أيضا ص ١٩٨/١٩٩ : « تونه من القرى الصناعية القديمة التى كانت واقعة ببحيرة المنزلة . ـ وردت فى معجم البلدان لياقوت بأن تونة جزيرة قرب تنيس ودمياط بمصر يضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرازها ... وبالبحث عن الجزيرة التى كانت بها مدينة تونه تبين لى أنها هى التى تعرف اليوم بجزيرة سيدى عبد الله ابن سلام الواقعة فى بحيرة المنزلة شرقى بلدة المطرية وعلى بعد أربعة كيلومترات منها ، ولا تزال آثار أطلال هذه القرية ظاهرة بالجزيرة المذكورة باسم كوم ابن سلام . ».

٢٢ ـ أثبتنا أسماء الأماكن كما كتبها كارستن نيبور ، والمعروف أن طريقة كتابة أسماء الأماكن المصرية تغيرت عبر التاريخ ، ويمكن الرجوع فى متابعة هذا التغير الى :

ـ المسالك والممالك لابن حوقل .

ـ نزهة المشتاق للأدريسى .

ـ معجم البدان للحموى .

ـ خطط القريزى .

ـ الخطط التوفيقية لعلى مبارك .

ـ جداول نظارة الداخلية بأسماء المحافظات والمديريات (ملاحق الوقائع المصرية عام ١٨٩٧ و ١٩٠٢ و ١٩١٠م) .

ـ قاموس الادارة والقضـاء لفيليب جلاد المجلد الرابع ص ٢٣٣ وما بعدها (الاسكندرية ١٨٩٢) وبه قائمة أبجدية قيمة .

ـ القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، القاهرة ١٩٥٣ وما بعدها .

وبالقسم الأول منه ص ٤٧٧ وما بعدها قائمة بالمراجع العربيـة والأفرنجية .

ـ كتاب « وصف مصر » الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية ، فى آخر القسم الثانى من المجلد الثانى .

ويلاحظ القارىء أن كارستن نيبور بحكم لغته الألمانية يخلط السين والزاى ، والحـاء والعين والهاء والهمزة ، والجيم والكـاف والقاف والغين ، والحاء والخاء ، والتاء والطـاء ، ولكنه يبذل جهـودا كبيرة للوصول الى الكتابة الصحيحة ما أمكنه ذلك .

٢٣ ـ كانوب أوكانوبوس « وردت فى جغرافية أميلينو ص ٢٠٩ قال انها كانت واقعة على شاطىء البحر الأبيض بالقـرب من أبى قير » (ص ٣٥٥ من القاموس الجغرافى ، القسم الأول) ـ وهى مدينة قديمة ذكرها هيرودوت فى الكتاب الثانى ، الفقرة ١٥ ، وتصور كتب الجغرافيا القديمة دلتا النيل بسبعة فروع ، أقصاها الى الغرب هو الفرع الكانوبى الذى يخرج من منتصف الفرع البلبيتى (فرع رشيد) .

٢٤ ــ مطوبس : « قرية قديمة اسمها نطوبس الرمان ، وردت فى نزهة المشتاق عند ذكر القرى التى على شاطىء الفرع الغربى للنيل ، ثم وردت فى نسخة أخرى من النزهة محرفة باسم نطويس الرمان ووردت فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الارشـاد » . وقد جاء فى التحفـة عنها : نطويس الرمان من أعمال فوة والمزاحمتين . وفى تاريخ سـنة ١٢٢٨ هـ وردت باسمها المحرف والمختصر . ص ١١٥ من الجزء الثـانى ، القسم الثانى ، المعجم الجغرافى .

٢٥ ــ فى المرجع السابق ص ٢٤٩ نقرأ عن رمسيس : « هى من البلاد القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال ان اسمها المصرى القديم هاتنت رامسيس ، وقال اميلينو فى جغرافيته ان اسمها القبطى رمسيس وهو اسمها الحالى . ــ وكان اقليـم البحيرة فى الزمن الماضى مقسوما الى اقليمين : وهما اقليم البحيرة وقاعـدته دمنهور ... واقليم حوف رمسيس وكانت قاعدته رمسيس .. » أما قرية أبى مندور التى يتحدث عنها كارستن نيبور فلعلها قرية « كفر أبو مندور » التى جاء فى المرجع نفسه ص ٢٥٧ عنها : « أصلها من توابع ناحية رمسيس ثم فصلت عنها فى تاريخ سنة ١٢٧٥هـ . الخ » .

٢٦ ــ صالحجر . جاء فى المرجع السابق ص ١٢٦ : « هى من المدن المصرية القديمة ، ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال : ان اسمهـا المصرى الدينى هات نايت ومعناها قصر الاله نت واسمها المدنى ساو والآشورى ساى والرومى سايس والقبطى سا ، ومنها اسمها العربى : صا . وكانت قاعدة القسم الخامس بالوجه البحرى . » ويورد المرجع بعد ذلك ما يفيد

أن قدماء الجغرافيين العرب ذكروها باسم صا وأشاروا الى ما فيها من آثار قديمة • ثم يقول : « وفى العصر العثمانى وردت باسم صا الحجر نسبة الى ما تخلف من أطلالها من بقايا أحجار معبدها المصرى القديم •• » — ويذكر هيرودوت سايس فى الكتاب الثـانى ، الفقرة ٥٩ (وغيرها) ويشير الى الاحتفال الدينى الذى كان يقام بها تمجيدا لربة الحرب نايت •

٢٧ — بوسيرس يذكرها هيرودوت فى المرجع المشار اليه ، ومكانها الآن عند أبوصـير • أما المعجم الجغرافى فيذكرهـا فى القسم الثانى ، الجزء الثانى ص ٦٩ : « هى من المدن القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال : ان اسمها المصرى المقدس بر اوسار نب زدو ومعناها محل اقـامة أوزيريس اله مدينة زدو ، واسمها المدنى زدو والرومى بوسيرس والقبطى بوسير والأشورى بوسيرى وهى أبو صير • وهذه الأسمـاء تطلق على كل بلد اسمها أبوصير حيث يعبدون بها الاله أوزيريس ، وكانت أبوصير هذه قاعدة القسم التاسع بالوجه البحرى قديما ، وردت فى كتاب البلدان لليعقوبى ••• وفى تحفة الارشـاد بوصير بنا من أعمال السمنودية ••• وبنا هى قرية صغيرة مجاورة لبوصير فنسبت اليها تمييزا لها من سمياتها بمصر ••• وفى العهد العثمانى ••• أضيف الى القرى التى باسم بوصير ألف فى أولها فصارت أبوصير •• » •

٢٨ — سمنود فى القاموس الجغرافى المشار اليه : « مدينة قديمة ••• كانت قاعدة القسم الثانى عشر بالوجه البحرى وعاصمة المملكة المصرية فى عهد الأسرة الثلاثين ••• وسمنود اسمها المصرى سبنترت ••• ومعنـاها الأرض المقدسة ثم حرف اسمها سبنتر الى سبنوتش الرومية الى سمنود

العربية » . (القسم الثانى ، الجزء الثانى ص ٧١/٧٢) . وذكر هيرودوت منود فى موضعين من الكتاب الثانى (١١٧ و ١٦٦) .

٢٩ ــ لتصحيح فكرة خيانة المقوقس التى يذكرها كارستن نيبور يمكن للقارىء الاسترشاد بكتاب عبد الرحمن الرافعى وسعيد عبد الفتاح عاشور « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى » ، القاهرة ١٩٧٠ ، وبخاصة ص ٢١ وما بعدها . وفيه نقرأ عن الاضطهاد الذى تعرض له المصريون الآخذون بمذهب الطبيعة الواحدة على يد البيزنطيين الآخذين بمذهب الطبيعتين ، وما أدى اليه هذا الاضطهاد من سوء الأوضاع فى مصر . ثم نقرأ عن الغزو الفارسى فى عام ٦١٦ م الذى زاد الأحوال سوءا . ثم نقرأ عن هرب بطريق الأقباط الى طيبة بالصعيد بعد وصول الحاكم الذى أرسله هرقل لتولى السلطة الادارية والدينية فى البلاد ، وهذا الحاكم الرومانى هو قيرس الذى تذكره كتب العرب باسم المقوقس . والحق ان الانسان لا يستطيع أن يكون صورة واضحة عن هذا المقوقس . فهو فى بعض الروايات شديد الاضطهاد للمؤمنين بالطبيعة الواحدة ، شديد التنكيل برجال الدين المصريين ، وهو فى روايات أخرى يستسلم للعرب بعد طول قتال ولا يستجيب لهرقل عندما يحثه على الحرب حتى الموت أو النصر ، وتورد بعض المصادر أن المقوقس تعهد لعمرو بن العاص بضمان الجسور وتقديم العون فى طريقه الى الاسكندرية حيث صار الأقباط أعوانا للمسلمين .

٣٠ ــ يتحدث القلقشندى عن سور القاهرة (طبعة الشعب ، جـ ٢ ، ص ٧١ وما بعدها) : اعلم ان القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث

مرات : المرة الأولى وضعه القائد جوهر ، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمـالى فى أيام الخليفة المستنصر والمرة الثـالثة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب أول ملوك القاهرة • السور الأول : كان من لبن ، وضـعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القاهرة الآن ، فأداره على القصر والجامع ••• وقد أدركت من هذا السور اللبن قطعا ، وآخر ما رأيت منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط ، هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة ، فشاهدت من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمننا ، حتى ان اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع • وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان ، وكان بعيدا عن السور الحجر الموجود الآن ، وبينهما نحو الخمسين ذراعا • وما أحسب أنه بقى الآن من هذا السور اللبن شىء ••• السور الثانى : بنـاه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة ، وزاد فيـه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة الكبير ، وفيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن ، وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم الآن الى باب النصر ، وجعل السور من لبن ، وأقام الأبواب من حجارة • وفى نصف جمادى الآخر سنة ثمـانى عشرة وثمانمائة ، ابتدىء بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج،عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه،فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع • السور الثالث : ابتدأ فى عمـارته السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة ست وستين وخمسمائة ،

وهو يومئذ على وزارة العاضد لدين الله . فلما كانت سنة تسع وستين وقد استولى على المملكة ، انتدب لعمل السور الطواشي بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فبناه بالحجارة على ما هو عليه الآن . وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر والقلعة سورا واحدا ...

٣١ ــ يكتب كارستن نيبور « طولون » بالياء « طيلون » ، ونجد هذه الكتابة فى بعض المراجع ومن بينها « جدول أسماء مديريات القطر المصرى ومراكزها وبلادها وملحقاتها ... » ملحق الوقائع المصرية نمرة ٥١ الصادر فى ١٧ مايو ١٩٠٢ (ص ٣٤) .

٣٢ ــ يتحدث المقريزى أيضا عن موضع القلعة وقيمته التاريخية القديمة فيقول (الجزء الثالث ص ٢٦ وما بعدها ، ط الشعب) : « وكان موضعها أولا يعرف بقبة الهواء ، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد ... الى أن أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ... وصارت من بعده دار الملك الى يومنا هذا . وهى ثامن موضع صار دار المملكة بديار مصر . وذلك أن دار الملك كانت أولا قبل الطوفان مدينة أمسوس ، ثم تخت الملك بعد الطوفان بمدينة منف الى أن خربها بخت نصر . ثم لما ملك الاسكندر ... صار الى مصر ، وجدد بناء الاسكندرية فصارت دار المملكة من حينئذ ، بعد مدينة منف الاسكندرية الى أن جاء الله تعالى بالاسلام ، وقدم عمرو بن العاص رضى الله عنه بجيوش المسلمين الى مصر وفتح الحصن ، واختط مدينة فسطاط مصر ، فصارت دار الامارة من

حينئذ الفسطاط الى أن زالت دولة بنى أمية • وقدمت عساكر بنى العباس الى مصر ، وبنوا فى ظاهر الفسطاط العسكر ، فصار الأمراء من حينئذ تارة ينزلون فى العسكر ، وتارة فى الفسطاط ••• الى أن بنى أحمد ابن طولون القصر والميدان ، وأنشأ القطائع بجانب العسكر ، فصارت القطائع منازل الطولونية الى أن زالت دولتهم • فسكن الأمراء بعد زوال دولة بنى طولون بالعسكر الى أن قدم جوهر ••• وبنى القاهرة المعزية فصارت القاهرة من حينئذ دار الخلافة ومقر الامامة ومنزل الملك الى أن انقضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب • فلما استبد بعدهم بأمر سلطنة مصر ، بنى قلعة الجبل هذه ومات ، فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده الى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية ، وملكوا مصر من بعدهم فاستقروا بقلعة الجبل الى يومنا هذا » •

٣٣ ــ يذكر المقريزى (فى المجلد الثالث ص ٣٢ وما بعدها ، طبعة الشعب) تفصيلات كثيرة عن القلعة وعظمتها : « ويدخل الى القلعة من بابين : أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة ــ ويقال له الباب المدرج ــ وبداخله يجلس والى القلعة ، ومن خارجه تدق الخليلية قبل المغرب ، والباب الثانى باب القرافة • ومن بين البابين ساحة فسيحة فى جانبها بيوت ، وبجانبها القبلى سوق للمآكل • ويتوصل من هذه الساحة الى دركاه جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى وسط الدركاه باب القلعة ، ويدخل منه فى دهليز فسيح الى ديار وبيوت ، والى الجامع الذى تقام به الجمعة • ويمشى من دهليز باب القلعة ، فى مداخل أبواب ،

الى رحبة فسيحة فى صدرها الايوان الكبير المعـد لجلوس السلطان فى أيام المواكب واقامة دار العدل ، وبجانب هذه الرحبة ديار جليلة ، ويمر منها الى باب القصر الأبلق . ـ وبين يدى باب القصر رحبة دون الأولى يجلس بها خواص الأمراء قبل دخولهم الى الخدمـة الدائمة بالقصر . وكان بجانب هذه الرحبة ، محاذيا لباب القصر ، خزانة القصر . ويدخل من باب القصر فى دهاليز خمسة الى قصر عظيم ، ويتوصل منه الى الايوان الكبير بباب خاص ، ويدخل منه أيضا الى قصور ثلاثـة ، ثم الى دور الحرم السلطانية والى البستان والحمام والحوش ... ومن رأى القصور والايوان الكبير والميدان الأخضر والجامع ، يقر لملوك مصر بعلو الهمة وسعة الانفاق والكرم ... « الايوان » المعروف بدار العدل ... أنشأه السلطان الملك المنصور قلاوون ... ثم جدده ابنه السلطان الملك الأشرف خليل ... فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون الروك ، أمر بهدم هذا الايوان فهدم ، وأعاد بناءه على ما هو عليه الآن وزاد فيه ، وأنشأ به قبة جليلة ، وأقام به عمـدا عظيمة نقلها اليه من بلاد الصعيد ورخمـه ، ونصب فى صدره سرير الملك ، وعمله من العاج والأبنوس ، ورفع سمك هذا الايوان ، وعمل أمامه رحبة فسيحة مستطيلة ... « القصر الأبلق » ... يشرف على الاصطبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون ... ويدخل من هذا القصر الى ثلاثة قصور جوانية : منها واحد مسـامت لأرض هذا القصر ، واثنان يصعد اليهما بدرج ، فى جميعها شبابيك حديد تشرف على مثل منظـرة القصر الكبير ... وهذه القصور جميعهـا من ظاهرها مبنية بالحجر الأسود والحجر الأصفر ، موزرة من داخلها بالرخام والفصوص المذهبة المشجرة بالصـدف والمعجون وأنواع الملونـات ،

وسقوفها كلها مذهبة قد موهت باللازورد ، والنـور يخرق فى جدرانها بطاقات من الـزجاج القبرسى الملون كقطع الجوهر المؤلفـة فى العقود ، وجميع الأراضى قد فرشت بالرخام المنقول اليهـا من أقطار الأرض ، مما لا يوجد مثله ... الخ » .

ويذكر حسن عبد الوهـاب فى كتيبه « جامع السـلطان حسـن وما حوله » المكتبة الثقافية رقم ٥٦ ص ٧٢ ان القصر الأبلق كان يسمى بقصر يوسف وأن الحملة الفرنسية رسمت بقاياه .

ويتناول ديتريش براندنبورج القلعـة بالوصف فى كتابه العمـارة الاسلامية فى القاهرة فيقول ص ٢٥٢ أن بعض نوافـذ قصر البيسارية بالقلعة كانت من الذهب الخالص .

وجدير بالذكر أن كلمة العزب التى ذكرها كارستن نيبور ــ باب العزب ــ تعنى فرقة من فرق الجيش ، وكان الجيش على ما جاء فى تقويم النيل لأمين سامى باشا الجزء الثانى ص ٣٦ يتكون من سبع طوائف : الجونوللى (المتطوعـة) والتفكجيـة (أرباب البنادق) والجراكسـة والجاويشية والمتفرقة والانكشارية والعزب .

٣٤ ــ فى كتيب دكتورة سعاد ماهر « القاهرة القديمة وأحياؤها » ، ص ١٠٠ معلومات قيمة عن الأزبكية وتطورها : « كانت المنطقة عبـارة عن أرض زراعية تقع الى الجنوب من خط المقس (ميدان باب الحـديد الحالى) وكانت مياه النيل تغمر تلك الأراضى سنويا وكان يتخلف بها بعد الفيضان بركة . وكانت أرض هذا الحى عامرة بالبساتين والمناظر وكانت

تسمي حينذاك باسم مناظر اللوق ... وفى عهد السلطان قايتباى كانت تلك المنطقة مهملة ... فقام قائده أزبك بتعمير المنطقة ومن ثم فقد أخذت البركة وكذا المنطقة اسم معمرها وعرفت بالأزبكية . » .

وقد ذكر على مبارك فى خططه (الطبعة الثانية) الجزء الثالث ص ٢٤٨ معلومات عن أزبك هذا ويسميه فى العنوان « الأمير يزبك » .

٣٥ ــ يتحدث ستينلى لينپول فى كتابه « سيرة القاهرة » عن مسجد السلطان حسن فيقول (ص ١٩٥ وما بعدها من الترجمة العربية) : « بنى هذا المسجد فيما بين عامى ١٣٥٦ و ١٣٥٩ م ... وكان موقعه سببا فيما أصابه من تلف ذلك أن سطحه الفسيح كان مكانا رائعا لاطلاق النار منه خلال الثورات الكثيرة التى حدثت فى أثناء حكم المماليك ، وكثيرا ما كانت النيران تتبادل بينه وبين القلعة حتى عهد محمد على باشا ... وحينما وجد برقوق ان المسجد بالغ الخطورة كمكان للهجوم أمر بهدم درجاته الأنيقة واغلاق البوابة العظيمة . بل لقد أتى على المسجد حين ظل فيه مغلقا ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وكان على الطلاب والمصلين أن يستخدموا النوافذ أو الأبواب الجانبية اذا أرادوا أن يدخلوه ... وحدث فى منتصف القرن الخامس عشر أن ربط أحد الرياضيين الأوروبيين حبلا متينا فى مئذنته العليا ومده الى القلعة وسار عليه أمام جمهور المتفرجين المبهورين ... ولكن المسجد على الرغم من كل ذلك أبهى وأجمل أثر من آثار الفن العربى فى القرن الرابع عشر » .

٣٦ ــ تتحدث زيجريد هونكه فى كتابها « شمس الله على الغرب » (ص ١٤٢ من الترجمة العربية) عن المارستان فتقول : « ومن أشهر

المستشفيات الاسلامية المستشفى الكبير المعروف باسم المنصورى أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون ، ولما تم بناؤه توجه اليه السلطان فى ركب عظيم ، حتى اذا بلغه طلب قدحا من الشراب فشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى . » ، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جهزه ودبر أمر كفنه ودفنه . ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحية لمعالجة المرضى والمجروحين والمكسورين ، ورتب الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى واصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام ، وأمر لكل مريض بفرش كامل ... ولم يقتصر العلاج على من يقيم بالمارستان من مرضى ، بل تعداه الى المرضى فى بيوتهم ، فكانوا يحملون اليهم الأشربة والأغذية والأدوية » .

٣٧ ــ يقصد السبيل . ومن المؤكد أنه رأى سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الذى يرجع الى عام ١٧٤٤ (والذى لا يزال قائما الى اليوم فى النحاسين) ، ويصف كمال الدين سامح هذا السبيل فى كتابه « العمارة الاسلامية فى مصر » ص ١٣١ وما بعدها فيقول : « ومدخل السبيل من شارع التمبكشية ومنه يصل الانسان الى ردهة صغيرة تقع الى يسارها غرفة السبيل والى يمينها غرفة صغيرة بها بئر ... والواجهة الخارجية مكونة من ثلاث فتحات كبيرة مخرمة من النحاس وهى عبارة عن عقود مستديرة ومرتكزة على أعمدة من الرخام حلزونية الشكل ... وحائط الواجهة الخارجية مكون من مداميك من الحجر المتداخل « المعشق » المحلى بزخارف هندسية ، والمسافة المحصورة بين النوافذ

المستديرة والعقود الخارجية محلاة بزخارف نباتية جميلة ••• وسقفه الردهة التى تلى المدخل من الخشب ومحلى بزخارف مملوكية جميلة ملونة ذات أشكال نجمية وفى وســطها جزء مربع به دلايات صغيرة جميلــة الشكل • أما غرفة السبيل فهى آية من آيات الفن الاسلامى الجميل •• ».

٣٨ ــ يستعرض ستينلى لينپول فى كتابه المذكور آثار هذه المنطقة ثم يقول « وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على صحة هذه الأوهام التى هى أشبه شيء بالخرافات • أما شجرة الجميز فقد خلفت بطبيعــة الحال الشجرة المزعومة ، ولم تزرع الا بعد عام ١٦٧٢ •• » (ص ٦٣ من الترجمة العربية) • أما البلسان (= البلسم) فيتحدث عنه عبد اللطيف البغدادي فى رحلته « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ــ وكان عبد اللطيف البغــدادى قد زار مصر حوالى عام ١٢٠٠ ميلادية ــ فيقول : « ومن ذلك البلسان فانه لا يوجد اليوم الا بمصر بعين شمس فى موضع محاط عليه ، محتفظ به ، مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شــجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليــه قشران ، الأعلى أحمر خفيف ، والأسفل أخضر ثخين ، واذا مضغ ظهر فى الفم منه دهنية ورائحة عطرة ، وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تخدش السوق بعدما يحت عنهــا جميع ورقها ، وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها الى صناعة ، بحيث يقطع القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ الى الخشب ، فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء • فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه على العود ، فيجمعه باصبعه مسحا الى قرن ، فاذا امتلأ صبه فى قنانى زجاج ، ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه ويقطع لثاه •• ثم تؤخذ

القناني فتدفن الى القيظ وحمارة الحر ، وتخرج من الدفن وتجعل في الشمس ، ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائيــة وأثقال أرضية فيقطف الدهن .. فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه في الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه الى خزانة الملك ... الخ »

٣٩ ــ يذكر ستينلي لينپول في المرجع نفسه ص ٦٠ : « ومن المؤكد ان مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الاقل الى عهد يوسف الأخير وهو صــلاح الدين ، فقــد رأى بنيامين التودلي هــذه المخــازن في سنة ١١٧٠ م . »

٤٠ ــ المقصود قصر العيني . وكان الرحالة الأوروبيون يهتمون بوصف الدراويش وما يقومون به من أذكار وأشياء غريبة ، من ذلك ما جاء في الفصل ١١ من الكتاب الثالث في رحلة هانس ڤيلد التي أشرنا اليها من قبل .

٤١ ــ يسهب المقريزي في وصف الاحتفالات (الجزء الثاني من طبعة الشعب ص ٢٣٩ وما بعدها) وكأنها من عالم ألف ليلة وليلة ، نقتطف منها : « فأما ما يختص بالخليفة فبدلة ، شرحها : بدنه طميم منديل سلفة مائة وعشرون دينارا ، وأحد طرفيه ثلاثة عشر ذراعا ذهبا عراقيا دمجا لوحا واحدا ، والثاني ثلاثة أذرع سلفة أربعة وعشرون دينارا . ثوب طميم سلفه خمسون دينارا ، والذهب الذي في الثوب والمنديل والحنك ألف دينار وخمسة دنانير . فتكون جملتها بالسلف ألف دينار ومائة وخمسة وسبعين دينارا ... ونشرت قدامــه الأعلام الخاص الديبقي المحــاومة بالألوان المختلفة التي لا ترى الا قدامه لأنها من جملة تجمل الخليفة ،

وأطلق برسم المبيت من البخور والشموع والأغنام والحلاوات كثير ... وهيئت المقصورة فى منظرة السكرة برسم الخليفة وتغيير ثيابه ، وقد وقعت المبالغة فى تعليقها وفرشها وتعبيتها ، وقدم بين يديه الصوانى الذهب التى وقع التناهى فيها من همم الجهات : من أشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها ، المعمولة من الذهب والفضة والعنبر ، والمرسين المشدود والمظفور عليها ، المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ... ثم يقوم الخليفة عن السرير راكبا ، والوزير بين يديه ... فتفتح احدى طاقات المنظرة ويطل منها الخليفة على الخليج ... ويشير بالفتح فيفتح بأيدى عمال البساتين بالمعاول ، ويخدم بالطبل والبوق من البرين . فاذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت العشاريات اللطاف — ويقال لها السماويات — ... ثم العشاريات الخاص الكبار وهى ستة : الذهبى المذكور ، والفضى ، والأحمر ، والأصفر ، واللازوردى ، والصقلى ... وهذه العشاريات لا تخرج عن خاص الخليفة فى أيام النيل وتحوله الى اللؤلؤة للفرجة ... » أنظر كذلك صبح الأعشى جـ ٤ ، ص ٤٧ وما بعدها .

٤٢ — يرى كارستن نيبور أن نظام الديوان الذى كان قائمـا فى مصر قريب الشبه بالنظام الجمهورى ولهذا فهو يشير فى بعض المواضع الى الديوان بكلمة « الجمهورية » اختصارا . ولا يخفى اعجابه بهذا النظام الجمهورى واعتقاده بأن دول الغرب يمكن أن تفيد منه . ونحن نجد فى المجلد الثانى من كتاب لويس عوض « المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث » ، ص ٢٥ وما بعدها ، تنبيهات الى جذور الجمهورية والتمثيل البرلمانى ، ومنها ما أسماه رفاعة الطهطاوى « جمهورية التزامية »

تمثلت فى جمهورية همام بالصعيد (١٧٦٥ ـ ١٧٦٩) ـ ويتحدث لويس عوض عن الديوان فيقول : « لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الحكم الوطنى أو الحكم الاستشارى ، لا أقول النيابى ، الا الديوان وقد كان أعضاؤه من كبار رجـال الحامية ومن كبار رجال الادارة كلهم أتـراك ومماليك . » .

وفى كتاب « وصف مصر » تفصـيلات كثيرة عن الديوان ونظامة وأعضائه .

٤٣ ـ ذكر ستينلى لينپول عن عبد الرحمن كتخـدا (ص ٢٤٤ وما بعدهـا) : « الا أن أمير المصلحين على الاطـلاق كان عبد الرحمن كتخدا الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم قبل أن يعزل على بك ... الباشاوات الحاكمين ويجعل من نفسه ملكا على مصر من عـام ١٧٦٨ حتى عـام ١٧٧٢ . ولقد كان لوالد عبد الرحمن ـ عثمان كتخدا ـ ذوق هنـدسى له قيمته ، ولقد استغل الأموال التى كان يحصل عليها عن طريق سيء فى بناء مسجد ومدرسة وسبيل بركة الأزبكية ... الا ان ابنه ـ على الرغم من ذلك ـ فاقه بكثير ، فكل سائح لابد وأن يعرف ذلك السبيل الجميل الأنيق ـ كصاحبه الذى كان وسيما متأنقا فى ملبسه ـ فى نهاية « بين القصرين » .. الا ان هذا كان أقل أعماله طرا ، فقد بنى مسجدا خارج « باب الفتوح » وآخر بجوار « بيت الغريب » .. به سبيل ومدرسة . كذلك بنى صهريجا كبيرا للمياه ألحقه بسبيل ومدرسة للقربية ، وأصلح ضريحى السيدة زينب والسيدة سكينة ... ولعل أهم اصلاح قام به حقا هو اصلاح الجامع الأزهر الذى يدين له بالكثير مما يوجد به الآن ...

وأصلح مسـجد الامام الشافعى ، وضريح السيدة نفيسـة ، ومارستان قلاوون ••• وعلى الرغم من الطرق التى وصل بها الى الثروة ، وعلى الرغم من كل ما كان يشاع عنه ، فان أعمال هذا الرجل الخيرية لا حد لها • ففى وقت الشتاء كان يوزع الملابس الصوفية على العميان الذين كانوا يكثرون فى القاهرة ••• وكان الفقراء يتدافعون على بابه مساء كل يوم من أيام رمضان ينتظرون أطباق الطعام التى لا تتأخر ••• فاذا انتهوا من تناول الافطـار ، انصرفوا مسرورين فرحين وقد حمـل كل منهـم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء طعام السـحور ••• وقد توفى عبد الرحمن كتخدا فى عام ١٧٧٦ فى سن متقدمة بعد أن أمضى اثنتى عشرة سنة أسيرا فى بلاد العرب ••• الخ » •

٤٤ ــ تنبه الرحالة الأوروبيون فى وقت مبكر الى طريقة « تفريخ الفراريج » التى انتشرت فى مصر ، ووصفهـا على سبيل المثال أرنولـد فون هارف ، وظل الأوروبيون غير مصدقين حتى حمـل اليهم كارستن نيبـور وصفا تفصيليا لفرن التفريخ • ويدلنـا على أهمية معامل تفريخ الفراريج أن على مبارك يحرص فى خططه على ذكر عدد معامل التفريخ فى المدن والقرى المختلفة • وقد أفاض عبد اللطيف البغدادى فى وصف معامل التفريخ المصرية التى وجدها أعجوبة تختص بها مصر « فانه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاج » ويصورها على انها صناعة : « وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ، ويكتسب منها ، وتجد فى كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك • ويسمى الموضـع معمل الفروج ، وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التى يأتى ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا ، فى كل بيت ألفا بيضة ، ويسمى بيت الترقيد

••• الخ » ــ وفى كتاب « وصــف مصر » ، الجــزء الأول ، ص ٢٠٣ وما بعده دراسة جيدة عن هذه الأفران وكيف أن المصريين اشتهروا بها منذ أقدم العصور •

٤٥ ــ المقصود الوشم والحناء • أنظر فى موضوع الوشم : سوسن عامر « الوشم فى الفن الشعبى » مجلة عالم الفكر ، المجلد ٦ ، العدد ٤ انظر كذلك رحلة يوهان ڤيلد ص ٢٨٣ •

٤٦ ــ يقصد : لعبة التحطيب •

ومن اللافت للنظر أن كارستن نيبور لم يصف لعبة الكرة (الپولو) التى كانت معروفة فى مصر والتى كان الأمراء يحبون لعبها • ونحن نقرأ فى المجلد الرابع من صبح الأعشى ص ٤٧ عن السلطان وهيئته عندما يلعب الكرة بالميدان الأكبر ••• «ويصير الى الميدان فينزل فى قصوره ، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهم ، ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والأمراء معه ، ثم ينزل فيستريح ، ويستمر الأمــراء فى لعب الكرة الى أذان العصر ويركب على الهيئــة التى كان عليهــا فى أول النهار ويطلع الى قصره • » •

٤٧ ــ فى كتاب « وصف مصر » دراسة رائعة عن الموسيقى العربية فى مصر وآلاتها والأغنيــات التى كانت تتردد فى مصر فى نهايــة القرن الثامن عشر • والمعروف أن علماء الحملة الفرنسية استخدموا دراســات كارستن نيبور ورفيقه فورسكال وأشــاروا اليها فى مواضــع كثيرة • وبعض الدراسات فى كتاب « وصف مصر » توشك أن تكون تفصيلات لما سبق اليه كارستن نيبور • ويتضح هذا أيضا فى اللوحات التى سجل

فيها الرحالة الألمانى المناظر الجغرافية والآثار التاريخية والكتابات والآلات وأعمال الناس •

٤٨ ــ التقرير الذى نقرأه عن الفرقة المسرحيــة المصرية له قيمته بالنسبة للتاريخ للمسرح المصرى فى بداياته ، وبخاصــة بالنسبة للمسرح الارتجالى أو الكوميديا المصرية المرتجلة • ونحب أن نشير الى دراســة لفؤاد حسنين على بعنوان «قصصنا الشعبى المسرحى» فى كتابه « قصصنا الشعبى » القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٧٨ وما بعدها ، ونشير كذلك الى كتــاب الأستاذ أحمد رشــدى صــالح « فنون الأدب الشعبى » ، وكتــاب الدكتور حسين فوزى « سندباد فى رحلة الحياة » (الفصول الأولى عن الفنون الشعبية التى شاهدها فى مطلع حياته فى الأحياء الشعبية القاهرية) أنظر أيضا « المسرحية فى الأدب العربى » للدكتور محمد يوسف نجم ، و « فنون الكوميديا » للدكتور على الراعى ص ٢٣ حيث نجد تشــابها كبيرا بين التمثيليات التى يتحدث عنها الدكتور الراعى قائلا انها اقتبست من المقامة « البغدادية » للحريرى ، والتمثيلية التى شاهدها كارستن نيبور •

٤٩ ــ فى البيان الذى وجهه نابليون بونابرت الى المصريين بتاريخ ٢ يوليو ١٧٩٨ : « ••• أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضــا مسلمون مخلصــون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربــوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة المسلمين ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواليريه الذين كانوا يزعمــون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين • » ونقل دكتور لويس عوض عن الرافعى « تاريخ

للحركة القومية فى مصر» الجزء الأول ، ص٧٧ ، معلومات عن أسرى فرسان مالطة : « ... وكان بونابرت عند مروره بمالطة قد حرر نحو ٧٠٠ أسير من المسلمين الترك والعرب والمغاربة ، وهم من أسرى مالطـة ، ونقلهم على ظهر بارحته الى مصر ليستخدمهم فى توزيع منشوره فى مختلف أرجاء البلاد من ناحية ، وليظهر للمصريين أنه صديق الاسلام ومحرر المسلمين من قبضة المسيحيين (من ناحية أخرى) ، وفى الجبرتى أنه بعضهم كانوا من الجواسيس وأنهم كانوا ملمين باللغات ... » .

٥٠ ــ نقلنا النصوص بحرفها ولم نصلح منها شيئا . وفى الجزء الثانى من خطط المقريزى فصل عن جسور مصر به معلومات مفيدة عن تاريخ انشاء الجسور .

ويتحدث عبد الرحمن عبد التواب فى كتيبه « منشآتنا المائية عبر التاريخ » (المكتبة الثقافية ، العدد ٩٦ ص ٣٧ وما بعدها) عن القناطر على طريق الجيزة : « وبالقرب من مبدأ الطريق (= طريق الأهرام الحالى) ونهايته كانت توجد ترعتان تأخذان مياههما من النيل وعند هاتين النقطتين أنشأ قراقوش (القرن الثانى عشر الميلادى) عدة قناطر بعيون من الحجر ، وكان يطلق على هذا الطريق اسم الرصيف . وكانت القناطر مكونة من أربعين عينا . و كان لوفاة صلاح الدين (الأيوبى ١١٩٣ م) أثر كبير على ايقاف الأعمال الحربية الهائلة ومن ثم فقد طريق الجيزة شيئا من أهميته ، وبعد قراقوش حول السد ، وسدت العقود ، وسبب ذلك ضعف الدعائم واغراق الأراضى المجاورة . وفى عهد سلاطين المماليك أعيد التفكير فى الافادة من هذا الطريق كسد أو كطريق

للمواصلات أثناء فيضان النيل ، وقد قام باصلاحه كل من بيبرس الأول وبيبرس الثانى والناصر محمد بن قلاوون وقايتباى . — وقد شاهد قناطر الجيزة كثير من الرحالة فى القرن الثامن عشر منهم مابيه بعد سنة ١٧٠٠ ونوردن سنة ١٧٣٧ وپوكوك سنة ١٧٣٨ ونيبور سنة ١٧٦٢ وقد حدد لنا نوردن موقعها بمنتهى الدقة ، بينما ترك لنا نيبور النصوص الكتابية التى كانت منقوشة عليها . وتنحصر النقوش فى لوحة الناصر محمد بن قلاوون المؤرخة سنة ٧١٦هـ (١٣١٦ م) وهى على القنطرة المجاورة للهرم ، وفى لوحتى قايتباى سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٩ م) على القناطر الموجودة بجوار الهرم أيضا . أما النص المتعلق بالوزير حسين باشا والذى يرجع الى شهر ربيع الأول سنة ١٠٨٧ (مايو — يونية سنة ١٦٧٦ م) فكان موجودا على القناطر القريبة من الجيزة . » .

٥١ — مثل من أمثلة اعتدال كارستن نيبور ، فعلى الرغم من تعرض الجماعة للسرقة لم يشأ أن يبالغ فينسب الفعلة الى من لم يفعلوها .

المعروف أن مساحة قاعدة الهرم ١٣ فدانا ، وأن الارتفاع كان أصلا ١٤٦ م ثم تحطم منه جزء من القمة فأصبح الآن ١٣٧ مترا . والأحجار التى استخدمت فى البناء من نوع الحجر الجيرى ، وكان الهرم مكسوا بطبقة ملساء من الحجر الرملى جىء بها من محاجر طرة ، ثم زالت هذه الكسوة . وعلى الرغم من السراديب التى قصد بها تضليل اللصوص فقد وصلوا الى المخدع ، وخرجوا بالمومياء ، وبما كان فى الهرم من كنوز وتركوا التابوت الجرانيتى المشوه الذى لايزال موجودا الى اليوم .

ونحن نقرأ فى رحلة نيبور (وغيره) عن ضياع وتضييع الآثار

...

المصرية القـديمة ، ونقرأ عن ارسـاله المومياث الى أوروبا . ومن أدق الأخبار عن هذا التبـديد الذى يبرره الجهـل ، ما ذكره عبد اللطيف البغدادى فى رحلته حول عام ١٢٠٠ م : « وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار ، وتمنع العبث فيها والعبث بها ، وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب ، ومنها أن تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها ، وذكر أهلها ، ففى رؤيتها خبر الخبر ، وتصديق الأثر ... وأما فى زمننـا هـذا فترك الناس سدى ، وسرحوا هملا ، وفوضت اليهم شؤونهم فتحركوا بحسب أهوائهم ، وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم ... فهم يحسبون كل شىء مفطور فى جبـل أنه يفضى الى كنز ، وكل صنم عظيم انه حاصـل لمال تحت قدميـه ، فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ، ويبـالغون فى تهديمه ، ويفسدون صور الأصنام افساد من يرجو عندها المال ، ويخاف منها التلف ، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى انها صـناديق مقفلة على ذخائر ... ومما يقوى أطماعهم ، ويديم اصرارهم ، انهـم يجدون نواويس تحت الأرض ، فسيحة الأرجاء ، محـكمة البناء ، وفيها من موتى القدماء الجم الغفير ، والعدد الكثير ، فقد لفوا بأكفان من ثيـاب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع ... ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان ، فما وجد فيه تماسكا اتخذه ثيابا ، أو باعـه للوراقين يعملون منه ورق العطارين ... وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ... وربما وجد عنده شىء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آلته التى كان يزاول بها العمل فى حياته ...

وخبرني بعض قضاة بوصير ، وهي مجاورة لمدافنهم ، أنهم نبشوا ثلاثة قبور ، فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفي كل منها سبيكة من الذهب ، فجمع السبائك الثلاث فكان وزنها تسعة مثاقيل ... وأما ما يوجد في أجوافهم وأدمغتهم من الشيء الذي يسمونه موميا فكثير جدا يجلبه أهل الريف الى المدينة ويباع بالشيء النزر ، ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف، درهم مصرى ... الخ » (ص ٤٧ وما بعدها) .

٥٢ ــ كان للمواد التى جمعها كارستن نيبور فضلها فى فك رموز الكتابة المسمارية . ويدهش الانسان عندما يقرأ عن اهتمامه بالهيروغليفيات وايمانه بامكان استجلاء مكنونها ، وحرصه على جمع الشواهد الدقيقة التى يمكن للعلماء الاعتماد عليها وحرصه على استخراج مفردات الكتابة على قدر فهمه . كذلك نرى أن رأيه فى التوسل باللغة القبطية لحل رموز الهيروغليفية من القواعد الأساسية التى قام عليها فهم الهيروغليفية . (أنظر محمد صابر ، مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٢٩٢ وما بعدها) .

٥٣ ــ لعله يقصد القنطرة الجديدة التى نقرأ عنها فى خطط المقريزى (ص ٥٥٥ ، الجزء الثانى من طبعة الشعب) « هذه القنطرة على الخليج الكبير ، يتوصل اليها من زقاق الكحل وخط جامع الظاهر ، ويتوصل منها الى أرض الطبالة والى منية الشيرج وغير ذلك . أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٥هـ عندما انتهى حفر الخليج الناصرى . » (٧٢٥ = ١٣٣٤/١٣٣٥ م) ــ ومكان هذه القناطر ملتقى شارع الظاهر بشارع بورسعيد حاليا .

٥٤ ــ يكتب كارستن نيبور « جبل المكتب » بتشديد التاء ويترجمها بجبل المكاتيب ، والواضح انه كان يبحث عن جبل عليه نقوش من عهد موسى تفيد شراح التوراة .

٥٥ ــ القيروانة فى لغة كارستن نيبــور = القافلة الكبيرة ــ وهو لا يستخدم كلمة القافلة الا للدلالة على العدد القليل من المســافرين ، وليس من شك فى انه وجد الناس فى المناطق التى نزلها تستخدم اللفظين بهذا المعنى . وكلمة قيروانة وكذلك قيروانسراى تأتى فى كتاب « وصف مصر » ، المجلد الأول ، ص ٣٣ ، من الألفاظ الشائعة فى ذلك العصر .

٥٦ ــ نلاحظ على كارستن نيبور تمسكه بقوميته ودينه وبخاصة مذهبه البروتستنتى ويدفعه هذا التمسك أحيانا الى تصرفــات وتعبيرات لا تتفق تماما مع طبيعته المتزنة . فهو مثلا لا يحتمل رؤية المسرحية التى يتعرض فيها الأوروبيون للاهانة على يد الاعرابية المحتالة ، وهو يصف تحول المترجم اليونانى الى الاسلام بسوء السلوك .

٥٧ ــ يذكر ابن خرداذبة ان الطريق من مصر الى مكة تمر « من الفســـطاط الى الجب ، ثم الى البــويب ثم الى منــزل ابن بنـــدقة ثم الى عجرود ثم الى الذنبــة ثم الى الكرسى ثم الى الحفر ثم الى منزل ثم الى أيلــة ثم الى حقل ، ثم الى مــدين ... الخ » ص ١٣٩ . ــ و « الجب » هو بركة الحج . ويتحدث على مبارك فى خططه عن بركة « الحاج » فيقول : قرية موضوعة فى الشمال الشرقى للقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفى غربى ترعة الاسماعيلية بنحو ستة آلاف متر ، وفى جنوبى

الخانقاه كذلك ، وفى شرقى قرية المرج بنحو ثلاثة آلاف متر ، ويقال لهـا بركة الجب » ويقدم على مبارك على صفحات عديدة تفصيلات كثيرة عن هذا المكان وعن تاريخه وعن قافلة الحج وغير ذلك .

و جاء فى كتـاب « وصـف مصر » تقرير عن رحلـة بونابرت فى ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ الى السويس اشتمل على بيانـات عن الطريق التى سلكها من بركة الحج الى درب السلطانى أو درب الحج ، وسجل الكاتب فى هامش ص ٣٢ من المجلد الأول أن درب الجيزة كان الى الشمال ... وأن هناك طرقا الى الشرق توصل الى السويس على نحـو أفضل وهى درب الترلين ودرب الفرن ، وأن هذين الدربين معروفان للعرب الذين يحتلون هذه الصحارى مستقلين عن وادى الطواريق . ــ أما الموضع الذى يسميه كارستن نيبور الفرنباد فلم أعثر على بيانـات عنه ، ولعل له صلة بدرب الفرن المشار اليه .

٥٨ ــ جاء « اللصف » فى تاج العروس : « ... وهو ثمرة حشيشة له عصارة يصطبغ بها يمرىء الطعام ، وقال أبو زياد من الأغلاث اللصف وهو الذى يسميه أهل العراق الكبر ، يعظم شجره ويتسـع ومنبتـه القيعان وأسافل الجبال ، أو هو أذن الأرنب ، ورقه كورق لسان الحمل ، وأدق وأحسن زهره أزرق فيه بياض ، وله أصل ذو شعب اذا قلع وحك به الوجه حمره وحسـنه ، وقال الجوهرى هو شىء ينبت فى أصـول الكبر كأنه خيار ، قال الأزهرى هذا هو الصحيح ... » (معجم أسماء النباتات ص ١٣٩) .

٥٩ ــ كتب كارستن نيبور اسم القبيلة بحروف لاتينيه هـكذا

Leghat وأقرب ما وجدته من الاحتمالات هو « قبيلة الأغواط » التى حدثنى عنها مشكورا الأستاذ الجيولوجى محمد عبد التواب ، والكلمة قريبة فى كتابتها الى لفظة « اللجاه Legiāh » التى وردت فى « وصف مصر » المجلد الثانى ، القسم الأول ، ص ٢٢٦ ، على انها منطقة يسكنها عرب العنزة وعرب الدماجة قرب الشام • وأحب أن أشكر الأستاذ عبد التواب على المعلومات الجغرافية الكثيرة المفيدة التى أمدنى بها والمعونة العلمية التى أغدقها على •

٦٠ ـ نشر هانس ارنست مجموعة من وثائق دير سانت كاترينا عبارة عن مراسيم مملوكية بحماية الرهبان من الأذى والمعاكسة • نشير من بينها الى الوثيقة العاشرة على سبيل المثال وهى صادرة من السلطان قلاوون الى « المتصرفين بالأعمال الشرقية وأيلة والقلزم وساحل الطور ومقطعى الساحل وفاران ••• نعلمهم ان الرهبان المقيمين بدير طور سيناء انهوا بالأبواب الشريفة أنهم منقطعون بالجبل المذكور للدعاء للدولة العامرة وخدمة الحجاج المنقطعين عند عودتهم من الحجاز الشريف والزوار الى جبل الطور من المسلمين ، وقد انتصب لهم قوم يعرفون بالصدريين يعتدون ••• وينهبون ••• وقد رسمنا بالوصية التامة بهم ورعايتهم والشد منهم ومنع من يتعرض اليهم بأذية فى نخلهم وكرومهم وزروعهم وأسبابهم وغلالهم وتعلقاتهم وأحوالهم وبساتينهم وثمارهم وأراضيهم ••• ولا يتعرض اليهم أحد بأذية من الصدريين والرماكين وغيرهم من العربان ••• » الخ • ص ٤٩ وما بعدها •

٦١ ـ يستخدم كارستن نيبور عبارة « الخليج العربى » اشارة

الى خليج السويس . أما أيلة فتحمل حاليا اسم ايلات ، وتذكرها المراجع القديمة من بين بلاد مصر ، انظر ابن خرداذبة « المسالك والممالك » ص٨١ تحت عنوان « كور مصر » : « القلزم والطور وأيلة ... » .

وكذلك ص ٨٣ « ... وطول مصر من الشجرتين اللتين بين رفح والعريش الى أسوان وعرضها من برقة الى أيلـة ، فهى مسيرة أربعين ليلة فى أربعين ليلة » .

وجاء فى « وصف مصر » المجلد الأول ص ١٠١ ما معنـاه « الخليج العربى » الذى يعرفه الأوروبيون عامة باسم « البحر الأحمر » ــ كذلك جاء أن العرب كانوا يطلقون على البحر الأحمر أسماء متعددة بحسـب المنطقة : بحر القلزم ــ بحر السويس ــ بحر الكعبـة ــ بحر ينبع ــ بحر جدة ــ بحر مكة ــ بحر اليمن ــ بحر القصير .

Le golfe Arabique, sinus Arabicus

٦٢ ــ القامة مقياس العمق = ٦ (ستة) أقدام .

مراجع المقدمة والتعليقات

المراجع العربية :

١ ــ المسالك والممالك لابن خرداذبة ، طبعة بريل عام ١٨٨٩ .

٢ ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزى) ، طبعة الشعب .

٣ ــ الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، لعبد اللطيف البغدادى ، مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة ، ب ت ، تحت عنوان « عبد اللطيف البغدادى فى مصر » .

٤ ــ تقويم النيل وعصر محمد على باشا ، لأمين سامى باشا ، القاهرة ١٩٢٨ .

٥ ــ الخطط الجديدة التوفيقية ، لعلى مبارك ، القاهرة ١٣٠٤هـ ، و ٣ أجزاء من الطبعة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٠ .

٦ ــ القاموس الجغرافى ، لمحمد رمزى ، القاهرة ١٩٥٣ وما بعدها .

٧ ــ بدائع الزهور لابن اياس ، القاهرة ١٨٩٦ ــ ١٨٩٨ .

٨ ــ صبح الأعشى للقلقشندى ، طبعة دار الكتب .

٩ ــ عجائب الآثار للجبرتى ، القاهرة ١٩٠٤ .

١٠ ــ رحلة ابن جبير ، القاهرة ١٩٥٥ .

١١ ــ أحاديث تاريخية ، بنت بطوطة ، دمنهور ، ب ت .

١٢ ــ مصر تحت ظلال الفراعنة ، محمد صابر ، القاهرة ، ب ت .

١٣ ــ تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ابن بطوطة ، القاهرة ١٩٣٩ .

١٤ ــ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، طبعة دار الكتب .

١٥ ــ معجم أسماء النبات الواردة فى تاج العروس ، محمد مصطفى الدمياطى ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٦ ــ المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، لويس عوض ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٧ ــ فنون الاسلام ، زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٨ ــ سندباد مصرى ، دكتور حسين فوزى ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٩ ــ سيرة القاهرة ، ستانلى لينپول ، ترجمة دكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥٠ .

٢٠ ــ قصصنا الشعبى ، دكتور فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٤٧ .

٢١ ــ التاريخ العربى القديم ، ديتلف نيلسن وآخرين ، ترجمة دكتور فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٢ ـ شمس الله على الغرب ، زيجريد هونكه ، ترجمة فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢٣ ـ أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ، جيورج ياكوب ، ترجمة دكتور فؤاد حسنين على ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢٤ ـ خيال الظل ، دكتور عبد الحميد يونس ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٥ ـ القاهرة وأحياؤها القديمة ، دكتورة سعاد ماهر ، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٦ ـ منشآتنا المائية عبر التاريخ ، عبد الرحمن عبد التواب ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٧ ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها ، دكتور عبد الرحمن فهمى محمد ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢٨ ـ مصر فى العصور الوسطى ، عبد الرحمن الرافعى وسعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٠ .

٢٩ ـ تاريخ مصر من فجر التاريخ حتى انشاء مدينة الاسكندرية ، الكسندر شاف ، ترجمة دكتور عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ب ت .

٣٠ ـ أعجب الرحلات ، أنيس منصور ، القاهرة ١٩٧٥ .

٣١ ـ الفنون الشعبية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الرابع ، الكويت ١٩٧٦ .

٣٢ ـ معالم من فنوننا الشعبية ، سعد الخادم ، القاهرة ١٩٦١ .

٣٣ ـ اليمن ـ البلاد السعيدة ، دكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ب ت .

٣٤ ـ ألمانيا والعالم العربى ، دكتور مصطفى ماهر ، بيروت ١٩٧٤ .

٣٥ ـ المسلمون فى أوروبا ، دكتور ابراهيم على طرخان ، القاهرة ١٩٦٦ .

٣٦ ـ الحضارة الاسلامية ، جلال مظهر ، القاهرة ١٩٦٩ .

٣٧ ـ جامع السلطان حسن وما حوله ، حسن عبد الوهاب ، القاهرة ١٩٦٢ .

٣٨ ـ علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى ، كرلونلينو ، روما ١٩١١ .

٣٩ ـ تراث العرب العلمى ... ، قدرى حافظ طوقان ، القاهرة ١٩٦٣ .

٤٠ ـ أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوروبية ، القاهرة ١٩٧٠ . (اليونسكو) .

٤١ ـ قصص جوب الأقطار وكشفها ، محمد عوض ابراهيم ، القاهرة ب ت .

٤٢ ـ رحلات بوركهارت ... ، جون لويس بوركهارت ، ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٩ (؟) .

٤٣ ــ معجم البلدان ، الحموى ، طبعة بيروت دار صادر •

٤٤ ــ قاموس الادارة والقضاء ، ٤ أجزاء ، فيليب جلاد ، الاسكندرية ١٨٩٠ ــ ١٨٩٢ •

٤٥ ــ فنون الكوميديا ، الدكتور على الراعى ، القاهرة ١٩٧١ •

٤٦ ــ المستشرقون ، ٣ أجزاء ، نجيب عقيقى ، القاهرة ١٩٦٤ وما بعدها •

٤٧ ــ الملابس المملوكية ، تأليف ل•أ• ماير ترجمة صالح الشيتى ، القاهرة ١٩٧٢ •

٤٨ ــ الأدب الجغرافى العربى ، أ • كراتشوفسكى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ١٩٦٣ •

٤٩ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، طبعة الشعب •

٥٠ ــ العلم عند العرب ، ألدو ميلى ، القاهرة ١٩٦٢ •

٥١ ــ حديث السندباد القديم ، الدكتور حسين فوزى ، القاهرة ١٩٤٣ •

٥٢ ــ جهود المسلمين فى الجغرافيا ، نفيس أحمد ، ترجمة فتحى عثمان ، القاهرة ب ت •

٥٣ ــ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، الدكتور زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٥ •

٥٤ ــ الرحلات ، الدكتور شوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥٦ •

٥٥ ــ العمارة الاسلامية فى مصر ، دكتور كمال الدين سامح ، القاهرة ب ت ، الألف كتاب رقم ٢٥٣

قائمة المراجع الأجنبية :

1. Barthold Georg Niebuhr : Briefe und Schriften, Deutsche Bibliothek in Berlin, (hrsg. Ludwig Lorenz) o.J., S. 227 ff. Carsten Niebuhrs Leben.

2. Carsten Niebuhr : Reisebeschreibung nach Arabien und den umliegenden Lädern, Akademische Druck- u. Verlagsanstalt Graz — Austria 1968, Bd. I — III, Vorwort von Dietmar Henze.

3. Carsten Niebuhr : Entdeckungen im Orient, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel 1973.

4. Description de l'Arabie, Copenhague 1773, Nouvelle Edition, Tome 1-2, Paris 1779.

5. Carsten Niebuhr : Beschreibung von Arabien, Kopenhagen 1772.

6. Hans-Rudolf Singer : Deutsche Forschungsreisende in arabischen Lädern
in : Araber und Deutsche, Hrsg. Friedrich H. Kochwasser und Hans R. Roemer, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel 1974, S. 217 ff.

7. Thorkild Hansen : Reise nach Arabien. Die Geschichte der Königlich Dänischen Jemen-Expedition 1761-1767, Hamburg. 1956.

8. Johann Wild : Reysbeschreibung eines Gefangenen Christen Anno 1604 Steingrüben Verlag Stuttgart, 1964.

9. Marco Polo : Von Venedig nach China, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel, 1973.

10. Ibn Battuta : Reisen ans Ende der Welt 1325 — 1353, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel, 1974.

11. Johann Fück : Die Arabischen Studien in Europa, Otto Harrassowitz, Leipzig, 1955.

12. Hans Ernst : Die mamlukischen Sultansurkunden des Sinai-Klosters, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1960.

13. Reinhold Röhricht : Deutsche Pilgerreisen nach dem Heiligen Land, Gotha 1889.

14. E. Amelineau : Géographie de l'Epoque Copte, Paris, 1893.

15. John Ball : Egypt in the Classical Geographers, Cairo, 1942.

16. Henri Gauthier : Dictionnaire des Noms Géographiques dans les Textes Hiérogliphiques, Le Caire, 1925.

17. Les Noms d'Egypte depuis Hérodote jusqu'à la Conquête Arabe, Le Caire, 1935.

18. Description de l'Egypte, Paris 1809-1817.

19. Vansleb : Journal d'un voyage fait en Egypte, Paris, 1698.

20. Dietrich Brandenburg : Islamische Baukunst in Aegypten, Berlin 1966.

21. Die Türkei, Hrsg. Werner Kündig-Steiner, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel, 1975.

22. Thomas W. Kramer : Deutsch-ägyptische Beziehungen in Vergangenheit und Gegenwart, Horst Erdmann Verlag, Tübingen und Basel, 1974.

23. Siegfried Morenz : Die Begegnung Europas mit Aegypten, Akademie-Verlag, Berlin 1968.

24. Wilhelm Barthold : Die geographische und historische Erforschung des Orients, Leipzig, 1913.

25. Arnold von Harff : Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff, hrsg. von E. von Groote, Köln, 1860.

26. H. Meissner und R. Röhricht : Deutsche Pilgerreisen nach dem Heiligen Lande, Innsbruck 1900.

27. Carl Ritter : Die Erdkunde im Verhältnis zur Natur und zur Geschichte des Menschen oder allgemeine vergleichende Geographie, Berlin 1822-1859.

محتويات الكتاب

	صفحة
مقدمة المترجم	٥
المؤلف	١٢
الجزء الأول رحلة الى مصر	٣١
محتويات المجلد الأول	٣٥
مقدمة المؤلف	٣٩
الرحلة من كوبنهاجن الى القسطنطينية	٤٦
ملاحظات على القسطنطينية	٧٥
الرحلة من القسطنطينية الى الاسكندرية	٩٥
ملاحظات على الاسكندرية	١٠٧
الرحلة من الاسكندرية الى القاهرة	١٢٣
الرحلة الى دمياط .. ثم العودة الى القاهرة	١٣٣
ملاحظات على الرحلة من رشيد الى القاهرة ومن القاهرة الى دمياط على اللوحة العاشرة	١٤٩
اسماء القرى والمدن من القاهرة الى الاسكندرية	١٧٤
اسماء القرى والمدن من الاسكندرية الى رشيد	١٧٦
اسماء القرى والمدن من رشيد الى القاهرة	١٧٧
مواقع بعض المدن القديمة فى مصر	١٨١
وصف مدن القاهرة وبولاق ومصر العتيقة والجيزة	١٩٩
اسماء القناطر التى تخترق القاهرة	٢٠٩
اسماء الأبواب فى القاهرة	٢١٠
السكان . نظام الحكم . التجارة فى مدينة القاهرة	٢٤١
الآلات المائية والمطاحن ومعاصر الزيوت وآلات الفلاحة وافران النشادر وافران تفريخ الكتاكيت فى مصر	٢٦٧
أزياء الشرقيين	٢٨٤
العاب وتسالى الشرقيين فى ساعات الفراغ	٣٠٣
الآثار فى مصر	٣٣٧
الرحلة من القاهرة الى السويس وجبل سيناء	٣٦٥
الرحلة من السويس الى جدة	٤٢٧
ملاحظات وتعليقات	٤٤٢
مراجع المقدمة والتعليقات	
قائمة المراجع العربية	٤٨٧
قائمة المراجع الأجنبية	٤٩٢

اللـوحات

اللوحات المنشورة فى هذه الترجمة هى مجموعة اختارها الناشر من بين اللوحات الأصلية التى يضمها المجلد الأول . ولما كانت هذه اللوحات جميعا كبيرة الأهمية فسوف نستدرك النقص وننشرها باذن الله فى الجزء الثانى من الترجمة . وارقام اللوحات المشار اليها فى متن الكتاب هى أرقام اللوحات الأصلية . وحتى يسهل على القارىء معرفة اللوحة المقصودة أعددنا القائمتين التاليتين بالأرقام الأصلية وما يقابلها فى ترقيم اللوحات المنشورة :

أرقام اللوحات المنشورة
وما يقابلها فى الأصل

لوحة ١ تقابل لوحة ٧١ فى الاصل الألمانى
٢ تقابل لوحة ١٣
٣ تقابل لوحة ٢٤
٤ تقابل لوحة ٢٧
٥ تقابل لوحة ٢٨
٦ تقابل لوحة ٦
٧ تقابل لوحة ٥٠
٨ تقابل لوحة ١٩
٩ تقابل لوحة ٢٠
١٠ تقابل لوحة ٢١
١١ تقابل لوحة ٢٢
١٢ تقابل لوحة ٢٣
١٣ تقابل لوحة ٨
١٤ تقابل لوحة ٣٩

أرقام لوحات الأصل
وما يقابلها فى اللوحات المنشورة
**** = لم تنشر**

لوحة (١ — ٢ — ٣ — ٤ **)
٥ تقابل ٢٧ فى هذه الترجمة العربية
٦ تقابل ٦
(٧ **)
٨ تقابل ١٣
(٩ — ١٠ **)
١٠ تقابل ٢١
١١ تقابل ١٧
١٢ تقابل ١٦
١٣ تقابل ٢
(١٤ — ١٥ — ١٦ — ١٧ **)
١٨ تقابل ١٦
١٩ تقابل ٨
٢٠ تقابل ٩
٢١ تقابل ١٠
٢٢ تقابل ١١
٢٣ تقابل ١٢
٢٤ تقابل ٣
(٢٥ — ٢٦ **)
٢٧ تقابل ٤

١٥ تقابل لوحة ٣٩
١٦ تقابل لوحة ١٨
١٧ تقابل لوحة ١١
١٨ تقابل لوحة ٦٤
١٩ تقابل لوحة ٣٠
٢٠ تقابل لوحة ٤٧
٢١ تقابل لوحة ٤٢
٢٢ تقابل لوحة ٥١
٢٣ تقابل لوحة ٤٨
٢٤ تقابل لوحة
٢٥ تقابل لوحة ٤٣
٢٦ تقابل لوحة ٤٣
٢٧ تقابل لوحة ٥
٢٨ تقابل لوحة ٥٩

٢٨ تقابل ٥
٢٩ تقابل ١٤
٣٠ تقابل ١٩
(٣١ — ٣٢ — ٣٣ — ٤
٣٦ — ٣٧ — ٣٨ ❋❋)
٣٩ تقابل ١٥
(٤٠ — ٤١ ❋❋)
٤٢ تقابل ٢١
٤٣ تقابل ٢٥ و ٢٦
(٤٤ — ٤٥ — ٤٦ ❋
٤٧ تقابل ٢٠
٤٨ تقابل ٢٣
(٤٩ ❋❋)
٥٠ تقابل ٧
٥١ تقابل ٢٢
(٥٢ — ٥٣ — ٥٤ — ٥٥ — ٥٦ —
٥٧ — ٥٨ ❋❋)
٥٩ تقابل ٢٨
(٦٠ — ٦١ — ٦٢ — ٦٣ ❋❋)
٦٤ تقابل١٨
(٦٥ — ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ —
٧٠ ❋❋)
٧١ تقابل ١

من ٠
اللو
الله
متن ال
معرفة :

Dar KITABI, Publishers
14 (26 July St.) Cairo

HORST ERDMANN Verlag
Tübingen und Basel

رقم الايداع بدار الكتب ٤٣٤٣ سنة ١٩٧٧

المطبعة العالمية ٣٧٦ ش الشيخ ريحان

هذا الكتاب النادر..

فى يناير من عام ١٧٦١ خرجت بعثة علمية من ميناء كوبنهاجن هدفها البلاد العربية السعيدة أو اليمن .. كان صاحب الفكرة هو المستشرق الالمانى ميشائيليس الذى دعا الى ضرورة تصحيح معلومات الغرب عن الشرق عن طريق بعثات كشفية تذهب اليه وتستعين بالمناهج والوسائل العلمية « الحديثة » فى جمع المعلومات ميدانيا ، ورسم الخرائط ، وشراء المخطوطات ، وجمع العينات النباتية والحيوانية ، والتعرف على أحوال السكان ، وكشف آثار العصور البائدة .. وكان الممول هو البلاط الدنمركى .. أما أبرز أعضاء البعثة فهو الالمانى كارستن نيبور .

وقد اضطرت البعثة الى البقاء فى مصر عاما كاملا ، استغله كارستن نيبور فى رسم أول خريطة دقيقة للدلتا ، ونسخ عدد كبير من النصوص الهيروغليفية وتبويب « حروف » اللغة المصرية القديمة تمهيدا لكشف غموضها ، وتصوير حياة المصريين من كافة نواحيها .. فهو يتحدث عن نظام الحكم والنزاع بين الاتراك والمماليك ، ويصف أحوال التجارة الداخلية والخارجية ، ويرسم صورا للمدن المصرية المختلفة ، وبخاصة القاهرة والاسكندرية ، ويجمع نماذج من ملابس الناس وأغطية رءوسهم ، ويصف عاداتهم وألعابهم ووسائل التسلية التى يقضون بها أوقاتهم ، ويتتبعهم فى أعمالهم وحرفهم ، وفى ممارستهم للموسيقى والغناء ، وفى مسرحهم الشعبى وحفلات الزواج ، والمواكب .. لم يترك كارستن نيبور شيئا الا وصفه أو رسمه حتى الشحاذين والحواة والقرداتية !

وهكذا جاء سجل رحلته جامعا ، يسعد العالم المدقق بقراءته لانه يثق فى دقة صاحبه وحياده العلمى ، ويجد فيه القارىء العادى متعة المغامرات والعجائب والطرائف .. انه نافذة نطل من خلالها على الماضى ، ومنا نرى الماضى على حقيقته حتى نفهم الحاضر فهما أفضل .

ويشتمل هذا المجلد على الجزء الاول من الرحلة ، حتى رحيل البعثة من مصر .. وتتناول الاجزاء الباقية — التى نرجو أن نصدرها تباعا — اليمن وايران والهند والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان .

